تاريخ الأندلس

من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة

وديع أبو زيدون



تاريخ الأندلس

من الفتح الإسلامي

حتى سقوط الخلافة في قرطبة

وديع أبو زيدون





الأهلية للنشر والتوزيع

e-mail : alahlia@nets.jo

المملكة الأردنية الهاشميّة - عمان - وسط البلد - خلف مطعم القدس

هاتف 4638688 فاكس 4657445

ص. ب 7772 عمان - الأردن

لبنان - بيروت - بئر حسن - شارع السفارات

هاتف 01/824203 - مقسم 19

تاريخ الأندلس

من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة

وديع أبو زيدون

الطبعة العربية الأولى - 2005

الصف الضوئي

ايمان خطاب

079 5 349 156

تصميم الغلاف

النسيم للتصميم

06 461 26 76

تنفيذ وطباعة [illegible] بيروت . لبنان . [illegible]

موضوعات الكتاب

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

مقدمـة

يُعد التاريخ الإسلامي في الأندلس من الحقول الخصبة التي شغلت المؤرخين والباحثين قديماً وحديثاً. لما يمثله هذا التاريخ من ثمرة لتلاقح الحضارات، ونقطة التقاء المشرق بالمغرب. ولقد كان لهذا المشهد أكثر من وجهة نظر في قراءة وفهم الأحداث التاريخية التي امتدت من بدايات الفتح الإسلامي لإسبانيا وحتى سقوط الخلافة الأموية في قرطبة – وهي الفترة الزمنية التي بحثناها في كتابنا هذا.

لقد آثرنا أن ندخل إلى هذا الحقل الخصيب بمنهج قوامه أن التاريخ واقعة نصيّة تخضع للتفسير والتأويل وفقاً لمجموعة من القوانين والعوامل التاريخية والواقعية، لا أثر للمسار الغيبي في حدوثها ونضوجها وسقوطها.

فالتاريخ ظاهرة بشرية، تخضع لقوانين أدوار استحالتها الخاصة في النشوء والارتقاء والانهيار. ومن هذا الفهم انطلقنا لقراءة التاريخ الإسلامي في الأندلس، ولم نضع في حساباتنا الانتصار إلى عامل واحد حاسم في صياغة التاريخ، وإنما نظرنا إلى مجموعة العوامل والمؤثرات الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية الفاعلة في تحريك مسار الأحداث بشمولية كلية. مع الأخذ بنظر الاعتبار غلبة عامل على آخر في ظروف معينة حتّمتها الظروف الذاتية والموضوعية لإنضاج هذا العامل ليكون متقدماً في أهميته لصياغة أحداث مرحلة ما.

لم ندخل لدراسة هذه الحقبة التاريخية المهمة بمنطق البراءة والدهشة التي وفرتها الكثير من المصادر التاريخية المعاصرة والتي انساقت إلى دور الخيال المؤدي إلى صناعة

الخرافات ودورها الحاسم في تفسير التاريخ. لقد كان الشك دليلنا في تناول كل حلقة من حلقات التاريخ موضوع دراستنا، لذا فقد اطّلعنا على الكثير من المصادر التاريخية والمعاصرة، ولم يدهشنا اسم هذا المؤلف المشهور أو ذاك، ولا الإجماع المسبق على استنتاج معين بخصوص حادثة ما في التاريخ.

ليس حباً في الاختلاف فقط – رغم مشروعيته – ولكن لإعطاء الواقعة التاريخية حقها الكامل وبشفافية تضمن لجميع العوامل والظروف الدخول إلى قاعة المحكمة. لأن غياب أي مؤثر سيجعل التاريخ يُظلم مرتين، مرّة عندما يكتبه الغالب وأخرى عندما يكتبه المغلوب كما يقال حقاً.

ورأينا أن نتجنب الوقوع في مستنقع أحادية الفروض والبراهين والقناعات المسبقة في دراسة أية ظاهرة أو حدث في موضوع دراستنا. كما سعينا للاستفادة الواعية من معطيات مناهج الدرس التاريخي المختلفة.

وإزاء الكم الهائل من المراجع والمصادر والدراسات والبحوث القديمة والمعاصرة، بذلنا الجهد الوفير لرصد المعلومة من مختلف المصادر وتبويبها للوصول إلى استنتاج مناسب حول كل حدث تاريخي موضوع دراستنا.

وكان من أهم ما خططنا له الخروج بدراسة موضوعية وجادة تستثمر كل الإمكانيات المتاحة بما فيها الحواشي والإشارات الدقيقة في بعض المصادر الموثوقة لدينا، وقراءة ما بين السطور في البعض الآخر سعياً لإكمال بعض الثغرات في الصورة الكلية للوقائع التاريخية.

ومن أجل استكمال هدف دراستنا الموضوعي والجاد، تجنبنا الانسياق وراء العاطفة والحماسة الزائدة والتي كانت فخاخاً وقع فيها بعض الباحثين في ملاحقة الأحداث، مكتفين بما قُدّم إليهم من روايات في متون ومراجع التاريخ اللامعة والأثيرة لديهم.

وإذا جاز لنا أن نقتبس من رجال علم الحديث مصطلح (الخبر الضعيف). فإننا سعينا إلى هذا الخبر بنهم شديد لقناعتنا أن الخبر الضعيف في مصداقيته يشكل لدينا المجسّ الأول لفحص الظاهرة أحياناً، ودون الاعتماد الكلي على الأخبار المتفق عليها مسبقاً. لأننا رأينا العجب والعجاب في اختلاف المصادر التاريخية حول مختلف الأحداث وصل الحال بهذه المصادر إلى الاختلاف الشديد في تحديد زمن حملة عسكرية إسلامية بل إنها اختلفت في قائد هذه الحملة والكثير من التفاصيل التي ستؤثر قطعاً على الاستنتاج العام.

على وفق تصورنا في قراءة أحداث التاريخ الإسلامي في الأندلس قمنا بتقسيم الكتاب إلى ثمانية فصول، بحثنا في الفصل الأول لمحة عن تاريخ إسبانيا القديم والأقوام التي توالت على الحكم، ثم تطرقنا إلى أحوال المجتمع الإسباني قبل الفتح الإسلامي، ومررنا على الأصل اللغوي لإسبانيا والأندلس وختمنا الفصل بلمحة عن جغرافية إسبانيا. ولم يكن بالإمكان القفز على التاريخ المغربي لأنه يشكل حلقة مؤثرة في فتح إسبانيا، فقد جاء الفصل الثاني للإشارة إلى الطبيعة الجغرافية والبشرية للمغرب، ولمحة عن تاريخ المغرب ومراحل الفتوحات العربية للمغرب منذ البداية الأولى وحتى عهد موسى بن نصير. أما الفصل الثالث فقد بحثنا فيه فتح إسبانيا وأسبابه مروراً بمرحلة الاستكشاف وحملة طارق بن زياد إلى فتوحات عبدالعزيز بن موسى بن نصير. وجاء الفصل الرابع للحديث عن عصر الولاة وبكل تفاصيله. وخصصنا الفصل الخامس للحديث عن عصر الإمارة الأموية، بعد سقوط الدولة الأموية في الشرق، ووصول عبدالرحمن الداخل إلى قرطبة واعتلائه عرش الإمارة وحتى أمراء قرطبة من بعده. في حين غطى الفصل السادس فترة الخلافة الأموية في الأندلس بتفاصيلها منذ إعلان عبدالرحمن الثالث خلافته لقرطبة وحتى خلافة الحكم الثاني - المستنصر بالله. وكان الفصل السابع وهو من أطول الفصول حيث غطّى الأحداث التي بدأت في خلافة هشام الثاني وأُفول الخلافة، إلى عهد هشام بن محمد المعتد بالله ونهاية الخلافة الأموية في قرطبة.

وجاء الفصل الثامن والأخير للبحث في أسباب سقوط الخلافة الأموية في قرطبة، كما رأينا أن نختم الكتاب بالحديث عن المعالم الحضارية في الأندلس. بشقّيها: العمران الديني والذي تضمّن المساجد والعمران المدني الذي اشتمل على القصور والأسوار والحصون والقناطر والجسور والحمامات.

وديع شامخ
أبو زيدون
عمان – 8/ 2004

الفصل الأول

- إسـبانيا في التاريخ القديم
- القبائل الجرمانية وبداية العهد القوطي
- الدولة القوطية بعد اعتزال الملك (وامبا)
- دولة القوط تحت حكم غيطشة، 700 م
- الملك لذريق ونهاية حكم القوط في إسبانيا
- أحوال المجتمع الإسباني قبل الفتح الإسلامي
- الأصل اللغوي لإسـبانيا والأندلـس
- لمحة عن جغرافية إسـبانيا

الفصل الأول

إسبانيا في التاريخ القديم

يشكل الآيبيريون الذين هاجروا من أفريقيا، والكلت والأقوام الهندو - أوربية الذين عبروا جبال البرت[1] - (والتي تعرف عند بعض الباحثين خطأ بجبال البرانس) - أساس سكان شبه الجزيرة الآيبيرية. لقد شهدت شبه الجزيرة عبر تاريخها القديم سلسلة من الهجرات والغزوات الأجنبية وذلك لما تتمتع به هذه البلاد من الثروات المعدنية والإنتاج الزراعي الوفير، إضافة إلى تجارته المزدهرة. فقد أسس الفينيقيون في القرن العاشر ق. م. عدة مستعمرات على السواحل الشرقية والجنوبية لشبه الجزيرة، كما أنشأ الإغريق بعض المراكز الاستعمارية في شبه الجزيرة وأطلقوا على سواحلها اسم أيبيريا، الذي يسميه عبد المنعم الحميري في (الروض المعطار في خبر الأقطار) باسم إباريه[2]. ثم ما لبث اسم أيبيريا أن أطلق على شبه الجزيرة بأكملها. ومنذ القرن الخامس ق. م. خضعت شبه جزيرة أيبيريا إلى حكم القرطاجنيين، فازدهرت مدينة قرطاجنة الجديدة (كرتاجونوفا) الذين اتخذوها عاصمة لهم.

بهذا تكون شبه الجزيرة منذ عام 535 ق. م. وحتى عام 205 ق. م. قد وقعت تحت تأثيرين هامين، الأول: أوروبي وهو التأثير الكلتي واليوناني. والثاني: آسيوي أفريقي هو التأثير القرطاجني. لكن التحول الحاسم في تاريخ شبه الجزيرة كان في عام 205 ق. م.

---

(1) د. حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 3. نفح الطيب للمقري، ج1 / 126.

(2) الروض المعطار، ص 6.

إذ جاء تأثير لاتيني أوروبي وهو الغزو الروماني الذي أنهى حكم القرطاجيين. وبسط الرومان سيطرتهم على مناطق واسعة في شبه جزيرة أيبيرية، ولكن إخضاع السكان الأصليين تطلب حروباً متقطعة استمرت نحو 200 سنة، استطاع الرومان من السيطرة على شبه الجزيرة وقسّموها إلى خمس مقاطعات. وتميّزت شبه الجزيرة تحت سيطرتهم بالرخاء الاقتصادي والنفوذ السياسي والتأثير الفكري.

وبهذا أصبحت شبه جزيرة أيبيريا إقليماً رومانياً، إذ تسلّم عرش الإمبراطورية الرومانية أربعة من الأباطرة الذين ولدوا في شبه الجزيرة، والتي كانت مسقط رأس للعديد من الفلاسفة والأدباء أمثال (سينيقه ولوقان وكولومبيلا). وواصلت الإمبراطورية الرومانية أوج عظمتها في المئتين الأولى والثانية الميلاديتين عندما أكملت سيطرتها على كل سواحل البحر الأبيض المتوسط وإسبانيا وفرنسا وجنوب أفريقيا، فيما كانت أغلب الممالك خلف هذه الرقعة الشاسعة تابعاً لروما أو حليفاً لها. وعندما حلّ القرن الرابع الميلادي كانت روما تسيطر على العالم القديم وكانت الحضارة الرومانية تبسط بجناحيها على العالم، ولكن هذا القرن شهد أيضاً في أواخره أفول إمبراطورية الرومان، بفعل أسباب عديدة، تتعلق أولاً في البنية الداخلية للنظام الروماني، الذي كان نهباً للفساد والقمع. ومما عجّل في نهاية الإمبراطورية الرومانية هو الاتساع الشاسع لمملكتها، والتي صارت عبئاً كبيراً على جسد الإمبراطورية[1]، ففي الوقت الذي كانت الإمبراطورية الرومانية تعاني من التآكل الداخلي،جاءت القبائل الجرمانية في موجات متعاقبة لتقوض كيانها المترهل أصلاً.

ففي عام 235 و 384 اعتلى عرش روما 60 إمبراطوراً معظمهم من قادة الجيش مما أحدث اضطراباً واسعاً، عَظَم تفاقمه ازدياد هجمات البربر على السواحل الشمالية للإمبراطورية، وعلى الرغم من نجاح أباطرة مثل ديوكليتان (248-305) في تثبيت دعائم الإمبراطورية، إلا أن هذا النجاح كان محدوداً ومؤقتاً، إذ استأنفت الإمبراطورية من بعده تقهقرها. وأنا أذهب إلى تأييد بعض الباحثين في كون نهاية الإمبراطورية الرومانية

(1) عادل بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، ص 39 وما يليها.

بدأت على يد الإمبراطور قسطنطين (307-337)، عندما نقل عاصمة الإمبراطورية إلى بيزنطة عام 330 م واختار لها اسم القسطنطينية، نسبة لاسمه. وبدأت هذه العاصمة بالنمو على حساب روما[1].

وتذهب بعض الروايات إلى تأكيد الدور الروماني في حياة شبه الجزيرة إلى أن الرومان استطاعوا نشر حضارتهم وقوانينهم وفنونهم بعد أن قضوا على نفوذ القرطاجنيين، وإن المجتمع الإسباني قد استجاب لهذا النمو الاجتماعي وتناغم معه بفضل الديانة المسيحية[2]. كما أن الرومان أسسوا مدينة (طالقة) وجعلوها أهم مراكزهم العمرانية في جنوب أيبيريا. لكن عهد الإمبراطور ثيوديوس (عام 395) قد شكّل نهاية العهد الروماني على شبه جزيرة أيبيريا بشكل كامل.

القبائل الجرمانية وبداية العهد القوطي

يبدو أن الرومان حتى في لحظة انهيارهم قد استهزأوا بالقبائل الجرمانية الغازية، لأنهم لم يفهموا لغتهم والتي كانت تشبه (ثغاء الغنم) (baa, baa) ومنها جاءت كلمة برابرة، وأطلق الرومان كلمة برابرة على سائر الأقوام التي كانت تعيش خلف الحدود الطبيعية التي يشكلها نهر الراين والدانوب شاملين بذلك الجرمان المتفرعين من شجرة النسب التي ضمت القوط والوندال والأنغلو والسكسون وغيرهم.

فما الذي فعلته هذه الأقوام في تاريخ إسبانيا؟

إن المعلومات التاريخية عن دور القبائل الجرمانية في تقويض الدولة الرومانية غير واضحة تماماً [3]، إلا عندما استقر القوط الغربيون في أواخر القرن الرابع الميلادي في القسم الغربي من الدولة الرومانية بقيادة الأريك. ويعد القوط الغربيون من أهم فروع

---

(1) د. إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 63.

(2) أنظر: الدكتور سيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 54.

(3) يرى د. إبراهيم طرخان أن غزوات الجرمان كانت بسبب زيادة عددهم وقلة إنتاجهم الزراعي مع غنى الدولة الرومانية. راجع: إبراهيم علي طرخان، دولة القوط الغربيين، ص 21 وما يليها.

الجرمان الشرقيين. وكانت سيطرتهم على الجزء الغربي من شبه الجزيرة في عهد الإمبراطور الروماني تيودوسيوس، فلما توفي هذا الإمبراطور سنة 395م أصبح للأريك الرئاسة على القوط الغربيين.

وقد أصبح الأريك أقوى شخصية في وسط أوروبا وغربها، واستطاع أن يستولي على اليونان عام 396م، ثم يدخل إيطاليا ويحاصر روما سنة 409م، ويفرض شروطه على الإمبراطور هونريوس القاضية بعزله وتولي الإمبراطور برسكوس أتالوس مكانه. ولما تولى الإمبراطور الجديد منصبه عيّن الأريك قائداً عاماً للجيوش الرومانية كما عيّن آطاوولف قائداً للحرس الإمبراطوري[1]، لكن الأريك اختلف مع أتالوس وعزله سنة 410 م. ثم سار إلى روما واستطاع احتلالها وأشاع فيها الخراب والدمار وقامت جيوشه بسلب روائعها المدنية والحضارية، ولما توفي الأريك سنة 410م خلّفه على زعامة القوط الغربيين صهره آطاوولف (410-415)، وكان هذا القائد يتطلع إلى الأجزاء الغربية للدولة الرومانية وهي غالة وإسبانيا، كما نجح آطاوولف في الحصول سنة 412م على اعتراف من هونريوس يمنحه منطقتي أربونة وطركونة من أراضي شبه جزيرة أيبيريا، ولقد أصبحت هاتان المنطقتان نواة لدولة القوط الغربيين[2]، التي اتسعت جنوبي غالة وشمال إسبانيا. وكان آطاوولف طموحاً جداً أراد أن يكون إمبراطوراً للدولة الرومانية فتزوّج من جالا بلاسيديا أخت الإمبراطور.

كانت إسبانيا تعاني في ذلك الوقت من آثار الغزوات الجرمانية المدمرة، التي تدفقت عليها منذ عام 409 م، وبعد صراع طويل مع قبائل الوندال والألان والسويف استطاع القوط الغربيون من السيطرة على إسبانيا، وبسط نفوذهم واتساع ملكهم خاصة في عهد تيودوريد (420-451) فقد تحالف مع الرومان لصدّ هجوم قبائل الهون التي تدفقت على غالة سنة 450 م. ونجح في هزيمتهم في موقعة شالون سيرمارن عام 451 م، ولكنه توفي في هذه

(1) إبراهيم طرخان، دولة القوط الغربيين، ص 77.

(2) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 52.

الموقعة، وظلّ مصير دولة القوط متأزماً منذ عام 451 وحتى بداية عهد الملك أيوريك الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة القوط الغربيين في أبارية وغالة. إذ تمكن من مدّ نفوذه على إقليم لشدانية الذي كان يحتله الألان، وبذلك خضعت له كل أيبيريا ما عدا الجزء الذي كان يحتله السويف في جليقية. كما تمكن من بسط نفوذه جنوب غالة، إذ استولى على آرل ومرسيليا وكليرمو وبوردو. إلا أن نفوذ القوط الغربيين انحسر في حدود إسبانيا بعد أن هزمهم الزعيم الإفرنجي كلوفيس عام 507 م، وفيها قتل الملك الأريك الثاني، ومع ذلك فقد ظلّ القوط الغربيين محتفظين بإقليم سمبانيا المتاخم لجبال البرت من الشمال، ويمتد شرقاً حتى وادي الرون، ولم يستمر احتفاظ القوط بهذا الإقليم طويلاً بعد أن طردهم الفرنجة منه عام 531 م. وفي عهد الملك القوطي تيوديس (531-548) اقتصرت دولتهم على إسبانيا فقط، وهكذا ظهرت إسبانيا منذ أوائل القرن السادس الميلادي كدولة موحدة، وحدة سياسية للمرة الأولى في التاريخ، لأن الإغريق حين أتوا إليها لم يعرفوا منها إلا الغرب وبعض الجنوب، ولأن الرومان إبان غزوهم لها، كانوا يقسمونها إلى ولايات مختلفة لا علاقة بين بعضها بعض[1]. ثم اختار القوط عاصمة داخلية يتمكنون فيها من بسط نفوذهم على سائر أنحاء البلاد، فاختاروا ماردة أولاً في عهد الملك أخيلا (549-555 م). ولكن ذلك لم يجد نفعاً، لهزيمته أمام جيش الكاثوليك القرطبي، مما أدى إلى ثورة نبلاء القوط على الملك أخيلا بسبب هزيمته هذه، ثم استولى أناناخيلد على الحكم القوطي بعد أن استعان بالإمبراطور البيزنطي جستنيان واستطاع أن يستولي على إقليم باطقة وجزء من إقليم قرطاجنة. وهنا نقل أناناخيلد عاصمته من الجنوب إلى الشمال، فاختار مدينة طليطلة لما كانت تمتاز به من موقع جغرافي واستراتيجي هام. ولقد بلغت طليطلة ذروة مجدها في عهد أناناخيلد، حتى سميت بالمدينة الملكيّة وزيّنت بآثار جليلة من قبل الملوك الذين جاءوا بعده، ولقد حدث تحوّل هام في تاريخ إسبانيا القوطية بعد أن تحوّل الملك ريكارد من المذهب

---

(1) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 6.

الديني الآريوسي في المجمع الديني الثالث بطليطلة سنة 587 م إلى الكاثوليكية[1]، ولقد جاء في قرار التحوّل الذي اتخذه مجلس طليطلة باسم الله المقدس، إن كنيسة القديس ماري قد جعلت بطريركية كاثوليكية في أبريل من السنة الأولى من حكم الملك المنصور فلافيوس ريكاريد، وعُمّد ريكاريد على الطريقة الكاثوليكية بالزيت المقدس"[2].

إذ أصبحت إسبانيا بعد هذا التحوّل المذهبي معقلاً من أمنع معاقل الكاثوليكية، وكان لهذا أثر بعيد في حياة الإسبان وفي مجرى تاريخهم كله[3]، وأعقب هذا التحول إلى الكاثوليكية اعتبار اللغة اللاتينية اللغة الرسمية في البلاد، وتوثقت صلات إسبانيا بالبابوية، وأصبحت طليطلة أسقفية يقيم فيها أسقف كبير يمثل سلطان البابا ونفوذه، ومن هنا نفهم السرّ في أن نفوذ أسقف طليطلة الذي يحظى بتأييد الشعب الروماني والأيبيري، لم يقلّ في فترة من فترات التاريخ الإسباني المسيحي عن نفوذ الملوك[4]. ويرى البعض أن هذا التحوّل يمثل ضعف القوط ومثولهم صاغرين أمام المحافل الكنسية لقاء القوة المعنوية التي كانت تعوزهم[5]. ومن المفيد أن نذكر أن المذهب الآريوسي (الآري) كان يقوم على رفض ألوهية المسيح ولا يعترف للقساوسة بحق الوساطة بين الله والناس، ولا يجعل للعذراء مريم مكاناً مهماً في العقيدة، وكان لمعتنقي هذا المذهب أسلوب خاص في العبادة[6].

---

(1) كان الملك ريكاريد على خلاف أبيه ليوفيخلد (567-586) الذي قضى حياته يحارب الكاثوليك في جليقية وجنوب إسبانيا، فقد كان محباً للسلام، لذلك أراد وضع حد لمظاهر الاضطراب التي سادت في عهد أبيه. (انظر: د. السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس).

(2) إبراهيم طرخان، دولة القوط الغربيين، ص 162.

(3) حسين مؤنس، فجر الأندلس.

(4) د. صالح أبو دياك، الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس، ص 142.

(5) د. السيد سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم، ص 56.

(6) د. صالح أبو دياك، الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس.

بعد موت الملك ريكاريد، خلّفه عدة ملوك وكانت الملكية القوطية تعتمد على نظام الانتخاب وأن كبار أهل المملكة والأمراء يجتمعون بعد وفاة الملك لاختيار خلفاً لـه، وقد مهّد هذا النظام بروز ظاهرة التنافس بين الأمراء وكبار القوط، مما أتاح للمؤامرات والحروب والاغتيالات أن تتقدم كظاهرة في المجتمع الإسباني. لكن هذا لا يمنع من ظهور ملوك أقوياء أمثال ْشبشرتْ (612-621 م)، الذي حارب البيزنطيين وأجلاهم عن بعض مواقعهم في السواحل الجنوبية، وهو أول من أقرّ مبدأ اضطهاد اليهود، وكذلك الملك ْسوتيلهْ (621-631) الذي أخضع البشكنس وسكان قنطابرية، كما طهّر إسبانيا نهائياً من الاحتلال البيزنطي عام 624 م[1]. لكنه استبدّ بالحكم في أواخر أيامه فعُزل عام 631 م، فجاء بعده الملك سيسناند (631-636 م) وكان من أهم قرارات هذا الملك هو إقامة الملكية عن طريق الانتخاب حصراً في أيدي النبلاء والقساوسة، وجاء بعده للحكم شنداشفتو الذي ألغى التفرقة بين أجناس الشعب، وحكم البلاد بمقتضى قانون جديد مزج فيه القانون الروماني القديم الذي كان قد سنّه الملك ْالأريك الثانيْ والقانون القوطي الذي وضعه ْيوركْ مما قرر السلام بين أهل المملكة وجنّبها المصاعب والخلافات.

لكن من أبرز ملوك القوط هو ْوامباْ[2] (672-680 م)، الذي افتتح عهده بمحاربة البشكنس وقضائه على ثورة باولس في سبمانيا، وكان هذا الملك حكيماً وحازماً أحبه الناس حتى بلغ حبّهم لـه ما يشبه الأسطورة، وقد أنهى حياته السياسية بالاعتزال والاعتكاف في أحد الأديرة في إسبانيا متفرغاً للعبادة[3].

---

(1) إبراهيم طرخان، دولة القوط الغربيين.

(2) امتدح الرازي الملك ْوامباْ وقال إنه كان ملكاً حسناً وعادلاً.. أنظر: حسين مؤنس، فجر الأندلس.

(3) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج 2، ص 4. (انظر: د. صالح أبو دياك، الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس، ص 143).

الدولة القوطية بعد اعتزال "وامبا":

لقد أثــّر اعتزال الملك وامبا على مسرح الأحداث السياسية في الدولة القوطية، إذ بلغ الاضطراب وتفاقم الأوضاع والفوضى على أشدّه، ولقد استمرت هذه الأوضاع حتى سقوط دولة القوط بيد المسلمين، وفي ذلك يقول المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال[1]: إن الثلاثين سنة التي سبقت الغزو الإسلامي، وهي السنوات العجاف بالنسبة لما نعرفه عن تاريخ إسبانيا القوطية، تبدو لنا في الواقع غاية في الفوضى والاضطراب، رغم قلّة ما أمدتنا به المصادر الإخبارية. من هذه الفترة القصيرة التي تبدأ منذ اعتزال الملك وامبا العرش سنة 680 م مشحونة كلها بالنزاع والصراع المثير للقلاقل، فمن مناقشات دموية بين المرشحين للعرش، ومن ثورات محلية، ومن دسائس يقوم بها النبلاء وكبار القساوسة الذين كانوا يسعون إلى زيادة التغلغل في الشؤون السياسية للدولة أكثر مما كانوا يفعلونه من قبل. كل ذلك كان أكثر من دليل لا يخيب، إنما يشير بوضوح إلى أن البلاد الأيبيرية كانت تقدم نفسها في طليعة القرن الثامن الميلادي فريسة سهلة لأي غازٍ سواء كان هذا الغازي من الشمال أو من الجنوب.

وأمام هذه الحالة المزرية والتي لم تجد لها علاجاً لضعف الملوك وتجردهم من مظاهر الحزم والقيادة الحكيمة، كما أن ضعف الروح الحربية لدى القوط كان يضاعف حالة الفوضى هذه، حينما تقادم العهد بهم في البلاد، وتمتعوا بخيراتها الوفيرة ومالت نفوسهم إلى الدعة، ومن ثم أوكلوا أمور الحرب إلى عبيدهم، حتى زاد عدد العبيد على الأحرار في الجيش، وكانت كثرة العبيد في الجيش من أسباب ضعفه، لأنهم كانوا ناقمين على الدولة، يتحيّنون الفرصة للتخلي عنها وتركها لمصيرها [2].

---

(1) د. السيد سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم، ص 57.

(2) د. عبدالعزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 28. مؤنس، فجر الأندلس، ص 27-28.

دولة الغوط تحت حكم غيطشة[1] (700 م):

لقد تولى الملك غيطشة Witza الحكم محاولاً إصلاح الأمور وتخفيف الأثر السيئ الذي تركه أبوه إخيكا، ولقد شهد القسم الأول من حكمه محاولات جادة إلى إنصاف الناس من استبداد نبلاء القوط، وقام بتطبيق الأحكام العادلة، وأفرج عن المسجونين، وسمح للمنفيين بالعودة إلى ديارهم، وتعويضهم عن أملاكهم المصادَرة، وقام برفع القيود عن اليهود. فكرهه النبلاء ورجال الدين، الذين أبعدهم عن مراكز القوة، وحرمهم من بعض امتيازاتهم وفرّق شملهم. فأخذوا يثورون عليه ويألّبون الناس ضده في كافة نواحي البلاد.

والحق أن المعلومات التاريخية عن الملك غيطشة التي وصلتنا بدت متناقضة أشد التناقض[2]، لذلك فقد عدّه بعض المؤرخين مسؤولاً عن التسيّب والفوضى اللذين سادا في أواخر أيامه وبعد موته. في حين يذهب البعض إلى اتهامه بالتساهل وعدم القدرة على حسم الأمور مما شجّع الطامعين في التربص به وإطاحته.

وذكر عدد من المؤرخين أنه لم يمض على ولايته سبع سنوات حتى عدل عن سياسته التي كانت سبباً في محبة الشعب الإسباني له، فقد رخّص للقساوسة بالزواج، وقتل فافلة ونفى ابنه بلاي، وسمل عيني دوق قرطبة[3]، كما أمر بهدم أغلب حصون وأسوار إسبانيا، وتختلف الروايات حول موقفه من اليهود وخصوصاً في أيامه الأخيرة، إذ يرى بعض الباحثين[4] أنه قام بتعذيبهم لأسباب متعددة، كاتهامهم بالخيانة ومخالفتهم للعقيدة الآريوسية، في حين يقول آخر أنه سمح لليهود بالعودة إلى إسبانيا وممارسة شعائرهم الدينية دون تقيد، بعد أن كانوا موضع اضطهاد أبيه "أخيكا"[5].

(1) هو الاسم الذي يطلقه العرب على الملك القوطي (وتيزا) Witiza.

(2) د. حكمت علي الأوسي، فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث الهجري، ص 10.

(3) كان هذا الدوق مقيماً في قرطبة، فاتهمه الملك غيطشة بالتآمر على العرش، فقام بسمل عينيه.

(4) صالح أبو دياك، الوجيز، ص 143.

(5) السيد عبدالعزيز، تاريخ المسلمين، ص 58.

وكما كانت حياته موضوع خلاف شديد بين المؤرخين فإن عزل هذا الملك أيضاً حدث فيه اختلاف، فالبعض يرى أنه خُلِع من العرش على أثر ثورة قام بها أنصار لوذريق الملك الذي سيحل بدلاً عنه. ويرى آخرون أن مجلس طليطلة أفتى بخلع غيطشة عندما أقدم على تولية ابنه الطفل وقلّده من بعده ولاية العهد. وتنصيبه حاكماً على ولايتي أربونة وطركونة تحت وصاية أخ غيطشة (رخشندش) وكان تنصيب ابنه الصبي[1] بتأثير من زوجته. وكان هذا التعين حافزاً للنبلاء وكبار القوط على مضاعفة العمل للقضاء على غيطشة وأركان نظامه. ومهما يكن من شأن هذه الاختلافات في الكيفية التي تم خلع الملك غيطشة، فإن المؤرخين اتفقوا على أن غيطشة توفي بظروف طبيعية ولكنهم يختلفون في عام وفاته، فمنهم من يرجح عام 708-709 م، وآخرون يرجحون عام 710 م، والأمر المهم عندنا هو أنه مات مخلفاً الطامعين على اعتلاء العرش من داخل عائلته أو من النبلاء ووجهاء القوط. فقد ترك غيطشة أرملة طموحة، وثلاثة بنين هم (وقلة أو أخيلا والمند وأرطباس)، وأخين كان أحدهما أسقفاً لأشبيلة، والآخر وصياً على الصبي أخيلا الذي كان مرشحاً لوراثة العرش بعد الملك غيطشة. ولكن كبار القوط لم يرغبوا في الخضوع إلى حكم صبي، بالإضافة إلى عدائهم السابق لأبيه ورفضهم المسبق لقرار ولاية العهد للصبي أخيلا، ومن ثم تخوّفهم من استبداد الوصي بالحكم[2]. لذلك امتنعوا عن الامتثال لأمر خلافة الصبي أخيلا. وبتوحد مصالح جميع المعارضين، استطاع كبار القوط وأعيانهم في طليطلة أن يوحّدوا جهودهم ضد أخيلا وعمّه الوصي وأن يعهدوا بالعرش إلى أحدهم ويدعى رودريكو لذريق. ويبدو أن عملية تنصيب ملكاً على العرش لم تكن خلافاً على العرش فقط، بل كانت تعبّر عن استياء الشعب لحكم غيطشة والوصي على العرش أخيه رخشندش.

---

(1) يسميه بعض الباحثين أخيلا Achila أيضاً.

(2) المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج 1، ص 265. مؤنس، فجر الأندلس، ص 12-16.

الملك لذريق ونهاية حكم القوط في إسبانيا

يبدو أن الفترات العصية في حياة الشعوب تفرز أوضاعاً شاذة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري. ويدب الخراب الشامل في كل مفاصل الحياة فما الذي يستطيع فعله ملك مثل لذريق جاء في عصر كانت إسبانيا تلفظ أنفاسها الأخيرة، فبالإضافة إلى الاختلاف على نسبه وهي عادة يخلقها المؤرخون لإضفاء المزيد من الغموض والفوضى على تحديد الأسباب الحقيقية لزوال الحكومات والممالك، إذ كان لذريق محط اختلاف في نسبه، فالمصادر اللاتينية تقول إنه سليل بيت أحد ملوك القوط السابقين، بينما يذهب المؤرخون العرب بأنه كان رجلاً حكيماً وشجاعاً ولكنه لا ينتمي إلى بيت الملوك، وإنه كان فارساً وقائداً [1].

وقد أجمعت النصوص التاريخية كلها[2] على أن جماعة من كبار القوط وأعيانهم هي التي قررت ولاية العرش لذريق، وإنهم كانوا يريدون بهذا الإجماع أن ينقذوا دولة القوط من الانهيار. وكانت مبايعة هذا الملك في قرطبة 710 م ولم يذهب لذريق إلى العاصمة طليطلة مباشرة بعد تنصيبه ملكاً، وأخذ بجمع أعوانه وأنصاره لملاقاة الطامع الأكبر في العرش وهو رخشندش. وعندما اكتملت عدّة لذريق العسكرية سار إلى طليطلة بعد أشهر من إعلانه ملكاً على رأس جيش كبير أكثرهم من قادة القوط ونبلائهم، أدى إلى هزيمة جيش رخشندش وقتله في هذه المعركة. وبقي للذريق عدو آخر لا يستهان به وهم أولاد غيطشة الذين فرّوا من البلاد إلى أفريقيا فصادر الملك أملاكهم معتبراً إياهم ثائرين على العرش، والقانون القوطي يقضي بمصادرة أملاك كل ثائر على العرش.

ويبدو أن هذا الملك ظلّ يخشى طيلة أيام حكمه عودة أبناء غيطشة إلى البلاد والثورة عليه واستعادة عرش أبيهم بمساعدة أنصارهم الكثيرين، ولذلك حرص على أن يصوّر بمبالغة كبيرة للناس أعمال غيطشة ونعته بالظالم والطاغية، وقد ساعده في ذلك

---

(1) ابن القوطية، فتح الأندلس، ص 2. ابن عذارى، البيان المغرب، تحقيق كولان، ص 2.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، ص 16.

القساوسة، لأن غيطشة كان لا يحبهم ولا يقربهم إليه. وقد صوّر معظم المؤرخين الإسبان اللاتين[1]، صوراً بغيضة جداً لغيطشة وأولاده وما كانوا يدبّرون للبلد وأهله من سوء، وزاد هؤلاء المؤرخين إصراراً على هذه الآراء انضمام أولاد غيطشة إلى المسلمين ومعاونتهم على فتح البلاد فيما بعد. لكن بعض المؤرخين الإسبان دافعوا عن غيطشة وأولاده من جانب وجنّبوا لذريق من كل عيب وصوروه كبطل وطني جاهد من أجل بلاده ضد الغزاة المسلمين.

والواقع أن لذريق كان يشعر باضطراب الأمر عليه، وقد ظل طوال حياته خائفاً من تهديد أعدائه الكثيرين. لأن هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد غيطشة وحدهم، بل كانوا في واقع الأمر جميع الشعب الأيبيري الروماني ومعهم اليهود، أي معظم أهل البلاد التي فتحها القوط وهذا ناتج من أن لذريق لم يكد يستقر له الأمر حتى مضى يُرغم رجال الدين على إصدار قرارات يتهمون فيها غيطشة بكل الشر، وقد استجاب رجال الدين لطلبه، ولذلك ترى ما حفلت به مجامعهم الدينية في هذا العصر من قرارات تتحدث بسوء كبير واتهامات مختلفة لغيطشة واليهود.

إن لذريق وطوال أيام حكمه القصير ظلّ يحارب الثائرين عليه من كل ناحية، كما قام بحملات متابعة على البشكنس في الشمال، وطوائف من الثائرين في الشرق والجنوب، كانوا من أنصار أولاد غيطشة.

كما أن عهد غيطشة الذي تميّز بكثرة الحروب أثقل كاهل الميزانية، وكان لذريق بحاجة ماسة إلى المال وهذا يدل على سوء إدارته لبلد غني مثل إسبانيا، وهذه الحاجة إلى المال قد دفعته إلى السطو على الذخائر الثمينة التي كان ملوك القوط قبله قد أودعوها في كنيستي سان بدرو وسان بابلو، وكان من عادة كل ملك أن يودع في إحدى الكنيستين تاجه وبعض ذخائره، وكانت هذه الذخائر مكدسة في حجرتين مغلقتين في الكنيستين، ولقد حذره القساوسة من هذه الفعلة، ولكنه لم يصغ إليهم،

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 18، وما يليها.

نفتح مستودع الذخائر، ويبدو أنه ذهل من كثرة ما وجد من الذهب والجواهر، ولرهبة المكان فإنه لم يجرؤ على أخذ شيء لأن رهبة المكان منعته من أن ينفذ ما أراد، وصار لهذه الحادثة حكايات تناقلها الناس حتى أصبحت أسطورة رواها العرب بصورة طريفة وخرافية[1].

وقد استطاع لذريق أن يقضي على كل أمل لأبناء غيطشة وأنصارهم في العودة إلى الحكم بعد أن استمر بغزوهم بصورة متابعة، مما دفع بأولاد غيطشة لمراسلة المسلمين الذين فتحوا المغرب الأقصى ووصلوا إلى الزقاق. وهم يتطلعون إلى فتح المزيد من البلاد ودعوا أولاد غيطشة المسلمين إلى القدوم إليهم. وهكذا كانت نهاية حكم القوط لإسبانيا [2].

احوال المجتمع الإسباني قبل الفتح الإسلامي:

لقد مرّ المجتمع الإسباني كما رأينا بغزوات وهجرات متعددة على طول تاريخه الممتد من القرن العاشر ق. م. إلى نهاية دولة القوط وسقوط إسبانيا. ولقد تفاعل الإسبان مع هذه الهجرات والغزوات على انماط مختلفة من التلاقح في الأوجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والتي شكلت طبيعة المجتمع في كل حقبة من التاريخ الإسباني العريق. وبما أن غرض دراستنا لا يشمل تاريخ إسبانيا فقد مررنا فيه بشكل سريع سابقاً ونود أن نستعرض ملامح المجتمع الإسباني في ظل دولة القوط الغربيين فقط لصلتها بالفتح الإسلامي لإسبانيا.

يبدو أن القوط عند استلامهم عرش الحكم في إسبانيا لم يندمجوا مع الشعب الإسباني، وإنما شكلوا طبقة أرستقراطية حاكمة تستأثر بثروات البلاد[3] بالتحالف مع النبلاء والأشراف ورجال الدين، وقد انقسم المجتمع إلى طبقات متعددة[4]:

---

(1) انظر: نفح الطيب، المقري، ج 1، ص 231. مؤنس، فجر الأندلس، ص 20.

(2) سنفصّل هذا الأمر في الفصول المتعلقة بفتح إسبانيا.

(3) د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، ص 35.

(4) د. عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، ص 29.

- طبقة النبلاء ومنها الطبقة الحاكمة.
- طبقة رجال الكنيسة، التي تشارك النبلاء في الامتيازات المادية وذلك لدعمهم الديني للعرش.
- طبقة التجار والزراع والملاّك الصغار، الذين يتحملون الضرائب المختلفة.
- طبقة عبيد الأرض، الذين يتبعون مالكها وينتقلون مع ملكيتها من سيد إلى آخر.

وهناك طبقة جديدة[1] نشأت بعد إقبال المتبربرين واستيلائهم على أراضي الدولة التي آلت إليهم، وبهذا تعرّض حق الزرّاع الأحرار في أراضيهم للضياع، فلجأ بعضهم إلى مالك غني مجاور تنازلوا له عن أرضهم في سبيل حمايتهم من الغاصبين المقبلين، وشاعت هذه الطريقة وعمّت، فنشأت طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة (البوتشللاري) أي طبقة المحميين، وكانوا في نظر القانون أحراراً ولكن التزاماتهم حيال الأغنياء الحامين لهم جعلتهم واقعياً في مراتب العبيد.

فلم يغير القوط شيئاً كثيراً من أحوال المجتمع الإسباني في العصر الروماني، فقد ظلت الأرستقراطية الرومانية على عهدها من الغنى والسيطرة على الناس. ولقد تحالف الأغنياء ورجال الدين مع القوط لكي يحتفظوا بأملاكهم ومراكزهم الاجتماعية، علماً أن القوط لم يشكلوا الأغلبية ولم يكن لهم ميل إلى الاشتغال في الصناعة أو الزراعة، فظلوا غرباء تقريباً عن أهل البلد ولم يخلفوا فيه الكثير من الآثار الذي يمكن أن نقارنها بما خلّفه الفرنجة في فرنسا مثلاً. ولم تنعم بلاد إسبانيا في حكم القوط بنصيب وافر من الأمن والرخاء الاقتصادي، لأن العصر كان مضطرباً كله، فالفوضى عمّت أوروبا بأجمعها، وليس في إسبانيا وحدها، فسقطت في غرب أوروبا قواعد المجتمع الروماني الثابت القديم الذي كان يقوم على تقسيم الأرض بين الدولة وطائفة من كبار الأغنياء المقيمين في الأرياف، ويقوم الأغنياء بتأجيرها إلى الفلاحين الذين يزرعونها مقابل ريع مالي للأغنياء، وكان معظم الأراضي تابعة للدولة، فكانت تزرع بواسطة الفلاحين العبيد والأحرار، فصارت علاقة الفلاح

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 22.

بالأرض لطول زمن زراعتها أشبه بالملكية. ولكن هذا النظام انهار تماماً وأضرّ بعامة الناس وأدى إلى نشوء تغيير في الطبيعة للمجتمع الإسباني كما أشرنا قبل قليل من حدوث طبقة جديدة هي طبقة المحمين.

وعند النظر إلى المشهد السياسي الإسباني السائد في فترة القوط سنجده مشوشاً إلى حد كبير. فملوك القوط ورغم تحولهم إلى الكاثوليكية، إلا أن الامتزاج الحضاري ظلّ مفقوداً، ذلك لأن منطق القوة الذي اعتمده القوط في بناء دولتهم، كان هو القانون السائد[1] حتى نهاية هذه الدولة. فهناك تناقضات أصابت جميع جوانب الحياة الإسبانية العرقية والمذهبية، فضلاً عن الاضطهاد الديني والصراعات السياسية الأخرى التي كان مسرحها الأسرة المالكة نفسها.

وأمام هذا المشهد الفوضوي نستطيع أن نتلمس بسهولة طبيعة المجتمع القوطي في إسبانيا في ذلك الوقت، الذي هو بالضرورة انعكاس لسياسة ملوكهم التي فشلت في تحقيق مجتمع موحد في المصالح والانتماء.

ولعل أكثر الفئات معاناة من جراء سياسات الملوك كانت فئة التجار وصغار الملاكين المزارعين، فهؤلاء كان عليهم فقط أن يتحملوا عبء الضرائب الثقيلة، التي لم تكن في أغلب الأحيان تتناسب مع ضعف وهزالة إنتاجهم، على أن أوضاع هذه الفئة كانت أفضل بكثير من أوضاع العبيد المرتبطين بالأرض مع عوائلهم والمتنقلين معها من مالك لآخر، فضلاً عن العبيد المعدمين الذين استُغلوا أسوأ أنواع الاستغلال، ومن البديهي أن نشير إلى هؤلاء جميعاً لما كانوا مسخّرين لرفاهية الفئات الحاكمة من النبلاء والأسرة الحاكمة التي احتكرت في يدها كل المناصب الرسمية والأراضي الزراعية الخصبة ومعهم رجال الدين الذين أصبح لهم شأن كبير بعد أن تحوّل القوط إلى الكاثوليكية، فكانوا طبقة كبيرة غنية وقوية، كبيرة لتغلغلها في المجتمع الإسباني وغنية لأنها كانت تملك الكثير من الأراضي المعفاة من الضرائب، وقوية لأنها كانت تسيطر

---

(1) د. إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 64-66.

روحياً على المجتمع الإسباني[1]، كما كان لهذه الطبقة (رجال الدين) الكثير من الأديرة والسجون. وكانوا لا يعملون إلا لمصالحهم الذاتية، ولم يعترضوا على تصرفات الحكام والأغنياء من استبداد الضعفاء والإكثار من العبيد.

وكانت إسبانيا القوطية تنقسم إلى عدة أقاليم، يحكم كل إقليم منها (دوق)، وكل إقليم يشتمل على عدة مدن، يحكم كل مدينة (كونت)، ولقد استعان هؤلاء الحكام بطائفة من الموظفين يقومون بكل ما تحتاج إليه الحكومة الإقطاعية في الشؤون المالية والقضائية والحربية[2]، وكان الملك يصدر القوانين وينفّذها كما يشاء، على الرغم من وجود مجلس النبلاء. وأقدم مجموعة قوانين أصدرها ملوك القوط هي مجموعة إيوريك وطُبّقت على القوط، في حين ترك الرومان يطبقون قوانينهم الخاصة بهم.

وكان مجلس النبلاء يقوم باختيار الملك من بين طبقة النبلاء، إذ لم يكن نظام الوراثة مطبقاً في إسبانيا، وكانوا يشترطون في اختيار الملك أن يكون قائداً شجاعاً [3]، وكان من عيوب هذا النظام أنه دائماً يفوز بالعرش من يكون الأقوى، ولذلك فقد أدى هذا إلى كثرة الدسائس التي تُحاك من قبل النبلاء طمعاً في العرش، لذلك كان انتقال العرش من ملك إلى ملك يقترن في الكثير من الأحيان بمؤامرات دامية، ولا يجتمع المجلس (مجلس طليطلة) إلا إذا دعا الملك لانعقاده، وكانت قرارات هذا المجلس تؤلف القانون المدني لدولة القوط، وكان مجلس طليطلة هو القوة الكبرى في الحياة السياسية والدينية في العهد القوطي. وكان أصل مجلس طليطلة دينياً يتألف من كبار رجال الكاثوليك ويعقد للنظر في أمور كنيستهم ورعاياها، ولكن بعد اعتناق القوط للكاثوليكية، أصبح هذا المجلس رسمياً يُعقد بأمر الملك، ويحضره كبار رجال الدولة، ثم تحوّل على مرّ الزمن إلى مجلس سياسي وديني في آنٍ واحد

---

(1) د. السيد سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 64.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، ص 21.

(3) إبراهيم طرخان، دولة القوط الغربيين.

يصدر القوانين والأحكام في مختلف القضايا، ثم اتسع سلطانه وأصبح محكمة عليا ويضم مجلس النبلاء إلى هذا المجلس الديني فأصبح مجلساً أعلى للدولة[1].

فمن الناحية النظرية كان مجلس طليطلة هو السلطة العليا ويمثل مرجعاً ومراقباً للملك، أما من الناحية الواقعية، فقد كان سنداً مهماً لسلطة الملك وبخاصة بعد أن تحوّل القوط إلى الكاثوليكية، حيث أصبحت الكنيسة في إسبانيا على علاقة وثيقة بالبلاط.

ويمكن أن نشير إلى دور مجلس طليطلة الإيجابي وتأثيره الجيد في المجتمع الإسباني من خلال سعي أعضاؤه لسنّ قانوناً شاملاً يضمن حريات الناس ويساوي بينهم جميعاً قوطاً وإيبيريين وهو المسمى 'Fuero Juzgo' أي القانون القوطي، وقد تكونت هذه القوانين على مدى قرن من الزمان، والتي بدأت في عهد الملك يوريك، ثم أضاف إليها خلفه الأريك الثاني مجموعة من القوانين الرومانية كما يعزى إلى الملك شنداشفتو الفضل في مزج المجموعتين معاً وتكوين مجتمع متناسق يُطبّق على الناس أجمعين. ولو طُبِّقت هذه القوانين لكانت سيرة القوط في إسبانيا ذات شأن آخر.

ولكننا نستطيع تلّمس الخلاف الشديد بين المؤرخين حول أحوال المجتمع الإسباني خلال هذا العصر القوطي، فمعظم المؤرخين الإسبان متعصبين لهذا العصر، ويذهبون إلى التأكيد على أن الناس في هذا العصر يتمتعون برخاء ظاهر في كل ناحية من نواحي الحياة، وأن القطاعات الزراعية والصناعية كانت مزدهرة وأن هذا العصر هو عصر نهضة إسبانية مسيحية، وهذا الرأي من قِبل مؤرخي الإسبان إنما يمثل ردة فعل ضد القول الشائع بأن حدوث نهضة إسبانيا كان في ظلال الإسلام، ويؤكد الإسبان على أن فضل نهضتهم لا يعود إلى الإسلام وحده، وإنما كانت البلاد أصلاً سائرة في طريقها بهذا الاتجاه. ويؤكد المؤرخون الإسبان أيضاً أن إسبانيا كانت على وشك أن تصل إلى شأن الدولة الفرنجية في عهد الكارولنجيين لو

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 23.

لم يفتح العرب بلادها ويحولوا بينها وبين إدراك هذه الغاية[1]. لكن بعض المؤرخين الإسبان يرون أن الحال الذي وصلت إليه إسبانيا من الرفاهية والرقي جاء بعد أن تجلّت الحضارة الإسلامية في إسبانيا واصبحت أوضح من أن تُحجب معالمها الحضارية الفوضى والاضطراب الاجتماعي التي كانت سائدة في المجتمع الإسباني في عهد القوط. ونرى أن من الطبيعي أن لا يستطيع القوط إنشاء مجتمع جديد أفضل من المجتمع الروماني، إذ لم يكن لهم أنفسهم نظام اجتماعي معقول قبل أن يدخلوا للدولة الرومانية ويستقروا في أرضها ويستعيروا نظمها، مع أن القوط قد أنعشوا المجتمع الروماني المضمحل وأدخلوا عليه عناصر جديدة نشيطة توجهه توجيهاً جديداً. ويذهب الراهب باولوس أوروزيوس إلى أن القوط قسموا الأرض واحسنوا إلى الناس[2]. ولكن هذا القول لا يؤخذ على محمل الجد الكامل، لأن الراهب كاتب كنسي، وكما أشرنا إلى انحياز رجال الكنيسة إلى القوط، وعلى طريقة هذا الراهب يؤكد أحد الرواة الإسبان، وهو سلفيان المرسيلي، من أن الناس كانوا يفضلون الفقر والحرية في عهد القوط على ظلم الرومان، ولكن كلامه هذا يبدو أنه منصب على حكم القوط الشرقيين لأنه عاش في ظل حكمهم، وكان القوط الشرقيون في واقع الأمر أفضل من الغربيين بكثير. ويجب أن نذكر للقس 'ماسونا' الدور الكبير الذي لعبه للتبشير بالديانة المسيحية في إسبانيا، فقد قضى هذا القس حياته كلها يبشّر بالمسيحية في النواحي الغربية وإقليم ماردة على الخصوص، وهو الذي أوصل المسيحية إلى السويف وإلى نواحي جليقية. كما كان الراهب لياندرو مبشّراً وكاتباً ومؤرخاً، وبفضلهما يرجع ثبات المسيحية على التربة الإسبانية وما أدركته من أصالة وثبات وقوة في نفوس المسيحيين الذين لم يستطع الإسلام إزالتها خلال قرون من حكمه في إسبانيا.

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 24.

(2) المصدر السابق، ص 25.

وأخيراً نرى من المفيد أن نتطرق إلى الحالة الثقافية للمجتمع الإسباني. فقد كانت إسبانيا منذ فجر التاريخ بلد ثقافة وعلم وفن، فقد وضع الفينيقيون الأساس الأول وجاء الرومان واليونان ليضيفوا على هذا الأساس من كافة النواحي الحضارية. ثم أقبلت المسيحية فأنعشت الازدهار الحضاري وسارت في البلاد خطوات إلى الأمام، وهذا مما يفسر أسرار الازدهار الفكري السريع الذي حققه المسلمون في إسبانيا [1]، على قلة اتصالهم بمنابع الثقافة القديمة والوسيطة في العالمين الإسلامي والمسيحي. لقد ضربت المسيحية بجذورها في إسبانيا بشكل سريع. ففي مطلع القرن السادس أخذت إسبانيا تشهد إقامة الأديرة بشكل واسع النطاق ويقيم فيها الرهبان للدراسة والتبشير، كما كانت الكنائس قائمة ويديرها قساوسة يمتهنون الكتابة والتأليف، وكما سبق الإشارة على القس القوطي ماسونا [2] ودوره الكبير في نشر المسيحية ونزعاته الإنسانية واجتهاده في تهذيب المتبربرين ونشر مبادئ الأخلاق المسيحية فيهم، ويعد القديس لياندرو [3] دارساً مجتهداً، وقد ترك آثاراً فكرية رائعة [4]. وأكبر شخصيات هذا العصر مكانةً في مستقبل إسبانيا الثقافي هو القديس إيزودور الأشبلي، ولم يكن قوطياً وإنما من الأيبيريين الرومان، ولم يكن كاتباً دينياً فقط، بل كان مصنفاً موسوعياً، حاول أن يجمع في كل كتبه كل ما انتهى إليه من علوم اليونان والرومان بتعديلات مسيحية، وهو يعد من هذه الناحية من كبار الكُتّاب والمفكرين المسيحيين، بل إنه أكبر آباء الكنيسة، وكتاباته تنحو نفس نمط كتابات القديس أوغسطين، ومن أعظم وأشهر كتبه الباقية هو كتاب أصول الكلمات، وهذا الكتاب يُعد موسوعة أخلاقية تضم ثروة عظيمة من الأفكار اليونانية والرومانية

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 28.

(2) توفي عام 571 م.

(3) توفي عام 603 م.

(4) من آثاره رسالة صوفية مسيحية تشبه كتابات القديس أوغسطين، مادتها مقتبسة من الإنجيل وقد كتبها وهو متوحد في نواحي ماردة وقد كانت آنذاك قفراء لا يسكنها إلا القلائل.

والفلسفة المسيحية الأولى[1] وهو يعالج في الأجزاء الثلاثة الأولى الفنون السبعة: النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلك، والجزء الرابع خصصه للطب، والخامس للقانون والتاريخ. وأما الجزء السادس فجعله للإنجيل وغيره من الكتب الدينية. وهكذا فقد خصّ كل لون من المعارف الإنسانية بجزء، ولم يهمل الفنون اليدوية كالنجارة والهندسة والموازنين والمكاييل والألعاب. مما جعل هذا الكتاب موسوعة غنية بكل غريب وطريف، تدل على أن جميع ألوان المعرفة الإنسانية التي كانت موجودة قد وصلت إلى إسبانيا وعرفها المجتمع الإسباني ودرسها، إذ أن العرب المسلمين الذين فتحوا إسبانيا قد وجدوا فيها تراثاً ثقافياً رائعاً [2].

ومع القديس إيزودور الأشبيلي عدد عظيم من القساوسة والرهبان الذين تركوا مؤلفات شتى، منهم باولوس أورزيوس قسّ لوزيتانية، ولم يكن من أصل إسباني وإنما كان صقلياً وهو من تلاميذ القديس أوغسطين أسقف بونة، أخذ عنه العلم وتشبّع بآرائه وهو لهذا يكتب على غراره، يهاجم الوثنية ويدعو إلى الله. وما عدا الآداب من الفنون، فإن القوط لم يخلفوا ثروة معمارية مثل ثروتهم الأدبية، فكانت فقيرة، ومن أمثلة هذا الطراز بازيليكية سان خوان دبانيوس التي بنيت في عصر رخشندش وجزء من كنيسة سان بدور دتاراسا وبعض الأعمدة الباقية في كنيسة سان بابلو دل كامبو في برشلونة، وكذلك العقد المخمس.

وهنا يجدر بنا القول في أن تاريخ إسبانيا في عهد القوط الغربيين لم يكن شراً كله كما يذهب بعض المؤرخين الفرنسيين والعرب، وكذلك لم يكن خيراً كاملاً مثلما أوضحنا لبعض آراء الإسبان المتعصبين، ونستطيع أن نلاحظ أن الجوانب الاجتماعية ضعيفة جداً لأنها تعد من امتدادات العصر الروماني السابق، ولأن القوط أنفسهم

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 29.

(2) وهو عكس ما يدّعيه معظم الكتّاب العرب من سوء أحوال المجتمع الإسباني على كافة الأصعدة، وإن إسبانيا كانت على قدر كبير من الفوضى والتخلف الفكري والسياسي والاجتماعي.. الخ.

قبائل بربرية لا تملك الأسس الاجتماعية لتجعلها تقيم تنظيماً في بلد واسع كإسبانيا المختلف الأعراق، أما من الناحية الفكرية فقد كان للأسبان الأصليين بعد أن دخلوا المسيحية وتأثروا بأفكارها وفلسفتها أثراً كبيراً في ازدهار الحالة الفكرية والأدبية كما أشرنا. ولا عجيب أن يظهر في إسبانيا البلد البعيد رجال من طراز إيزودور الأشبيلي وباولوس وليانذرو، لأن إسبانيا كانت موطن حضارة فكرية وفلسفية باقية الأثر من عهد الرومان، ولقد سبقت إسبانيا المسيحية أوروبا الغربية كلها من هذه الناحية[1].

الأصل اللغوي لإسبانيا والأندلس

يبدو أن الالتباس لم يحصل في وقائع التاريخ الإسباني واستنتاجات الباحثين حوله، بل إن الأمر شمل المسميات العديدة التي أُطلقت على شبه الجزيرة هذه، فقد عرفت في التاريخ القديم بشبه جزيرة أيبيريا أو (إيبارية) حسب التعبير العربي.

وعندما جاء الرومان أطلقوا اسم (أشبانية) أو (أصبانية)[2] وقد تحوّل هذا اللفظ في لغة القرون الوسطى الرومانسية إلى (Espana) ومنها اتخذ العرب هذا الاسم إسبانيا. ويذهب أحد الباحثين[3] إلى أن المدلول والحقيقي والمتداول حتى اليوم يقصد به جزء فقط من إسبانية، وهو ذلك الجزء الممتد إلى الجنوب ويضم المدن التي شغلت أدواراً سياسية في أيام العرب مثل قرطبة وأشبيلية وغرناطة ومالقة وغيرها، فلم يكن العرب يتداولون سوى لفظة الأندلس في التعبير عن إسبانية. وتحمل إلينا كتب التاريخ معلومات مبهمة أحياناً وأسطورية تارة أخرى في تفسيرها لهذه الأسماء. فأشبانية يعتقدون أن لها مدلولاً جغرافياً بمعنى البلاد الواقعة إلى الغرب،

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 31.

(2) البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا، تحقيق عبدالرحمن الحجي، ص 58.

(3) إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 62.

أو أنها مشتقة من (أشبان) الاسم الأول لأحد ملوك الأندلس القدماء[1]. أما أيبيريا فيعتقدون إنها لشعب شارك في استيطان هذه البلاد فعُرفت باسمه.

كذلك عرفت شبه الجزيرة ببيرينايكة، وكذلك أطلق اسم أوفيوسا، بلد الحيّات، وكانت هذه التسمية الأخيرة معروفة لدى الرومان وهؤلاء أطلقوا عليها اسماً جديداً (هسبانيا) وهذه التسمية جاءت من الأصل الفينيقي (اصفانيتم) التي كانت تعني بلغتهم (شاطئ الأرانب). وفي نهاية حكم الرومان لتلك المنطقة قلّ استعمال كلمة شبه جزيرة أيبيريا وحلّ محله مصطلح إسبانيا وهي التسمية الشائعة إلى اليوم.

ويرى المقرّي[2] إن أول من سكن بالأندلس على قديم الأيام فيما نقله الإخباريون.. قوم يعرفون بالأندلش - معجمة الشين - بهم سُمي المكان، فعُرّب فيما بعد بالسين غير المعجمة، كانوا هم الذين عمّروها وتناسلوا فيها، وتداولوا ملكها دهراً على دين التمجسّ والإهمال والإفساد في الأرض. ثم أخذهم الله بذنوبهم.. فهلك أكثرهم، وفرّ من قَدر على الفرار منهم، فأُقفرت الأندلس منهم وبقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة وبضع عشرة سنة.

كما ينقل المقرّي عن ابن سعيد تفسيراً أسطورياً لهذه التسمية إذ قال بأنها سميت نسبة إلى الأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح لأنه نزلها [3].

كما أطلق المسلمون لفظة الأندلس على معظم أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية التي حكموها [4]، إذ لم يبقَ خارج حكمهم آنذاك إلا بعض المناطق الشمالية الغربية التي تعتبر جزءً من استوريس وجليقية.

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية، 3/ 35.

(2) المقرّي، نفح الطيب، ج 1، ص 130.

(3) المقرّي، نفح الطيب، ج 1، ص 125.

(4) احمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 19.

ولقد أخذ المسلمون هذه التسمية من قبائل الوندال الجرمانية الذين حكموا جنوب إسبانيا، فسميت هذه المنطقة فندليا نسبة إليهم، وحرّفها العرب إلى الأندلس، وقد مرّت هذه الكلمة بمراحل صوتية ثلاث: الأولى (فندلس) كما تدل صورة الكلمة في حروفها اللاتينية، وكما يدل كذلك النطق الإسباني للكلمة فندلوس Vandalos والمرحلة الثانية (وندلس) كما يدل عليها نطق الكثيرين للكلمة بالواو بدلاً من الفاء المجهورة التي يرمز إليها عادة بالحرف (V). والمرحلة الثالثة هي نطق المسلمين لها حيث قالوا (أندلس) بإبدال الهمزة بالواو كما هو مألوف في اللغة العربية[1].

لقد أردنا من خلال طرح هذه الآراء المتباينة حول الأصل اللغوي لكلمة إسبانيا والأندلس ووصولها إلى العربية بهاتين الاسمين، أن نزيح بعض الالتباس الذي يحصل عند ذكر إسبانيا مقترنة بالأندلس أو العكس. وكما بيّنا أن كلمة الأندلس قد استخدمها العرب بعد الفتح الإسلامي فيما كانت إسبانيا هي التعبير العربي عن شبه جزيرة أيبيريا.

لمحة عن جغرافية إسبانيا

تقع إسبانيا في الجنوب الغربي من القارة الأفريقية، أي في غرب العالم العربي وتبلغ مساحتها (600.000) كيلو مربع[2]، وتشكل إسبانيا الحالية خمسة أسداسها في حين تشكل البرتغال سُدسها الباقي. يحدّها من الغرب المحيط الأطلسي، ومن الجنوب مضيق جبل طارق[3] وجزء من البحر المتوسط الذي يحاذيها ممتداً إلى الشرق، أما في الشمال فتحدّها فرنسا التي كان العرب يطلقون عليها بلاد الفرنجة.

---

(1) احمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص 13-14.

(2) حاملة، محمد عبده، ملامح حضارية في الأندلس، ص 182.

(3) تسمية المضيق هذه جاءت بعد الفتح الإسلامي لإسبانيا.

وينفصل بين شمال إسبانيا وفرنسا سلسلة جبال البرت، وكانت تسمى بالجبل الحاجز، لصعوبة مسالكها[1]. وفي أقصى الشمال الغربي تمتد سلسلة جبال كنتبريان، ويرتفع في وسطها وشمالها هضبة (سيرا)[2] أي سلسلة جبلية باللغة الإسبانية وينبع منها نهر دويرة، ونهر تاجة الذي تقع عليه مدن طليطلة وشنترين وأشبونة ويصب هذا النهر في المحيط الأطلسي، وينبع نهر شقر ونهر الوادي الكبير من جبال شقورة، الأول يصب في البحر الأبيض المتوسط، والثاني في المحيط، وعليه تقع المدن الكبيرة قرطبة وقرمونة وإشبيلية. وينفصل الجنوب والجنوب الشرقي عن وسط البلاد وشمالها سلسلة جبال نيفادا [3]، ويطل هذا الجبل على مدينة غرناطة، ومن جبال نيفادا ينبع نهر حَدارة وسنجل اللذان يشقان غرناطة.

ولقد عرف المؤرخون العرب بعد فتح شبه الجزيرة أيبيريا (إسبانيا) من قبل المسلمين. إن هذه البلاد لها وجهان في اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها (أندلس) غربي و (أندلس) شرقي، فالغربي منها ما جرت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط[4]، والشرقي ما صبّت أوديته في البحر الرومي (وكان يسمى ببحر الشام وهو البحر الأبيض المتوسط). وذلك ما بين مرسية وسرقسطة. فالشرقي منها يمطر بالرياح الشرقية، أما الغربي فيمطر بالرياح الغربية، وجباله هابطة إلى الغرب جبلاً بعد جبل، وأوديته تجري من الشرق إلى الغرب بين هذه الجبال[5]. ويضيف بعض المؤرخين إلى هذا التقسيم قسماً ثالثاً، هو وسط (الأندلس) وكان يضم من المدن المهمة مثل طليطلة،وقرطبة، وجيان، وغرناطة والمرية ومالقة[6].

---

(1) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص 11.

(2) أطلق المسلمون عليها بعد الفتح اسم جبل الشارات.

(3) والتي عرفت في العهد الإسلامي بجبال الثلج، أو جبل شلير، لأن الثلج لا يبارح قممها صيفاً وشتاءً.

(4) هو المحيط الأطلسي، أو بحر الظلمات، ويسمي الأقيانوس.

(5) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج 4، ص 195.

(6) المقرّي، نفح الطيب، ج 1، ص 128-129.

ومن المدن المهمة في شرقي إسبانيا هي: مرسية، وأويولة، ودانية، وشاطبة، وبلنـــية، وطرطوشة، وطركونة، وبرشلونة، وسرقـطة. ومنها في الغرب إشبيلية، وماردة، واشبونة، وشِلب.



الفصل الثاني

- الطبيعة الجغرافية والبشرية للمغرب
- لمحة عن تاريخ المغرب
- مراحل الفتوحات العربية
- البداية الأولى
- برقة أول خطوة للفتوحات
- استئناف الفتوحات في العهد الراشدي
- واقعة سبيطلة
- فتوحات العصر الأموي
- عهد الفتوحات المنظم
- أبو المهاجر الأنصاري ودوره في قيادة الجيش الإسلامي
- ولاية عقبة بن نافع الثانية
- فتوحات الأمويين في عهد آل مروان
- جيوب المقاومة
- بناء قاعدة بحرية
- موسى بن نصير

الفصل الثاني

كلمة لابد منها

لا يمكن للباحث في التاريخ الإسلامي والعربي في الأندلس، أن يهمل مفصلاً حيوياً في مسيرة الزحف الإسلامي من الشرق إلى الغرب. والذي تمخض عن إزالة أهم عقبة في طريق المسلمين للوصول إلى إسبانيا (الأندلس فيما بعد) وهو فتح بلاد المغرب. التي تعتبر البوابة الرئيسية لنشوء دولة الإسلام في شبه الجزيرة هذه. إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الصعوبة البالغة التي واجهتها الجيوش الإسلامية في فتح هذه البلاد، والذي يرجع تاريخها إلى العهد الراشدي وعلى عكس ما حدث في جبهات الشام والعراق ومصر، فضلاً عن الانهيار السريع للإمبراطورية الفارسية في أقل من عشر سنوات، نجد أن المغرب تخرج من هذه القاعدة العسكرية الإسلامية التي تميزت بالحرب الخاطفة في وقت يسير وجيوش متواضعة العدد. فقد أصيبت الجيوش الإسلامية بنكسات متلاحقة قبل أن يتم لها فتح المغرب، وذلك يرجع إلى أسباب عديدة أهمها الصراعات الداخلية في جسد الدولة الإسلامية[1] والطبيعة الجغرافية ذات الأرض الوعرة والقبائل البربرية التي عُرفت بشدة البأس في القتال وتمسكها بطبيعتها القبلية التقليدية، واحترافها لأساليب الحرب الخاطفة والتي تفوقوا فيها على العرب الذين يجيدون هذا النوع من القتال، كما أن معرفتهم الدقيقة بجغرافية أرضهم وتنوعها قد سبّبت للعرب والمسلمين متاعب ظهرت واضحة بطول فترة استكمال الفتح الإسلامي للمغرب والتي استمرت سبعين عاماً على حد تقدير المؤرخين العرب، كما أن تدخل العناصر الأجنبية مثل الدور الذي قامت به المراكز البحرية

---

(1) إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 21.

البيزنطية على الساحل الأفريقي[1] كان هو الآخر سبباً لإعاقة الزحف الإسلامي لفتح بلاد المغرب.

كما أن غموض المعلومات التي قدمتها المصادر التاريخية وتطرف بعضها إلى حد جعلها تنحو منحىً أسطورياً في تفسير سبب الانتصارات الإسلامية في زحفها على بلاد المغرب، جعلنا نتوقف عند تاريخ هذه الحقبة المهمة من تاريخ الحملات الإسلامية نحو فتح إسبانيا.

الطبيعة الجغرافية والبشرية للمغرب

يرجع تسمية المغرب إلى وقوعها في مغرب الشمس وهو مصطلح جغرافي عام يُطلق على البلاد الواقعة في اتجاه الغروب، مثلما يطلق على المشرق الواقع في اتجاه شروقها، كما يُطلق اسم المغرب عادةً على الأراضي الواسعة والبعيدة التي تقع إلى الغرب من مصر حتى المحيط الأطلسي، بحيث تنتشر بمحاذاة البحر المتوسط في الشمال، وتتوغل في عمق الصحراء الكبرى إلى الجنوب. ومدلول الكلمة جغرافياً هو تلك البلاد الواقعة إلى الغرب من الدولة الإسلامية الأولى، ولكن الاختلاف في وضع المغرب في هذا الإطار الجغرافي كان واضحاً، فمرّة يُتناول (اسم المغرب) كل الأقاليم الغربية من الشمال الأفريقي بما فيها ليبيا وتونس والجزائر والمغرب (بأسمائها الحالية)[2]، ومرة يستثنى منه ليبيا أو برقة (الاسم القديم) ويقتصر على الأقاليم الثلاثة، هذا إذا لم تتوزع ليبيا أحياناً بين مصر وتونس فتتجه برقة إدارياً إلى مصر بينما تتجه طرابلس إلى تونس[3].

---

(1) نفس المصدر، ص 15. انظر أيضاً: الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 25.

(2) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص 3.

(3) عبد الحميد العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، ص 20.

وإذا كانت كلمة المغرب قد أصبحت أكثر تحديداً الآن باشتمالها على تونس والجزائر والمغرب أو ما يعرف بالمغرب العربي الكبير، فإن مدلولها التاريخي منذ القرن السابع الميلادي كان يتناول[1] كل الأقاليم الواقعة بين مصر في الشرق والمحيط الأطلسي في الغرب[2].

ولقد نهج أغلب المؤرخين على تقسيم بلاد المغرب إلى أربعة أقسام وذلك ضمن المفهوم الإداري الذي اقتضته إجراءات الدولة في ذلك الزمن:

1- برقة وطرابلس.

2- المغرب الأدنى أو أفريقيا (تونس حالياً وبعض المناطق الشرقية من الجزائر) وكانت القيروان العاصمة السياسية لهذا الإقليم في أيام الأمويين، ثم تغيرت مع التغيرات في النفوذ السياسي فأصبحت (المهدية) في أيام الفاطميين و (تونس) في أيام الحفصيين.

3- المغرب الأوسط (الجزائر حالياً)، وكانت (تاهرت) أشهر مدنه حيث اتخذها الخوارج الأباضيون عاصمة لدولتهم الرستمية، وتلمسان عاصمة بني زيان، وأخيراً الجزائر عاصمة بني مزغنة.

4- المغرب الأقصى (المملكة المغربية الحالية)، وهو الإقليم الواقع في أقصى الولاية الأفريقية الذي يطل على البحر المتوسط شمالاً والمحيط الأطلسي غرباً، وكان المغرب الأقصى أرضاً خصبة، أكثر من أي إقليم آخر. ومن أشهر مدنه (فاس) عاصمة الدولة الإدريسية و(مراكش) عاصمة المرابطين والموحدين والسعديين، وحالياً (الرباط) عاصمة مملكة المغرب.

ويحتل المغرب العربي موقعاً جغرافياً وحربياً متميزاً بين البلاد العربية، فهو على صلة مع أفريقيا وأوروبا. وتؤلف بلاد المغرب بأقسامها الأربعة وحدة جغرافية

---

(1) حسب ما أوردته مصادر المؤرخين والجغرافيين القدامى.

(2) انظر: إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 13-14.

مستقلة عن غيرها، فقد كانت وما تزال ترتبط جميعاً بروابط طبيعية وسكانية وثيقة. وإذا نظرنا في الطبيعة الجغرافية للمغرب لوجدنا أنها تشكل كتلة واحدة متشابهة إلى حد كبير في التضاريس والبيئة والمناخ، وحتى الظروف الاجتماعية، فهناك سلاسل جبلية ضخمة تخترق البلاد من الغرب إلى الشرق، تربط ما بين المغربين الأقصى والأدنى، حيث ترتفع في الشمال سلسلة جبال الريف من المحيط إلى تلمسان على محاذاة سهول ساحلية ضيقة وهي جبال متوسطة الارتفاع[1] وتعرف هنا بأطلس العظمى، لأنها الجزء الأكثر ارتفاعاً وضخامة من هذه السلسلة. ثم يتفرع منها قسم جنوبي متوسط الارتفاع أيضاً يُعرف بأطلس الداخلية أو أطلس الصحراء، وقسم شمالي له نفس الارتفاع تقريباً، يعرف بأطلس الوسطى.

أما السهول فتقع غالباً على ساحل المحيط الأطلسي وساحل العدوة والبحر الأبيض المتوسط، وأشهرها سهل (شاوية ودكاله وعبده) في المغرب الأقصى، أما السهول الداخلية في المغرب الأدنى فتكاد لا تذكر لضيقها، وذلك بسبب اقتراب الجبال من الساحل التونسي، وهناك سهول تكونت حول وديان صغيرة تجري فيها الأنهار، منها سهل (ماكنة وسيل زبق بوهران) وسهل (وادي شليف) في المغرب الأوسط، وسهل (وادي مجردة) في المغرب الأدنى، وسهلا (فاس ومكناس) في المغرب الأقصى، وكلا هذين السهلين مرتفع، كما أن هناك مجموعتان من السهول الداخلية: الأولى تمتد من مصب نهر تنسيفت إلى وادي ملوية، ويشتمل على السهل المطل على المحيط وسهول سبو، وحمر نازة وسهول ملوية الدنيا التي تؤلف الطريق الطبيعي ما بين أطلس والمغرب الأوسط، والثانية تشتمل على سهل الحوز الذي يخترقه نهر تنسيفت ثم منخفض تادلا، أما المغرب الأدنى فيشتمل على سهول داخلية تقع حول الواحات[2]. وتقوم كل هذه السهول برفد الأراضي الزراعية بالماء، وتشكل سواحل المغرب أهمية كبيرة لما تحتويه من موانئ ومياه وثروة سمكية.

---

(1) صلاح الدين الشامي، الوطن العربي، دراسة جغرافية، ص 71-72.

(2) د. سيد سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم، ص 16.

وأما الصحراء الشرقية فهي تكوّن مع جبال الأطلس الشرقية امتداداً يستمر إلى تونس، بينما توالي الصحراء الامتداد لتنتهي عند نهاية الحدود المصرية الشرقية، والصحراء الجنوبية التي شهدت بدورها تقلبات خطيرة طبيعية وبشرية واقتصادية، كما كانت ذات نشاط اقتصادي، يظهر جلياً في منطقة (سجلماسة) التي شهدت تجمع تجار من العراق والشام إلى جانب التجار المحليين منذ القرن الثالث للهجرة.

ولقد كان للطبيعة الجغرافية لبلاد المغرب دورها المؤثر على طبيعة السكان الذين عرفوا بصلابتهم ومهارتهم في القتال، والتي أشرنا إلى أنها كانت السبب في تأخر فتح المسلمين لبلاد المغرب[1].

لمحة عن تاريخ المغرب

قبل أن نستعرض طبيعة سكان المغرب وظروف حياتهم، نود أن نعرج على الشعوب التي مرّت على هذه المنطقة منذ خضوعها للرومان حتى الفتح الإسلامي، ففي أعقاب الاضطراب الذي أصاب الإمبراطورية الرومانية وانقسامها إلى إمبراطوريتين[2]، حيث شهد القسم الغربي منها اهتزازات داخلية عنيفة منذ مطلع القرن الخامس الميلادي، بدأت باقتحام قوات البرابرة والتي انتشرت في الأجزاء الغربية من الإمبراطورية الرومانية بشكل خاص، تلك التي امتد تأثيرها على سواحل المغرب ولا سيما قبائل الوندال، التي سيطرت على إسبانيا حتى مجيء القوط الغربيين، الذين أبعدوهم إلى المناطق الساحلية الممتدة من طنجة غرباً إلى طرابلس شرقاً. وكان لابد للبربر أن يدعوا السواحل مرة أخرى لهؤلاء الغزاة الذين عرفتهم تلك المنطقة من البحر المتوسط بأنهم أكثر شعوب الجرمان صلافةً وجراةً، ولكن ذلك لن يتجاوز القرن من الزمان (إذ استعاد البيزنطيون المغرب من الوندال سنة 534م بقيادة بليزاريوس). وعادت المغرب إلى دائرة الإمبراطورية الرومانية التي أصبحت

---

(1) د. بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 15.

(2) أحدهما في الشرق اتخذت من القسطنطينية مركز لها، والثانية ظلت في روما العاصمة القديمة للإمبراطورية الرومانية.

تحمل اسمها الشرقي وهو الإمبراطورية البيزنطية. وهذه هي صورة الوضع البشري للمغرب قبل الفتح الإسلامي حيث يشكل سكان الداخل من البربر وهم الأغلبية العظمى وسكان السواحل الذين كانوا عادةً من أصحاب النفوذ والقوة. ومن الملاحظ أن هناك نوعين من السكان:

أ) الوافدون من البيزنطيين، وهم الذين ورثوا ممتلكات الرومان على سواحل البحر الأبيض المتوسط ومنها هذه المنطقة، وقد ساروا على نهج أسلافهم بإقامة قواعد بحرية محصنة على السواحل وهم يشكلون نسبة ضئيلة من مجموع سكان المغرب.

ب) السكان الأصليون الذين عرفوا بالبربر وكانوا يمثلون الأغلبية الساحقة من سكان البلاد.

وبالإضافة إلى هاتين الفئتين فقد عرف المغرب عناصر أخرى غير واضحة الهوية بالتحديد وإن كان المؤرخون يطلقون عليهم (الأفارقة وهم على ما يبدو خليط من سكان السواحل القدماء ومن بعض الشعوب المستعمرة وكانت هذه العناصر تخضع مباشرة للحكم البيزنطي[1].

ولقد اختلف المؤرخون وعلماء الأنساب في تحديد هوية البربر، أهي حامية أم سامية أم خليطاً من الاثنين؟ وقد اختلفوا كذلك على المصدر الأساسي الذي جاءت منه هذه الجماعات إلى المغرب. يذكر بعض المؤرخين بأنهم أي البربر وفدوا من آسيا في وقت مبكر، ومنهم من يرى بأنهم أوروبيون في الأصل استوطنوا المغرب منذ عصور سحيقة[2].

ورغم اختلاف المؤرخين وعلماء الأنساب في الانتماء العرقي والجغرافي للبربر فإنهم متفقون على ترتيبهم في مجموعتين كبيرتين، لكل منهما نمط حياتي مميز مرتبط بعوامل اجتماعية محددة:

---

(1) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب والأندلس، ص 34.

(2) عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير ص 133.

أ) البرانس، وهم البربر الذين يسكنون في الأراضي الخصبة ويمارسون أعمال الزراعة وبعض الأعمال الحرفية الأخرى، وقد نالوا بفضل هذه المزايا واتصالهم مع الشعوب الأخرى نصيب وافر من التطور، وقد أُطلق عليهم اسم (البربر الحضر).

ب) البتر، وهم سكان البوادي والخيام وهم بدو رُحّل احترفوا الرعي واشتهروا بالغزو على مناطق الحضر.

ولكن هذا التقسيم لا يمكن الجزم به بشكل مطلق وذلك لأن قبيلة زناتة البترية الأصل كانت على حد قول ابن خلدون أكثر قبائل البربر حضارة وعمراناً [1] ولذلك يجعل هذه القبيلة فرعاً مستقلاً عن باقي البربر.

وأصل كلمتي (برانس وبتر) كما يشير بعض المؤرخين جاء من شكل الملابس التي يرتدونها، فالبرانس نسبة إلى (البرنس): وهو لباس أبيض عادة يغطي الجسم من الرأس حتى القدمين، الذي كانوا يرتدونه. أما البتر فيرتدون هذا اللباس دون غطاء الرأس أي مبتور ومنها جاء اسم البتر، ولا نعرف مدى الحقيقة وراء هذا التفسير الطريف كما يشير أحد المؤرخين[2]، كما يذهب البعض إلى أن هذا تفسير لغوي لا يقوم على أساس متين فليس شرطاً أن يكون البرنسي مرتدياً للبرنس والأبتر عارياً منه[3]. ولا يمكن الجزم كذلك بصحة النظرية التي تقول إن البرانس والبتر يمثلان عرقياً فئتين مختلفتين وهما الوافدة والعناصر الأصلية[4]. ويمكن ترجيح انقسام البربر إلى عوامل اجتماعية أكثر من أية عوامل أخرى، إذ أن هذا الترجيح للعوامل الاجتماعية سيقود إلى استبعاد الاختلاف العرقي بين المجموعتين وكما يتبناه بعض الباحثين[5].

---

(1) د. السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم، ص 19، والحاشية رقم (1).

(2) العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، ص 31.

(3) د. السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص 19.

(4) حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص 21.

(5) إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 20.

وينقسم البربر (البرانس) إلى سبع قبائل هي: أورتة، وصنهاجة، وكتامة، ومصمودة، وعجيبة، وأوريغة، وأزداجه، وقيل عشرة قبائل إذ يضيف إليها بعض المؤرخين قبائل لمطة، وهسكورة وجزولة، كما هي عند ابن خلدون. وتعتبر صنهاجة أكبر قبائل البربر حتى قدّروها بثلث سكان مجموع البربر، وكان منهم بنو زري بن مناد، والملثمون (المرابطون)، وقد عرفت قبيلة صنهاجة بطابع البداوة وتفرقت في أنحاء كثيرة من المغرب، وأن أكبر فروع صنهاجة في الغرب هي قبيلة زناجة التي تعيش على جبال أطلس المتوسط، جنوبي نازة حتى منطقة بني ملال. واحتلت بعض قبائل صنهاجة جزءً هاماً من إقليم الريف. بينما سكنت قبائل أخرى منها في منطقة آزمور.

أما قبيلة كتامة، فقد لعبت دوراً هاماً في قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب، وتعتبر مصمودة من أهم قبائل بربر البرانس، حتى أن بعض المؤرخين جعلها فرعاً قائماً بذاته. ومن قبيلة مصمودة، غمارة التي تحتل منطقة العدوة من الريف، وبرغواطة أهل تامسنا، وأهل جبل درن، وكانوا يعيشون فيما بين بورجرج وأم الربيع. ومن المصامدة المستقرين في السهول (دكالة) جنوب وادي أم الربيع، ورجراحة على وادي تنسيفت، وجميع المصامدة متحضرون، قد تعودوا حياة الاستقرار في المدن.

أما بربر البتر، فيقسّمون إلى أربع قبائل هي: ضريسة، ونفوسة، وأداسة، وبنو لواي أو لوانة، وتنقسم ضريسة إلى مكناسة وزناتة، ويعتبر ابن خلدون قبيلة زناتة فرعاً من البربر قائماً بذاته[1] ومن زناتة جراوة ومغرارة وبنو يفرن، وبنو زيان، وبنو مرين.

وينقسم البربر من حيث الجنس إلى نوعين مختلفين:

الأول: والذي يؤلف الغالبية الساحقة من سكان بلاد المغرب يتميز بلونه الأسمر، وشعره المجعد ورأسه المستدير وخدّيه البارزين، وأنفه القصير وجبهته المقوسة، وهي صفات تتوفر في سكان جنوبي إسبانيا وإيطاليا وفرنسا.

---

(1) د. السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص 20.

الثاني: يقتصر على سكان الريف والشلوح في المغرب الأقصى وسكان جبل جرجرة في المغرب الأوسط، ويتميزون بشقرة لون الشعر، وزرقة العينين، واستطالة الرأس ودقة الأنف ورقة الشفتين وتسطح الجبهة[1].

ونكتفي بهذا القدر من دراسة الجوانب الجغرافية والسكانية والعرقية لبلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي.

مراحل الفتوحات الإسلامية في المغرب

يمكن اعتبار فتح المغرب هو التحوّل المهم في تاريخ الإسلام العسكري، لأنه شهد تحولاً في استراتيجية الإسلام الحربية والتي كانت تعتمد على نظام الحرب الخاطفة واستخدام عدد قليل من الجند كما كان يحدث في الفتوحات الإسلامية في الشام والعراق، وحتى مع الإمبراطورية الفارسية التي انهارت في أقل من عشرة أعوام.

ففتح المغرب كما بيّنا سابقاً كلّف المسلمين ضحايا هائلة في الأرواح وقد استغرق حوالي سبعين عاماً، وقد كانت الطبيعة الجغرافية وصلابة البربر هي من العوامل الأساسية التي حالت دون الزحف السريع للجيوش الإسلامية، ناهيك عن المتاعب الداخلية في مركز الخلافة الإسلامية، ولقد تم للمسلمين فتح بلاد المغرب على مراحل سوف نحددها بالآتي:

البداية الأولى

تذهب المصادر التاريخية على أن البدايات الأولى للتفكير في فتح المغرب تعود إلى مطلع العقد الثالث من القرن الأول للهجرة بعد سيطرة القائد عمرو بن العاص على مصر. ولأن عمرو بن العاص كان قائداً عسكرياً متمرساً فقد رأى أن من الضرورة أن يؤمن حدود دفاعية تقي مصر من هجمات خارجية، وذلك لأهمية مصر

---

(1) محمد محي الدين المشرقي، أفريقيا الشمالية، ص 26.

في تاريخ الفتوحات الإسلامية[1]، (وهذا يؤكد وجهة النظر التي تذهب إلى أن فتح المغرب كاملاً وبالتالي فتح إسبانيا كان من ضمن مخطط مدروس من قبل القيادات الإسلامية)[2]. لذا فقد سارع عمر بن العاص إلى متابعة السير غرباً إلى برقة أو ما كان يعرف قديماً (أنطابلس) والمعنى اليوناني لها، المدن الخمسة[3]، وتشير بعض المصادر إلى أن عمرو بن العاص لم ينتظر حتى ينتهي من فتح مصر، ويتفرغ لفتح برقة، فبادر إلى إرسال عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة استطلاعية إلى برقة، ويبدو أن عمر بن العاص قد اطمأن على تقرير عقبة بن نافع عن الوضع في برقة، فعجّل بفتحها [4]. وهناك عامل يدعم وجهة النظر التي نؤيدها في عدم وجود خطة استراتيجية لفتح المغرب كاملاً، وهو أن الخليفة عمر بن الخطاب كان متشدداً في أوامره لعدم التوغل بعيداً في بلاد لا تزال مجهولة على المسلمين بعد فتح مصر، وضرورة الاكتفاء بوجود قواعد لتأمين السيادة على مصر وضمان عدم تهديدها من أيّ اعتداء خارجي.

برقة أول خطوة للفتوحات

بعد أن اطمأن عمرو بن العاص على سهولة فتح برقة، والتي كانت حينذاك أشبه بولاية بربرية مستقلة عن الإمبراطورية البيزنطية[5] في حين يرى بعض الباحثين أن برقة كانت تابعة من الناحية الإدارية لمصر منذ زمن الإمبراطور موريقس[6]. ويبدو أن الرهبة التي أصابت أهل برقة من جراء فتوحات المسلمين في مصر قد ساعدت في استسلام هذه المدينة التي عُرفت بصلابة أهلها ونزوعهم إلى الاستقلال، كما ظهر

(1) بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 21.

(2) هذه النظرية لا نؤيدها تماماً، ونتفق مع الباحثين الذين رفضوا هذه الفكرة من الأساس.

(3) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، 1/ 244.

(4) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، ج 1، ص 8.

(5) د. السيد، تاريخ المسلمين، ص 26.

(6) د. صالح أبو دياك، الوجيز في تاريخ الأندلس ص 64.

ذلك من خلال مقارعتهم للبيزنطيين وإجبارهم على الاعتراف بسيادتهم على برقة، فقد دخل عمرو بن العاص برقة (بوابة المغرب الرئيسية) دون مقاومة تذكر وأقرّت له السيادة مقابل ضريبة سنوية حُددت بثلاثة عشرة ألف دينار.

ومن هذه المدينة تابع عمرو بن العاص زحفه بمحاذاة الساحل إلى طرابلس، وهي مدينة محصّنة بالأسوار البيزنطية من كافة الجهات باستثناء الجهة المطلّة على البحر، ولكن طرابلس سقطت بعد شهر من حصارها، وذلك بفضل الخطة العسكرية التي أوجبت مهاجمتها من جهة البحر ونجاح المتسللين في إنجاز مهمتهم. وبهذا الانتصار العسكري في برقة وطرابلس اكتفى موقع الخلافة الإسلامية بهذه النجاحات. وأمر قائد الحملة عمرو بن العاص بالعودة إلى مصر وفي هذه الأثناء، إذ لم يمرّ سوى عام واحد حتى قُتل الخليفة عمر بن الخطاب، واستلم الحكم الخليفة عثمان بن عفان، فعزل القائد عمرو بن العاص عن ولاية مصر وعيّن قريبه عبد الله بن سعد بن أبي سرح[1]، ولقد عمل القائد الجديد بعد استقراره في الفسطاط على بعث كتائب استطلاعية لدراسة الموقف لاستئناف الفتوحات وكان يراسل الخليفة عثمان بشأن إمكانية القيام بحملات جديدة[2]. ويبدو أن الخليفة كان متردداً أول الأمر وذلك لرفض عمر بن الخطاب التوغل في بلاد لا يعرف عنها المسلمون الكثير إذ أمر قائده عمر بن العاص بالتوقف كما رأينا من قبل.

استئناف الفتوحات في العهد الراشدي:

لم يطل تردد الخليفة عثمان طويلاً، إذ أنه كان بحاجة ماسة إلى فتوحات إسلامية جديدة لزيادة هيبة دولة الخلافة التي كانت تعاني من مشاكل عديدة، فبعد التشاور مع الصحابة الكبار والاستئناس برأيهم، قرر الخليفة إرسال كتائب عسكرية من المدينة على رأسها الحارث بن الحكم ومعه عدد كبير من زعماء المدينة ومنهم مروان بن

---

(1) هو أخ الخليفة في الرضاعة.

(2) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 37.

الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عباس وغيرهم[1]، وعندما وصلت القوة إلى مصر أُكملت بتعزيزات إضافية من حامية الفسطاط فارتفع عدد المقاتلين إلى نحو عشرين ألفاً. وبهذا الجيش الكبير توجه عبد الله بن أبي سرح إلى المغرب الأدنى قائداً عاماً لقوات المسلمين، وقد اتخذ الطريق الساحلي لسير القوات[2]، والذي أصبح الطريق التقليدي لحملات المسلمين العسكرية إلى المغرب، إذ تحاشوا الصحراء في الداخل وتعمدوا اتخاذ الخط الساحلي حيث المدن والحواضر العمرانية.

واقعة سبيطلة

بعدما وصلت أخبار تقدم الجيش الإسلامي إلى حاكم أفريقيا البيزنطية (جريجريوس)[3]والذي كان حكمه يمتد ما بين طرابلس وطنجة، وكانت عاصمته قرطاجنة، فبدأ بالاستعداد لمواجهة المسلمين فاستنفر كل قواته التي بلغت مئة وعشرين ألف مقاتل كما تشير المصادر التاريخية، كما استطاع تأليب مدينة طرابلس على العصيان والثورة على المسلمين في محاولة لإنهاك جيوشهم وهي في طريقها إلى سبطلة الذي كان القائد البيزنطي قد حشد قواته هناك. ولكن القائد الإسلامي رفع الحصار عن طرابلس وآثر التوجه إلى مركز السيادة البيزنطية مباشرة، وبهذا أفشل خطة القائد البيزنطي، ولقد دارت في سبطلة معركة تُعد من أعنف المعارك في تاريخ الحروب العربية - البيزنطية وقتل فيها القائد جريجوريوس وعدد كبير من جنوده ولاذ الآخرون بالفرار. ولقد استطاع المسلمون من الحصول على غنائم كبيرة، حتى أن عبد الله بن أبي سرح كما يذهب أحد الباحثين بأنه فُتن بسحر الغنائم[4] واقتنع بمجد الانتصار الكبير ورجع إلى مصر بعد غياب ستة أشهر. ويمكن أن يكون عبد الله قد

---

(1) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص 462.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص 246.

(3) يطلق عليه العرب (جرجير).

(4) مختار العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، ص 26.

تحسب من تطويق البيزنطين لجيشه وهو بعيد عن ولايته، ومع هذا الانتصار العسكري في هذه الواقعة فإنها لم تسفر عن أي تغير في الصراع على النفوذ في المنطقة بعد رجوع جيش المسلمين إلى مصر. ولكن من جهة أخرى كان لهذه الواقعة أثر كبير أصاب معنويات البيزنطيين في الصميم وكان عليهم منذ الآن أن يحسبوا بدقة لكل مواجهة مع المسلمين ويرى أحد الباحثين أن موقعة سبيطلة لم تفتح أمام العرب كل سهل تونس بل جزءاً محدوداً منه يحدده الخط الممتد من سبيطلة إلى سوسة من الشمال، ثم من سبيطلة إلى قفصة جهة الشرق، وشريط ساحلي ضيّق فيما بين قابس وشط الجريد من الجنوب[1]. ولقد كانت حملة عبد الله بن سعد إلى أفريقيا تمثل العمل العسكري البارز في عهد الخلافة الراشدي[2]، باستثناء بعض العمليات الصغيرة على الأطراف الجنوبية من مصر لم يحدث أي تحرك حقيقي وجاد على هذه الجبهة. وبعدها شُغل المسلمون بفتنة عثمان وما نتج عنها من اضطرابات أدت إلى مقتل عثمان في سنة 38هـ واستخلفه علي بن أبي طالب، ولم تشهد فترة حكم الخليفة الجديد والتي بلغت خمس سنوات أية فتوحات خارجية جديدة، لانشغاله بالحروب الأهلية.

فتوحات العصر الأموي

بعد أن انتهت المواجهات بين الخليفة علي بن أبي طالب ومعاوية في واقعة صفين واستقرار الأمر أخيراً إلى معاوية بن أبي سفيان، قرر إعادة عمرو بن العاص[3] على ولاية مصر ثانية، فقام عمرو باستئناف غزواته السابقة على برقة وطرابلس، تمهيداً لغزو أكبر، دون الاشتباك مع البيزنطين في معارك كبيرة. ولكن عمرو بن العاص قد توفي سنة 44 هـ (665 م). فرأى معاوية أن يفصل المغرب عن ولاية مصر، ويجعلها ولاية تابعة إلى الخلافة الأموية مباشرة، وأصدر معاوية أمراً بتعين حاكماً

---

(1) حسين مؤنس، فتح العرب المغرب، ص 99.

(2) د. إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 27.

(3) مكافأة له لدوره الحاسم في التحكيم في واقعة صفين لصالح معاوية.

على الولاية الجديدة وهو معاوية بن خديج وأمره بالسير عام 45 هـ إلى برقة لمباشرة عمله، ومعه أوامر باستئناف التحركات العسكرية في المغرب، وعند دخول معاوية بن خديج إلى الفسطاط استطاع أن يتعرف على التفاصيل الدقيقة للموقف، في الوقت الذي كانت الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور قسطنطين الثاني تستعد لإعادة سيطرتها على أفريقيا بعد الهزيمة الكبيرة التي وقعت لجيوشها في واقعة سبيطلة كما أوضحنا سابقاً، فأخذ البيزنطيون بحشد قوات عسكرية كثيفة لاستعادة مواقعهم القديمة، ورغم تضارب آراء المصادر التاريخية في تحديد زمن الحملة التي قادها معاوية بن خديج[1]، فالراجح أن هذه الحملة قد تمت بعد عدة سنوات من انتقال الحكم إلى الأمويين، ولقد شارك في هذه الحملة التي كان قائدها العام معاوية بن خديج. أسماء معروفة كثيرة مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ويحيى بن الحكم بن العاص، وغيرهم من كبار قريش، وكان المقاتلون الذي اشتركوا في هذه الحملة التي قوامها عشرة آلاف مقاتل من النخبة التي لها خبرة ومعرفة في الشؤون الأفريقية[2].

ولقد اتخذ معاوية لحملته إلى المغرب المسار التقليدي البري للوصول إلى برقة ثم إلى طرابلس دون أن يتعرض إلى مقاومة بيزنطية لأن الحكم الإسلامي قد شهد استقراراً في هذه المناطق بفضل جهود عقبة بن نافع، حتى توقف الجيش أخيراً في قونية التي تقع إلى الجنوب من قرطاجنة. وقد كان على قيادة الجانب البيزنطي (نقفور) الذي أُرسل كحاكم على أفريقيا بعد الخسائر التي مُنيت بها القوات البيزنطية هناك، ولكن القائد البيزنطي (نقفور) لم يستطع حسم الأمور لصالحه، فبعد سلسلة من المواجهات البسيطة استطاع الجيش الأموي بقيادة عبد الله بن الزبير أن يتخذ من جبل القرن موقعاً عسكرياً له ويقوم القائد مع مجموعة من الفرسان بهجوم خاطف على

---

(1) د. بيضون، الدولة العربية، ص 29.

(2) ابن عذارى، البيان المغرب، 16/1.

مواقع الجيش البيزنطي قرب مدينة (سوسة)[1]، فاستطاع بهذاالهجوم الخاطف والجريء من إحداث الرعب والاضطراب في صفوف القوات البيزنطية، فلاذوا بالفرار إلى سفنهم التي رجعت بهم إلى قاعدتهم (صقلية) في البحر الأبيض المتوسط دون أي مواجهة مع الجيش الأموي. وبعد هذا النجاح، أرسل معاوية بن خديج مجموعة أخرى من المقاتلين المسلمين بقيادة عبد الملك بن مروان لمهاجمة أحد الحصون البيزنطية المهمة وهو حصن (جلولاء) الذي يبعد مسافة نحو عشرين ميلاً عن القيروان، فتمكن القائد وجنوده من إسقاط الحصن دون مقاومة تذكر[2].

ولقد كان للقائد معاوية بن خديج عمليات عسكرية أخرى مثل هجومه على بعض المدن الساحلية في الشمال ومنها مدينة بنزرت[3]، أو هجومه على جزيرة صقلية متبعاً آثار القائد البيزنطي المتقهقر، إلا أن هجوم صقلية هذا يثير الكثير من الريبة والشك في حدوثه[4]، خاصة وأن الوقت الذي تم فيه الهجوم كان في سنة 46 هـ إذ لم يكن سلاح البحرية لدى العرب قد اتخذ إطاره المتكافئ مع سلاح البحرية البيزنطي وكذلك لم يكن العرب قد أنشأوا قاعدتهم الأفريقية فيكون أمر المطاردة في البحر سهلاً، فضلاً عن ذلك أن حملة معاوية بن خديج كانت برية وسلكت طريقاً برياً كما أشرنا، ومن ثم عسكرت في مكان يبعد عدة أميال عن البحر، بهذا نستطيع أن نتفق مع رأي د. إبراهيم بيضون من أن أمر حملة صقلية مجرد تصور خاطئ عند بعض المؤرخين التقليديين على حد تعبيره مثل الطبري والبلاذري، وابن عذارى مثلما انجرّ إليه عدد من المعاصرين إلا أن بعضهم وصل إلى نفي قاطع لهذه الرواية كالمؤرخ حسين مؤنس في كتابه فجر الأندلس. وبالرغم من نفي حملة صقلية فقد كان

---

(1) مدينة ساحلية قريبة من القيروان.

(2) يقال أن عامل الصدفة ساعد العرب بهذا النصر عندما سقط فجأة أحد اسواره، ومهّد الطريق أمامهم إلى اختراقه. ابن عبد الحكم، ص 261.

(3) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص 130.

(4) بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، ص 31.

للانتصارات التي حققها القائد معاوية أثراً كبيراً بدفع مسيرة الفتح الإسلامي للمغرب خطوات واسعة إلى الأمام، فقد كانت هزيمة البيزنطيين والمواقع العسكرية المهمة التي فقدوها بداية للاختلال في موازين القوى بين المسلمين والبيزنطيين في أفريقيا، إلا أن معاوية قد ارتكب خطأً عند عودته دون القيام بإجراءات عسكرية أو إدارية للمناطق التي فتحها والتي تضمن استمرارها في ظل الحكم الإسلامي. ولم يستمر معاوية في منصبه وقتاً طويلاً يتيح له فتح أفريقيا، إذ عزله معاوية بن أبي سفيان سنة 48 هـ وقيل سنة 50 هـ وولى القائد عقبة بن نافع مكانه.

عهد الفتوحات المُنظّم

يذهب المؤرخون إلى وصف قيادة عقبة بن نافع للجيوش الإسلامي هو بداية لعهد الفتوحات المنظمة، إذ لا شك أن اختيار الخلافة الأموية لعقبة بن نافع يُعد مؤشراً لتطور جديد في استراتيجية الفتح في المغرب[1] لما يتمتع به القائد عقبة بن نافع من الكفاءة والنبوغ في الحقل العسكري، وبدأت قيادة عقبة لجيوش المسلمين في عام 49 و 40 هـ للجبهة المغربية. والتي كان له دور سابق كقائد في فتوحات عمرو بن العاص الأولى بأفريقيا، كما ساهم في فتوحات عبد الله بن أبي سرح.

لقد استهل عقبة عملياته العسكرية بالقيام في سلسلة من الحملات الناجحة إلى (غدامس) وهي من أرض سرت حيث ترك قوة هناك على رأسها القائد زهير بن قيس البلوي كمؤشر للاستراتيجية الجديدة القاضية بالاحتفاظ بالأرض وليس فقط الغزو كما كان يحدث في السابق[2]، وسار بعدها بصحبة 4000 مقاتل حتى وصل إلى مدينة ودان ففتحها ثم إلى جرمة[3] ومنها إلى فزان وعاصمتها زويلة بالإضافة إلى عدد من المدن المهمة في المغرب الأدنى. وقد كان لشخصية عقبة بن نافع الشديدة والعنيفة أثراً فاعلاً في نفوس البربر الذين تهيّبوا من بطش هذا القائد فأقروا بالخضوع له.

---

(1) بيضون، الدولة العربية، ص 32.

(2) بيضون، الدولة العربية، ص 33.

(3) ابن عبد الحكم، فتوح أفريقيا، ص 62.

وكانت الصفحة التالية من الاستراتيجية العسكرية بعد ضمان الاحتفاظ بالأرض وإبقاء قوات كافية للدفاع عنها، تقضي في الشروع في ترسيخ السيادة الإسلامية على أرض الواقع لضمان تثبيت تلك المكاسب، فكان أن اتجه تفكير عقبة بن نافع إلى إنشاء قاعدة في مركز البلاد التي تمت السيطرة عليها. وهو يحقق في هذه الفكرة هدفين: الأول يتمثل في إيجاد قوة حماية كافية وثابتة تغطي عمليات الهجوم في أطراف المغرب من جهة، وتؤمن الخطوط الدفاعية للحكم الإسلامي من جهة أخرى، والثاني أن تكون مركز استقطاب لكل الأعمال التبشيرية في أفريقيا وركيزة لصنع أجيال مستقبلية من البربر تنصهر مع العرب في إطار واحد هو الإسلام[1].

ولقد تهيأت للمسلمين في هذا الظرف عوامل مساعدة لنجاحاتهم في الفتح وهو أن البيزنطيين انشغلوا بمعاجلة مشاكلهم الداخلية بعد مقتل الإمبراطور قسطنطين الثاني الذي عُرف بشدة عدائه للإسلام، ومن ثم تفرغ خليفته إلى مقاومة حركة التمرد التي ثارت في صقلية[2]. بهذا كانت الظروف ملائمة لبسط النفوذ الإسلامي في تلك المنطقة، إذ أن مواجهات البيزنطيين قد توقفت في حين كان البربر أكثر ميلاً للمسلمين لا سيما وأن البربر لم يتأثروا عقائدياً أو حضارياً في البيزنطيين وكانت علاقتهم بالبيزنطيين علاقة عسكرية سطحية، وهذا أمر طبيعي لما نعرفه عن البربر من التمرس في القتال ونزعتهم إلى العنف والحرب، لذا كان ميلهم إلى المسلمين المنتصرين أثار فيهم شهية القتال بجانبهم ضد البيزنطيين المنهزمين.

وبعد أن نجح عقبة بن نافع في تنفيذ خطوات الفتح بانتظام صارم كان عليه أن يختار المكان المناسب للقاعدة العسكرية التي قرر إنشاءها فكانت القيروان هي المدينة التي اختارها، وسميت بعد ذلك بقاعدة عقبة وتقع القيروان بالتحديد إلى الجنوب من قرطاجنة الميناء البيزنطي وإلى الغرب بمسافة أقل من سوسة المدينة التي سقطت أثناء

---

(1) د. بيضون، الدولة العربية، ص 24.

(2) سعد عبد الحميد، المغرب العربي، ص 143.

حملات القائد معاوية ابن خديج وكانت القيروان تقع في أحد الوديان ذات الأشجار غير البعيدة عن الساحل[1]. وبهذا فإن عقبة قد أحسن الاختيار من ناحية المراعي ووفرتها ولكنه لم يُحسن اختياره حيث توافر المياه[2]، مما أدى إلى تعرضها لهزات كانت تؤدي إلى خرابها لولا صفتها الدينية. وقد استغرق بناء القيروان نحو أربع سنوات وكانت أولى معالمها دار الإمارة أو مركز الحكم، والمسجد الذي حمل حتى اليوم اسم القائد العربي[3] وتطورت القيروان وانشأت فيها أنواع الأبنية والمنشآت وصارت محط أنظار الناس، وتحولت من قاعدة عسكرية إلى مدينة نمت بسرعة مدهشة واكتظت بالأسواق وبالمرافق المدنية، فكانت من الناحية الاستراتيجية تقع على امتداد الخط البري الذي يصل بينها وبين الفسطاط فيجعلها بعيدة عن أيّ خطر بيزنطي من جانب البحر. ولقد أخذت القيروان دورها المرسوم في سير الفتوحات الإسلامية في المغرب. فقد صارت القيروان قاعدة لانطلاق الحملات الصغيرة والتي عُرفت بالسرايا في وقت واحد مع بناء هذه القاعدة. فقد تقسم واجب المقاتلين إلى شطرين: البناء ومواصلة الفتوحات التي أصابت نجاحاً ملحوظاً. وكان لشخصية القائد عقبة بن نافع القيادية وحماسة المقاتلين من جهة، وتلاشي الخطر البيزنطي من جهة أخرى عامل كبير ومؤثر في استثمار البربر الذي بُهروا بإصرار المسلمين على مقارعة الصعاب.

ولقد تحولت بلاد المغرب في عهد القائد عقبة بن نافع إلى ولاية شبه مستقلة رغم ارتباطها بمصر من الناحية الإدارية. ولكن مسار التاريخ لم يكن في صالح القائد عقب بن نافع فقد جاء قرار عزله من قبل معاوية بن أبي سفيان في عام 55 هـ/ 674 م، وتعيين قائد آخر هو أبو المهاجر الأنصاري.

---

(1) ابن عبد الحكم، ص 264-265.

(2) د. صالح أبو دياك، الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس، ص 88.

(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 7/ 194.

ولقد أثار عزل القائد عقبة الكثير من التفسيرات في المصادر التاريخية والمصادر المعاصرة، لما جاء به هذا القرار من غموض في التوقيت لا سيما وأن هذا القائد قد حقق إنجازات باهرة وسار بالجيوش الإسلامية إلى مواقع متقدمة كان مجرد التفكير فيها في المراحل السابقة من العهد الراشدي يمثل ضرباً من المغامرة غير المضمونة النتائج. فلماذا أُقيل هذا القائد؟ لا سيما وأن قرار إبعاده كان على مستوى القيادة العامة وإبقاءه في الخدمة العسكرية !

يعتقد بعض الباحثين، أن قرار العزل كان سياسياً لما عُرف عن نزعة معاوية الفردية وعدم استساغته لشخصيات قيادية قوية، تكون نداً له. فيما يفسر أحد الباحثين قرار العزل إلى أن أبا المهاجر هو مولى من موالي مسلمة بن مخلد الأنصاري وهو بربري الأصل عاش في مصر زمناً بعد اعتناقه الإسلام، وكان مسلمة - والي مصر - يعتبره واحداً من أهل بيته ويقول عنه: (أن أبا المهاجر صَبّر علينا في غير ولاية، ولا كبير ميل، فنحن نحب أن نكافيه)[1]، وبهذا قام والي مصر مسلمة الأنصاري إلى السعي للوشاية بعقبة عند الخليفة ليعزله[2].

وهناك آراء متضاربة عديدة لسنا في صدد بحثها، والمهم عندنا أن قرار العزل قد طُبّق وامتثل له عقبة بن نافع كعسكري محترف بانضباط شديد وأبدى تعاوناً تاماً مع قائده الجديد، أبو المهاجر الأنصاري.

ابو المهاجر الأنصاري ودوره في قياده الجيش الإسلامي

لقد دامت قيادة أبو المهاجر للجيوش الإسلامية في المغرب خمس سنوات (55-60 هـ)[3]. وقد شهدت عدة فعاليات عسكرية، بدأت بالهجوم على قبائل (أوربة)

---

(1) ابن عبد الحكم؛ فتوح مصر، ص 266.

(2) صالح أبو دياك، الوجيز، ص 90.

(3) وقيل سبع سنوات، انظر صالح أبو دياك، الوجيز في تاريخ المغرب، ص 92.

وهي أحد أقوى قبائل البربر من البرانس، الواقعة في جبال أوراس. واستطاع كسب صداقة زعيم هذه القبيلة وهو (كسيلة بن لمزم)، وأدى تعاونهما بعد أن أشهر الزعيم البربري إسلامه[1]، ثم عاد أبو المهاجر إلى القيروان، ليواصل أعماله العسكرية ضد البيزنطيين شمالاً باتجاه قرطاجنة ويشن هجوماً عنيفاً في عام 59هـ / 679م، لكن هذا التحرك إلى القاعدة البيزنطية لم يكن منظماً لفرض الاحتلال وإنما مجرد عملية استكشافية لإمكانيته الدفاعية، فبعد حصار قصير للمدينة تراجع عنها لقاء احتلال شبه جزيرة شريك.

ويبدو أن المؤرخين غير منحازين إلى القائد (أبو المهاجر) لإعجابهم الشديد بالقائد السابق عقبة بن نافع بالإضافة إلى وجود عدد من أقارب عقبة الفهريين وكان منهم رواة وإخباريون، وكان لهم دور مهم ومركز مرموق في مصر والمغرب، كما أن معاملة أبو المهاجر السيئة إلى عقبة وإيداعه السجن كما تذهب بعض المصادر التاريخية كانت سبباً آخر في تحامل المؤرخين عليه، ولكننا نرى أن أبا المهاجر كان سياسياً بارعاً استطاع أن يستميل البربر إلى جانبه ويعد أول من طبّق سياسة الاستقرار الدائم للمسلمين والعرب في أفريقيا إذ يقول ابن عبد الحكم بخصوص فتوحات (أبو المهاجر): (أول من أقام بعد الغزو بأفريقيا أبو المهاجر الذي أقام بها الشتاء والصيف)[2]، كما استطاع أبو المهاجر من مواصلة أعماله الحربية حتى وصل إلى موضع عُرف فيما بعد بعيون أبي المهاجر كما فتح ميله. كما أنه استمر في سياسة التسامح وكسب الودّ ليس مع البربر فقط وإنما مع عجم أفريقيا (المقصود بالعجم هنا هم الروم أو الجماعات الموالية لهم مثل الأفارقة). وهكذا كان حال هذا القائد في حياة معاوية بن أبي سفيان وبموت هذا الخليفة في 60 هـ أصبح مركز القيادة في القيروان عرضة لتغيرات، عادة تحدث في أعقاب انتقال السلطة من خليفة إلى آخر. وكان يزيد بن معاوية الخليفة الجديد على صلة وثيقة بالقائد السابق عقبة بن نافع

---

(1) وقد كان إسلام هذا الزعيم سطحياً وذلك بانقلابه عن الإسلام فيما بعد.

(2) والواقع أن من أقام بها أول مرة هو عقبة بن نافع.

ويقدر جهوده. وكانت العلاقة بين الرجلين قد توطدت عند إقامة عقبة في دمشق قريباً من ولي العهد الشاب[1]، فقد أعاد عقبة[2] إلى قيادة الجيش وعزل (أبو المهاجر). وهكذا انتهت ولاية هذا القائد للجبهة المغربية.

ولاية عقبة بن نافع الثانية

لقد كان عقبة يتحين الفرص لإعادته إلى موقع القيادة في الجبهة المغربية، لأن هذا القائد قد قضى سنوات شبابه حتى بلغ الكهولة مقاتلاً على هذه الأراضي، وكما هو حال القائد السابق (أبو المهاجر) الذي قال بعض المؤرخين أنه أساء معاملة عقبة، فها هو عقبة يعود إلى القيادة وفي نفسه الشيء الكثير على سلفه الذي أساء إليه، فهناك أخبار تفيد اضطهاده لأبي المهاجر واعتقاله، ولا نريد الخوض في هذه المسألة رغم عدم استبعادنا لتصرفات كلا القائدين إزاء بعضهما.

لقد عاد عقبة بن نافع واستلم مهام منصبه وبصلاحيات مطلقة هذه المرّة، إذ أنه لا يستمد الأوامر من أحد سوى الخليفة، لأن الخليفة يزيد قد فصل مجدداً الولاية الأفريقية عن مصر وربطها مباشرة بمقر الخلافة في دمشق.

ولقد كان عمل عقبة الأول هو الإشراف شخصياً لإعداد عملية كبرى في نطاق سياسته التوسعية لاجتياح المغرب، وقد استطاع أن ينظم صفوف جيشه ويخرج به صوب المغرب الأقصى وترك القائد زهير بن قيس ومعه ستة آلاف جندي[3] لحماية القيروان من أي اعتداء محتمل، ولقد استخدم عقبة بعض من أعضاء قبيلة أوربة

---

(1) ابن عبد الحكم، ص 266-267.

(2) كان عقبة بعد عزله، قدم إلى معاوية شاكياً وقال: (فتحت البلاد ودانت ليّ، وبُنيت المنازل، واتخذت مسجداً للجماعة، وسكنت الناس، ثم أرسلت عبد الأنصار فاساء عزلي)، فاعتذر له معاوية ووعده بإرجاعه إلى عمله فلم يفِ بوعده)، حتى جاء يزيد فأعاده. انظر: ابن عبد الحكم، فتوح أفريقيا، ص 68.

(3) ابن عبد الحكم، ص 278.

كأدلاء يزودون الجيش بالمعلومات الجغرافية عن طبيعة تلك البلاد البعيدة. وعلى مسيرة الجيش. استطاع القائد عقبة أن يحقق انتصارات كبيرة، فقد اشتبك مع البيزنطيين في (بجاية) على الساحل الأفريقي إلى الغرب من قرطاجنة في معركة ضارية غير أنها لم تكن حاسمة بسبب تراجع البيزنطيون إلى المدينة والاعتصام فيها، وما كان في خطة عقبة إطالة الحصار على المدينة، فانعطف إلى الجنوب لاتخاذ الطريق المرسوم للحملة، فدخل إقليم الزاب في المغرب الأوسط ودخل (المسلية) عاصمة الإقليم. بعد طرد البيزنطيين وحلفائهم من قبائل لواتة وهوارة ومكناسة البربرية ثم تابع فلولهم إلى (تاهرت). ويعد فتح الزاب بداية مرحلة جديدة في فتوح المغرب، إذ أن المسلمين لم يجابهوا في ذلك الوقت مقاومة إلا من البيزنطيين، وتجدر الإشارة إلى أن الموقف السياسي للبربر لم يكن قد تبلور حتى ذلك الحين فهم يراقبون الصراع الإسلامي- البيزنطي ولم يكن المسلمون قد توغلوا كثيراً في الداخل أو اصطدموا بنظام القبيلة المتزمت عند البربر. أما الذين دخلوا في الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، فهم الأكثر تحضراً من البرانس التي كانت لهم مصالح في بقاء القواعد البيزنطية حيث يعيشون في مناطق محاذية لها على السواحل، وكان لهم أكثر من هدف في التصدي للجيوش الإسلامية من أجل الدفاع عن مصالحهم المتشابكة مع البيزنطيين[1].

ولقد تابع عقبة حملته وأخذ بنشر الجيش في أقاصي المغرب حتى بلغت مدينة طنجة[2]، والتي كانت مركزاً لإقليم يخضع إدارياً للسيادة البيزنطية، ويمتد على الساحل ما بين طنجة وسبتة، وكان حاكم طنجة وسبتة المدعو يليان سياسياً محنكاً فبادر إلى إقامة علاقات ودية مع جيش المسلمين ولم يقاومهم، بل عقد معاهدة صلح مع عقبة وأعلن استعداده للتنازل عن الحكم[3]، وبهذا فقد وضع يليان كل طاقاته لخدمة الجيش الإسلامي مسهلاً حركتهم في هذه البلاد البعيدة. كما كان دليلاً لهم في

---

(1) إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص 40.

(2) وهي مدينة شهيرة بموقعها الاستراتيجي على مدخل البحر الأبيض المتوسط.

(3) د. سيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص 139.

معرفة مواقع القوات البربرية. وما كان من القائد عقبة إلا الاكتفاء بهذا القدر من هذا الإقليم ليتركه ويسير إلى الجنوب ليصل إلى وليلة أو (وليلي)[1] بفضل المساعدة التي قدّمها له يليان حاكم طنجة، وهي في أطراف المغرب الأقصى، واستطاع أن يهزم البربر المصامدة - وهم سكان أطلس الوسطى - ويواصل زحفه حتى مدينة درعة في أقصى الجنوب وإذ كان تقدمه في هذا الاتجاه الصحراوي غير مجدٍ، فسار مجدداً نحو الشواطئ الغربية للمغرب الأقصى فاستطاع إخضاع عدداً من المدن المهمة الواقعة في أطلس العظمى، وهكذا وصل عقبة إلى بلاد صنهاجة وهسكورة ومرّ باغمات وفتحها وكذلك مدينة نفيس وتار ودانت، ونزل بوادي سوس، واتصل بقبائل جزولة فأسلمت، وانتهى به المطاف إلى السوس الأقصى ففتحه دون مقاومة وسيطر على أهم المدن الرئيسية ووصل إلى (أيغيران يطوف) على ساحل المحيط الأطلسي. وبهذا الفتح الكبير الذي يعده الباحثون[2] أضخم مغامرة عسكرية عرفتها الدولةَ الأموية حتى ذلك الوقت. وبعد أن اطمأن القائد عقبة إلى فتوحاته في المغرب الأقصى وإلى ولاء أهلها، قرر العودة إلى القيروان بعد أن ترك أصحابه لاستمرار دورهم في تسيير أمور هذه الأقاليم. وفي أثناء سيره إذ أوشك على دخول المغرب الأدنى وصلته أنباء مقلقة من أفريقيا، فأرسل عدداً كبيراً من قواته ولم يبق معه سوى خمسة آلاف مقاتل وصل بهم إلى مدينة تهودة في منطقة الأوراس. ففوجئ بقوات البربر وزعيمهم كسيلة الذي تزعم بعض المصادر التاريخية بان هذا القائد قد استطاع أن يتحالف مع البيزنطيين ويجمع أكثر من خمسين ألف مقاتل ويتبنى هذا الطرح بعض المؤرخين المعاصرين. ولا شك أن الموازنة العسكرية كانت تشير إلى كفّة البربر الذين أحاطوا بجيش عقبة من الشمال[3]، وخاض هذا الجيش معركة عنيفة أدت إلى مقتل القائد عقبة بن نافع وعدد آخر من القوّاد منهم أبو المهاجر.

---

(1) وهي مدينة قديمة تقع على مسافة قريبة من فاس.

(2) د. بيضون، الدولة العربية، ص 42.

(3) احمد العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، ص 24-25.

وتعد هذه المعركة ذات أهمية استثنائية في تاريخ مقاومة البربر للجيوش الإسلامية، فهي لم تكن ردّ فعل على سياسة عقبة القاسية ضدهم، بل إن هذا العدد الكبير الذي حشده كسيلة[1] لم يكن كميناً، لأن عدداً كبيراً بهذا المستوى من التنظيم ودقة التوقيت واختيار الموقع الملائم للهجوم، يدل على إعداد مسبق وتخطيط منظم للقضاء على الوجود الإسلامي في المغرب. لقد وجد البرابرة أن سياسات المسلمين التوسعية التي بلغت حتى ضفاف المحيط الأطلسي هي تهديد لوجودهم وسلب سيادتهم المتوارثة للحكم والتي لم تُمس عبر التاريخ، فقد كانوا يعيشون منذ البدء حياتهم ويمارسون طقوسهم وتقاليدهم بحرية كاملة حتى في ظل الرومان إلى الوندال إلى البيزنطيين[2]، فهذه القوى كانت في الغالب تتمركز على السواحل دون أن تتصادم مع السكان المحليين في الداخل، وهذه الظروف جعلت من البربر أن يمتازوا بنزعتهم نحو الاستقلال التي كلفتهم كثيراً قبل أن يتخلوا عنها إبان عهد الفتوحات الإسلامية، لذا فإنهم تحالفوا مع البيزنطيين في عدة مواقع أثناء حملة عقبة لاعتقادهم بأن الجيش الإسلامي هو عدوهم المشترك، لأن البيزنطيين لم يكونوا في نظر البربر ذلك الخطر الذي شكّله الإسلام عليهم. ولم يكتف القائد البربري كسيلة بسحق جيش عقبة ومقتله، بل إنه واصل الحجوم على القوات الإسلامية لاجتثاث أثرها كاملاً من المغرب، فقرر مواصلة السير إلى القيروان، وقد كان لنكبة المسلمين في مقتل أخطر قادتهم وهو عقبة بن نافع وخيرة من معه من القادة كأبي المهاجر[3] الأثر الكبير على تردي معنويات المقاتلين المسلمين في القيروان، وحدوث خلاف كبير بينهم، فالبعض رفض القتال وآخرون يرغبون فيه، إلى أن استطاع الرافضون فرض وجهة نظرهم بالانسحاب. ولقد أذعن قائد الحامية الإسلامية زهير بن قيس لمطلبهم وانسحب إلى برقة، ودخلها الجيش البربري وأصبح كسيلة حاكمها لمدة خمس سنوات(64-69 هـ).

---

(1) رغم المبالغة في تقدير الأعداد من قبل المؤرخين القدامى.

(2) د. بيضون، الدولة العربية، ص 44.

(3) تروي المصادر التاريخية بأن عقبة قد أمر أبا المهاجر لترك أرض المعركة والنجاة بنفسه، لكنه رفض وفضّل الموت مع قائده عقبة.

ولو تأملنا الأسباب الحقيقية لهذه النكسة القاسية للجيوش الإسلامية في المغرب بعد أن حققت نجاحات باهرة حتى وصلت إلى سواحل الأطلس، لوجدنا أنها أسباب متداخلة ومتشعبة منها ما يتعلق بسياسة عقبة بن نافع التي اتسمت بالعدائية والعنف تجاه البربر. ونحن لا نستطيع أن نلغي حاجة قائد عسكري من طراز عقبة رضع شهوة القتال إلى القسوة، فهو الرجل الذي قادَ أول حملة منظمة اتسمت بطابع مدروس حقق فيها أهدافاً كبيرة تمثلت في تقويض نفوذ البيزنطيين وتثبيت السيادة الإسلامية في المجتمع البربري. فالعنف هنا قد يكون له ما يبرره ولكن عقبة أمعن في التدخل في التفاصيل الدقيقة لطبيعة المجتمع البربري وسعيه إلى طمس هويتهم الاجتماعية بالكامل ودمجها بالهوية الإسلامية. وهذا ما لم يتعوده المجتمع البربري في مراحل احتلاله السابقة كما أوضحنا من قبل وخصوصاً في علاقتهم مع البيزنطيين، الذين استوطنوا السواحل وتحاشوا الدخول إلى العمق، وتركوا البربر يمارسون طقوسهم بحرية تامة. كما أن وجود قائد مثل كسيلة[1] استطاع أن يستثمر الشعور القومي لدى البربر مع الاستفادة من تحالفه مع البيزنطيين كان عاملاً مهماً في هزيمة المسلمين في معركة تهودة. وهناك عامل خارجي لا يتعلق بظروف المغرب سواء أتعلق الأمر بالقائد عقبة بن نافع أو في المقاومة التي أبداها البربر بقيادة كسيلة، هذا السبب متعلق بالظروف الحرجة التي واجهتها دولة الخلافة في دمشق من تحديات خطيرة مثلتها ثورة الحسين بن علي بن أبي طالب ومقتله بطريقة بشعة هو وأصحابه في واقعة الطف المشهورة[2]، كما أن ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز وإعلانه الاستقلال عن الخلافة. قد أثرا سلبياً على معنويات المقاتلين في الثغور الإسلامية البعيدة في المغرب. وذلك لطبيعة العلاقات القبلية التي تربط هؤلاء المسلمين جنوداً وقادة مع قادة هذه

---

(1) قيل إنه اسلم في زمن أبي المهاجر وجاء عقبة فاستخف به فهرب من معسكر المسلمين، واخذ يتحين الفرص للإيقاع بعقبة وجيوش المسلمين.

(2) بعد مقتل الحسين بن علي في خلافة يزيد بن معاوية، عانت الدولة الأموية من ردات فعل كثيرة، كثورة المختار وثورة عبد الله بن الزبير وغيره من الثورات. نحيل القارئ إلى مراجعتها في المتون التاريخية والمعاصرة وهي كثيرة جداً.

الثورات ضد مركز الخلافة في دمشق. ولا مجال لبحث هذا الموضوع لأنه خارج نطاق هدفنا، لأن المعروف أن الدولة الأموية في زمن يزيد قد عانت الكثير من الاضطرابات والثورات حتى بداية العهد المرواني.

فتوحات الأمويين في عهد آل مروان

بعد وفاة يزيد بن معاوية كان البيت السفياني على موعد مع انتهاء السيادة على دفّة الحكم المركزية في دولة الأمويين، وحان الأمر إلى البيت المرواني بعد معركة سياسية في دمشق - مركز الخلافة - لا سيما بعد أن رفض معاوية الثاني استلام الحكم بعد أبيه يزيد[1]. ووجود شيخ محنك وهو مروان بن الحكم الذي حسم الأمر لصالحه، وصار خليفةً في عام (65هـ / 685م). ولقد استطاع مروان بن الحكم أن يملأ الفراغ السياسي وإنقاذ الدولة الأموية خلال الفترة القصيرة التي تولى فيها الحكم، ولكن الدور الأكبر كان لخلفه وولده عبد الملك بن مروان، الذي أخذ على عاتقه العبء الأكبر في استعادة الأمور إلى نصابها، لا سيما وأن هذا الخليفة كان حكيماً لاستعادة الأبعاد الحقيقية للسياسة الإسلامية في إطارها العسكري واستئناف الفتوحات الإسلامية. سيما وأن القائد زهير بن قيس كان في برقة والذي أُرغم على الانسحاب من القيروان، يتحين الفرصة والقرار السياسي من مركز الخلافة لاستئناف دوره العسكري، فكان له ما أراد في ولاية عبد الملك بن مروان، إذ عهد هذا الخليفة إلى القائد زهير بن قيس بقيادة الجيش في المغرب بوصفه خبيراً بشؤون هذه المنطقة. وزوّده بسرايا إضافية من الجيش الشامي للاشتراك في حملة عسكرية كبيرة على رأسها والي مصر آنذاك عبد العزيز بن مروان[2] الذي عُرف عنه اهتمامه الكبير بقضايا إقليم المغرب[3].

---

(1) يقال أن هذا الخليفة رفض الحكم لاعتقاده بعدم شرعية حكمه. وأن أمه قالت بعد إقصائه ليتك كنت حيضة !

(2) ابن عبد الحكم، ص 269 .

(3) د. بيضون، الدولة العربية، ص 47 .

ونتيجة لحماس القائد زهير بن قيس ورغبته الملحة في استعادة القيروان، سارع إلى تنفيذ أمر الخليفة، وقد استطاع أن يبلغ الهدف وينتصر على جيش كسيلة ويقتله ويستعيد القيروان ويُحصنها مجدداً. لكن هذا الحماس الزائد قد أوقع هذا القائد في خطأ العودة إلى برقة ثانية، وربما تكن مهمة هذا القائد قد رُسم لها من قبل مركز الخلافة بحدودها المحددة باستعادة القيروان والانتقام من البربر وقائدهم كسيلة لمجرد رد الاعتبار لهيبة مركز الخلافة، وإلا لماذا هذه العودة السريعة إلى برقة التي كلفته حياته، إذ أن البيزنطيين قطعوا عليه الطريق عند مدينة درنة على مقربة من طبرق، واستطاعوا أن يهزموا الجيش الإسلامي وقتل قائده زهير.

وهنا، لابد من التساؤل عن الأسباب التي دفعت بمركز الخلافة إلى هذه العملية العسكرية دون وضوح أهدافها الاستراتيجية خارج الانتقام من كسيلة وقواته في القيروان؟ يبدو أن الخلافة الجديدة أرادت أن تقوم بعمل خارجي لاستيعاب واحتواء الأزمات الداخلية، لأن الخلافة آنذاك كانت تحتاج إلى دعم ولو معنوي لإسناد قوتها. وهذا ما حققته حملة زهير بن قيس التي هي أشبه بالغزوة من الفتح. وعاد المسلمون إلى برقة ثانية بانتظار نضوج ظروف أخرى لمواصلة توسعهم في بلاد المغرب.

والملاحظة المهمة التي يخلص لها الباحث إن مثل هذه الظروف كانت مواتية على الدوام، وذلك للقوة المتنامية للدولة الإسلامية، والضعف الماثل في جبهات الدول التي كانت تقف بالضد منها كالإمبراطورية البيزنطية التي شهدت في ذلك الوقت أفولها المنظم، كما أن البربر هم الآخرون شهدوا مرحلة من الضعف، وبما أن الفتوحات الإسلامية على وجه العموم كانت تقترن بالقائد وأهمية الفرد في تغيير مسار التاريخ فقد تهيأ للقائد حسان بن النعمان الغساني هذه المكانة. فهو أول قائد من خارج المدرسة التي زوّدت جبهة المغرب بالقادة[1]، فقد كان بعيداً عن المغرب وقضى جلّ حياته في الشام، قريباً من المشاكل الداخلية التي كانت تعانيها الخلافة ولا سيما بعد القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير. وهذا مؤشر مهم لاختياره من قبل الخليفة

(1) د. بيضون، الدولة العربية، ص 49 .

عبدالملك بن مروان لقيادة جيش المسلمين في جبهة المغرب وبشكل جديّ، ولأن هذا القائد الجديد اتصف بمؤهلات خاصة[1]، جعلت من الخليفة عبدالملك بن مروان أن يوليه ثقته المطلقة، وأن يمنحه صلاحيات واسعة، إذ ينقل ابن عذاري عن وصية الخليفة إلى قائده بعد تعينه قائداً عاماً على الجبهة المغربية بالقول[2]: إني قد أطلقت يدك في أموال مصر فاعط من معك وردّ عليك، وأخرج إلى بلاد أفريقية على بركة الله.

ولقد كانت جبهة المغرب تحتاج فعلاً إلى قائد من هذا الطراز وفي هذا الظرف بالذات الذي كان يشهد حالة عداء ونفور واضحين في علاقة البربر بالقوات الإسلامية. فكان أن عمل حسان بن النعمان الغساني في بداية أمر قيادته على الانطلاق بسياسة دبلوماسية هدفها كسب ود البربر، ومن ثم إقناعهم بالتوحد في جبهة واحدة ضد البيزنطيين، واستطاع أن ينجح في هذا الأسلوب الذي سوف يصبح نهجاً عاماً للسياسة الأموية في جبهة المغرب.

أما عن مسار الجيوش الإسلامية تحت قيادة حسان فبدأ بعد أن غادر حسان مصر في سنة (74 هـ / 694 م) والذي كانت تمثل المركز الرئيسي لتجمع القادة، إذ سار إلى طرابلس سالكاً الطريق البري التقليدي حتى وصل إلى القيروان التي استعاد فتحها دون مقاومة كبيرة. وكان الهدف الأهم في طريق الجيش الإسلامي هو مدينة قرطاجنة، القاعدة البيزنطية الشهيرة. واستطاعت القوة الإسلامية الوصول إليها وخوض معركة عنيفة وضارية مع قوات المقاومة البيزنطية الذين أُجبروا على ترك المدينة متحملين خسائر جسيمة في الأرواح، بينما توزع الناجون من الموت بين صقلية وإسبانيا [3].

---

(1) يصف المؤرخون شخصيته، بأنه يتسم بالموهبة القيادية العالية مع مرونته الشديدة التي كانت تلازمه في أعماله العسكرية، وهذه صفات نادرة لقائد عسكري.

(2) ابن عذاري المراكشي، 1 / 34 .

(3) كانت إسبانيا في ذلك الوقت تابعة لحكم القوط الغربيين.

وكان لسقوط مدينة قرطاجنة الأثر الكبير على مسار الفتوحات الإسلامية على جبهة المغرب، ويبدو أن بعض المصادر تشير إلى مساهمة الأسطول الأموي في هذه المعركة بينما تستبعد الأخرى مساهمته[1]، والأرجح أن المعركة جرت وفق الأسلوب التقليدي للقتال، إذ أن المدينة شهدت حصاراً من قبل الجيوش الإسلامية، كان هذا الحصار محكماً استطاع المسلمون من اختراق أسوار المدينة بجرأة واندفاع كبيرين. وقامت القوة الإسلامية من تدمير هذه القاعدة التاريخية العريقة للبيزنطيين وتحويلها إلى أطلال خربة[2].

ولقد تهيأ للقائد حسان أن يقف على أرض صلبة لمواصل فتوحاته التوسعية، بعد أن سقطت قرطاجنة التي كانت تمثل أهم العقبات في طريقه، كما أنها كانت قاعدة لتغذية المعارضين والمقاومين للمسلمين وتوفير الأسباب اللازمة للثورة على المسلمين أو التآمر ضدهم.

واصل القائد الظافر مساره التوسعي، فوصل إلى امتداد الساحل الغربي وقام بهجوم على مواقع البيزنطيين، فاستطاع من فتح بنزرت بعد معركة ضارية شارك فيها البربر، وأفلح المسلمون في مطاردتهم حتى اعتصامهم في إقليم بونة الواقع إلى الغرب من هذه المدينة[3].

وبهذا الفتح يكون الجيش الإسلامي قد أكمل المرحلة الأولى من خطة الفتح بقيادة حسان، فكان لابد أن يعود إلى القيروان مع جيشه لأخذ الراحة اللازمة والضرورية قبل البدء في المرحلة الثانية والتي يبغي فيها هذا القائد حسم الأمر مع البربر الذي كان يؤمن كما أسلفنا بالحوار والسياسة المرنة بجوار القتال لتنفيذ الفتوحات المقررة في الخطة الاستراتيجية. ولكن الأخبار التي تواترت إلى القيروان لم

---

(1) سيد إسماعيل كاشف: الوليد بن عبد الملك، ص 128.

(2) ابن الأثير: ج 4، 180.

(3) نفس المصدر والصفحة.

تكن سارة إطلاقاً فقد وصل خبر تجمع حشود ضخمة من البربر البتر[1]. تقودهم امرأة تصفها المصادر التاريخية بالقوة والصلابة وقوة العزيمة، وهي من قبيلة جراوة المعروفة عند العرب بالكاهنة وكان اسمها الحقيقي (داهية بنت مانية بن تيفان)[2] وترجح المصادر التاريخية بأن هذه الكاهنة كانت تدين باليهودية على عكس قائد البربر، الذي كان يدين بالمسيحية التي انتشرت في المغرب على المناطق الأكثر قرباً من السواحل[3]. فيما كانت الديانة اليهودية قد انتشرت في المناطق العميقة التي كان يقطنها البربر البتر. لكن هذه الديانة لم تستطع فرض هيمنتها في هذه المناطق التي شهدت أنواعاً من المعارك والاضطهاد، حيث كانت الوثنية هي السائدة[4] في صفوف البربر البتر الذين يعبدون مظاهر الطبيعة. وما كانت أخبار هذه الكاهنة لتربك القائد حسان وتفقده السيطرة على التصرف في اللحظات الحرجة كهذه اللحظة، فقد أسرع في التحرك على أمل اعتراضها في (باغاية). ولكن الفترة الفاصلة بين وصول أخبار جيش الكاهنة إلى القيروان وتحرك القائد كانت تصب بمصلحة الكاهنة التي استطاعت الوصول إلى المدينة والاعتصام فيها، قبل أن يصلها جيش حسان. وكان نتيجة لهذا الوضع العسكري المناسب للقتال قد استطاعت الكاهنة بإلحاق الهزيمة بجيش المسلمين في موقع (نهر نيني)، بعد معركة عنيفة. لكن هذه الهزيمة لم تكن قاصمة وساحقة كتلك التي لحقت بالقائد عقبة بن نافع في معركة (تهودة)، إذ استطاع القائد حسان أن يرتب انسحاب جيشه بشكل منظم والعودة به إلى برقة. وهذا هو الانسحاب الثالث للمسلمين إلى برقة في مسيرة فتوحاتهم على الجبهة المغربية.

برغم هذه الهزيمة التي ألحقت بجيوش المسلمين الخيبة والعجز عن توطيد سيادتهم في المغرب، لكنها ليست حاسمة في المسار الاستراتيجي للفتوحات

---

(1) بعد أن هُزم البربر البرانس في حس من قبل المسلمين سابقاً.

(2) د. بيضون، الدولة العربية، ص 51.

(3) مناطق سكن البربر البرانس.

(4) العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، ص 27.

الإسلامية، إذ أن جهود القائد حسان في المرحلة الأولى قد كانت ضربة قاصمة لظهر النفوذ البيزنطي في المغرب، وإن استطاعوا العودة ثانية إلى قرطاجنة، لكنها عودة شكلية أشارت إلى زوال تأثيرهم الفعلي في بلاد المغرب وذلك لأن انتصار جيش الكاهنة على المسلمين قد جعل لها السيادة النسبية على البربر. وهذا عامل ساهم في زعزعة وتقويض نفوذ البيزنطيين في بلاد المغرب. لكن هذه الكاهنة واجهت - عاملاً ساعد المسلمين بشكل غير مقصود - وهو فشلها في فرض سيادتها المطلقة على أقوام البربر، وذلك باتباع سياسة الأرض المحروقة[1] التي لم تلق بقبول من جميع البربر، وذلك لتصورها الخاطئ على أن المسلمين في غزواتهم يسعون دائماً إلى المدن والحواضر وغنم ما فيها من خيرات. وهذا التفكير قد يكون صحيحاً في بداية الحملات العسكرية الإسلامية الأولى التي تميزت بطابع الغزوة التي يكون هدفها الأخير الحصول على أكبر قدر من الغنائم. لكن هذا التفسير في مرحلة الفتوحات الأموية وخصوصاً منذ قيادة عقبة بن نافع لم يعد صحيحاً، لأن المسلمين كانوا قد تجاوزوا هذه المرحلة، وانتقلوا إلى مرحلة الفتح المنظم، بعد أن نضجت الظروف الذاتية والموضوعية للدولة الإسلامية للسير بهذه الفتوحات إلى أقصاها.

بالإضافة إلى أن الخليفة عبدالملك بن مروان لم يفقد الثقة بقائده إذ نحن نوّهنا قبل قليل إلى أن هذه المرحلة هي المرحلة الأولى من خطوات الفتح ولابد أن يتوقع حصول مثل هذه الخسارات التكتيكية. بانتظار ما ينجزه هذا القائد في المرحلة الثانية، لا سيما وأن هذا القائد الذي نجا من الموت استطاع خلال سنوات إقامته في برقة أن يستعيد تنظيم صفوفه ويدرس خطة أخرى بالاستفادة من أخطائه، ومراقبة جبهة العدو بقيادة الكاهنة التي تعاني من مشاكل خطيرة تمثلت في تذمر البربر من سياستها ولاسيما بربر البرانس الذين وقعوا ضحية ظلم واستبداد وتسلط البرابرة البتر وما حملته سياسة هذه الكاهنة من الخراب الذي حلّ ببلادهم. وهو ما لا يتقبله مزاج البربر البرانس الذين عُرفوا بتحضرهم على عكس نمط حياة البربر البتر البدوي.

---

(1) بيضون، الدولة العربية، ص 52.

كل هذه العوامل كانت في مصلحة الجيش الإسلامي وقائده حسان الذي كانت معنوياته القتالية عالية وإصراره على تعويض ما خسره مستنداً على عامل نفسي مهم وهو تجديد الثقة به من قبل الخليفة[1]. ففي عام (81 هـ / 700 م) بدأ هذا القائد استئناف حملاته التوسعية، فسار في جيشه إلى قابس إلى الجنوب الغربي من مدينة صفاقس، منعطفاً شرقاً عبر الطريق الصحراوي لملاقاة جيش الكاهنة في إقليم الأوراس. ويبدو أن هذا القائد قد جنى ثمار سياسته التي اتسمت باللين والدبلوماسية في تعامله مع البربر الذين كانوا يرزحون تحت وطأة سياسات الكاهنة الحمقاء، كما أنني أرجح عاملاً آخر لا يقل أهمية في تحوّل البربر إلى صف المسلمين وهو إصرار هذا القائد على الظهور القوي بعد كل هزيمة، وهو ما أقنع البربر للانحياز إلى الجيش الإسلامي الذي يصرّ على فتح بلاد المغرب في مرحلة انهيار البيزنطيون الواقعي، وواقع حالهم في ظل قيادة هذه الكاهنة. وهذه السياسة المثمرة هي التي جعلت من البربر مرحّبين بوصول القوات الإسلامية، حتى أن قسم منهم قد دخل فعلياً في خدمة الجيش الإسلامي[2]. وذلك لإنضاج الظروف التي قادت المسلمين والبربر إلى الوقوف في جبهة واحدة ضد عدو مشترك هو الكاهنة والبربر البتر. وقد أدى هذا التحوّل الخطير من اختلال في موازين القوى في المعسكرين، الإسلامي وهو يقطف نتائج سياسة قائده السليمة، والبربري وهو يتطوّح في سياسات الكاهنة الحمقاء، التي شعرت بهذا الاختلال متأخرة جداً. إذ استطاع الجيش الإسلامي أن يكسر شوكة الكاهنة، التي لم تجد لعبة الكرّ والفرّ لأنها في رأينا لا تمتلك من مواصفات القيادة العسكرية إلا رصيدها في التأثير الروحي، الذي نفذ في الميدان. فلجأت إلى خيار خاسر وهو المواجهة الأخيرة مع جيوش المسلمين، فخاضت معركة

---

(1) وهذا أمر بالغ الأهمية في الجانب النفسي لقيادة الجيوش، لا سيما وأن هذا القائد لم يستنفد رصيده بعد من القدرة على تحقيق الانتصارات في اختبار المرحلة الثانية.

(2) ابن عبد الحكم. ص 271.

حاسمة عند موقع في أحد معاقل منطقة الأوراس أدى إلى هزيمتها وقتلها، وقد سمي هذا الموقع (بئر الكاهنة)[1].

وبهذا الانتصار كانت عملية التوسع الإسلامي قد دخلت في المرحلة الثالثة وفق الاستراتيجية العامة لقيادة حسان للجيوش الإسلامية في طرقها لفتح المغرب، فصار التقدم في شتى المناطق دون مقاومة تُذكر.

جيوب المقاومة

لم يكن هذا الانتصار هو نهاية الحملة الإسلامية للمغرب، فلابد أن تظهر جيوب المقاومة من البيزنطيين والبربر الذين لم يتصالحوا مع القوة الجديدة، لاختلاف المصالح. ولكن البيزنطيين الذين لم ينجحوا في حروبهم البرية بمواجهة القوات الإسلامية قد استخدموا قواعدهم البحرية بعد هزيمة القائد في قرطاجنة، إذ أرسل الإمبراطور البيزنطي ليونتوس حملة بحرية نجحت في السيطرة على المدينة في ظل غياب المقاومة العربية آنذاك. إلا أن القائد حسان استطاع استعادة قرطاجنة وعمل على تدميرها كلياً لمحو آثار البيزنطيين فيها وقطع كل أمل لهم في العودة إليها ثانيةً.

بناء قاعدة بحرية

لم يكن القائد حسان مقتنعاً بتدمير قرطاجنة فقط، وإنما رأى من الضروري الالتفاف إلى بناء قوة بحرية على غرار البحرية البيزنطية، لكي يضمن حماية السواحل المغربية من أي اعتداء محتمل، فقام بإنشاء قاعدة عسكرية بحرية واتخذ من تونس مركزاً لها، فصارت بديلاً عن قرطاجنة قاعدة البيزنطيين. وبنى أسطولاً، وكان هذا إجراء صحيحاً وفي الوقت المناسب، لما بلغته رقعة الفتوحات الإسلامية من الامتداد في أرض المغرب، وكذلك فإن هذه القوة البحرية أصبحت الذراع القوية للأقاليم المغربية تحت السيادة الإسلامية من غزوات البيزنطيين الذين كانوا يحتلون المرتبة الأولى في السلاح البحري. وقد أصبحت تونس المدينة الثانية في المغرب بعد القيروان التي حوّلها القائد

---

(1) ابن عبد الحكم، ص 271.

حسان من ميناء يوناني قديم، إلى قاعدة بحرية مهمة ومدينة لصناعة السفن وبناء الأساطيل.بعد أن أخبر الخليفة بحاجته إلى عمّال مهرة لهذا الغرض، فقد بعث الخليفة إلى أخيه عبدالعزيز والي مصر أن يرسل إلى تونس ألفي قبطي مع عوائلهم لكي يقوموا بإنجاز مهمة بناء السفن. فوصل الأقباط إلى تونس وأنجزوا مهمتهم بمساعدة البربر الذين كانوا يجلبون الأخشاب[1]. وهكذا أصبحت المغرب مثل الشام ومصر، مركزاً تجارياً تخرج منه الأساطيل لإتمام الفتوحات في غرب البحر المتوسط.

بعد أن أتمّ القائد حسان من تصفية المراكز البيزنطية والقضاء على ثورات البربر، واطمأن تماماً لاستتباب الأمن، رجع إلى عاصمته القيروان لإنجاز مهمات كثيرة منها تنظيم الشؤون العسكرية والإدارية والمالية، وإنشاء الدواوين، وترتيب الخراج والجزية وتوطيد سلطان الحكم الجديد في كافة الثغور والأقاليم. إضافة إلى اهتمامه بالجانب التبشيري فجند مجموعة من الفقهاء وبعث بهم إلى سائر أنحاء المغرب للتوغل في قبائل البربر ونشر الدين الإسلامي واللغة العربية في صفوفهم. وهذا أدى إلى خروج البربر من عزلتهم التاريخية[2]وانصهارهم في المجتمع الإسلامي. فكان لهم الدور الرئيسي في استكمال الفتح المغربي بشكله النهائي ومن ثم دورهم الحاسم في الضفة الأخرى من المضيق[3] الذين كانوا أوائل طلائع المقاتلين المسلمين.

وقام حسان أيضاً بتجديد مدينة القيروان، وأنشأ فيها المسجد الجامع. وهكذا برزت القيروان مدنية متحضرة بعد أن كانت معقلاً عسكرياً محضاً منذ أيام مؤسسها عقبة بن نافع، لتأخذ دورها السياسي والثقافي كعاصمة للمغرب أو الولاية الأفريقية حسب التعبير الإداري . ففي أقل من ثلاث سنوات حرص القائد حسان على إظهار هذه المدينة بهذه الحلّة الزاهية الذي كان يطمح إليها، ولكن وفاة الخليفة عبدالملك بن مروان وحدوث تغييرات إدارية مفاجئة، أدت إلى عزله من القيادة. ولا نريد الخوض

---

(1) البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا، ص 38.

(2) بيضون، الدولة العربية، ص 55.

(3) سنفصل هذا الدور في الفصل الخاص بفتح الأندلس.

في الأسباب الكامنة وراء هذا القرار المجحف بحق هذا القائد وهو في قمة مجده السياسي والذي غادر القيروان في عام 85 هـ وذهب إلى دائرة النسيان. وتولى القيادة بعد موسى بن نصير.

ومن الضروري تقييم أعمال هذا القائد ودوره في توسيع الفتوحات الإسلامية في المغرب، ولعل سياسته المزاوجة بين الدبلوماسية والقتال قد جنت ثمارها في هذه البلاد التي باتت تحت سيطرة اللواء الإسلامي. كما أن المقاتل الإسلامي في المغرب قد اكتسب خبرة عالية في القتال في ظروف جغرافية مختلفة عما ألفها في الفتوحات السابقة للعراق ومصر، وهذا يعني تمرس المقاتل الإسلامي في الحروب الجبلية، وهو درس مستحدث في الفنون القتالية الإسلامية. كما كان القائد حسان يتفهم العقلية البربرية ويستطيع توظيفها لمصلحة المسلمين بعد أن احترم استقلاليتهم، حتى أن البربر اقتنعوا أخيراً بأن من مصلحتهم التحالف مع جيوش المسلمين والانضمام إليها ليصبحوا أحد أعمدتها الرئيسية في الفتوحات.

موسى بن نصير

(86هـ/ 770م – 90هـ / 711م)

تشير المصادر التاريخية إلى أن موسى كان من التابعين، وُلد سنة 19 هـ في خلافة عمر بن الخطاب في قرية من قرى الجزيرة و بوادي القرى من شمال الحجاز، وينسب إلى بكر بن وائل وأن أباه نصيراً كان ممن ساهم خالد بن الوليد في معركة عين التمر سنة 12 هـ وقيل إنه ينسب بطريق الولاء إلى بني لخم. كما نعلم من المصادر أنه كان يعمل في حراسة معاوية بن أبي سفيان، ثم صار وصيفاً لعبدالعزيز بن مروان فأعتقه. وتدرج موسى في سلّم الوظائف الحربية والإدارية وقاد بعض الحملات البحرية في عهد معاوية. وغزا قبرص وغيرها من الجزر القريبة. وكان آخر منصب قبل تنصيبه قائداً للمغرب هو مستشاراً لوالي مصر عبدالعزيز بن مروان. وفي سنة 86 هـ تسلم منصبه الجديد، وكان موسى بن نصير يمتلك رصيداً سياسياً كبيراً عند عبدالعزيز لما تربطهما من علاقة ودّ وإعجاب من قبل، فضلاً عن شخصية موسى الجذابة وتجربته الطويلة في

عالم السياسة وذلك لأنه عاش عن قرب في بلاط الأمويين وعرف مشاكل الدولة الأموية فاكتسب منها الخبرة والمعرفة، فلا عجب أن وصف بعد ذلك بأنه أقدر رجال الدولة الأموية والمعهم ذكاءً في تلك الفترة[1] بدأ موسى بن نصير سياسته في المغرب تكملة لنهج القائد السابق حسان وهي العمل على اجتذاب ولاء البربر والتعاون معهم، لهذا عمل على فكرة تعايش البربر مع المسلمين في الحرب أو في السلم، لا سيما وأن موسى كانت له خبرة طويلة في معايشة فتوح المغرب وخوصاً في أثناء عمله في مصر[2]. ولكن للدكتور حسين مؤنس رأياً آخر رغم تقديره لمكانة موسى بن نصير كما أشرنا قبل قليل، إذ يرى أنه لا يمكن مقارنته بالقائد حسان من جانب النزاهة والإخلاص والعناية بمصالح المواطنين والدولة. فهو يرى أن المسألة مسألة حروب وغنائم وكفى. وكان اهتمامه منصباً على القيام بغزوات والحصول على الغنائم والسبي الوفيرين، وهذا ما أحدث الفرقة وسوء الظن بالمسلمين من جانب البربر.

إن إسراف موسى في غزو قبائل البربر دون سبب مبرر هو شعوره بأن الحصول على الغنائم الكبيرة وارسالها إلى مركز الخلافة، سوف يجنبه سوء الظنّ به ولاسيما إن له سوابق في نهب أموال الدولة في مدينة البصرة في العراق. وكان لعبدالعزيز بن مروان الأثر الحاسم في بقائه على قيادة جيوش المغرب.

ولقد اعتمد موسى بن نصير على أولاده الذين جاءوا معه[3]. وأدرك منذ بدء فتوحاته أن السبب الرئيسي في تعثر الفتوحات والاستقرار الإسلامي في الأقاليم إنما يعود إلى خلل في الجانب البحري للقوات الإسلامية، كما انتبه إلى قلة عدد الجنود الذين يشكلون حاميتها الأمر الذي أدى إلى سهولة الإيقاع بها لأنها غير مؤهلة لصد هجوم أو حماية نفسها. ورغم أن القائد حسان قد سبقه إلى الاهتمام بهذه القضايا وقد عالجها أيام رجوعه إلى القيروان كما وضحنا. ولم يكن ما فتحه حسان قليلاً ولكن

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 46.

(2) د. بيضون، الدولة العربية، ص 58.

(3) عبدالله، عبد الملك، عبد العزيز، مروان.

بقيت هناك في المغرب الأقصى على وجه التحديد مواقع خارج السيادة الإسلامية، لذا فإن بعض الدارسين[1] لم يعتبر موسى فاتحاً للمغرب بل أن حسان هو الفاتح الحقيقي، وكانت مهمة موسى على ما يبدو هي الوثوق من طاعة البربر الخارجين عن الطاعة، أي أنه كان بصدد معالجة أمر هؤلاء المعتصمين في هذه المناطق بحملات تأديبية ضدهم[2]، ولقد باشر موسى بتوزيع قواته تبعاً لمقتضيات الحاجة، فكانت حملته الأولى انطلقت إلى (زغوان)[3] بقيادة عبد الله الخشيني وقد حققت الحملة غايتها بالسيطرة الكاملة على القلعة والمنطقة المحيطة بها. ومع الحملة التي قادها موسى[4] نفسه إلى سجوما (وهي المنطقة التي كانت عليها تهودة حيث قتل عقبة بن نافع) تكون حملات موسى بن نصير قد طهرت المغرب الأوسط دون صعوبة.

واشتملت حملات المطاردة وتعقب المتمردين من البربر منطقة إقليم السوس الأقصى الأقصى ووادي درعة في عمق المغرب وهذا هو أطول امتداد للقوات الإسلامية، ولقد تميزت حملة السوس التي قادها مروان بن موسى بضمها إلى أكثر من ألف مقاتل بربري إلى جانب الف وسبعمائة من العرب[5]، ولقد أصابت الحملة نجاحاً واسعاً. وتابع موسى عملياته العسكرية من السوس الأقصى إلى السوس الأدنى المجاور لإقليم طنجة، إذ قاد موسى بنفسه حملة إلى هذه المدينة المهمة والتي كان يحكمها الحاكم البيزنطي (بليان) أو (يوليان) كما تذكره المصادر المتنوعة وكان هذا الحاكم يتمتع بحكم ذاتي- الذي سيكون له دور هام في فتوحات المسلمين إلى إسبانيا -

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 48.

(2) بيضون، الدولة العربية، ص 58.

(3) قلعة جبلية تقع بين تونس والقيروان.

(4) وكان مع موسى أحد أبناء عقبة وهو عياض بن عقبة كقائد لمقدمة الجيش ولقد شهدت الحملة قساوة كبيرة على المتمردين انتقاماً لأبيه.

(5) المفارقة أن د. بيضون يستشهد بهذه الأعداد من كتاب فجر الأندلس لمؤنس، ص 49. وعند مراجعتنا للمصدر المذكور وجدنا أنه يشير إلى اشتراك (17.000) الف من العرب و(12.000) من البربر، انظر فجر الأندلس ص 49 .

وكانت مهمة موسى يسيرة في هذه الحملة، إذ سيطر على المدينة وحولها إلى مركز عسكري لتموين حملات المسلمين في تلك الجهات، ومن ثم سلّم قيادة حاميتها إلى ابنه مروان ثم إلى القائد البربري طارق بن زياد.

بهذا الانتصار يكون موسى بن نصير قد أنهى مهمته التوسعية في جبهة المغرب وأُخضعت تماماً للسيادة الإسلامية، ولم تبقى إلا مدينة (سبتة) عاصمة يليان، لأن الضرورة لم تقتضي فتحها بعد سقوط طنجة والأحداث التي تلت سقوطها. بعد ذلك عاد القائد موسى بن نصير إلى القيروان بعد أن انتهت أطول مهمة عسكرية في تاريخ المسلمين في ذلك الوقت والتي بلغت السبعين عاماً أو الثمانين عاماً على حد ذكر المصادر التاريخية عن طول فترة فتح المغرب من قبل القوات الإسلامية.

إن الفترة الطويلة التي قطعتها القوات الإسلامية على مدى مراحل التغير في مركز الخلافة وتعاقب القادة والولاة على جبهة المغرب، وما رافقها من هزائم ونكسات وأفراح وانتصارات قد قيّض لها أن تختم على يد القائد موسى بن نصير، الذي قطف كل ما زرعه السابقون على هذا المحور المهم (المغرب) والذي سيكون القاعدة الأمينة لفتح المسلمين لإسبانيا، ولا يمكن أن نغمط دور هذا القائد بجهوده الخاصة وطريقته القاسية في التعامل مع المتمردين والتي كان لها الأثر الكبير لدخول أعداد كبيرة من البربر إلى الإسلام إذ يذهب الدكتور حسن مؤنس بالاعتراف بدور موسى بن نصير بقوله[1]: (بيد أن هذه الغزوات لم تكن شراً خالصاً، بل هي أحدثت في الغرب رجّة كبرى أفاقت بسببها القبائل وتنبهت إلى هذا العصر الجديد الذي بدأ في حياة بلدهم، وملك الروع معظمهم فتسارعوا إلى المسلمين يدخلون في الطاعة ويعتنقون الإسلام، ورأى الكثيرون منهم ما يجنيه مواطنوهم الذين يُسلمون وينضمون إلى جيوش المسلمين من الخير والنعيم، فاقبل الكثيرون منهم ينضمون إلى جيوش المسلمين آلافاً، ولا يكاد الواحد منهم يُسلم حتى يسير مع الجيش الفاتح يغزو معه ويغنم معه. ووافق ذلك مزاج القبائل البربرية المتبدية، وجمعتها مع العرب

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 48.

صفات البداوة والفطرة والنشاط وحبّ القتال. فازدادت جيوش المسلمين في أفريقيا زيادة سريعة مطردة لا نكاد نجد لها شبيهاً في أية ناحية أخرى من نواحي الدولة الإسلامية إذ ذاك. وكان لابد لابن نصير أن يجد لهذه الآلاف مجالاً للغزو والنشاط وإلا صعب عليه ضبطها، فمضى هذا الرجل الموفق يقود الجيوش وتقوده الجيوش، مضى يفتح ويسترسل في الغزو حتى أدرك في ذلك غاية لم تكتب إلا للقلائل جداً من قادة المسلمين). ولا نرى في اعتراف الدكتور مؤنس أي تناقض بين موقفه الأول من هذا القائد بكل سلبياته وهذا الإطراء له، لأن التاريخ الإسلامي ارتبط بدور القائد الفرد المنتصر في النهاية لا سيما إذا كانت نجاحاته قد سببت هذا الدور الكبير للتوسع الإسلامي في بلاد نائية وصعبة كبلاد المغرب. فالمسلمون القادة وعلى اختلاف درجة اجتهادهم في التوسعات العسكرية وحاجتها أحياناً إلى التسامح واللين، فقد بقى السيف هو العامل الحاسم في وجه المتمردين والعصاة، والخارجين عن الامتثال لشروط الفاتح الإسلامي الثلاثة: الإسلام أم الجزية أم الموت، ولقد استطاع هذا القائد أن يختصر هذه الشروط ويجعل البربر يتسابقون إلى الدخول في الإسلام ديناً وجيشاً ويصبحون مادة مهمة في الاستراتيجية الإسلامية القادمة. لقد عاد هذا القائد إلى القيروان أميراً [1]، فعمل على ما بدأ به القائد حسان بتحويلها إلى مركز إداري وسياسي وثقافي ينافس المراكز الشهيرة في المشرق العربي[2]. ولم ينس هذا القائد هواجسه الأولى في بناء قاعدة بحرية، فعمل على استكمال ما فعله القائد حسان فاستطاع أن يبني أسطولاً حربياً قوامه مائة سفينة، سيكون لها الشأن الكبير في الفتوحات اللاحقة.



(1) هو اللقب الذي عُرف به موسى بن نصير.

(2) بيضون، الدولة العربية، ص 60.

الفصل الثالث

- فتح إسبانيا
- أسباب الفتح ومقدماته
- هل كان فتح إسبانيا مغامرة؟
- مراحل الفتح

الفصل الثالث

أسباب الفتح ومقدماته

لقد أشرنا في الفصل الأول إلى طبيعة الأحوال السياسية التي مرت بها إسبانيا قبل فترة الفتح الإسلامي، كما توقفنا عند عهد الملك لذريق الذي كان آخر حكام إسبانيا. وقد ألمحنا إلى بعض مظاهر الاتصال بين المسلمين وأعداء الملك لذريق والتي كانت أحد أسباب الفتح الكبير فيما بعد. والآن سنبحث بشيء من التفصيل المقدمات والأسباب الحقيقية للفتح الإسلامي لإسبانيا.

بعد أن عاد موسى بن نصير إلى القيروان وخلّف طارق بن زياد على قيادة القوات الإسلامية في الساحل الغربي من طنجة وما حولها. فقد اتخذ طارق سياسة جديدة في تعامله مع البربر قوامها الرفق والتسامح، وهذا يرجع إلى كونه بربري الأصل وإلى قوة إيمانه التي لا ترضى وضع السيف على رقاب الناس دون دعوتهم بالمعروف للدخول في الإسلام[1]، وهكذا ازدادت القوات الإسلامية عدداً، وأخذت طموحات طارق بن زياد تتجه نحو سبته هذه المدنية التي عجزت عن فتحها قوات المسلمين مرتين. الأولى في زمن القائد عقبة بن نافع والثانية في زمن موسى بن نصير، وظلت سبتة حصناً منيعاً في وجه المسلمين. وكان حاكم هذه القلعة هو يُليان[2] الذي كان مصدراً لاختلاف كبير بين المصادر التاريخية العربية والإسبانية، فبعض منها

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 52.

(2) تذكرة بعض المصادر باسم يوليان.

يذهب إلى أن هذا الحاكم قوطياً والآخر يجعله رومياً فيما يزعم آخرون بأصله البربري من غمارة، ولكنهم يتفقون على أنه الحاكم الفعلي لسبتة. وكان له السيطرة على مجاوريه من البربر من غمارة وبرغواطة خصوصاً. وفي أخبار المجموعة يوصف بالعلج ولكن مصدر آخر[1] يقول إنه رومي ويذهب ابن عذارى في البيان إلى أنه كان قوطياً ويلقبه ابن الأثير بالبطريق أي أنه رومي.

ولم تكتف المصادر بهذا الاختلاف حول يليان بل إن البعض وصفه بالشخصية الأسطورية خلقها الخيال العربي. ولكن المؤرخين الإسبان مثل دوزي وسافدرا قد أثبتا حقيقة شخصية يليان والدور الذي لعبه، إذ يقول سافدرا أن أصله فارسي وإنه من الأزارقة وقد استنتج من أن يليان أنجب ولداً اسمه بلكابش أسلم بعد الفتح واسم بلكابش من أسماء الفرس الأزارقة، وقال إنه من نيسابور[2]. وإن سلالة يليان بعد الفتح حسب المصادر الإسلامية هي: (يليان - بلكابش - عبد الله - الحكم - سليمان - أيوب - سليمان - أحمد). وبهذا يكون يليان شخصية حقيقية حكمت سبتة التي كانت تابعة للدولة البيزنطية لا لإسبانيا القوطية[3] وإن كان ابن عبدالحكم يعتقد بوجود صلات من الولاء تربطه بلذريق ملك إسبانيا [4]، ومهما يكن فإن يليان ونتيجة لانحدار البيزنطيين قد تمتع باستقلال في ولايته، واستطاع أن يبسط سيطرته على البربر المجاورين له.

وكان لهذه الشخصية دور كبير في فتوحات المسلمين في إسبانيا. فكان أول اتصال له مع المسلمين في زمن موسى بن نصير عند وصوله إلى إقليم طنجة سنة (89هـ / 709م) وتحاشيه فتح سبتة، فقد شعر يليان بالخطر الإسلامي القادم، فبعد عودة موسى إلى القيروان، سعى إلى الاتصال بطارق بن زياد، الذي رحّب به طارق

---

(1) ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 185.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، حاشية رقم 3.

(3) نفس المصدر، ص 54.

(4) ابن عبدالحكم، فتوح أفريقيا، ج 1، ص 204.

بن زياد لأهمية سبتة الاستراتيجية في طريق الفتوحات الإسلامية، ولعدم قدرته على فتحها بالقوة. فكان طارق سياسياً يتلك بعد النظر، لأن صداقة يليان تعني إخضاع جيع البربر وانضمامهم لجيش المسلمين في الحملات التالية. كما أن علاقة يليان المتردية مع الحاكم لذريق سوف تكون في مصلحة المسلمين في إسبانيا لاحقاً، في الوقت الذي استولى لذريق على السلطة من الحاكم غيطشة[1] الذين تفرق أتباعه في أماكن متعددة. لا سيما وأن يليان نفسه قد قام بمحاولة للانتصار للملك غيطشة لم يُكتب لها النجاح بسبب شدة مقاومة أنصار لذريق الذين استطاعوا أن يهزموه ويردوا قواته من حيث أتت، فرجع يليان إلى سبتة يتحين الفرصة المناسبة للإيقاع بلذريق. كما أن أولاد غيطشة وأنصارهم سيكون لهم شأن في مساعدة المسلمين على فتح إسبانيا. رغم أن دور أبناء غيطشة اتسم بالغموض لاختلاف الروايات عند دورهم الحقيقي في الفتح الإسلامي، فبعض المصادر تشير إلى أن أولاد غيطشة هربوا إلى أفريقيا واستعانوا بالمسلمين على سقوط الملك لذريق، لكن المصادر الأخرى تشير إلى أن أبناء غيطشة كانوا صغاراً وإنهم ظلوا في إسبانيا وتصالحوا مع الملك لذريق، ولما بلغ المسلمين إسبانيا ووثقوا من قوتهم على الإطاحة بلذريق انضموا إليهم. وهذا الأمر في تقديرنا ليس هيّناً وسبّب ضربة موجعة لقوات لذريق. رغم أن بعض الباحثين[2] يقلل من دورهم ويعتبرها مبالغة، لأن تصرف المسلمين مع أبناء غيطشة بعد الفتح لا يدل أنهم كانوا مدينين لهم بفضل.

وفي واقع الأمر اجتمعت للمسلمين أسباباً متعددة لفتح إسبانيا التي ستصبح الأندلس فيما بعد، منها ظروف موضوعية وأخرى ذاتية نضجت في لحظة تاريخية استطاع المسلمون استثمارها لبلوغ هدفهم بعد سلسلة طويلة من الحملات العسكرية التي كانت مقدمتها فتح بلاد المغرب وأفول الإمبراطورية البيزنطية والتطور الكبير في أساليب القتال للجيوش الإسلامية وبناء القاعدة التحتية للصناعات الحربية البحرية

---

(1) لقد أوضحنا في الفصل الأول تفاصيل وصول لذريق إلى الحكم.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، ص 56.

التي كانت الطرف الأضعف في المواجهات بين المسلمين وأعدائهم. كما أن اضطراب أحوال إسبانيا الداخلية كان هو الآخر سبباً مهماً في الفتح الإسلامي.

وكان ليليان والمعارضة المتزايدة للملك لذريق الدور الأكيد في تعجيل الفتح. ولا يمكن إنكار أثر البربر في سيرة الفتح الإسلامي نحو إسبانيا. إذ ساهموا بدور فاعل وحاسم على مستوى المقاتلين والقادة كما سنرى لاحقاً.

هل كان فتح إسبانيا مغامرة؟

إن المصادر التاريخية توفر كماً هائلاً من المعلومات التي تُشكل شواهد على وجهة نظر معينة أو نقيضها في الوقت نفسه. وبقدر تعلق الأمر بفتح إسبانيا نجد أن الكثير من المؤرخين يذهبون إلى أن المسلمين لم يكونوا يملكون رؤية استراتيجية كاملة وواضحة عن الفتح الشامل لإسبانيا، وأن المسلمين لم يبغوا غير غزو بعض أطراف إسبانيا للعودة بالغنائم والسبايا، لكن حال المسلمين قد تحوّل بعد النجاح الساحق الذي حققه طارق بن زياد في وادي لكة. فكان لابد من مواصلة الفتوحات والاستقرار الكامل في إسبانيا والتي أصبحت الأندلس فيما بعد. ولأصحاب هذا الرأي من المؤرخين أسانيدهم التي وردت في المصادر التاريخية العربية والإسلامية، والتي تفيد كلها على أن موسى بن نصير أمر طارق بن زياد بالتوجه إلى غزو البلاد الإسبانية والحصول على أكبر قدر من الغنائم والعودة ثانية، وهذا ما حدا بموسى أن غضب من طارق وعاقبه على مواصلة الفتح خلافاً لما أمره به[1]. كما أن أصحاب هذا الرأي يتخذون من قلة عدد جيش طارق لتعزيز اعتقادهم بأن فتح إسبانيا كان مغامرة كُتب لها النجاح لاحقاً. كما أن رسالة الخليفة الجوابية لموسى عندما استأذنه بغزو إسبانيا كانت تؤكد على أن يبعث أولاً بسرايا صغيرة خوفاً من عواقب لا عهد للمسلمين بها في بلاد ما وراء البحر دليلاً آخر على عدم وجود خطة مسبقة للفتح

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 2، ص 12.

المنظم. ويؤيد الكثير من الباحثين المعاصرين هذا الرأي[1]، ويعللون رأيهم بأن الانتصار الكبير الذي حقّقه طارق بن زياد في وادي لكة وما نتج عنه من (تطاير أهل العدوة من البربر والعرب إلى الأندلس بعد انتصار المسلمين، وإقبالهم على الفتح بقلوب مجبورة). أي أن حملة طارق كان مغامرة حربية مصيرها الفشل قبل النجاح. كما أن قصة حسد موسى بن نصير لطارق بن زياد وإصداره أوامر لتوقف الفتوحات يعد دليلاً على أن الفتح كان مغامرة كتب لها أن تتحول إلى فتح شامل بفعل عوامل مفاجئة وآنية تحققت على أرض الميدان.

ولكن، بعض المؤرخين يتبنون وجهة نظر مناقضة ويرون أن الفتح الإسلامي كان منظماً ويتماشى مع الأسلوب التقليدي الإسلامي في فتح البلدان أي السير بخطوات متدرجة ليكون الفتح في الأخير على مراحل كما حدث في فتح المغرب مثلاً. ويعززون حجتهم بأن موسى بن نصير قد عزز جيش طارق بخمسة آلاف مقاتل حين تطلبت الحاجة إلى ذلك ويفسرون غضب موسى على طارق بأنه من قبيل الخوف على المسلمين من المغامرة أكثر ما ينبغي، أو ربما حسده مما ناله طارق من النجاح الكبير[2]، إذ يخلص حسين مؤنس إلى استنتاج مفاده أن فتح الأندلس ليس مجرد مغامرة صادفها النجاح وكان لها ما بعدها، وإنما كانت من أول الأمر فتحاً مدبراً، أتبع فيه المسلمون أسلوبهم في التدرج المرحلي كما أشرنا إليه قبل قليل. وسيقرأ الدكتور مؤنس حكاية أمر الخليفة بأن يخوض الفتح أولاً بالسرايا وعدم إيقاع المسلمين في بحر شديد الأهوال، ورد موسى على أنه ليس بالبحر وإنما هو مجرد خليج يرى الناظر ما خلفه، ورد الخليفة عليه "وإن كان ! فاختبره بالسرايا). قراءة لا تخلو من الجدية، إذ يستنتج بأن موسى قد اتخذ قرار الفتح بعد دراسة لأحوال الأندلس بصورة كاملة، وأن قرار الخليفة هو من باب الحرص على أرواح المسلمين، كما أنه

(1) د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب، ص 190.

(2) يتبنى هذا الرأي بعض المعاصرين وفي مقدمتهم د. حسين مؤنس. انظر فجر الأندلس، ص 58. وانظر كذلك: د. أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 56.

يعزز وجهة نظره بالقول: أن طارقاً وموسى سارا في بلاد الأندلس منذ اللحظة الأولى سيرة من قدّر كل شيء قبل الشروع بالعمل[1].

يلاحظ القارئ أن المسوغات التي يقدمها كل فريق لا تخلو من الحقيقة، ولكنها في نفس الوقت لا تخلو من الانحياز المسبق لنظرية ما والبحث في المصادر التاريخية عن أي سند حتى لو كان أحادياً لتدعيم وجهة نظرها. وهذا هو شأن المؤرخين الذين يدرسون التاريخ على أنه مجموعة من الوقائع المكتوبة في المراجع التاريخية، فيأخذون ما يناسبهم من هذه الوقائع دون ربطها بالظروف المحيطة الأخرى وإغفال شخصية المؤرخ والزمن الذي عاش فيه. وطبيعة علاقته بالحدث التاريخي وصانعوه ! كما أن هناك مسألة جوهرية تتعلق بنشوء الحضارات وانهيارها، مستثنين الحضارة الإسلامية من هذا الفهم وكأن الظاهرة التاريخية مرتبطة بأمر الغيب دائماً، ويذهب الخيال العربي الإسلامي في بعض الأحيان إلى تفسيرات أسطورية لإثبات المعجزة في التاريخ الإسلامي وسر انتصاراته في الوقت الذي يفرون مرحلة انهيار هذا المجد بنظرية المؤامرة على حد التعبير الحديث، أو الابتعاد عن سيرة السلف الصالح حيناً آخر. فهل يعقل أن تتفق المراجع العربية كلها [2] باستثناء ابن عذاري الذي لم يشر إليها، على قصة إرسال يليان لابنته إلى قصر لذريق لتتأدب مثل غيرها من بنات أكابر القوط في ذلك الزمان، وأن لذريق ملك إسبانيا أُعجب بها فنال منها، سبباً لدخول المسلمين إلى إسبانيا بعد أن قرر يليان الانتقام من لذريق نكاية باغتصاب ابنته ؟!! حتى أن مؤرخاً معاصراً لا يستطيع إنكارها تماماً للدخول في تفسير معقول لدخول المسلمين إلى إسبانيا !! ففكرة فتح إسبانيا تعود في الأصل إلى نضوج عوامل متعددة أشرنا إليها في حديثنا عن مقدمات وأسبابا الفتح. وليس إلى عامل واحد أو ظرف

(1) نفس المصدر.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، ص 59.

معزول عن النظرة الكلية لمسار الفتوحات الإسلامية في مرحلة انهيار الإمبراطوريات المواجهة لهذا المدّ الإسلامي الجديد القادم من الحدود القريبة الإسبانية.

مراحل الفتح

لقد عرضنا أهم الآراء التي تناولت موضوع الفتح الإسلامي، وهل كان مغامرة أم عملية مدروسة وتم تنفيذها بمراحل متعددة، وخلصنا إلى أن هناك عوامل متعددة أنضجت فكرة الفتح الكبير لإسبانيا دون اقتصارها على الغزو وجني الغنائم. ومن خلال تتبعنا لمراحل الفتح ستعرف عن كثب على أهمية كل عامل في الزمان والمكان الذي نضج فيه ليكون له أثراً في مسار الفتوحات.

1- مرحلة الاستكشاف

بعد فترة المداولات السياسية بين الحاكم يُليان والجانب الإسلامي، التي تشير المصادر التاريخية، بأن هذا الحاكم لم يكتف بمخاطبة طارق بن زياد، بل قام بزيارة للقائد موسى بن نصير إلى القيروان لإقناعه بسهولة مهمة فتح إسبانيا في هذه الفترة وذلك لغياب الملك لذريق مع خيرة مقاتليه لمقاومة التمرد الذي حصل في أقصى شمال شبه الجزيرة. بل إن المؤرخ الإسباني سافدرا يذهب إلى أن يُليان ذهب تنفيذاً لمؤامرة دبّرها مع أبناء الملك السابق غيطشة وأنصارهما، والتي أكدتها أحد المصادر التاريخية الإسلامية[1]. وبين ما تناقلته المصادر الكثيرة عن هذه المحاورات مع طارق وموسى، يبدو لنا أنها لم تكن كافية لتشجيع المسلمين إلى فتح إسبانيا وذلك بناءً على الشكوك التي أبداها كل من طارق وموسى في جدية عرض حاكم سبتة يُليان. إذ نرى أن ابن عبدالحكم يؤكد شكوك طارق بقوله: لا أطمئن عليك حتى تبعث إليّ برهينة، فبعث إليه بابنتيه .. الخ. وكان موسى بن نصير أكثر شكاً حين طلب من يليان أن يقوم بالهجوم على بلاده ثم يقدر جدية يُليان في أمر فتح إسبانيا إذ تنقل لنا المصادر التاريخية ما قاله نصاً: إننا لا نشك في قولك ولا نرتاب، غير أننا نخاف على المسلمين

---

(1) ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص 3.

من بلاد لا يعرفونها وبيننا وبينه البحر، وبينك وبين الملك لذريق حمية الجاهلية واتفاق الدين فجز إليه بنفسك وشنّ الغارة على بلاده، واقطع ما بينك وبينه، وإذ ذاك تطيب النفس عليك، ونحن من ورائك إن شاء الله.

وإذا نظرنا إلى هذه المقولة وتفحصنا جملة (وإذ ذاك تطيب النفس عليك)، سنجد أن مقدمة كلام موسى هو من باب الذكاء الدبلوماسي. وهنا نستنتج أن موسى بن نصير لم يكتف بجدية يليان فأراده أن يكون أول طلعة استكشافية لجسّ نبض الجبهة الإسبانية، قبل أن يجربها بالسرايا الإسلامية. ولقد نفذ يليان الصادق النية لقتال لذريق وحمل على إسبانيا وشنّ غارة - باستخدام السفن - على الساحل الجنوبي، وعاد بالغنائم والسبي وهذا ما شجع وأثار الحماس لدى الجميع لبداية الفتح. لكن موسى بن نصير القائد لم يكن مهيأ للبتّ في أمر الغزو ففاتح الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بدمشق وقد سردنا قصة جواب الخليفة لموسى بن نصير.

وكانت ثاني طلعة استكشافية من المسلمين أنفسهم إذ اختار موسى أحد القادة وهو طريف بن مالك ويكنى بأبي زرعة[1]. فجهّزه بقوة عسكرية صغيرة قوامها أربعمائة راجل ومائة فارس. وقدّم لهم يليان أربعة سفن عبروا فيها (وهذا يدل على حسن نيّة يليان في مساعدة المسلمين على فتح إسبانيا والتخلص من عدوّه لذريق، كما يدل من ناحية ثانية على حرص موسى في عدم استخدام القوة البحرية الإسلامية في طلعات استكشافية قليلة العدد ومحدودة الغاية). واستطاع طُريف من تحقيق الهدف في الأراضي الإسبانية التي يُرجح أن قوة من أنصار أبناء غيطشة قد ساعدته بحراسة

---

(1) اختلف المؤرخون في نسب هذا القائد فقال البعض إنه من أهل اليمن عربياً ويسمونه بالمعافري، ويرى البعض وهم الأكثرية بأنه بربري الأصل، بما فيهم ابن عذارى، ونحن نرجح أصله البربري لأسباب تتعلق باختياره، دون بقية القادة العرب في مهمة استطلاعية لا تُحمد نتائجها. لا سيما وأن الدولة الأموية آنذاك كانت عربية السيادة، وربما فهم موسى من كلام الخليفة بالحفاظ على أرواح المسلمين هو ما يعني العرب منهم. فقام موسى بإيفاد سرايا من البربر، وهذا ما سيفعله مع طارق بن زياد وجيشه.

المعبر حتى نزول القوات الإسلامية إلى البر الإسباني[1]. وكانت هذه الحماية سبباً لقيام طريف بسلسلة من الغارات التي نجحت في الحصول على الغنائم والعودة إلى مواقعها، فقام ببعث الغنائم إلى القيروان فاستلم موسى حصته فتشجع وأخذ يستعد لإرسال حملة عظيمة تقوم بالفتح الحقيقي !!

وهذه وجهة نظر تبناها د. مؤنس، وهذا أمر خطير يثبت بصورة قاطعة أن الغنائم والسبايا هي المقياس الأول في سبب الفتح بعد أن كان من المؤمنين باستراتيجية الفتح المنظم. ثم إن الطلعات الاستكشافية في المفهوم العسكري لا تتحدد أهميتها بالغزو والقتل وجني الغنائم، بقدر قدرتها على جمع المعلومات عن الطرف الآخر ! على الرغم من أن بعض الباحثين يرون في نجاح طلعة طريف الاستكشافية هي دليل على صدق طروحات يليان بسهولة فتح بلاد إسبانيا.

وهو أمر لا يخلو من الصحة، إذا كان الفتح الإسلامي هو مجرد انتصار عسكري ولا يحمل في ثناياه أية أمور تتعلق بنشر العقيدة الإسلامية. وإذا (ما تذكرنا أن الغنائم في الإسلام حافز مادي عرضي وليست غاية أساسية للجهاد والفتح اللذين دعا إليهما وجعلها سبيلاً إلى نشر راية الحق) [2]، فعلينا أن نتسلح بمنهج الشك في دراسة التاريخ الإسلامي في الأندلس منذ طلعاته الاستكشافية وحتى بلوغ المسلمين غايتهم على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية والتي ستكون الأندلس وفقاً للوجود الإسلامي على الخارطة الجغرافية لإسبانيا.

2- حملة طارق بن زياد

بعد انتهاء مرحلة الاستكشاف والوقوف على حقيقة الضعف في الجانب الإسباني، إضافة إلى اتفاق موسى مع يليان على أن يكون أنصار الأخير أدلاءً للمسلمين في الأراضي الإسبانية، أصبح على موسى، أن يجهز القوات ويعين القائد

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 67.

(2) انظر: مقدمة المحقق، د. عبد الله انيس الطباع لتاريخ افتتاح الأندلس، لابن قوطية، ص 13.

لإنجاز مهمة الفتح الأولى، ولقد اختار قائداً لهذه الحملة هو طارق بن زياد وأعدّ له جيشاً يقدّر بسبعة آلاف مقاتل من البربر باستثناء ثلاثمئة من العرب.

فمن هو طارق بن زياد؟

تشير بعض المصادر الحديثة إلى عدم وجود معلومات موثوقة عن طارق قبل قيامه بقيادة هذه الحملة[1] ولكن بعض المصادر تشير إلى أن طارق اشترك في معارك تحت قيادة زهير بن قيس على الجبهة المغربية، فلما قُتل زهير في برقة، نصّب طارق أميراً لبرقة وعند قيادة موسى اختاره ليكون أحد قادة جيشه فأظهر شجاعة وحكمة كبيرتين حتى أن موسى جمع كل الرهائن البربر من قبائل كتامة وزناتة وهوارة مع رهائن القائد حسان الغساني وكان عددهم اثني عشر ألف مقاتل وولّى عليهم طارق بن زياد عند رجوعه إلى القيروان بعد فتح المغرب وهكذا أتيح لطارق أن يقود جيوش موسى ويشترك معه في فتح بقية بلاد المغرب والسيطرة على حصون المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسي. كما أن طارق كان مولى لموسى كما هو معروف.

ولقد اختلف المؤرخون أيضاً في أصل طارق بن زياد. فذهب بعضهم إلى أنه كان فارسياً همذانياً وكان مولى لموسى بن نصير، وهناك من يقرّ بأنه عربياً من اليمن وآخرون يذهبون إلى أن أصله من قبيلة نفزة البربرية، في حين يُعرّفه ابن خلدون بطارق بن زياد الليثي[2]. ومهما يكن من أمر الاختلاف في دور ونسب طارق قبل استلام قيادة الحملة الأولى لفتح إسبانيا، فقد كان طارق البربري الأصل في الحقيقة الثابتة، أثبت أنه القائد المناسب لقيادة جيش الفتح الإسلامي في أول حملاته لكن هل تكفي كفاءة طارق العسكرية لمثل هذا الاختيار بوجود قادة من طراز طريف بن مالك وعياش بن أخيل وزرعة بن أبي مدرك والمغيرة بن أبي بردة العذري وغيرهم. فلماذا طارق إذن ؟

---

(1) انظر مثلاً: حسين مؤنس، فجر الأندلس، 67.

(2) انظر مثلاً (المقري، ج 1، ص 143، ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 6، الأخبار المجموعة، ص 6 ... الخ).

يبدو أن اختيار طارق لهذه المهمة العسكرية الخطيرة قد جاء لأسباب أكثر تعقيداً من الفهم السطحي لعلاقة سيد بمولاه أو مستوى قدرات طارق العسكرية التي لا يشك أحد فيها ! وإخلاصه للعقيدة الإسلامية بحسن إسلامه.

فما هي الحقيقة في هذا الاختيار ؟

لا نزعم إننا نقدم الحقيقة كاملة، ولكن دراستنا للمصادر المتعلقة في هذا الشأن نستطيع أن نخرج برؤية ربما ستحرج بعض الباحثين الذين تورطوا في الانحياز لوثائق الفاتح المنتصر حتى لو كانت معززة بالأساطير والحكايات الخرافية. فإن اختيار طارق بن زياد على رأس الحملة الأولى يتعلق بأسباب ترتبط بشخصية طارق الذاتية التي أشرنا على الاتفاق عليها. لكن هناك عوامل موضوعية تتعلق برؤية موسى بن نصير لقراءة الأحداث. فإن تجهيز جيش بربري في أغلبية شبه مطلقة يستدعي منطقياً قيادته من قبل قائد بربري كفء وله تاريخ مشهود بهذا يحقق موسى موازنة مطلوبة قوامها التحفظ الذي أبداه مركز الخلافة بعدم المغامرة بالمقاتلين المسلمين في حملة غير مضمونة النتائج وفق التصور الأموي الذي ينحاز للعرق العربي. كما أن وجود طارق على رأس هذا الجيش يوفر ضمانة في الولاء[1] لجيش المقاتلين المسلمين من البربر، فكما كان موسى بن نصير متوجساً في إرسال حملاته الاستكشافية من إرسال عرب مسلمين كما أشرنا من قبل، فهو كان يريد للخطوة الأولى في فتح إسبانيا أن تكون بجيش يعزز انتصاراته[2]، كما أن موسى كان مدفوعاً بهواجسه كقائد ومسؤول بشكل كامل أمام الخليفة وله سوابق غير محمودة في سيرته بالاستهتار بمال المسلمين العام جعلته أن يكون حذراً في أية خطوة محفوفة بالمخاطر، فما كان له غير طارق بن زياد وجيشه البربري لخوض أول المغامرة، بحس استكشافي لا يقلل من ثقة موسى

---

(1) لضمان عدم عصيان البربر كما حدث في عهد عقبة بن نافع وحسان الغساني.

(2) وهذا ما حدث للجيش الذي اعدّه موسى لطارق بعد نجاح الحملة الأولى، وكان قوامه خمسة آلاف مقاتل أغلبيتهم من العرب.

بطارق، بل إن القائد كان يتحسب لكل التفاصيل الدقيقة التي ربما تكون نهاية لمصيره السياسي القلق. وبهذا يكون اختيار موسى بن نصير موفقاً [1].

حكاية سفن يليان وعبور المسلمين

إذا كان الباحث يستطيع وفقاً لمنطق الأحداث أن يُصدق عبور حملة طُريف الاستكشافية بواسطة سفن يليان الأربع لا سيما إذا عرفنا أن جيش طريف كان مؤلفاً من خمسمائة مقاتل فقط: فكيف يمكن أن نقر عبور جيش طارق المؤلف من سبعة آلاف مقاتل مع معداتهم القتالية وجيادهم بهذه السفن الأربع؟ يذهب بعض المؤرخين المعاصرين إلى حدوث أمر العبور بواسطة هذه السفن على شكل دفعات، ويظل من يعبر من الجيش ساكناً مخافة من أهل الشاطئ حتى يتم عبور الجيش بأكمله[2]. كما يشير محقق كتاب ابن القوطية، (تاريخ افتتاح الأندلس) إلى أن منطق الوقائع التاريخية والعوامل التي رافقت الفتح تؤكد أن السفن الأربع أو الست التي عبر بها طارق ورجاله كانت لـ (يوليان) حاكم سبتة وهي مدينة سياحية تعتبر مثل هذه السفن بالنسبة إليها عصب الحياة[3].

فهل نصدق وجهة النظر القائلة بالعبور بأربع أو ست سفن وكذلك نسبتها إلى ملكية الحاكم يليان بهذه السهولة؟

الواقع إن الإقرار بقوة المسلمين البرية وإهمال قوتهم البحرية ولاسيما في مرحلة فتح إسبانيا هو إجحاف بحق التطور الواضح في إمكانية الجيش الإسلامي البحرية، التي شهدنا اهتمام القادة المسلمين بها منذ قيادة حسان الغساني في تونس وإنشاء قاعدة بحرية وورشة لبناء السفن استُخدم الأقباط المصريين لهذا الغرض، كما

---

(1) وهناك سبب آخر يتعلق بإلمام البربر بطبيعة بلاد إسبانيا لأن المغرب وإسبانيا يؤلفان وحدة جغرافية وتاريخية. وكان حانيبال قديماً قد عبر المضيق إلى إسبانيا مع جيشه البربري.

(2) انظر: مؤنس، فجر الأندلس، ص 69.

(3) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق الدكتور عبدالله أنيس الطباع، المقدمة، ص 15.

أن موسى بن نصير قد تابع الاهتمام ببناء السفن وتشكيل أسطول إسلامي على طول الساحل الغربي، كما أن مغامرة إرسال جيش إسلامي كبير بسفن قائد أجنبي مهما بلغ إخلاصه لا يتوافق مع هواجس موسى تجاه يليان ولا يتفق مع السياسة التي اتخذها الخليفة[1] بضرورة مراعاة أقصى الحذر على حياة المسلمين. كما أن الأمر لا يعني من وجهة نظر عسكرية استهتار أو غفلة موسى بن نصير بمصائر مقاتليه وعدم التحسب لأي احتمال من الأخطار التي قد تواجههم نتيجة لنقلهم على شكل دفعات من جانب الإسبان في ذلك الطرف. كما أن خبرة موسى في المعارك البحرية السابقة لا تسمح له بمثل هذه المغامرة. لذا، نرى أن عبور الجيش الإسلامي ربما استعان بسفن يليان ولكن أساطيل البحرية الإسلامية كان لها الدور الأساسي في العبور والتي أنتجت في دار الصناعة بتونس كما ذكرنا وتشير بعض المصادر إلى استعانة المسلمين بمراكب التجار الروم التي كانت تختلف إلى الأندلس[2].

وبهذا التصور يمكن أن نستوعب عبور جيش المسلمين المضيق إلى الجبل الذي سيحمل اسم القائد طارق فيما بعد، الذي تجمع المصادر العربية كلها - باستثناء الطبري - بأن العبور كان في ربيع الثاني سنة 92هـ/ 711م، وكان آخر فوج وصل إلى الشاطئ الآخر هو الفوج الذي يرأسه طارق بن زياد شخصياً. وباستكمال وصول جيش المسلمين، اتخذ طارق قراراً ببناء التحصينات اللازمة لحماية جيشه من خطر محتمل، والحقيقة أن موضوع المقاومة الإسبانية لم يأخذ بالجدية من عدد كبير من المصادر التاريخية والباحثين المعاصرين الذين يرون أن عملية العبور قد تمت دون أية مقاومة وذلك لأن نزول الجيش الإسلامي كان في الوقت المناسب جداً لأن الملك لذريق إذ ذاك كان مشغولاً بإخماد ثورة الشكنس في بنبلونة[3] كما أن الظرف في

---

(1) الوليد بن عبدالملك.

(2) ابن عبدالحكم، فتوح، ص 90. نفح الطيب، ج 1، ص 228.

(3) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 229. كما يشير المؤرخ الإسباني سافدرا إلى أن الهجوم على لذريق كان بتحريض من يليان وأنصار غيطشة وذلك تسهيلاً لأمر المسلمين في مهمتهم.

الجانب الإسباني كان ناضجاً لمصلحة المسلمين وذلك لمظاهر السخط العام على حكم لذريق، وقد يكون هذا صحيحاً. ولكن مهما بدا الإسبان بهذا الضعف والانهيار، فلابد لهم أن يكونوا على علم كامل بالأهمية الاستراتيجية لهذا الجبل. لاسيما بعد تنامي الخطر الإسلامي على دولة القوط في إسبانيا متمثلاً بغزوة يليان وطلعة القائد طريف الاستكشافية وما حققتا من خسائر وجنتا من غنائم في صفوف القوات الإسبانية. فكان لابد من وجود مقاومة فقد أشار المؤرخ التونسي أبي مروان عبدالملك بن الكردبوسي إلى هذه المقاومة بقوله (فمضى طارق لسبتة وجاء في مراكبة إلى جبل طارق المعروف باسمه إلى الآن، وذلك سنة اثنين وتسعين من الهجرة، ووجد بعض الروم وقوفاً في موضع وطئ كان غرم على النزول فيه إلى البر فمنعوه منه، فعدل عنه ليلاً إلى موضوع وعر. فوطأه بالمجاذف وبراذغ الدواب، ونزل منه في البر وهم لا يعلمون، فشنّ غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم)[1]. كما أن مصدر تاريخي آخر يشير إلى أن المسلمين عند وصولهم إلى الجبل بنوا سوراً على أنفسهم يسمى سور العرب[2] دليل على وجود مقاومة فعلية من الجانب الإسباني.

ولابد لنا قبل الدخول في تفاصيل حملة طارق العسكرية نتوقف عند أمرين اختلفت الروايات بشأنهما كثيراً وهما:

إحراق السفن

يذهب المؤرخون إلى التصريح بحقيقة حرق السفن من قبل طارق بن زياد، لكي يقطع كل أمل لجيشه في العودة إلى المغرب، وذلك نوع من التحفيز المعنوي على حد استنتاجهم كما اختلف الباحثون المعاصرون في تحديد المصادر التاريخية التي ذكرت هذه الواقعة فيذهب الدكتور حسين مؤنس إلى أن الإدريسي وهو من رجال القرن الثاني عشر الميلادي هو الوحيد الذي ذكر هذه الحادثة ليستبسل جنوده في القتال،

---

(1) ابن الكردبوس: الاكتفاء في اخبار الخلفاء ص 12، نشر أحمد مختار العبادي، صحيفة مدريد، 1665.

(2) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 12.

ويزيده محقق ابن القوطية[1] بانفراد الشريف الإدريس بين المؤرخين القدماء المسلمين في ذكر هذه الواقعة ويذهب المحقق إلى تعليل هذا التفرد من قبل الادريس بحكاية حرق طارق لسفن جيشه. بأن نشأة الإدريسي الأندلسية وتأثره بأحداث عصره وكان نفوذ الدولة الأموية يتقلص في شبه الجزيرة بعد أن سقطت بعض الأقاليم في أيدي الإسبان واستقلت عن العاصمة المركزية قرطبة. ونتيجة لتراجع النفوذ الإسلامي وارتفاع المد الإسباني فقد حدث أمران متطرفان: الأول هو حاجة إسباني إلى النيل من أهمية الفتح الإسلامي للأندلس، والثاني هو حاجة العرب لتعزيزات تاريخ الفتح. ولذلك فقد عمد الإدريسي إلى تولي نوع من المعادلة للحد من تطاول الإسبان على التاريخ الإسلامي فقد استساغ مسألة إحراق طارق بن زياد للسفن[2].

ولكن بعض المصادر المعاصرة تشير إلى ورود هذه الحادثة في أكثر من مصدر قديم هي كالتالي كتاب الاكتفاء لابن الكردبوس، وكتاب نزهة المشتاق للشريف الإدريسي، والثالث كتاب الروض المعطار للحميري.

فابن الكردبوس يقول: (ثم رحل طارق إلى قرطبة بعد إحراق المراكب وقال لأصحابه: قاتلوا أو موتوا).

أما الإدريس فيقول في ذكر حادثة إحراق السفن التالي: (وإنما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبدالله بن ونمو الزناتي، لما جاز بمن معه من البرابر، وتحصنوا بهذا الجبل، أحس في نفسه أن العرب لا تثق به، فأراد أن يزيح ذلك عنه، فأمر بإحراق المراكب التي جاز بها فتبرأ بذلك عما أتهم به)[3].

وأما الحميري صاحب كتاب الروض المعطار فقد كرر رواية الأدريسي مع اختلاف بسيط ولكنه مهم إذ يقول: (وإنما سمي بجبل طارق بن عبدالله لما جاز بالبر

(1) انظر مؤنس، فجر الأندلس، ص 69. ابن القوطية، تحقيق د. الطباع، المقدمة، ص 14.

(2) المصدر السابق، ص 15.

(3) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 26.

الذين معه، تحصّن بهذا الجبل، وقدر أن العرب لا ينزلونه، فأراد أن ينفي عن نفسه التهمة، فأمر بإحراق المراكب التي جاز فيها، فتبرأ بذلك مما اتهم به)[1].

ومن الواضح من هذه الروايات الثلاث قد أقرت واقعة إحراق السفن مع اختلافها في تفسير السبب. ومع ورودها في هذه المصادر فإن أغلبية المؤرخين يميلون إلى نفي هذه الحادثة. والحقيقة أن هذا الخلط في رواية التاريخ في المصادر الإسلامية القديمة يثير الكثير من الالتباس لدى الباحث الذي لا يمكن له إلا أن يستخدم المنطق للوصول إلى استنتاج معين تجاه هذه الحادثة.

فنرى أن لا ضرورة لإحراق السفن لاعتبارات عديدة:

1- إن طارق بن زياد لم يكن يمتلك سلطة القرار بهذا الشأن، لا سيما وأن الروايات المؤيدة لإقدامه على هذا الفعل، لم تشر لا من بعيد ولا من قريب إلى مشاورات بين موسى بن نصير وطارق بن زياد بهذا الشأن. ولو أن طارق بن زياد قد اجتهد فيما بعد في قرارات لم يرجع بها إلى موسى بن نصير[2].

2- إن السفن التي استُخدمت في العبور تمثل عصب الحياة للبحرية الإسلامية، فإن الإقدام على حرقها يمثل خطأ استراتيجياً من الوجهة العسكرية، والمسلمون على أول خطوات الفتح، ولا يمكن التكهن في ضرورة الاستفادة منها سوى للانسحاب أو نقل تعزيزات جديدة لإدامة زخم الجيوش في الجبهة الإسبانية. وهذه من أبجديات الدرس العسكري الذي لا نشك بقدرة طارق على الإلمام بها، لا سيما وأنه ليس في وضع الخاسر والمهزوم الذي يروم حرمان العدو من الاستفادة من هذه السفن. كما أن إحراق السفن لا يشبه سياسة الأرض المحروقة إطلاقاً.

3- إن مسألة اختلاف طارق مع العرب الذين في معيّته قد تبدو أقرب إلى الخرافة، لأن عددهم لا يتجاوز الثلثمائة مقاتل وإن كان معهم بعض القادة، فلم يذكر

---

(1) الحميري، الروض المعطار، ص 75.

(2) مثل استمراره في الفتوحات وهو الأمر الذي أدى إلى توبيخه من قبل موسى كما سنرى فيما بعد.

أي مصدر واقعة للخلاف بين طارق والقادة العرب[1] وهم في مرحلة الشروع في الهجوم. أما المقاتلين العرب فهم أضعف من الاختلاف مع طارق.

4- عند ترجيحنا إلى أن ملكية هذه السفن تعود إلى القوة البحرية الإسلامية مع سفن يليان وبعض سفن التجار الروم، فيصبح من المنطقي أن لا يكون لطارق الحق في إحراق سفن تعود ملكيتها إلى أصدقاء ساعدوه في العبور. وأقل ما يفعله عاقل في مثل هذا الموقع هو الإيعاز لها بالرجوع إلى الساحل التي أتت منه وبهذا يحقق هدف استبسال المقاتلين دون الحاجة إلى إحراقها. ومثلما رافقت الخرافات حملة طارق في قضية إحراق السفن فقد أُلحقت بها قصة أخرى، اخترنا أن نناقشها قبل الشروع في تفصيلات حملة طارق.

خطبة طارق بن زياد

هذه الحادثة قد وردت في مصادر أكثر من ورود حرق السفن ويعود السبب بتقديري لأن الخطبة الحماسية لها إرث كبير في التراث العربي والإسلامي، وخصوصاً في أوقات الحرب، وما كان للبلاغة العربية من أثر ساحر في نفوس المقاتلين العرب المسلمين. فهل حدثت هذه الخطبة أولاً، وهل كان طارق بن زياد مؤهلاً لخطبة بليغة كهذه والتي سميت بخطبة فتح الأندلس[2]؟

لقد وردت خطبة الفتح هذه ! في مراجع تاريخية كثيرة منها (تاريخ عبدالملك بن حبيب، وكتاب نفح الطيب للمقري، وكتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان)، كما أن هناك عبارة قد ذكرناها في قصة حرق السفن في كتاب الاكتفاء لابن الكردبوس الذي تضمن جملة من الخطبة وهي: (قاتلوا أو موتوا).

إن ورودها في هذه المصادر يحتاج إلى مزيد من البراهين لدحضها لاسيما وأن بعض المصادر قد حددت تاريخ إلقائها إلى يوم 28 من رمضان سنة 92 هـ وقبل

(1) مثل عبدالملك بن أبي عامر المغافري وعلقمة اللخمي.

(2) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 120.

المعركة التي دارت بين المسلمين والإسبان. في حين أن بعض المراجع الإسلامية تمرّ عليها بالصمت التام وكذا هو حال الباحثين المعاصرين الذين خلت دراساتهم من الإشارة إليها على الأغلب. وهنا يمكن اعتبار هذه الخطبة من ضمن وثائق الفتح الإسلامي القابلة للفحص والمعاينة.

ولنرى هل كان طارق بن زياد الغامض في نشأته والغامض في تاريخه أن كان يمتلك مواهب الخطابة، التي لم يشر إليها أي مصدر قبل هذه الخطبة المزعومة؟

فالخطبة التي وردت في المصادر التاريخية كانت قطعة عربية أدبية فريدة، نشك في أن مرسلها طارق البربري إلى جيش قوامه العنصري البربري، الذي أجاد اللغة العربية افتراضاً فلاشك أنه يجهل أساليب وفنون البلاغة العربية ومواقع تأثيرها على مسامع الجنود البربر، الذين لم يألفوا مثل هذا التمرين التعبوي والتحريضي للقتال لاشتهارهم بشهوة غريزية للقتال مع توفر فرصتهم التاريخية في الالتحاق بالفتح الإسلامي لإسبانيا، وما يمثله هذا الفتح من موقع جديد لأوضاعهم كفاعلين في الحدث لا تابعين فقط.

ثم إن مفتتح الخطبة (أيها الناس) قد يحيلنا إلى أسلوب الخطابة في العصر العربي الجاهلي[1]، ولا يصح في مخاطبة قائد عسكري يخاطب جنوده في لحظة استثارة حميتهم للقتال، وذلك لما تحمله جملة (أيها الناس) من جفاء غير معهود وأداة نداء لا يصح استخدامها في سياق خطبة قائد مع جنوده لا سيما في ظرف حرج يحتاج إلى لغة أكثر ألفة وحميمية.

ولو تتبعنا نص الخطبة[2] لوجدنا أن العبارات الواردة فيها لا تتناسب إطلاقاً في حديث قائد مع جنده مثل (أين المفر؟ البحر ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم

---

(1) مثل خطبة قس بن ساعدة.

(2) لمزيد من المعلومات حول هذه الخطبة نلفت نظر القارئ إلى المراجع التارخية التي وردت فيها كما أشرنا إليها في موضوع خطبة طارق.

والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام). لكن الأمر الخطير لا يشمل هذا التحذير والوعيد المُهبط للمعنويات، بل في الوعد والمكافأة الذي يرد في نص الخطبة: (وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدرّ والمرجان والحلل المنسوجة بالعقبان المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً).

إذا كان مثل هذا التهديد والوعيد قد يليق بمرتزقة (وفق المفهوم الحديث)، فإنه لا يتناسب مع البربر، غالبية الجيش الساحقة من قائد بربري يُقدر إمكانياتهم العسكرية وانضباطهم في إطاعة أوامره على مدى سنوات طوال.

كما أن العرب المسلمين في جيش طارق لا يحتاجون إلى خطبة قائدهم البربري لأنهم قد جاءوا مع هذا الجيش وهم يحملون ولاءهم للإسلام دون حاجة إلى المزيد من التزكية.

ومهما تحاول الدراسات الحديثة في تفسر وجود هذه الخطبة بوصفها قد وقعت فعلاً، كخطبة عسكرية ضرورية من قائد يريد تذكير جنوده بالمخاطر والمغانم الآتية، وتدخل الخيال العربي إلى تطويرها بالصورة التي وصلت إلينا، فنحن نرى أن هذه المحاولات مجرد النفخ في نار أوراق أحرقها الزمن، ولا يحتاج القارئ العربي إلى عودة طائر العنقاء، بقدر ما يتعامل مع تاريخه بحس نقدي فاعل ومؤثر، ولا أن يتعامل مع تاريخه بوصفه متأثر ومتلقٍ سلبي فقط، فمسار الأحداث في فتوحات المسلمين في إسبانيا سوف يثبت بطلانَ هذه الخرافات نحو بلوغه الهدف النهائي. فلا أثر لهذه العوامل الطارئة سوى ما تعلق بحرق طارق لسفنه، أو فيما يتعلق بخطبته، لمسار الفتوحات الإسلامية، سوى ما يغذي المخيلة العربية بالكثير من الأساطير والخرافات، التي امتهنت اجترار انتصاراتها في التاريخ القديم لتجعلها مسطرة لقياس الحاضر العربي والإسلامي المتهالك وصولاً على سطو منظم لمستقبل منمذج ومؤطر في قياسات الماضي فقط !

وقائع طارق بن زياد الحربية

بعد أن اطمأن طارق إلى حالة جنوده بعد العبور، أمر بإقامة سور يحيط بالجيش وقاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل لحماية مؤخرة الجيش، وهي مدينة الجزيرة الخضراء[1]. كذلك أقام قاعدة أمامية أخرى في مدينة طريف وأوكل قيادتها إلى طريف بن مالك[2]. وبعد الانتهاء من هذه الأعمال بعث طارق بقوة تحت إمرة عبدالملك بن أبي عامر إيذاناً ببداية الفتح، فسارت هذه القوة بجوار الساحل الشمالي الغربي واستطاعت أن تستولي على قرية قرطاية، ثم انحدرت إلى الجنوب فاستولت على بلدة الجزيرة الخضراء في مقابل جبل طارق، وبهذا فقد أصبح مضيق جبل طارق تحت سيطرة القوات الإسلامية بأكمله، فأوعز طارق إلى حاكم سبتة يليان بحماية هذه المنطقة، والدفاع عنها من أي هجوم محتمل من القوط. وبهذا الإجراء أمن طارق جيشه من أي خطر يهدد قطع اتصالهم بالمغرب ويقطع عليهم طريق الإمدادات. لكن المسلمين فوجئوا بهجوم مباغت من قبل قوة إسبانية من أنصار الملك لذريق[3] بقيادة (بنج)، استطاع المسلمون من هزيمتها دون صعوبة نتيجة ليقظتهم وحسن استعدادهم العسكري، ويبدو أن من نجا من هذه المعركة قد توجه إلى معسكر الملك لذريق لإخباره بقوة المسلمين الفعلية، وليس كما تذهب الكثير من المصادر إلى أن الناجين (ويرجح حسين مؤنس ناجياً واحداً)[4]، قد ذهبوا لإخبار الملك القوطي بنبأ نزول المسلمين إلى بلاده، إذ لا يُعقل أن لذريق كان على جهل من أمر المسلمين في بلاده، وذلك للمقاومة التي أبدتها القوات الإسبانية عند عبور المسلمين كما أشرنا من قبل،

---

(1) والتي سميت بجزيرة أم حكيم، على اسم جارية لطارق بن زياد.

(2) يقول ابن خلدون (فصيرها عسكرين: أحدهما على نفسه ونزل به جبل لفتح فسمي جبل طارق، والآخر على طريف بن مالك النخعي، ونزل بمكان مدينة طريف فسمي به، وأداروا السوار على أنفسهم للتحصن)، أنظر المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 117.

(3) مؤنس، فجر الأندلس، ص 70.

(4) نفس المصدر، ص 70.

كما أن هذه القوة التي هاجمت المسلمين تمثل دليلاً على علم لذريق بشأن المسلمين. إذ ليس من المنطق أن تجري كل هذه العمليات العسكرية المقاومة للمسلمين والملك على جهل تام بها، ونرجح أن الملك لذريق الذي كان منشغلاً في إخماد ثورة البشكنس في أقصى شمال إسبانيا، قد صُعق من قوة المسلمين العسكرية وليس من خبر وجودهم في إسبانيا. لا سيما وأن طارق بن زياد كان في نفس الوقت يزحف إلى الغرب، جاعلاً المرتفعات الجنوبية الساحلية ساتراً له، كما اتخذ من بلدة طريف قاعدة لحماية مؤخرة جيشه، حتى وصل إلى بحيرة تعرف باسم لاخندا [1] في منطقة شذونة. وكان في تخطيط طارق السير مباشرة إلى قرطبة، إلا أن الأخبار التي وصلت إلى طارق لم تكن سارة لمتابعة سيره المفترض، إذ أن الملك لذريق قد تنبه إلى قوة المسلمين وخطورتهم الحقيقية على أرض إسبانيا، سارع إلى ترك الجبهة الشمالية، وسار إلى الجنوب واحتل قرطبة وبدأ باستعداداته العسكرية لخوض معركة حاسمة مع القوات الإسلامية. في معسكره عند شذونة. ويقدر المؤرخون القوة التي أعدّها لذريق لمواجهة المسلمين بحوالي مائة ألف مقاتل، وقيل سبعين ألفاً، وقيل أربعين ألفاً. والمهم أن هذه القوة الإسبانية بكل أعدادها المفترضة تمثل خطراً كبيراً على توازن القوى يصب لصالح القوط. ولا سيما إذا عرفنا أن القوات الإسلامية كانت تؤلف سبعة آلاف مقاتل عند عبورهم ما عدا الذين قتلوا في معارك الفتح الأولى ! لذا صار على القائد طارق بن زياد أن يستعين بإمدادات عسكرية جديدة من القائد العام موسى بن نصير لمجابهة الإسبان، فكتب إلى قائده طالباً المزيد من الإمدادات. إذ يشير ابن قتيبة إلى (أن طارق كتب إلى مولاه موسى: إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث)[2]، كما يشير مصدر

---

(1) هذا الموضع يسميه بكّه ولهذا سموا هذا النهر بوادي بكه وحُرّف إلى وادي لكه وهذا الموقع سيشهد معركة مهمة في تاريخ الفتوحات الإسلامية، أطلق عليها البعض واقعة وادي لكه، بينما سماها البعض الآخر واقعة شذونة.

(2) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج 2، ص 118.

آخر إلى أن طارقاً قد كتب إلى موسى (بأنه قد استولى على الجزيرة والبحيرة، وأن ملك الأندلس قد زحف إليه بما لا طاقة له به)[1].

ولكن المؤرخ الإسباني سافدرا يشير إلى تقدير موضوعي عن القوة الإسلامية من حيث العدد، إلى أن عدد جيش طارق بلغ أكثر من 25 ألف بسبب من انضم إليهم من أنصار غيطشة وأعداء لذريق من أهل إسبانيا. إذا ما علمنا أن موسى بن نصير قد أعدَّ لطارق وجهّزه بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل معظمهم من العرب. فسيكون الإسبان المنخرطين في جيش طارق لحظة المواجهة مع لذريق هو أكثر من ثلاثة عشر ألفاً وهو أمر غير مستبعد من وجهة نظرنا وذلك لنضوج الظروف لنهاية عصر القوط بقيادة لذريق الذي يشهد أنفاسه الأخيرة.

وكان يوم 28 من رمضان سنة 92 هـ/ 19 يوليو 711 م. أي بعد 83 يوماً من نزول المسلمين إلى جبل طارق في وادي برباط أولكه، قرب مدينة شذونة، شاهداً على معركة حاسمة دامت ثمانية أيام انتهت بهزيمة لجيش القوط بقيادة لذريق، وبدأت مراحل الفتح الإسلامي الكاسح، ويبدو أن حجم الغنائم التي غنمها طارق من هذه المعركة، (حتى أن المسلمين لم يبق منهم راجلاً لكثرة ما غنموه من الجياد)، قد أغرى طارق للمضي في حملته نحو قرطبة. واستغلال انهيار عدوه دون الرجوع إلى موسى بن نصير. لكي لا يكرر خطأ عبدالله بن أبي سرح وعودته إلى مصر بعد النصر الذي حققه في واقعة سبيطلة التي ذكرناها في حينها [2]، فاندفع طارق في تعقب فلول جيش لذريق، وقاموا في الاستيلاء على المدن بعد أن صار جيش طارق أكثر عدداً لما انضم إليه من أهل البلاد الذين بهرتهم القوات الإسلامية وشجعتهم كثرة الغنائم. ولم يكن الطريق إلى قرطبة سهلاً، فقد واجه طارق مقاومة عنيفة من أنصار الملك لذريق، حتى أن طارق قد استنجد بليان، الذي قدّم نصيحة لطارق مفادها أن لا يركز على قرطبة ويبعث بجيوشه إلى مسارب متعددة وسيكون أنصار يليان أدلاء لجيوش المسلمين، لأن

---

(1) أخبار المجموعة، مؤلف مجهول، ص 7.

(2) رغم إننا نفهم الظروف الحقيقية لرجوع بن سرح والتي كانت غير ناضجة للاستمرار في التقدم.

حصار قرطبة سيمثل من الوجهة العسكرية إهداراً للوقت وفرصة لتنظيم صفوف المقاومة الإسبانية بما فيهم أنصار غيطشة الذين تعاملوا مع القوات الإسلامية كقوات غازية هدفها الغزو وجني الغنائم وليس للاستقرار الدائم، كما أشيع عن القوات الإسلامية وهدفها الرئيسي. فقد كلّف طارق القائد مغيث الرومي مع قوة كبيرة للسير إلى قرطبة لهدف تكتيكي هو إشغال المقاومة هناك، ومضى إلى طليطلة، الذي يعني احتلالها الإطباق على قوة لذريق في قرطبة، فاستطاع الجيش الإسلامي من احتلالها دون مقاومة تذكر في عام 93 هـ. وأرسل قواته لتعقب الهاربين في أطراف المدينة، وقد استولى المسلمون بعد دخول طليطلة على كنوز عظيمة وجدوها في قصور القوط وفي كنيسة طليطلة الكبيرة[1] على وجه الخصوص، وكان للمذبح المطعم بالجواهر الذي استولى عليه المسلمون موضع وصف مسهب من قبل المؤرخين المسلمين، وقد أطلقوا عليه اسم مائدة سليمان بن داود، وكانت من الزبرجد الخالص. وهو من روائع الفن الإسباني، وللدكتور حسين مؤنس تعليق جميل على هذا المذبح إذ يقول: 'يذهب معظم المؤرخين المسلمين إلى أن طارقاً غنم هذه التحفة الثمينة في (مدينة المائدة) وهذه المدينة هي في الغالب قلعة هنارس. وهي بالطبع ليس مائدة سليمان بن داود عليه السلام - إذا كانت لسليمان مائدة - وهي ليست كذلك بمائدة أصلاً، إذ لا يعقل أن يهتم القوط بصناعة مائدة بهذه الفخامة، ولكن الغالب أنها مذبح الكنيسة الجامعة في طليطلة، إذ لم تكن في قلعة هنارس إذ ذاك كنيسة كبيرة يحتمل وجود هذا المذبح الفخم فيها. ويفهم من عبارة صريحة لابن حيان يقول فيها: وهذه المائدة المنوّه عنها المنسوبة إلى سليمان النبي عليه السلام لم تكن له فيما يزعم العجم، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال الكنائس، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال، صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة، تحمل الشماسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيام المناسك، ويصفّونها على المذابح في الأعياد

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 78.

للمباهاة في زينتها، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذه السبيل. وبقية العبارة تدل صراحة على أن تلك المائدة إنما كانت لمذبح كنيسة طليطلة، ويواصل الدكتور مؤنس تعليقه بالقول: ولسنا نعلم كيف وجده المسلمون في قلعة هنارس، اللهم إلا إذا افترضنا أن قساوسة طليطلة حاولوا الفرار به لفخامته ولقداسته، ولم يستطيعوا التقدم به أكثر من ذلك الموضع، وذلك فرض يؤيده بعض المؤرخين الذين لا يحدثوننا بغنيمة كبيرة من قصور ملوك القوط في طليطلة، مما يُفهم منه أن رجال القصور قد حملوا معهم أحسن طرفها حين أخلوها لاقتراب المسلمين.

وبعد وصول جيش المسلمين على مقربة من قلعة هنارس، كان الصيف قد انتهى والشتاء صار على الأبواب، فرأى طارق أن يعود إلى طليطلة لقضاء فصل الشتاء هناك بعد أن غنموا الكثير، وبدى الإجهاد على القوات التي لابد أن تنال قسطاً من الراحة وتعيد تنظيم صفوفها للجولات القادمة من الفتوحات.

فتح قرطبة

لقد أشرنا إلى أن طارق عند سيره إلى طليطلة قد أرسل قوة من جيشه بقيادة مغيث الرومي إلى قرطبة، فسار مغيث بجيشه نحو قرطبة حتى وصل إلى الضفة اليسرى من الوادي الكبير مقابل قرطبة، وعسكر هناك ليقوم باستطلاع عن قوة الجبهة المعادية، فوجد أن أهل قرطبة كانوا ساخطين على حكم لذريق فبمساعدة المعارضة الإسبانية، استطاع مغيث وجيشه من شنّ هجوم ليلي مباغت في ليلة غزيرة المطر والدخول إلى المدينة من الثغرات الموجودة في السور. وعند دخول جيش المسلمين إلى المدينة حدث اضطراب شديد، وهرب الحاكم مع جنوده إلى إحدى الكنائس[1] وتحصن فيها، فحاصرها الجيش الإسلامي ومن معهم من أهل قرطبة، واستمر الحصار لمدة ثلاثة أشهر تقريباً، استطاع المسلمون من قطع الماء عن المحاصرين، واستبسل المحاصرون ولم يستلموا إلا بعد جهد كبير بذله المسلمون لفتح المدينة. حتى أن مؤرخاً إسلامياً ذهب

---

(1) كنيسة القديس أنيسكلو.

إلى أن مغيث قد أوقد النار في الكنيسة واحرق من فيها [1]. وهكذا استطاع مغيث وجيشه أن يفتحا المدينة ويأسرا قائدها وقد سلمه مغيث إلى طارق، ويعد أول قائد من كبار القوط يُؤسر[2] بيد المسلمين بل لعله الوحيد.

ولقد كان لليهود دور مهم في مساعدة القوات الإسلامية، وذلك لمعاناتهم من حكم القوط حتى أن اليهود كما يذهب المقري للإشارة إلى دورهم بالقول: (وصار ذلك لهم سُنّة متبعة في كل بلد يفتحونه (أي المسلمين) أن يضموا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها، ويمضي معظم الناس لغيرها، وإذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح)[3]. ويبدو أن المسلمين كانوا يقدرون لليهود دورهم ويجدون الثقة بهم باستخلافهم على الأماكن المفتوحة لحمايتها والمضي إلى فتح مناطق أخرى. لما يحمله دور حراسة المدن المفتوحة من خطر كبير على قوات المسلمين إذا ما استُخدم ضد هذه القوات. ومهاجمتها من المؤخرة أو تأليب أهل هذه المدن ضد المسلمين. فكأنما هو الاعتراف الإسلامي بالجميل اليهودي.

وبعد أن استطاع المسلمون من فتح قرطبة عاصمة إسبانيا وقلبها النابض، ظهر أولاد غيطشة - الذين تعاونوا مع القوات الإسلامية - ليطالبوا بإعادتهم إلى الحكم، لأنهم كانوا يعتقدون بأن المسلمين قد يكتفون بما حققوا من انتصارات وفّرت لهم غنائم خيالية. لكن طارق بن زياد قد بدّد أوهامهم وذلك بأن أعطاهم الأراضي التي كان يملكها غيطشة الأب.

وتشير بعض المصادر إلى عدم اكتفاء أولاد غيطشة بهذه المكافأة، والتقوا بالقائد موسى بن نصير الذي لم يفعل لهم شيئاً سوى إقرار ما أعطاهم طارق من الأراضي،

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 165.

(2) وحكاية هذا الأسير محزنة لأن طارق أراد الاحتفاظ به وتسليمه للخليفة، لكن موسى نازعه عليه فيما بعد، فلما اشتد النزاع بينهما على الأسير، أخرج مغيث سيفه وقتله !

(3) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 166.

ويقال إنهم وبعد الإلحاح، أن أحالهم موسى إلى الخليفة الذي لم يجيبهم على طلباتهم سوى المصادقة على ما قدماه موسى وطارق. فرجعوا إلى بلادهم راضين بهذه القسمة التي أعادت إليهم جزءاً من حقوقهم المهضومة، ويبدو لنا أن حصولهم على هذه الحقوق المتواضعة يتناسب مع دورهم في مساعدة المسلمين، إذ بقي أولاد غيطشة في معسكر لذريق، وانتقلوا إلى مساعدة المسلمين بعد تأكد انتصارهم على لذريق بشكل قطعي.

3- موسى بن نصير في الأندلس

لقد أثار وصول موسى بن نصير بمعية جيش كبير قوامه عشرة آلاف فارس، وثمانية آلاف من المشاة، جدلاً واسعاً في المصادر التاريخية القديمة والدراسات المعاصرة، فبعد مرور عام من دخول طارق إلى الأندلس ما الذي جعل موسى يدخل هذه البلاد بعد أن حقق طارق انتصارات كبيرة؟ سنعرض أولاً روايات مختلفة عن هذا الأمر ثم نناقشها.

تشير بعض الروايات الإسلامية[1] إلى أن موسى بن نصير قد أزعجته أخبار حملة طارق وما أصابته من النجاح والتقدم السريع، الذي اعترض عليه موسى آمراً طارق بالتوقف عن الفتوحات، فشعر بالغيرة والحسد منه، فعزم على تدارك الوضع هناك ولمعاقبة طارق على تجاوزه للأوامر والقيام بفتوحات أعظم من فتوحاته والحصول على غنائم أكبر. كما تشير مصادر أخرى إلى أن وجود موسى كان لإنقاذ قوات المسلمين والمشاركة في فتح مناطق لم يستطع طارق وجيشه أن يقومان بهذا العمل العسكري الكبير لوحدهما.

وقد جاء تأكيد هذه المصادر على أن طارق بن زياد هو الذي استنجد بقائده موسى وحثه على المشاركة في الفتح، وذلك لما ألمّ بالجيش الإسلامي من الإرهاق الشديد لا سيما بعد فتح قرطبة.

---

(1) سنشير إلى هذه المصادر حين مناقشتها.

والواقع أن الروايات الإسلامية التي اعتنقت الرأي القائل بحسد موسى لطارق كانت تأخذ بما جاء به ابن عبدالحكم[1] من أن (موسى شدّ وثاق طارق، وحبسه وهمّ بقتله لولا تدخل مغيث الرومي). وأن طارقاً قد كتب إلى مغيث من سجنه، يوصيه بأن ينقل خبر سجنه إلى الخليفة الوليد، ولقد نفذ مغيث ما أوصاه طارق، فكتب الخليفة إلى موسى للمثول بين يديه، فخاف موسى وأطلق سراح طارق. وهناك مصدر أندلسي يشير إلى حالة التوتر بين موسى وطارق إذ جاء في أخبار المجموعة: (أن موسى وضع السوط على رأس طارق وابنه) بمعنى أن موسى قد ضرب طارق بالسوط.

وهناك مصدر[2] آخر يقرّ حكاية اختلاف القائدين بقوله (ثم إن موسى اصطلح مع طارق، وأظهر الرضى عنه وأقرّه على مقدمته، وأمره بالتقدم إمامة في أصحابه). فإن واقعة الصلح والرضا تدل بالتأكيد على سابقة الخلاف بين الرجلين.

وهناك وقائع من النصوص التاريخية يمكن الاستنتاج منها إلى العلاقة متوترة بين القائدين، دون الذكر الصريح لحادثة الاختلاف، مثل عدم التقاء القائدين إلا بعد وقت غير قصير من وجود موسى بن نصير على ارض الأندلس، كما أن اتخاذ موسى لطريق غير طريق طارق في سير الفتوحات، واستخدامه ليليان وجنوده كأدلاء على مناطق أكثر أهمية وغنى من تلك التي فتحها طارق، وهذا ما صرح به المقري[3] إذ يقول: (موسى قد تنكب الجبل الذي حلّه طارق. ونزل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى، فلما احتل الجزيرة الخضراء قال: ما كنت لأسلك في طريق طارق ولا أقفو أثره، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يليان: نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه، وندلك على مداين هي أعظم خطراً وأوسع غنماً من مداينه، لم تفتح بعد، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى. فملىء سروراً).

---

(1) ابن عبدالحكم، فتوح افريقيا، ص 20.

(2) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 172.

(3) المقري، نفح، ج 1، ص 170.

فقضية غضب موسى أو حسده لم تذكر في مصدر واحد كما يذكر بعض الدارسين المعاصرين. وسوف نعرض إلى المصادر التي كانت تؤيد وجهة النظر الأخرى، والتي تفيد بأن وجود موسى على رأس هذا الجيش الكبير كان بطلب من طارق نفسه، ومن الغريب إننا لم نجد في الدراسات الحديثة غير التكذيب الفوري لروايات المصادر المضادة لوجهة نظرهم القاضية بوجود موسى كعون لطارق فقط، حتى أن باحث كبير مثل حسين مؤنس لم يجد من حجة تاريخية للانتصار لموسى سوى ما ذكره ابن قتية في كتابه الإمامة والسياسة بقوله: (إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث الغوث) وهذه الرسالة كانت قد أرسلها طارق بن زياد إلى موسى إبان مواجهته لجيش لذريق في واقعة وادي لكه أو شذونة ومما يزيد من استغرابنا إلى أن مؤنس[1] اضطر لقبول هذه الرواية الأحادية بقوله: (ولا ينبئنا عن هذه الاستغاثة إلا صاحب الإمامة والسياسة.. ولكننا نقبلها لأنها تفسر السبب في عبور موسى في ذلك الوقت بالذات) !! ويعلل قبوله بهذه الرواية لأن موسى لو كان يضمر أي شيء لطارق لعبر من تلقاء نفسه لكي يرى نتيجة ما وصل إليه طارق ومع عدد قليل من المقاتلين ! كما أن أصحاب الرأي هذا يعزون وجود موسى في الأندلس هو نتيجة حتمية لحماية القوات الإسلامية من السيطرة على مدن لم يسيطر عليها طارق والتمهيد لحماية طرق المواصلات بين المغرب الأقصى ومصر ودمشق، كما أن اللقاء بين القائدين في طليرة وعودتهما معاً إلى طليطلة مدعاة لتعاونهما ونفي تهمة الخلاف بينهما.

بعد أن استعرضنا أهم الآراء والروايات عن علاقة موسى بن نصير وطارق بن زايد يمكننا الوصول إلى خلاصة بشأن هذه العلاقة القلقة. إن فهم التاريخ على أساس الاعتماد على واقعة واحدة يمثل من وجهة نظرنا غمط للتاريخ كله بوصفه ظاهرة تسوّقها مصادر تاريخية تنتمي إلى مراحل الحكاية التأريخية. دون التورط في دراسة الظروف المحايثة لها. وقدرة هذه الظروف على إمكانية الإحلال والإبدال والنفاذ في تعويم استنتاج مهمين، يتفق مع مرحلة المتصرين تارة، وتارة مع العودة للحنين إلى

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 89.

ذلك الماضي التليد، في مرحلة نكوص الحاضر وضرورته لبعث الماضي، والأخطر من هذا هو التعامل مع النص التراثي بوصفه مقدساً إذا جاء متفقاً مع وجهة نظر الباحث. كما يعتبر مجرد أوهام إذا ما تعارض معه.

وبهذه الرؤية سوف ننظر إلى علاقة موسى بن نصير وطارق بن زياد في أرض الأندلس. ونرى أن الانحياز إلى سبب واحد لوجود موسى في الأندلس هو ضرب من الخلط بين معرفة شخصية موسى الذي عُرف عنه الغرور والشغف بالمغانم والانتصارات، وبين شخصية طارق المعروف بالتواضع وسياسة اللين والتي اتضحت في فتوحاته في الأندلس التي كانت باسم قائده موسى وكذلك إرساله أولاد غيطشة للتفاوض مع موسى بوصفه القائد العام. ومن هذا الفهم للشخصيتين لا نستبعد أن ثمة نوازع نفسية قد قادت موسى إلى السير إلى الأندلس. ولكن الحقيقة تدعونا إلى النظر أبعد من هذا السبب لا سيما أن طارق قد توسع في الفتوحات كثيراً وهو ما أثار هواجس موسى العسكرية في حاجة جيوشه في الأندلس إلى مزيد من التعزيزات ولتجنب الكوارث المحتملة جراء تنظيم المقاومة صفوفها وقطعها الطريق على القوات الإسلامية المندفعة إلى الشمال بعيداً عن قرطبة من جهة ومراكز الاتصال مع القاعدة الأساسية في المغرب من جهة ثانية.

كما أننا نعتقد أن تحرك موسى إلى الأندلس إلى رأس جيش كبير قوامه ثمانية عشر ألف مقاتل أغلبهم من العرب يمثل ترسيخاً للاستراتيجية الإسلامية في الفتح الكامل لإسبانيا والاستقرار بها وجعلها ولاية تابعة لمركز الخلافة في دمشق، لا سيما بعد أن كفَّ أولاد غيطشة عن أملهم في العودة ثانية إلى الحكم كما رأينا. لذا فإن وجود موسى بن نصير لا يقتضي بالضرورة أمراً من أحد طالما هو القائد العام للجيوش الإسلامية والمسؤول الأول والأخير على سير الحملات في إسبانيا أمام الخليفة. وإن ما أوردته بعض المصادر التاريخية من مبالغات وصلت حد الخيال في تصوير لقاء القائدين يتناسب مع أهواء المؤرخين القدامى في تثبيت الوقائع، لكنه لا يتناسب مع المنطق الذي يحكم المسار الكلي للفتوحات التي تكللت بوجود موسى

وجيوشه واثبت أنه قائد عسكري يمتلك بُعد نظر في قراءة الأحداث مع إقرارنا بوجود حالة من التحسس لازمت موسى حيال طارق بن زياد، لكن انتصارات موسى الكبيرة وحصوله على غنائم عظيمة يمكن أن تكون أحد العوامل التي ساهمت في كبح جماح غرور موسى وحده لطارق، لاسيما وأن الأخير أبدى أقصى درجة من الانضباط الأخلاقي والتعاون العسكري مع قائده كما سنرى

عبر موسى إلى إسبانيا في رمضان سنة 93هـ/712م، على رأس جيش ضمّ ثمانية عشر ألف مقاتل أغلبهم من العرب من القبائل القيسية واليمنية وأتباعهم ومواليهم وكان في الجيش قوة من التابعين وكبار العرب نظمهم موسى في فرقة واحدة وكان قائدها محمد بن أوس، وكان عبور الجيش على شكل دفعات إذ قام موسى بتقسيم جيشه إلى فرق بحسب قبائلهم وأصولهم ومراتبهم، وكان لكل فرقة راية، وكان موسى أول العابرين حيث أقام في منطقة قريبة من الجزيرة الخضراء وبنى فيها مسجداً، وقام باستقبال الفرق العابرة براياتها المختلفة[1] وحتى اكتمال وصول الجيش، نزل موسى في الجزيرة الخضراء عند منطقة قريبة من جبل طارق[2]، ثم تابع سيره إلى شذونة في الشمال الغربي، ومنها سار إلى قرمونة ورعواق وفتحهما. وبهذا يكون موسى قد أمن خطوط مواصلات القوات الإسلامية من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة، فأصبحت سلسلة مدائن الجزيرة وشذونة ورعواق وقرمونة وأستمة وقرطبة تحت قبضة القوات الإسلامية بشكل كامل.

فتح أشبيلية

بعد النصر الذي حققته قوات موسى، توجه الجيش إلى أشبيلية وهي من المدن البالغة الأهمية في الأندلس، وضرب موسى الحصار على هذه المدينة لبضعة أشهر إلا أنه لم يستطع من فتحها إلا بعد مساعدة أسقف المدينة واليهود الذين بادروا إلى فتح

---

(1) سُمي هذا الموضع بمسجد الرايات، وظل قائماً لقرون طويلة بعد الفتح.

(2) سُمي جبل موسى أو مرسى موسى.

أبواب المدينة بعد طول مدة الحصار وشدة القتال، وترك فيها قوة صغيرة معظمها من البربر واليهود، ليكمل السير إلى ماردة.

فتح ماردة

وهي مدينة شهيرة أسسها الإمبراطور الروماني أغسطس قيصر عام 250 ق.م. سار إليها موسى فوجدها مدينة محصنة وقوية على عكس ما توقع، ويرجع هذا إلى أن القوات القوطية المنسحبة قد تجمعت فيها، فحاصرها موسى بقية الصيف والشتاء التالي، ولم يستطع فتحها إلا بعد قتال شديد استخدم فيه موسى أسلوب الكمائن، كما قُتل عدد غير قليل من المسلمين عند سور المدينة، بعد أن استخدموا دبابة للاختفاء فيها عند السور كان القوط قد باغتوهم بهجوم أوقع الكثير من الخسائر في صفوف المسلمين، ولكن المدينة سلمت إلى موسى بعد أن عاهدهم على (أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين، وأموال الكنائس وحليها لهم)[1].

ويلاحظ أنه بعد فتح ماردة دخل المسلمون في دور جديد، أي أن المسلمين بقيادة موسى بدأوا يتيقّنون من أن العمليات العسكرية في الأندلس لم تعد نوعاً من الغزو وأخذ الغنائم والعودة إلى بلادهم. وكنا قد نوهنا إلى أن موسى قد جاء إلى الأندلس بجيشه الكبير ليضم إسبانيا إلى دولة الخلافة، ويبدو أن هذا الشعور قد أصبح حقيقة حتى عند المقاتلين المسلمين أنفسهم. وهذا الأمر قد أثر على مستوى العلاقة بين المسلمين وأهل البلد الذين كانوا يتوقعون أن المسلمين سيغادرون بلادهم ويعودون بالغنائم بعد أن يكونوا قد ساعدوا أهلها في التخلص من حكم الملك لذريق. لذا، فإن أهالي البلاد أصبحوا لا يرحبون بالقوات الإسلامية ولم يعودوا يفتحوا ابواب مدنهم أمامهم ولا يساعدونهم كأدلاء. بل نشأت قوات مقاومة إسبانية، وهذا ما حدث في إشبيلية، وأثناء انشغال موسى بفتح ماردة. فقد ثار أهلها

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 171.

على المسلمين وقتلوا منهم 80 مقاتلاً بينما فرّ الآخرون إلى موسى ليطلعوه على ما حدث. وهذه الحادثة قد جعلت موسى يحتاط أكثر من المقاومة المحلية ويرسل ابنه عبدالعزيز لقمع هذا التمرد في إشبيلية وقد نجح في قمع تمرد إشبيلية. وهو أول انقلاب ضد القوات الإسلامية كما يذهب أحد الباحثين المعاصرين[1] ولكنه يستدرك معقباً على المؤرخ الإسباني سافدرا إذا ما كانت هذه الحادثة من صنع أهل البلد أو من قبل قوات القوط. وإننا لا نرى فرقاً كبيراً في من هو الذي قام في التمرد غير كون هذه الحادثة نذير خطر على التواجد الإسلامي في إسبانيا، الذي أدركه موسى الذي كان في ماردة فمكث فيها شهراً ليأخذ المسلمين راحة كافية بعد هذا القتال الشديد والطويل، الذي خسر فيه المسلمون عدداً من المقاتلين لم يخسروا بمثله في فتوحات قرطبة وإشبيلية. وذلك لاشتداد مقاومة القوط وعزوف أهل البلد على التعاون مع القوات الإسلامية. وهذا ما يبرر طلب موسى إلى طارق بن زياد للسير إليه بعد أن فرغ من فتح ماردة، بعد أن أحس بالخطر القوطي الذي يهدد جيشه في هذه الأراضي الشاسعة والمجهولة عند المسلمين، فقد عرف موسى أن السير إلى طليطلة محفوف المخاطر: لا سيما بعد أن تزايدت حركات القوط حول الجيش الإسلامي بين وادي أنه ونهر التاجة في ذلك الحين، إذ أن الملك لذريق قد تراجع مع قواته وتحصّن في شعاب الهضبة، على أبواب قشتالة الجديدة في السهل الفسيح الذي يحيط بسلمنقة، وانتظار الفرصة المناسبة للهجوم على الجيش الإسلامي، ولم يكن موسى في هذه الحالة يستطيع السير من ماردة إلى طليطلة وقوات القوط في ظهره، وكان لابد لاستدعاء طارق وجيشه للقضاء على هذه القوات.

فتقدم طارق بقواته لمسافة مائة وخمسين ميلاً وتوقف هناك بانتظار القائد موسى في موضع يسمى المعرض بين التاجة ونهر التيتار. أما موسى فقد غادر ماردة سالكاً طريقاً رومانياً قديماً يصل ماردة وسلمنقة بامتداد نهر فالموثا [2]، وقد كان لذريق

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 95.

(2) الذي أصبح فيما بعد نهر موسى.

وأتباعه ينتظرون هذه الفرصة بعد أن توسط المسلمون الطريق وصاروا في مكان بعيد عن أي مركز للقوات الإسلامية بين ماردة وطليطلة، فهاجموهم في منطقة تدعى (السواقي) فدارت معركة ضارية استطاع المسلمون من هزيمة القوط وأسفرت عن قتل لذريق الذي قتله مروان بن موسى بن نصير[1]، فشهدت (السواقي) نهاية آخر ملوك القوط. ولقد اختلفت الروايات في تحديد موقع التقاء القائدين طارق وموسى (فابن عذارى مثلاً يقول: اتفق الأكثرون على أن التقاءهما كان على طليطلة، وذكر الطبري أنه كان على قرطبة، وذكر الرازي أن طارقاً قد خرج من طليطلة لما بلغه مسير موسى إليه، فلقيه بمقربة من طلبيرة. وإشارات الرازي تدل على أن اللقاء تم على مقربة من هذا البلد الأخير..، ولما كانت بعض المراجع الإفرنجية تقول بأن اللقاء وقع في ناحية تسمى Almaraz وهو لفظ عربي الأصل يرجح أن اصله (المعرض) وهو مكان على مقربة من طلبيرة على نهر التيتار)[2] ولقد استمر القوط في العاصمة طليطلة خروج طارق وجيشه فقاموا بتمرد في المدينة، اضطر موسى إلى العودة إليها وفتحها بالقوة من جديد، وقرر البقاء فيها حتى انقضاء الشتاء لإعادة تنظيم الجيوش وإراحة المقاتلين من عناء القتال الشديد.

وبعد فترة الاستراحة التي قام فيها موسى بسك عملات نقدية ليدفع منها رواتب المقاتلين، ويبدو أن الخليفة قد خوّله بهذا الأمر الذي يُعد من اختصاص مركز الخلافة، ثم تابع موسى وطارق سيرهما نحو جبال البرت في أقصى الشمال وبدأوا بفتح المدن وهي سرقسطة ووشقه ولاردة حتى بلغا شاطئ البحر الشمالي عند حدود فرنسا الجنوبية، وهكذا انتهى كل من القائدين من فتوحاتهما، وكانت أوامر الخليفة الوليد بن عبدالملك جاءت تجبرهما بضرورة العودة إلى دمشق فرجع موسى ومعه طارق إلى مركز الخلافة بعد أن ترك موسى ابنه عبدالعزيز لقيادة الجيوش ومتابعة الفتوحات وذلك أواخر عام 95هـ/ 714م.

---

(1) ينفرد ابن قتيبة بهذه الرواية دون المصادر الإسلامية.

(2) لذلك يرجح حسين مؤنس بان اللقاء كان في هذا الموقع. مؤنس، فجر الأندلس، حاشية 2، ص98.

فتوحات عبدالعزيز بن موسى

هكذا رأينا ان معظم أجزاء إسبانيا قد سقط في يد القوات الإسلامية في عهد موسى وطارق. وقام الأمير عبدالعزيز بالاتجاه إلى الشرق، وكانت المقاومة هناك قد تركزت في منطقة تدمير[1] وقاعدتها الحصينة أوريولة. والغالب أن اسم هذه الولاية على اسم قائدها الأمير القوطي تيودمير الذي استطاع بذكائه وحنكته أن يتوصل إلى اتفاق[2] مع الأمير عبدالعزيز يقضي بضمان بقاء جزء من السلطة في يده مقابل دخول القوات الإسلامية إلى المدينة دون قتال. ولأهمية هذه الاتفاقية ننقل نصها: (نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبدالعزيز بن موسى إلى تدمير ابن غبدوش:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالعزيز إلى تدمير

أنه نزل على الصلح، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه، ولا أحد من النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يقتلون ولا يُسبون، أولادهم ولا نساؤهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا تحترق كنائسهم... وأن الذي اشتُرط عليه أنه صالح على سبع مدائن: أوريولة وبلنتلة ولقّنت ومولة وبقسرة وآنه ولورقة، وأنه لا يأوي لنا عدواً، ولا يجوز لنا امناً ولا يكتم خبراً علمه، وانه عليه وعلى أصحابه دينار كل سنة، واربعة امداد قمح، وأربعة امداد شعير، وأربعة أقساط طلا، وأربعة أقساط خل، وقسط عسل، وقسط زيت، وعلى العبد نصف ذلك.

كتب في رجب من سنة أربع وسبعين من الهجرة ...).

وبعد أن أكمل الأمير عبدالعزيز أعماله في الشرق، توجه إلى القسم الشمالي الغربي، وهو الإقليم المسمى بأشتوريش في منطقة جليقية أو غاليسيا. نلاحظ أن

---

(1) وقد اختلفت الروايات في نسبة تدمير واصل الاسم، انظر مؤنس، فجر الأندلس، ص 112. وكذلك د. أحمد العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 281-282.

(2) انظر مؤنس، فجر، ص 114، العبادي، ص 282.

المسلمين لم يبسطوا نفوذهم كاملاً على هذه المناطق لطبيعتها الجغرافية الوعرة وبرودة مناخها. فأهملوا بعض جوانبها زهداً أو استهانة. ولقد استطاع جيش القوط المنهزم بقيادة بلاي Pelayo أن يتخندق بالجبال الشمالية في هذه المنطقة[1]، وهي عبارة عن ثلاثة جبال شاهقة، القمة الغربية منها تسمى أونجا وبها مغارة تعرف بكهف أونجا أو كوفادونجا، ويسميها العرب صخرة بلاي لأنه اختبأ فيها مع مقاتليه حين حصار المسلمين لهم. وبقي القوط في هذه المغارة يعيشون على عسل النحل الذي وجوده في خروق الصخر. و(وما زالت خلايا النحل منتشرة في هذا المكان الذي أصبح من المناطق السياحية المهمة في إسبانيا). ولما عجز المسلمون من النيل منهم، تركوهم وانصرفوا عنهم، استخفافاً وقالوا: (ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء بهم؟)، كما أن المصادر الإسبانية تشير إلى أن انسحاب المسلمين عن كوفادونجا يمثل نصراً عسكرياً وقومياً كبيراً للأسبان[2]. ومهما يكن من استهزاء المسلمين واعتزاز الإسبان بهذه الواقعة، فإنها سوف تتحول من بؤرة صغيرة، لتنبت نواة دولة إسبانية، ومعها حركة المقاومة التي ستشهد المزيد من القوة في وجه القوات الإسلامية كما سنلاحظ في الفصول القادمة.

والملاحظ أن حركة الفتوحات الإسلامية بعد عبور موسى بن نصير وضم جيش طارق له تحديداً اتسمت في العنف والنهب وإحراق المدن وإرهاب الأهالي، وكان موسى شديداً قاسياً ميّالاً بشكل شره إلى الغنائم والأسرى والسبايا، حتى أن الخليفة قد استنكر أعماله ودعاه إلى مركز العاصمة. وهناك قصص كثيرة تناولها المصادر العربية والإسلامية عن المصير الذي آل إليه موسى وطارق بعد وصولهما إلى دمشق. ولا سيما مصير طارق بن زياد الذي تصمت الرواية الإسلامية صمتاً كاملاً[3] عنه، كما تناقلت الروايات عن الدور الذي لعبه مغيث الرومي في مصير موسى المحزن

---

(1) يسميها الإسبان قمم أوروبا.

(2) العبادي: في التاريخ الأندلسي، ص 284.

(3) مؤنس، فجر الأندلس، ص 110.

الفصل الرابع

عصر الولاة

بعد الفتوحات التي قام بها عبدالعزيز بن موسى بن نصير في الأندلس، تكون القوات الإسلامية قد أنجزت فتحها بشكل كامل تقريباً لشبه الجزيرة الأيبيرية، وصارت الأندلس هي الوصف الجغرافي والسياسي للسيطرة الإسلامية على مناطق شبه الجزيرة. ولقد استغرقت هذه الفتوحات قرابة أربع سنوات إلا قليلاً[1]. إذ بدأت من شهر رجب سنة 92 هـ / 710 م حتى مطلع سنة 96 هـ / 714 م.

ويتمثل فتح الأندلس تتمة للفتوحات الإسلامية خلال القرن الهجري الأول التي بدأت في بلاد العرب والعراق وبلاد فارس والشام وجزءً من آسيا الصغرى ومصر والشمال الأفريقي. ولكن فتح الأندلس يختلف عن الفتوحات السابقة في عاملين مهمّين:

1. قصر الفترة الزمنية التي استغرقتها القوات الإسلامية في فتح هذه البلاد قياساً إلى الفترات الطويلة التي أنجزت القوات الإسلامية فيها الفتوحات السابقة ولا سيما فتح المغرب[2].
2. إن فتح الأندلس لم يرهق ميزانية مركز الخلافة إذ كانت رواتب الجنود تدفع من مال ولاية أفريقيا، كما أن هذا الفتح لم يكلف الخلافة خسائر بشرية في جيشها العربي بصفة خاصة الذي تعرض إلى هزائم وانتكاسات عديدة في مراحل الفتح

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 25.

(2) الذي استغرق ما يقارب السبعين عاماً.

السابقة، وذلك لأن البربر هم الذين امتصوا الصدمة الأولى[1] للمقاومة الإسبانية، إذ أنهم قدّموا في معركة وادي البرباط (لكه) ثلاثة آلاف مقاتل، وجاء جيش موسى بأغلبيته العربية شبه المطلقة ليواصل مشوار الفتوحات بخسائر بسيطة في الأرواح والمعدات إذا ما قورنت بخسائر البرابرة المسلمين، إذ لم يرد في المصادر الإسلامية إلى أن مركز الخلافة في دمشق قد أمدّ موسى بجيش غير الذي سار به وعبر إلى إسبانيا بعد جيش طارق بن زياد.

غير أن زعم بعض الباحثين المعاصرين بأن مركز الخلافة برغم عدم مساهمته الحقيقية في الأموال والمقاتلين في فتح الأندلس، فهو لم يجني منها أيضاً أي مقابل مادي؛ وهو زعم تبنّاه الدكتور حسين مؤنس بناءً على تعليل وجيه وذلك لإهمال مركز الخلافة لشؤون الأندلس المالية إذ (لم ترسل إليه والياً خاصاً به بل تركته نحو تسع سنوات تحت تصرف عامل أفريقيا يتصرف في شؤونه كما يريد)[2]. كما أن مركز الخلافة لم يرسل عاملاً مختصاً بالشؤون المالية، ويستغرب من أن بلاد مثل الأندلس معروفة بغناها، أي أنها بلد عظيم الجباية وعلى علم تام من مركز الخلافة بهذه الثروة الكبيرة، وظل مركز الخلافة ساكتاً عنها.

وبرغم وجاهة التعليل الذي قدمه الدكتور مؤنس، فللحقيقة وجه آخر تنقله لنا المصادر الإسلامية القديمة، والتي تفيد بأن قوافل الهدايا والغنائم والسبايا التي كانت تصل بشكل مستمر منذ فتح المغرب، وليس آخرها قافلة موسى بن نصير الذي سار بها عند عودته من الأندلس في طريقه إلى مركز الخلافة، وما نتج عن ضخامة الغنائم التي بالغت فيها بعض المصادر، من خلاف شديد بين سليمان بن عبدالملك وموسى بن نصير، إذ طلب سليمان من موسى التريّث لأن الموت كان سيدرك الخليفة الوليد، إذ أن وصول موسى إلى دمشق كان قبل وفاة الوليد (الذي كان يحتضر) بأربعين يوماً

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 122.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، حاشية رقم 2 ص 123. أنظر ص 135-136، نفس المصدر.

فقط. لأن سليمان كان يريد هذه الغنائم له، وهذه الرواية قد اعتنقها مؤنس في كتابه فجر الأندلس[1].

فهل لنا أن نرى مثل هذا التناقض. لا سيما وأن موسى بن نصير له سوابق حقيقية في استخدام الأموال لضمان رضى الخلفاء عنه !!؟

كما أن هناك عامل مهم لعدم اكتراث مركز الخلافة بالمتابعة الدقيقة على مستوى الجباية والشؤون المالية عموماً، لأن مركز الخلافة أصلاً لم يساهم في أي جهد مالي، ناهيك عن الاستقلال النسبي لولاية أفريقيا عن المركز، فما بالنا إذا كان الأمر في بلاد بعيدة عن المركز لا تكلفه غير المزيد من الهيمنة الإسلامية، وتحولها إلى إمبراطورية، كانت مصدر ارتياح الخلفاء الأمويين الذين لم نعرف من سيرتهم الحرص على أرواح أو أموال المسلمين وخصوصاً إذا كانت بعيدة جداً عن مركز نفوذهم، فسيرة خلفاء بني أمية باستثناء عمر بن عبدالعزيز[2]، لم تؤشر مثل هذا الاهتمام بالمال العام. بدليل النهاية المأسوية التي يلقاها معظم قادة الفتح البارزين في العهد الأموي وخصوصاً مصير موسى وطارق !!

كما أننا لم نشهد زيارة ميدانية لخليفة أموي لمواقع الفتوحات، وكان المبعوثون من قبلهم غالباً ما تكون مهمتهم محصورة في عزل هذا القائد أو استدعائه لمعاقبته فقط، وذلك لأن خلفاء الدولة الأموية كانوا على اطلاع غير كامل لواقع الحال في ممالكهم التي فُتحت بغير هواجسهم الأولى ونصائحهم التي لم تعد ذات جدوى، بعد أن تحقق لهم الملك.

إن خلفاء بني أمية استمدوا كل معلوماتهم عن فتح الأندلس عبر شخص يسمى في التعبير الحديث (ضابط ارتباط)، وهو في الحقيقة مجرد طامع في الملك أو طالب له، كما كان مغيث الرومي الذي لعب دوراً مزدوجاً في الإيقاع بموسى مع الخليفة

---

(1) نفس المصدر، ص 107.

(2) الذي لُقب بالراشد الخامس لعدله وتقواه.

وكذلك مع طارق بن زياد. عندما شعر بمنافسة كلا القائدين إلى ما كان يصبوا إليه[1]. وهو ولاية الأندلس.

إلا أن الحسّ العربي للأمويين الذي يمثله المثل العربي بأن (طالب الولاية لا يولّى) قد أطاح بطموحات مغيث الرومي، واستمر مركز الخلافة بمباركة عبدالعزيز بن موسى لولاية الأندلس. (وهذا جزء من تخبط الأمويين الذين انتبهوا بعد زوال حكمهم وقيام الدولة العباسية)[2].

نهاية عبدالعزيز

لم يبق عبدالعزيز على ولاية الأندلس إلا قليلاً، إذ تم قتله في سنة 97هـ / 715م. نتيجة لمؤامرة قيل أن بعض قادة الجيش من العرب دبروها له أمثال أيوب بن حبيب اللخمي، وحبيب بن أبي عبيدة، وزياد بن عذرة البلوي، وزياد بن نابغة التميمي، ولقد اختلفت الروايات في السبب الحقيقي وراء مقتله، لأن هؤلاء القادة كانوا على خلاف مستمر مع عبدالعزيز (لأشياء نقموها عليه) كما يقول الرازي، كما تنقل رواية أخرى على أن زواج هذا القائد من أرملة الملك القوطي لذريق[3] المعروفة عند العرب بأم عاصم[4] وما فعلته من تأثيرات كبيرة في حياة عبدالعزيز والتي جعلته ينوي اعتناق المسيحية بعد أن لبس التاج وتشبّه بملوك القوط، وأراد الاستقلال بالأندلس والخروج من طاعة مركز الخلافة الأموية في دمشق. ويذهب آخرون إلى أن سبب قتله هو أن عبدالعزيز قد انزعج بشدة من معاملة الخليفة سليمان بن عبدالملك لأبيه، وقد أبدى تذمره من الخليفة، الأمر الذي اعتبره القادة خروجاً عن طاعة الخلافة فدبروا عملية قتله، كما أن أصابع الاتهام تشير إلى تورط الخليفة في قتله شخصياً. ونحن لا يمكننا الركون إلى سبب واحد لاسيما وأن أباه موسى قد قال عنه شهادة في حضرة الخليفة

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 104-105.

(2) سنبحث هذا الأمر في الدولة الأموية في زمن عبدالرحمن الداخل.

(3) الذي يعتبره بعض الباحثين المعاصرين هو نموذج لتقارب الأديان والتسامح الإسلامي !

(4) وهي أجيلونا أو إيله المسيحية.

الأموي تقول (أعرفه صوّاماً قوّاماً، فعليه لعنة الله إن كان الذي قتله خيراً منه)، وهذه ليست نهاية غريبة للقادة والولاة في العصر الأموي كما رأينا من قبل وسنرى من بعد.

قرطبة عاصمة للأندلس

يبدو أن قتلة عبدالعزيز لم يكتفوا بموته، بل إن القائد الجديد أيوب بن حبيب اللخمي قد نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة التي كانت تمتاز عن العاصمة السابقة بموقعها الاستراتيجي في بلاد الأندلس[1]. لكن هذا القائد لم يدم عهده إلا ستة أشهر، وبالإضافة إلى اختياره الموفق للعاصمة قرطبة، فقد نُسب إليه بناء قلعة أيوب في جنوب سرقسطة في شمال إسبانيا، وهي الآن مدينة كبيرة ولا تزال تحمل اسمه[2].

وقد تولى عامل أفريقيا[3] تعيين الحر بن عبد الرحمن الثقفي في سنة 97 هـ ويقال أن الخليفة سليمان هو الذي حفّزه إلى هذا التعيين. لأن الخليفة هو الذي عزل أيوب. ولقد استمر الحر الثقفي في الولاية على الأندلس لمدة سنتين وثمانية أشهر. ولقد كان القائد الثقفي يتوقع مقاومة من أنصار القائد أيوب المعزول فجاء ومعه قوة مختارة من وجهاء عرب أفريقيا. استطاع بهم أن يفرض سيطرته على الموقف، ولكن المصادر التاريخية لم تذكر عن هذا القائد شيئاً مهماً في ولايته للأندلس سوى إقامته في قصر قرطبة الكبير، ويبدو لنا أن مركز الخلافة كان يشهد تحولات خطيرة في تلك المرحلة الأمر الذي أدى إلى إهمال فترة هذا القائد الثقفي الذي ينتمي إلى حقبة مضطربة في العهد الأموي كانت نهايتها بموت الخليفة سليمان بن عبدالملك سنة 99هـ وبداية عهد جديد بتولي الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز مقاليد الحكم.

ولاة الأندلس في زمن عمر بن عبدالعزيز

كان لابد لسياسة هذا الخليفة العادل أن تمتد بتأثيراتها إلى الأندلس بوصفها إقليماً تابعاً لمركز الخلافة، لأن عمر بن عبدالعزيز كان مخلصاً للحفاظ على حقوق

---

(1) لأن قرطبة كان موقعها أوسط وأقرب إلى منازل العرب في الشرق والجنوب الشرقي والجنوب.

(2) د. أحمد العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 292.

(3) وهو محمد بن يزيد.

المسلمين في رقعة الدولة الأموية أينما كانت. لذا فقد اختار الخليفة رجلاً صالحاً وهو السمح بن مالك الخولاني[1] لولاية الأندلس، ولقد ذكرت المصادر التاريخية قصة لطيفة في السبب الرئيسي لاختيار السمح بن مالك لولاية الأندلس من قبل عمر بن عبدالعزيز تذهب القصة إلى (أن عادة خلفاء بني أمية كانت قد جرت بأن لا يُدخلوا في خزائنهم شيئاً مما يرسله الولاة من خراج ولاياتهم إلا إذا شهد عشرة من عدول الجند في الولاية بأن هذا المال هو المستصفى الحلال لبيت المال، بعد دفع أعطيات الولاية والإنفاق على مصالحها وشؤونها. فلما أقبلت أموال أفريقية في أحد أعوام خلافة سليمان، أقبل معها عشرة من العدول، تخيرهم الوالي، وفيهم إسماعيل بن عبيد الله والسمح بن مالك الخولاني، فحلف الثمانية على صحة هذا المال وحلاله، وأما السمح وإسماعيل بن عبيد الله فأبيا أن يحلفا. وكان عمر بن عبدالعزيز حاضراً آنذاك. فأعجبه عمل الرجلين وضمهما إلى نفسه وادخرهما إلى وقت يحتاج إليهما فيه)[2]. وهذه رواية تؤكد صحة روايات كثيرة على سوء تصرف خلفاء بني أمية بمقدرات المسلمين المالية. فهل استطاع هذا الخليفة العادل من إصلاح ما أفسده من سبقه من الأمويين ؟

ليس من مهمتنا إثبات ذلك على كامل خارطة الدولة الأموية، بل إن الذي يهمنا هو ما حصل في بلاد الأندلس لولاة عمر بن عبدالعزيز وأولهم السمح بن مالك.

تذهب بعض الروايات إلى أن الخليفة عمر الأموي كان في حالة من التردد بشأن الأندلس، وذلك لخوفه على المسلمين في تلك البلاد البعيدة، إذ خشي (على تغلب العدو عليهم)[3] أو (لانقطاعهم من وراء البحر من المسلمين)[4]، ونرى أن هذه الهواجس طبيعية بالنسبة إلى عمر بن عبدالعزيز الذي كان مرتاباً أصلاً من الخلفاء

---

(1) نسبة إلى قبيلة خولان اليمانية.

(2) مؤنس، فجر الأندلس، ص 135-136.

(3) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 12.

(4) مؤلف مجهول، الأخبار المجموعة، ص 23.

السابقين أنفسهم وسياساتهم الملتوية في حكم الرعية ! فكيف لا يكون أكثر حرصاً على مقدرات المسلمين وأموالهم في بلاد مثل الأندلس !

لذا، فإن اختيار السمح بن مالك الخولاني جاء لتبديد تلك الهواجس بعد أن أمره كما تذهب الروايات إلى وصف حالة المسلمين في الأندلس، وإذا ما كان حال المسلمين هناك يستحق كل هذا العناء. كما شدد الخليفة على السمح بأن يقوم (بأمر خمس الأرض ويخرج منها ما كان عنوة خمساً لله في أرضها وعقارها) فعندما وصل الوالي الجديد المُحمّل بهذه المسؤوليات الجديدة، كتب إلى الخليفة يطمأنه على حالة المسلمين وقوتهم. فلما استوثق عمر من أهمية الأندلس أرسل إلى الأندلس رجلاً آخر اسمه جابر (لتخميس الأندلس) أي ضبط أموالها وتنظيم خراجها. وخبر إرسال جابر[1] هذا لم يرد في معظم المصادر ولكنه يؤكد السياسة الجديدة في الأندلس في زمن عمر بن عبدالعزيز، وواليه السمح بن مالك. لا سيما وأن عمر قد أوصاه (بأن يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها)[2].

وهكذا كان الوالي الجديد على الأندلس يمضي في سياسة جديدة قوامها محاولة إصلاح ما أفسده السابقون. فأخذ ينظم إدارة الأندلس من الناحية المادية، حتى استطاع من جمع مال كبير أراد أن يستخدمه في إعمار قنطرة قرطبة الرومانية المهدمة، لما لها من دور في اتصال أهل جنوب الأندلس بعاصمتهم الجديدة قرطبة، فاتصل بالخليفة للاستئذان منه ببناء القنطرة، فأذن له الخليفة، فقام السمح (ببنائها، فصنعت على أتمّ وأعظم ما عقد عليه جسر في معمور الأرض من حجارة سور المدينة، وكانت القنطرة موصولة الرقبة بباب المدينة القبلي بها، وقد تصدعت هذه القنطرة في أيام عبدالرحمن الداخل)[3]، أما من الجانب العسكري فقد كان السمح قد أغار على غالة (بلاد

(1) للمزيد من التفاصيل، انظر مؤنس، فجر، ص 137-138.

(2) ابن عذارى، البيان المغرب، ج 2، ص 25.

(3) ابن عبد الحكم: فتح الأندلس، ص 25.

الغال)[1]، وكانت غالة قد انقسمت عقب سقوط الدولة الرومانية إلى عدة ولايات منها ولاية سبمانيا (أي المدن السبع) وهي: أربونة ونيمة وآجد، وبيزيه، ولوديف، وقرقشونة ومجلون، وكانت أربونة هي عاصمة هذه الولاية، إلى الشمال الغربي من ولاية سبمانيا تقع دوقية أكيتانيا وعاصمتها برديل الواقعة على مصب نهر الجارون، وإلى الشمال الشرقي من ولاية سبمانيا يقع إقليم بروفانس وعاصمته مدينة أبنيون على وادي رودنة[2]، ويقع غرب هذا النهر إقليم برغندية، وعاصمته مدينة لودون (ليون)، أما المنطقة الواقعة شمال نهر اللوار فكانت خاضعة للدولة الميروفنجية.

لقد بدأ السمح بالاستيلاء على أربونة ثم زحف إلى طرسكونة فاستولى عليها أيضاً. ثم تقدم حتى وصل إلى طولوشة. غير أن الدوق أودو دوق أكيتانيا تصدى لجيش السمح، ودارت معركة عنيفة بين القوات الإسلامية وقوات الدوق بالقرب من طولوشة إذ استطاع الدوق أودو من هزيمة جيش المسلمين وقتل أعداد كبيرة منهم، وكان من بينهم القائد الإسلامي السمح وكان ذلك في سنة 102هـ/ 721م. وكان لابد من قائد لجيوش المسلمين المنكسرة. فقد اجتمع المسمين على توليه عبدالرحمن الغافقي قيادتهم، واستطاع أن ينسحب بالجيش الإسلامي إلى أربونة لكن ولايته لم تدم أكثر من أشهر، إذ تم عزله من قبل يزيد بن أبي مسلم والي أفريقيا. وعيّن مكانه عنبسه بن سحيم الكلبي.

مرحلة الاضطرابات

بعد أن انتهت خلافة عمر بن عبدالعزيز بوفاته عام 101هـ / 719م عاد الغرب الإسلامي إلى ما كان عليه في أيام الأمويين وآخرهم سليمان بن عبدالملك. وعاد معهم حكام أفريقيا باستبدادهم لأهل الأندلس عبر اختيارهم لحكام على شاكلتهم. ولقد شهدت الأندلس في الفترة الواقعية بين 102-112هـ نمط من الحكام كان شاغلهم الأوحد هو إدامة الحروب فيما وراء جبال البرت، كما أنهم انصرفوا إلى

---

(1) وهي الأرض الممتدة وراء جبال البرتات شمالاً وتعرف حينذاك بالأرض الكبيرة أو بلاد الفرنجة أو بلاد الغال أو غاليا.

(2) نهر الرون.

المنازعات العصبية الدامية. وبدأت الأزمة في المغرب عندما عزل الخليفة الجديد يزيد بن عبدالملك والي عمر بن عبدالعزيز إسماعيل بن عبدالله، وعيّن مكانه يزيد بن أبي مسلم[1]، وعندما استقر يزيد في المغرب سنة 102هـ طبق سياسة الحجاج العنيفة على المستويين الخارجي والداخلي، وصار يتعصب للعرب على حساب البربر واستخف بهم وسبي نسائهم وشدد عليهم في جمع الأعمال فكان (ظلوماً غشوماً، وكان البربر يحرسونه، فقام على المنبر فقال: إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحراسها، فارسم في يمين الرجل اسمه وفي يساره (حرسي)، ليعرفوا بذلك بين سائر الناس، فإذا وقفوا على أحد أسرع لما أمرت به، فلما سمعوا ذلك منه اتفقوا على قتله وقالوا: جعلنا بمنزلة النصارى، فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه في مصلاه)[2]، فخلفه بشر بن صفوان الكلبي، ولقد كانا يزيد المقتول وبشر بن صفوان الكلبي قد شهدا ولاية أفريقيا في ظل خلافة المسلمين في اثنين من أشد الأمويين إغراقاً في العصبية القبلية وهما يزيد عبدالملك (101هـ-105هـ/ 720-724م)، هشام بن عبدالملك (105-145هـ / 724-743م). إذ شهد البيت الأموي في عهديهما الانقسام والفرقة والضعف[3].

ولاة الأندلس بعد عمر بن عبدالعزيز

1- عنبسة بن سحيم الكلبي

استلم عنبسة مقاليد الأمور والأندلس تشهد اضطراباً كما رأينا بسبب الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في طولوشة أو (قرقشونة)، وبسبب النزاعات العصبية التي عادت للظهور على السطح بعد موت الخليفة عمر بن عبدالعزيز. وبهذا الوضع المرتبك كان على عنبسة أن يهتم أولاً بتنظيم شؤون البلاد الداخلية. ولقد اتبع هذا القائد سياسة مشابهة لسياسة السمح، حتى تمكن من السيطرة على الأوضاع الداخلية. ثم اتجهت

---

(1) أحد تلامذة الحجاج بن يوسف ومعاونيه والذي شغل لديه وظيفة الكاتب ثم صاحب الشرطة.

(2) أخبار المجموعة، ص 32.

(3) للمزيد الاطلاع على مرحلة الاضطرابات: أنظر مؤنس، فجر الأندلس، ص 143 وما يليها.

أنظاره إلى مواصلة الفتوحات في غالة، نظم صفوف جيشه من خلال تدعيمه خط الدفاع أمام أربونة، فاستطاع فتح مدينة قرقشونة ثم استولى على مدينة ينمة واستطاع أن يأخذ بعض أهاليها رهائن ثم نقلهم إلى برشلونة، وتذكر المصادر أن عنبسة قد وصل حتى وادي نهر ردونة وتمكن من الوصول إلى نهر الساءون. وتوغل في إقليم برغندية الواقع شمالي شالون، واستولى على مدينة أوتون، ولم يوقف هذا القائد في زحفه إلا الأسقف إيبون، الذي رصد جيش المسلمين المتراجع إلى قرطبة بعد وصول أخبار الاضطرابات التي حلّت بالعاصمة، فقرر عنبسة الرجوع، فتصدى له جيش الإفرنجة واستطاعوا هزيمته، وقتل عنبسة سنة 107هـ / 725م.

2- عذرة بن عبدالله الفهري

استلم هذا القائد ولاية الأندلس دون تعيين رسمي من عامل أفريقيا أو من مركز الخلافة كما جرت العادة، وهذا نتيجة منطقية لتخبط سياسات الأمويين في بلاد المسلمين ومنها الأندلس. وإذا صدّقنا الرواية الإسلامية التي لا تنسب إلى هذا القائد أي عمل عسكري في غالة، وهي التي تذهب إلى أن عذرة الفهري قد أقام على ولاية الأندلس لمدة ستين وثلاثة أشهر، دون ذكر أي شيء مهم في هذه المدة، فلماذا لا نصدق الروايات المسيحية التي تذكر أعمال العنف والتدمير التي أصابت كنائس إقليم ليون وبورجوني، مثل كنيسة ولودون رسان مارثان !! في عهد هذا القائد. الذي لا نشك في أنه عاش في مرحلة الاضطراب في مركز الخلافة أصلاً[1]، ويعتقد البعض أنه كان من القادة الصالحين والفرسان.

3- يحيى بن سلامة العاملي (الكلبي) 107 هـ / 725 م

تولى الأندلس في زمن الخليفة هشام بن عبدالملك، وولاية بشر بن صفوان لأفريقيا وقد استطاع أن يقوم بتنظيم أمور الأندلس، وسعى إلى إرجاع ما نهبه سلفه

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 255.

من اليهود والنصارى، وفي الوقت الذي شعر به هؤلاء بالقوة والأمان، فإنه قد اتهم بعصبيته اليمنية، ولم يشهد عهده أية فتوحات أو غزو ودامت ولايته ستين ونصف.

وفاة بشر بن صفوان

بعد وفاة بشر عام 110هـ / 728م قام الخليفة هشام بتولية عبيدة بن عبدالرحمن السلمي خلفاً له وجاء على الأندلس ولاة لم يكن لهم أهمية تاريخية كما أشرنا سابقاً. ونحن نعتقد أن عبدالرحمن الغافقي يمثل مرحلة مهمة في مسيرة ولاة الأندلس ولابد أن نستعرض ولاية هذا القائد وهي الثانية بعد ولايته القصيرة الأولى.

4- عبدالرحمن الغافقي

بعد وفاة الوالي الهيثم بن عبيد سارع أهل الأندلس على اختيار محمد بن عبدالله الأشجعي، لكن هذا الاختيار لم يحوز رضا والي أفريقيا[1] آنذاك عبيدة بن عبدالرحمن، فبعث بعبدالرحمن الغافقي إلى الأندلس والياً في عام 112هـ / 730م. لاشك أن هذا القائد كان ألمع قائد عسكري عرفته الأندلس في عصر الولاة، لكن نهايته المؤلمة في المعركة التي سميت ببلاط الشهداء، قد أثر كثيراً على الكشف عن سيرته الحقيقية، لأن هذه المعركة كما سنرى شكلت ضربة قاصمة على المدّ الإسلامي في الأندلس. والمؤرخون المسلمون كما يبدو لا يطيب لهم الاستفاضة في وقائع تشهد هزيمة المسلمين !

تولى عبدالرحمن الغافقي ولاية الأندلس وقد أمضى عامه الأول في تنظيم شؤون البلاد والظاهر أن (تنظيم شؤون البلاد) هذه الجملة التي تكرر في معظم المصادر القديمة والحديثة تعني تعبئة القوات العسكرية وإعادة تنظيمها للقيام بالخطوة التالية وهي متابعة الغزو والفتوحات التي أهملت لأسباب كثيرة في عهد الأسلاف ! وما يؤيد وجهة نظرنا أن عبدالرحمن الغافقي قد استطاع أن يجند جيشاً اختلفت الروايات

---

(1) وهذا مؤشر على ضعف مركز الخلافة واختلال توازنه في السيطرة على أقاليم الدولة الأموية البعيدة ولا سيما في الأندلس.

في عدده[1]. ونستطيع أن نخلص من هذا التباين في عدد الجيش إلى قدرة هذا القائد على تعبئة هذا الجيش في حدوده الدنيا على رأي الرواية الإسلامية. إذ لم تشهد الفتوحات الأولى وعلى طول تاريخها حشد مثل هذا العدد. ويحلو لبعض المعاصرين من الباحثين العرب أن يصف مقدرة هذا القائد العسكرية، ويشبهه بالقائد حسان بن النعمان، الذي كان يعمد إلى مراكز المقاومة الفعلية ثم يهاجمها لإتمام الفتح[2].

5- عبدالرحمن الغافقي ومسيرة الفتوحات

بعد أن نجح عبدالرحمن باستنفار جيش كبير قادر على العمل العسكري بكفاءة عالية، سار به من بنبلونة عاصمة ولاية نبرة في عام 114هـ / 732م، استطاع بهذا الجيش من اختراق جبال البرت، متجهاً إلى أكيتانيا، وهي من أكبر ولايات غالة آنذاك. الذي أراد أن يؤمن من هذه المدينة خطاً دفاعياً، فبعث بفرقة من جيشه إلى وادي ردونة نجحت في استرجاع مدينة آرل بالقرب من مصب نهر ردونة والتي تمردت على جيش المسلمين وتوقف أهلها عن دفع الجزية. فصار لهذا القائد موقع عسكري مناسب، فواصل زحفه نحو الشمال في قلب أكيتانيا فأسرع دوق أودو لمقاومة هجوم المسلمين وحدثت معركة عنيفة في نقطة التقاء الدوردوني بالجارون، فاستطاع المسلمون من قهر جيش الدوق، (ودخل المسلمون برديل بالقوة، وغنموا غنائم هائلة، وجردوا الكنائس والأديرة من كنوزها، وقتلوا من خصومهم عدداً لا يحصيه إلا الله)[3]. وبعد هذه القسرة الواضحة في مسيرة القائد عبدالرحمن باتجاه بلاد غالة، كان لابد لها أن تقاوم ردّة فعل أولى: تمثلت في ذهاب دوق أودو للاستنجاد بخصمه السابق (قارلة). وكان من مصلحة المسلمين عدم قتال أودو والإبقاء على صداقته لكن عبدالرحمن الغافقي لم يكن حكيماً في هذه الناحية. وهكذا فقد مضى الدوق أودو إلى

(1) تقدره الروايات الإسبانية بأربعمائة ألف مقاتل، في حين تقدره المصادر الإسلامية بسبعين إلى مائة ألف مقاتل.

(2) مؤنس: فجر الأندلس، ص 263.

(3) شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص 90.

الدولة الميروفنجية الفرنجية - وكانت هذه الدولة ملكية في نظامها ويحكمها المتأخرون من ملوكها الذين كانوا في ذلك الوقت ضعافاً، أما السلطة الحقيقية في البلاد فكانت في يد الحاجب أو رئيس القصر المعروف شارل مارتل[1]. ولقد رأى شارل مارتل أو (قارلة) أن انتصار العرب على أكيتانيا معناه اقتراب خطرهم من بلاده وتهديدهم لبلاده، ووجد أن من مصلحته أن يصالح أودو ويشكل معه حلفاً ضد المسلمين للحيلولة دون وصولهم إلى غالة. فأخذ قارلة يعد العدّة لمقابلة جيش المسلمين بقيادة عبدالرحمن الغافقي الذي أقبل على مغامرة حربية كبرى يريد بها أن يعيد أمجاد الفتوحات في زمن طارق بن زياد وموسى بن نصير.

معركة بلاط الشهداء

لم تقدم المصادر التاريخية معلومات كافية عن هذه المعركة الحاسمة في سير الفتوحات الإسلامية في الأندلس. ورغم قلة المعلومات هذه، فقد تضاربت الروايات بشأن هذه المعركة على مستوى غير معقول، إلى الحد الذي ذهب ابن خلدون إلى أن قائد المسلمين في هذه المعركة هو ليس عبدالرحمن الغافقي وإنما هو محمد بن عبد الله بن الحبحاب وهو شخصية لم يكن لها حضور في التاريخ الأندلسي لحد الآن[2]. كما يذهب المقري في روايته إلى أن هذه المعركة قد حدثت أيام السمح بن مالك[3] ! في حين أن الروايات المسيحية على اختلافها فإنها اتفقت جميعها على قيادة عبدالرحمن الغافقي لجيوش المسلمين في هذه المعركة. في حين كان التخبط مصير رواة المسلمين الثقات !!

والثابت هنا أن عبدالرحمن الغافقي كان هو القائد الفعلي للجيوش الإسلامية. والتي وقعت بين جيوش قارلة والمسلمين سنة 114هـ / 732م. ولقد اتسمت هذه المعركة في البداية بإحساس أطراف النزاع على خطورة الحسم، فلم يقدما على

---

(1) أي شارل المطرقة.

(2) ابن خلدون، تاريخ، ج 4، ص 119.

(3) المقري، نفح الطيب، ج 2، ص 56. مؤنس، فجر، حاشية رقم 3، ص 271-272.

الاشتباك في معركة واحدة إلا بعد أن ظلا يستخدمان أسلوب المناوشات لعدة أيام. ثم حدثت المنازلة المباشرة وكان جيش قارلة قد تنظم على مربعات متراصة، كلما أباد المسلمون صفاً ظهر الصف الآخر للقتال، فاستطاع جيش الفرنجة ومن معهم من الألمان والسويف والسكسون في اختراق خطوط الجيش الإسلامي يومين متتالين دون نتيجة حاسمة، إلى أن استطاعت فرقة من فرسان الفرنجة من اختراق صفوف المسلمين ووصلت إلى موقع غنائمهم في مؤخرة الجيش الإسلامي ويبدو أن الدوق أودو كان على علم بقوة المسلمين ونقطة ضعفهم لعلاقته السابقة بهم والتي فرط فيها عبدالرحمن كما أشرنا. ولما بلغت قوات الفرنجة موقع الغنائم حدث تراجع الكثير من جيش المسلمين الذي كان يقاتل على الميمنة والميسرة وذلك لمنع العدو من الاستحواذ على الغنائم فأصاب تنظيم الجيش الإسلامي خللاً كبيراً، ولقد حاول القائد عبدالرحمن من السيطرة على هذا الوضع الجديد وأراد أن يعيد تنظيم صفوفه ولكن جهوده ذهبت سدى، ومما زاد في حراجة موقف المسلمين أن سهماً قاتلاً تلقاه عبدالرحمن فأودى بحياته. وكانت هذه ضربة قاتلة للمسلمين الذين شهدوا مصرع قائدهم، فاختل نظام الجيش كله وارتبك المقاتلون وقد استغل الفرنجة هذا الوضع الذهبي بالنسبة لهم. فراحوا يحيطون بالمقاتلين المرتبكين وينزلون بهم الضربات الموجعة واستطاعوا أن يقتلوا منهم عدداً كبيراً جداً، واستطاع من بقي من الجيش الإسلامي الصمود بعد حلول الليل. واستغل المسلمون ظلام الليل لينسحبوا تاركين خيامهم وغنائمهم - التي لم يتمكنوا من حملها - في مواقعهم. وعند حلول الصباح بدأ الجيش الفرنجي لمواصلة القتال، فلم يجدوا أحداً، بعد أن تقدموا بحذر إلى مواقع المسلمين مخافة أن يكون فخاً نصبه المسلمون، ولم يكن الأمر هكذا فاستولوا على غنائم المسلمين، ولم يفكروا في تعقبهم إذ أن قارلة قرر أن يكتفي بهذا المجد والنصر الساحق الذي حققه على حساب القوات الإسلامية.

أما الجيش الإسلامي فقد تراجع متقهقراً إلى الجنوب الشرقي آملاً في التحصن بقاعدة المسلمين في سبمانيا وهي أربونة، ولم يتوانوا من تدمير ما صادفهم من كنائس

وأديرة مثل كنيسة سوليناك[1]، ولكن المسلمين عندما شعروا بالأمان من مطاردتهم، قاموا بتنظيم صفوفهم من جديد. وهكذا انتهت وقائع معركة سميت من قبل المؤرخين المسلمين بمعركة بلاط الشهداء[2] تعبيراً عن جسامة الأرواح التي زهقت في هذه المعركة التي كانت عاملاً حاسماً في نهاية المدّ الإسلامي بالإضافة إلى عوامل أخرى سنعرض إليها في حينها. ويذهب بعض المؤرخين الأوروبيين أنه لو قدر للمسلمين أن ينتصروا في هذه المعركة لرأينا القرآن يتلى ويدرس في جامعات الغرب.

أسباب خسارة المسلمين في معركة بلاط الشهداء

لا يمكن للباحث أن يضع يده على سبب واحد أو عامل منفرد لخسارة الجيش الإسلامي بقيادة عبدالرحمن الغافقي في هذه المعركة، لندرة المعلومات في المصادر التاريخية الإسلامية وتضاربهما كما رأينا، مع وفرة ملحوظة في المصادر الأوروبية والتي لا يمكن الركون إليها تماماً، لأن التاريخ سيُظلم مرتين، مرّة عندما يكتبه المهزوم وأخرى عندما يكتبه المنتصر. لكننا سنحرص قدر الإمكان على تلمس الأسباب والعوامل الأكثر واقعية من وجهة نظرنا والتي أدت إلى هزيمة المسلمين بعيداً عن الغلو والتطرف أو الأسى والتباكي الذي يبديه بعض الباحثين العرب المعاصرين وسنجمل هذه الأسباب بالتالي:

1- لقد كانت حملة الغافقي مغامرة كبرى محفوفة بالمخاطر في ذلك الوقت بالذات. لأن الظروف الذاتية والموضوعية التي مهّدت للانتصارات الإسلامية في زمن طارق بن زياد وغيره من القادة في الأندلس، لم تكن هي ذاتها في زمن عبدالرحمن الغافقي لما ألّم بالأندلس من ثورات تجتاح البلاد من الشمال وفي الجنوب. كما أن طبيعة المناخ والسكان في غالة يختلف تماماً عن طبيعة ومؤهلات الجيش الإسلامي بقيادة الغافقي.

---

(1) شكيب ارسلان، تاريخ غزوات العرب، ص 103.

(2) المصادر الأوروبية تسميها بواقعة تور أو توربواتية.

2- أن السير إلى بلاد بعيدة وفي هذا الجيش الكبير يحتاج إلى تأمين قواعد ثابتة للجيش المتقدم وذلك لغرض إمداد المقاتلين في أرض المعركة من التعزيزات في الرجال والعدد والمؤونة وغيرها من احتياجات المعركة. وهذا ما لم يتوافر لجيش الغافقي !

3- إن جيش الغافقي كان مؤلفاً من أعداد كبيرة من العرب اليمنيين، والقيسين والتي فرقتهم العصبية القبلية، كما أن البربر كانوا يضمرون للعرب عموماً حقداً دفيناً ولّدته سياسات الولاة السابقين في الأندلس. وهذا الانقسام في صفوف الجيش لا يمكن أن يؤمّن للقائد قوة قتالية متماسكة وموحدة الولاء والنية لخوض حرب صعبة كهذه، فقد كان عبدالرحمن يمثل نقطة الالتقاء الوحيدة في صفوف هذا الجيش. ولقد لاحظنا أن موته قد كان السبب الحاسم في انهيار صفوف هذا الجيش غير المؤتلف أصلاً.

4- السياسة الخاطئة التي اتبعها عبدالرحمن الغافقي مع الدوق أودو والذي كان صديق الأمس الذي ذهب إلى قارلة واستطاع أن يقيم حلفاً معه، ولقد شكّل هذا التحالف عصب القوة التي استطاعت هزيمة المسلمين.

5- إن وجود هذا العدد الهائل من الغنائم والأسلاب في معسكر المسلمين عند حدوث المعركة، يبعث على الاستغراب لما يمثله من عنوان جديد لولاء المقاتل، ومهما قيل من محاولات القائد عبدالرحمن من تجنب حمل الغنائم مع الجيش. فإن وجودها يؤكد على حالة الانقسام في الجيش وضعف إدارته، ونقطة ضعف استغلها الطرف المقابل لحدوث الإرباك كما رأينا في وقائع سير المعركة. وقصة الغنائم يعتبرها بعض الباحثين أسطورة[1]، لأن هدف جيش المسلمين كان يسعى أولاً وأخيراً لإعلاء كلمة الله ونشر دينه كما يرى !!

6- هناك عامل لا يمكن إهماله في الحديث عن أسباب خسارة المسلمين في معركة بلاط الشهداء وهو عامل يتعلق بواقع مركز الخلافة الأموية في دمشق، والذي

---

(1) د. صالح أبو دياك، الوجيز في تاريخ الأندلس، ص 193.

شهد ضعفاً في الاهتمام بالولايات الإسلامية التابعة له. وانشغالهم الدائم بالغنائم والسبي من الفتوحات أكثر من اهتمامهم، بإعلاء كلمة الله ونشر الدين[1].

7- السياسات التي اتخذها الولاة في الأندلس إزاء أهلها من المسيحيين واليهود من القسوة والاستهتار على غير عادة سياسة بعض ولاة الأندلس كطارق بن زياد أو حسان النعماني أو السمح بن مالك، قد أججت الشعور الوطني لأهل البلاد الذين أظهروا الجفاء للقوات الإسلامية، ودليل هذا إنهم كفوا أن يكونوا عاملاً مهماً في سير الفتوحات، كما كانوا من قبل أدلاء وأصدقاء.

8- يبدو أن الأمويين في سير فتوحاتهم لم ينتبهوا إلى الشرط الحضاري للتعامل مع الشعوب، كما أنهم قد عمدوا إلى نسيان دورة استحالة القوة وحدها في المسار التاريخي العام. ولذا فإننا لم نجد أي أثر حقيقي استمر في تأثيره على علاقتهم بالأندلس سوى الإيغال بالفتوحات. على عكس ما سنراه في دولتهم الثانية في الأندلس بقيادة عبدالرحمن الداخل.

هذه هي أبرز العوامل التي استعرضناها لسبب سقوط المسلمين في فخّ بلاط الشهداء. والواقع أننا لا نزعم أنها الأسباب الكاملة وراء هذه الهزيمة، فدراسة هذه المعركة من البدء إلى النهاية يحتاج إلى جهد خاص، لا يتفق مع دراستنا لتاريخ الأندلس في العهد الإسلامي.

ولاة الأندلس بعد الهزيمة

عبدالملك بن قطن الفهري

أسرع والي أفريقيا عبيدة بن الرحمن إلى تنصيب عبدالملك الفهري، وكان هذا القائد قد انتبه إلى الظروف النفسية والمعنوية المتردية لجيش المسلمين الخارج من معركة مؤلمة، على عكس الجانب الآخر الفرنجي الذي كان يتمتع بمعنويات عالية ولدتها

---

(1) وهذه سيرة مشهورة لخلفاء بني أمية وخصوصاً بعد موت عمر بن عبدالعزيز والتي ساهم في نهاية الدولة الأموية.

حالة الانتصار الكبير. فمضى إلى معالجة حالة الانكسار الإسلامي، عن طريق شن حملة على أرض البشكنس سنة 115هـ ففتحها وغنم فيها الكثير[1] ثم عبر جبال البرت وعمل على تحصين المدن والمعاقل التي احتلها المسلمون، وقد استغل هذا القائد الفوضى التي سادت في بلاد سبمانيا بسبب الحروب المتوالية وبسبب هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء وتقهقر الجيوش الإسلامية من بروفانس إلى أربونة، كما أن قارلة كان مشغولاً ببسط نفوذه على ولايتي بورجونيا وليون ويبدو أن قارلة كان يعتبر نفسه وجنده هم أسياد البلاد، فعمد على سياسة التفريق بين جنوده وأهل غالة، إذ كان قارلة يُحرم على جنده الزواج من أهل غالة الأصليين، كما أمر جنوده باستباحة الكنائس وأملاكها مما أثار غضب القساوسة وعامة الناس. وكانت هذه الظروف في مصلحة المسلمين الذين ثبتوا في المواقع التي احتلوها، كما أن بعض أهل البلاد قد جاءوا إلى المسلمين اتقاء شر قارلة وجنوده، وكان قائد المسلمين في أربونة وغالة والتي كانت تسمية المصادر الأوربية (يوسف)[2] والذي استطاع مع من وفد إليه من الإسبان أمثال الدوق ماورنت دوق مرسيلية بالاتحاد بقوة عسكرية استطاعت عبور نهر ردونة، واستولت على مدينة أرل، ونهبوا أديرة سان أبوتر ودير العذراء وهدم ضريح سان سيزير، ثم زحف الجيش إلى قلب بروفانس واستولى على مدينة فريتا والتي تسمى اليوم سان ريمي بروفانس، ثم توجه الجيش إلى صخرة أبنيون واستولى عليها بعد مقاومة عنيفة، ووصل المسلمون إلى نهر دورانس وتمكنوا من احتلال بلاد بروفانس وتوقفوا عند هذا الحد بعد أن استعادوا بقيادة الفهري جزءً كبيراً مما كانوا قد فقدوه بعد معركة بلاط الشهداء. كما أن قارلة لم يجرؤ على السير لمقاتلة المسلمين، فقد أسرع إلى أكتانيا بعد موت الدوق أودو سنة 735م، وأرغم ابنه على الولاء له.

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 220.

(2) يغلب الكثير من الباحثين المعاصرين العرب بأن يوسف هذا هو نفسه يوسف بن عبدالرحمن الفهري الذي سيكون آخر ولاة الأندلس في حياة الدولة الأموية. أنظر بهذا الشأن مؤنس، فجر الأندلس، ص 278. د. السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص 147.

ويبدو أن القائد الإسلامي عبدالملك بن قطن قد اطمأن على جهود قائده يوسف في أربونة، فلم يتجشم عناء المسير نحو الردانة فوجه كل جهوده نحو إمارات جبال البرت، لكن سياسة عبدالملك السيئة والدموية تجاه هذه الإمارات والتي اقترنت بهزيمته في معركة كبيرة غامضة لم تذكر المصادر عنها شيئاً يذكر[1] قد أدت إلى عزله في عهد إمارة عبيد الله بن الحبحاب وتولى بعده إمارة الأندلس عقبة بن الحجاج بعد أن أمضى عبدالملك في ولايته سنتين تقريباً.

عقبة بن الحجاج

إن المصادر التاريخية العربية تشيد بهذا الوالي وبسيرته المحمودة، على العكس من سلفه الذي كان فهرياً قرشياً من حزب أهل المدينة ولم يكن موضع تقدير من بني أمية، رغم كل ما قام به من استعادة أجزاء كبيرة وغنم الكثير بعد معركة بلاط الشهداء. ومن العجيب في ذكر سيرة هذا القائد (عقبة) الجيدة مع الناس بالقول أنه (كان إذا أسر أسيراً لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام، ويقبح عبادة الأصنام له، فيقال أنه أسلم على يده ألف رجل)[2] !!

لقد كان المسلمون في ولاية عقبة قد ثبتوا أقدامهم في بروفانس وتحصنوا في المدن الكبرى، فجاء هذا القائد ليثير فيهم حماسة القتال فسار بهم إلى منطقة دوفينة واستطاع احتلالها، ودمّر مدينة سان بول المعروفة بالقصور الثلاثة، وكذلك مدينة دونزير[3]، كما استولى على ولاية فالنس الواقعة على نهر ردونة، ودمر كنائس منطقة فين، واستطاع عقبة أن يعيد فتح إقليم بورجونيا كله، واستولى على ليون من جديد، وهكذا امتد النفوذ الإسلامي حتى وصل إلى بيدمنت في شمالي إيطاليا، وفي هذه الأثناء ظهر قارلة من جديد بعد أن أنهى حروبه في شمال أوستراسيا وشرقها بهدنة مؤقتة مع أعدائه سنة 737 م، وتفرغ للسير صوب الجنوب. فأرسل أخاه شيلدبراند

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 279.

(2) ابن عذارى، البيان المغرب، ج 2، ص 29.

(3) شكيب ارسلان ص 105، حسين مؤنس، فجر، ص 280، وما يليها.

على رأس جيش كبير نحو أبنيون، وكتب إلى لويتبراند ملك اللومبارد في شمال إيطاليا يحثه على السير لمهاجمة قوة المسلمين الشرقية المتحصنة في جبل بيدمنت، في الوقت الذي سار فيه شيلد براند مع الرون حتى وصل أبنيون وحاصرها، وكان المسلمون قد أحكموا تحصينها ففشل الجيش من اقتحامها، مما اضطر قارلة للسير بنفسه في جيش جديد، ولقد شدد الأخوان الحصار على المسلمين، ولم يستطع المسلمون الاستمرار في الدفاع عن أبنيون رغم بسالتهم في الدفاع، فدخلها جيش الأخوين. ثم قاد قارلة جيشاً إلى أربونة لإحكام الحصار عليها. في الوقت الذي أقبل لوتبراند - ملك اللومبارد في شمال إيطاليا - بجيوشه من جهة بيوسن. فقاتل المسلمون بضراوة للدفاع عن المدينة ولكن جيوش الفرنجة دخلتها بالقوة، وشتتوا أوصال المسلمين، كما زحف قارلة بجيشه نحو أربونة بقصد الاستيلاء على سبمانيا بعد أن ضمن بروفانس وحاصر عاصمة الإقليم، فلما تواردت الأخبار إلى القائد عقبة بأن قارلة ضيّق الحصار على أربونة، ارسل جيشاً بقيادة رجل يسمى إيزيدور الباجي (Amoriben Ailet)[1] ولعله عمر أو عمر بن الليث لمساندة المدينة المحاصرة، فقدم على رأس الجيش بحراً نظراً لوجود البشكنس حاجزاً بين الأندلس وسبمانيا، والظاهر أن قارلة قد علم بوصول هذا الجيش لمساعدة المدينة المحاصرة، فتقدم لمفاجأة هذه القوة على نهر بري[2] واستطاع أن ينزل بالجيش هزيمة قاسية أدت إلى مقتل قائدها عمر، ولم ينج من المسلمين سوى عدد قليل تراجع بعضهم إلى السفن التي أقلتهم، بينما فرّ الباقون إلى أربونة. وحاول قارلة أن يستولي على المدينة ولكن استبسال المقاتلين في الذود عنها حال دون دخول قارلة لها فاضطر إلى رفع الحصار عنها. خاصة أن ظروفاً جديدة طرأت من قبل الغريزيون والسكسون الذين قاموا بالثورة على قارلة، فقام أثناء عودته إلى الشمال بتدمير القلاع الإسلامية في سبمانيا مثل بيزي، وأجدة، ونيم وماجلون. وأُسر من كان بهذه المدن من المسلمين وكبار أهل غالة وقادهم كرهائن

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 283.

(2) او نهير البر.

حتى يرغم أهل سبمانيا على هزيمة المسلمين وعدم التعاون معهم. إذ أن هؤلاء السكان كانوا ينظرون إلى قارلة وجيشه مثل برابرة من الشمال، بينما يعدون أنفسهم أمة متحضرة ووريثة لمدنية الرومان وحضارتهم.

وحين وصل قارلة إلى الشمال، ظهر دوق مرسيليا مورونت من جديد وأتبع سياسة المصالحة مع المسلمين وأُعيدت العلاقات بينهما. فتهيّب قارلة من هذا الحلف الجديد ضده، وسعى إلى القضاء على هذا الدوق، فسار إلى الجنوب مع أخيه شيلدر براند سنة 739م. واستطاعا الاستيلاء على مرسيليا وأطاحا بأمل الدوق في إقامة دولة مستقلة حليفة للمسلمين لكن وفاة قارلة في سنة 741م/ 123هـ قد أحدثت انقلاباً في موازين القوى فاضطربت أحوال الدولة الميروفنجية. وكان بوسع المسلمين أن يستفيدوا من هذا الظرف لولا إنهماكهم في القضاء على ثورة البربر، وكان عبدالملك بن قطن الفهري الذي عُزل من منصبه كما رأينا، قد استغل هذا الظرف فثار على الوالي مع قواته من اليمانيين واستطاع أن يعزل عقبة بن الحجاج، وتذهب الروايات إلى أن عبدالملك الفهري قد استبد بحكم الأندلس واشتعلت نيران الفتنة بين اليمنيين والمضريين في الأندلس، إذ أنه استعان بالعرب الشاميين الذين كانوا محاصرين من قبل البربر في سبتة، لإخماد ثورة البربر في شمال الأندلس بجليقية والدروب واسترقة وطليطلة، ثم أراد أن يخرجهم من الأندلس إلى حيث كانوا بسبتة حتى يتخلص من الشامين أيضاً [1]. لكن الشامين استطاعوا من الإجهاز عليه وأخرجوه من قصره. وهم ينادون (أفلتَ من سيوفنا يوم الحرة، فطلبتنا بثأرنا في أكل الدواب والجلود، ثم

(1) تشير الروايات ان السبب في معاداة عبدالملك الفهري للشامين هو انه قد شهد موقعة الحرة وهو صغير ولم ينسى مأساتها. وهي موقعة دارت بين الأمويين وأهل المدينة سنة 62 هـ بالقرب من مكة وفيها قتل الأمويين خيرة شباب أهل المدينة. وكان الشاميون عماد قوة الأمويين آنذاك.

أردت إخراجنا إلى القتل)، ثم قتلوه[1]. ولما علم عبدالرحمن بن علقمة اللخمي قائد المسلمين في أربونة وغالة بمقتل عبدالملك استاء كثيراً وعزم على الانتقام من قتلته الشاميين. فجهز جيشاً مؤلفاً من المقاتلين المسلمين في أربونة قوامه مائة ألف مقاتل على رواية أخبار المجموعة وأربعين ألفاً على رواية ابن القوطية. وسارَ به إلى الأندلس لمحاربة بلج بن بشر القشيري والشاميين. واشتبك جيشه مع جيش بلج في موقع برطورة من إقليم ولبة، فانهزم جيش عبدالرحمن وقتل من قواته الكثير. إلا أن بلج قد قُتل في المعركة، وانسحب عبدالرحمن إلى الأندلس مع جيش المسلمين. وكان لهذا الانسحاب الأثر السيئ على مواقع المسلمين في غالة، إذ أن انسحاب هذه القوات أدى إلى استقلال الكثير من المدن عن الحكم الإسلامي، مثل نيم ومجلونة وأجدة وبيزيه، كما استقلت بعض إمارات البرنات مثل قنطابرية ونبرة[2].

يوسف بن عبدالرحمن الفهري

كان تعيين يوسف الفهري من قبل الصميل على ولاية الأندلس. لأسباب كثيرة استطاع الصميل بحكمته ودهائه أن ينزع فتيل الفتنة بين القيسيين واليمانيين. ومن هذه الأسباب[3]:

1. كان يوسف الفهري قيسياً من عصبة الصميل.
2. ليوسف وجاهة بين القوام لانتسابه إلى عقبة بن نافع فاتح المغرب وباني القيروان، وهذا يساعد على تخفيف الانقسام حوله لتاريخه المجيد.
3. كبر سنّه يجعل هذا الأمر ميزة ليوسف في وقت الأزمات إذ كان من المتعارف بين العرب احتكامهم إلى الشيوخ لحكمتهم.
4. كان رجلاً ليّناً في سياسته مع رعيته.

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 45.

(2) مؤنس، فجر، ص 288.

(3) أنظر: د. صالح أبو دياك، الوجيز في تاريخ الأندلس، ص 214 وما يليها.

5. كان المتنافسون على ولاية الأندلس، لا يمتلكون مؤهلات هذا القائد ومن أبرزها الكفاءة والخبرة والحيادية.

ولما تولى يوسف الفهري ولاية الأندلس، حاول أن يستعيد ما خسره المسلمون في بلاد الأندلس، فجهز جيشاً بقيادة ابنه عبدالرحمن للسير إلى أربونة وما يليها من المدن لاستعادة سيطرة المسلمين عليها. ولكن مهمة كهذه في ظروف التشرذم والتفكك الذي أصاب ولايات الأندلس بسبب هزيمة المسلمين واستقلال هذه الولايات ونمو المقاومة ضد النفوذ الإسلامي المتآكل داخلياً. قد جعل من مهمة جيش الفهري أشبه بالمستحيلة، إذا ما عرفنا انقطاع الاتصال بين الأندلس وسبمانيا بعد سيطرة أهل جليقية على هذه المنطقة. واستغلال هذه الظروف من قبل بيين الثاني ابن القائد الفرنجي قارلة فسار إلى أربونة قبل أن يتحرك إليها فافير ابن الدوق أودو[1]، فسار بيين الثاني إلى اللانجدوك واستولى على نيم وأجدة ومجلونة وبيزية، وتقدم إلى أربونة وحاصرها واستطاع فتحها بالقوة سنة 133هـ / 752م.

ثم أخذ نفوذ الفرنجة ينتشر في شبه جزيرة إيبيريا وخصوصاً أواخر أيام بيين وبداية عهد ابنه شارل المعروف بشارلمان. فسلمت مدينة جرندة للقوات الإفرنجية، وذلك قبل وفاة الأمير عبدالرحمن بن معاوية بزمن قليل، كما أن الأمير هشام بن عبدالرحمن قد كلف قائده عبدالملك بن عبدالواحد بن مغيث للسير إلى هذه المدينة، ولكنه لم ينجح في السيطرة عليها، فاضطر إلى رفع الحصار عنها واستمر في زحفه إلى سبمانيا. وكان في ذلك الوقت، أن لويس بن شارلمان ملك أكيتانيا منشغلاً في حروبه في إيطاليا، بينما كان أبوه شارلمان منشغلاً بقتال الآفاريين. وأمام حالة انشغال جيوش الفرنجة في جبهات قتال متعددة، اضطر دوق طولوشة جيين[2] إلى التصدي لجيش المسلمين الزاحف، والتقى الجيشان على ضفاف نهر أريبو بالقرب من قرية فيلديني، وتقع بين قرقشونة وأربونة. واستطاع الجيش الإسلامي هزيمة جيش الدوق واستطاع

---

(1) دوق أكيتانيا والذي كان حليفاً للمسلمين ثم صار في حلف قارلة ضدهم كما رأينا.

(2) المعروف في شعر الملاحم الفرنسية باسم جيوم ذي الأنف القصير.

المسلمون من الحصول على غنائم كبيرة، وحملوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى إلى قرطبة. وقد بقي القائد عبدالملك يصول ويجول في البلاد شهوراً يحرق القرى ويخرّب الحصون[1]. ويؤكد بعض المؤرخين العرب أن عبدالواحد بن مغيث قد افتتح أربونة، وأن الأمير هشام أقام قنطرة قرطبة وجامعها من خُمس غنائمه[2]. ولكن المصادر المسيحية لم تشر إلى هذا القبيل. والمهم لدينا أن عصر الولاة هذا قد انتهى بسقوط الخلافة الأموية في دمشق، وظهور الأمير الأموي عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان على مسرح الأحداث في الأندلس. والتي سنتعرض لها بالتفصيل في الفصل اللاحق.

أحوال المجتمع الأندلسي في عصر الولاة

لقد شهد هذا العهد فترة من الاضطرابات السياسية والعرقية والاجتماعية والعسكرية، إذ أن فترة الولاة التي استمرت اثنين وأربعين عاماً، قام على ولايتها عشرون والياً، دليلاً على حالة عدم الاستقرار في مناحي الحياة المختلفة. ولابد لنا أن نذكر أولاً التركيبة السكانية للأندلس في هذا العصر التي تتكون من العناصر التالية:

1. المسلمون (ويتكونون من البربر والعرب).
2. المسيحيون (وهم سكان المناطق المتقلبة الولاء للحكم الإسلامي وهم الذين كانوا مصدر قلق للحكم الإسلامي، لأنهم لم يهادنوا المسلمين. وكانت مواقع سكناهم تسمى دار حرب).
3. أهل الذمة (وهم الذين يعيشون في القسم الإسلامي من الأندلس ويدفعون الجزية، ويخضعون لكل متطلبات العيش في ظل الحكم الإسلامي).
4. اليهود.
5. عبدة الأصنام.

---

(1) ابن عذاري، ص 95.

(2) المقري، نفح الطيب، ج 1 ، ص 316.

الأحوال السياسية والإدارية

كان عهد الولاة عهد تأسيس وفتوحات ونزاعات بين العصبيات المختلفة، وكانت الأندلس في هذا العهد ولاية تابعة رسمياً للدولة الإسلامية في دمشق زمن الأمويين، ولكن ضعف الدولة الأموية وبُعد الأندلس عن سيطرتها جعل من سلطة الأمويين سلطة شكلية اسمية، إذ كان والي الأندلس يعين من دمشق، أصبح يتم تعينه في أغلب الأحيان من قبل والي أفريقيا، إن لم يكن من قبل أهل الأندلس أنفسهم.

وكانت الحكومة في عصر الولاة تعتمد في حكمها على سيادة الوالي المطلقة فكان هو الحاكم والقائد والقاضي، وكان الوالي يعيّن عمالاً على المدن المختلفة ويكونوا تابعين لسلطة الوالي بشكل مباشر. أما سكان البلاد من غير المسلمين فكانوا يمارسون أعمالهم في وظائف إدارية مختلفة خاصة بهم، وكان للمسيحيين قضاء خاص بهم يحكمون فيه بموجب القانون القوطي. وكان القاضي منهم يسمى قاضي النصارى وقاضي العجم. وكان لليهود أيضاً نظام قضائي وإداري يشبه نظام المسيحيين.

الأصول الاجتماعية

تتسم الحياة في الأندلس بطبيعتها الحضرية، إلا أن المسلمين في عصر الولاة قد اتخذوا من طابع حياتهم البدوية مسلكاً في الحكم في العصبية والثأر .. الخ. وظل المولودون في الأندلس يمارسون مهنة الزراعة بالإضافة إلى ممارستهم بعض المهن والحرف الأخرى، وهذا أدى إلى منافستهم للمسلمين في الدرجة الاجتماعية لأكثريتهم ايضاً. على أن البعض منهم لم يكن مخلصاً في إسلامه. وكثر اختلاط الأنساب في الأندلس نتيجة للزيجات التي تعقد بين المسلمين والمسيحيين والعرب والبربر. وكان المولودون يتخذون عادة أسماء عربية وينتسبون إلى أصول شرقية، وقد اتخذوا اللغة العربية والزي العربي تميزاً عن المولودين الذين لم يدخلوا في الإسلام[1].

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 167.

الأحوال الدينية

كان أهل الأندلس في عهد الولاة على مذهب السلف وأهل الحديث، أي أنهم كانوا يتبعون الصحابة من غير تقيد بمذهب مخصوص، على عكس ما نقله المقري عن طبيعة مذهبهم الفقهي آنذاك إذ يقول (واعلم أن أهل الأندلس كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي وأهل الشام منذ أول الفتح). ولا يمكن الركون إلى صحة هذه الرواية، لأن الأمام الأوزاعي قد وُلد سنة 88 هـ قبل فتح الأندلس بأربع سنوات فقط.

وبالإضافة إلى الدين الإسلامي ومن دخل به من الإسبان، فإن هناك جماعات كثيرة من الإسبان لم تدخل في الإسلام إطلاقاً، والبعض دخل خوفاً أو من أجل مصلحة معينة، ولقد لاحظنا ارتداد الكثير منهم في جليقية بعد الحملة المسيحية لهم في الشمال.

ولم يكن تعاطي الخمور شائعاً، إلا أن بعض الروايات تشير إلى أن الصميل كان مدمناً على الخمرة !

وكان للمسيحيين تنظيم ديني يشرف علية رجال دين مسيحيين، وكان لهم ثلاث مطرانيات (أبرشيات) في مناطق طليطلة وإشبيلية وماردة وكان لهم أيضاً ثماني عشرة أسقفية، والكثير من الأديرة وكان في قرطبة وحدها 15 ديراً.

كما أن للمسلمين مساجدهم التي بنوها بعد أن استولوا على المدن الإسبانية. وكان المسلمون يقسمون الكنائس بين الذين أسلموا وبين الذين بقوا على ديانتهم المسيحية من أهل المدينة الواحدة. ولقد شهدت الكنائس والأديرة دماراً على يد المسلمين حيث يتخذونها حصوناً لمقاتلة المسلمين.

وبرغم انتشار مذهب الأباضية والأصافرة في أفريقيا والمغرب، لكنه لم يصل إلى الأندلس في عهد الولادة.



الفصل الخامس

- عصر الإمارة الأموية
- سقوط الدولة الأموية في الشرق
- العباسيون يتعقبون أفراد العائلة الأموية
- الأمير الطريد
- ملحمة الهروب
- كيف وصل الأمير إلى المغرب؟
- خطة عبدالرحمن بن معاوية لدخول الأندلس
- عبدالرحمن في الأندلس
- محاولة لاحتواء خطر عبدالرحمن
- الاستعدادات للقتال
- معركة المصارة
- حوادث مهمة قبل دخول عبدالرحمن إلى قرطبة
- مصير يوسف الفهري والصميل
- عبدالرحمن الداخل أميراً على الأندلس
- مؤهلات عبدالرحمن الشخصية
- إنجازات صقر قريش
- نماذج من نثر وشعر عبدالرحمن الداخل
- أمراء قرطبة بعد عبدالرحمن الداخل
- الأمير هشام الرضا
- الأمير الحكم بن هشام الربضي
- الأمير عبدالرحمن الأوسط
- عصر الاضطرابات
- موجز للمشهد السياسي في عصر الاضطرابات

الفصل الخامس

عصر الإمارة الأموية في الأندلس (138-316 هـ / 756-929 م)

سقوط الدولة الأموية في الشرق

نرى أن نتطرق إلى العوامل التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية في الشرق وبروز العباسيون هناك، لأن ظهور الدولة العباسية كان السبب الحاسم وراء نشوء إمارة الأمويين في الأندلس ثانيةً. فالأمويون كما رأينا في عصر الولاة، كانوا قد فقدوا جزءاً كبيراً من سلطتهم المركزية في ولاية الأندلس، نتيجة لتداعي أوضاعهم في مراكز الخلافة في الشرق ولا سيما في العراق وغيرها. هذه الأمور جعلت من الدولة الأموية تحمل عوامل سقوطها من الداخل، إضافة إلى تنامي الخطر الناشئ من قبل آل بيت الرسول محمد وأبناء عمومتهم العباسيين. ومع الزمن بدأت علامات الشيخوخة ترسم ظلالها على مستقبل الأمويين في الشرق. فالدولة الأموية قد نشأت منذ البداية على عاملين رئيسيين هما: القوة والحيلة السياسية، إذ كان معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة قد جعلهما من ثوابت السياسة الأموية في الحكم[1] وصارت سنّة متبعة لهذه الدولة الإسلامية، إلا من بعض الاستثناءات، الذي مثّلها الخليفة عمر بن عبدالعزيز، إلا أن قِصر عُمْر هذه الولاية العادلة لم يمكّن هذا الخليفة من إصلاح ما أفسده السابقون، ولم

(1) كما حدث في واقعة التحكيم في صفين كنموذج للحيلة والدهاء السياسيين. أو ما حدث بعد في زمن يزيد بن معاوية في واقعة كربلاء وما نجم عنها من قتل الحسين بن علي والتشنيع بعائلته وأنصاره بقسوة دموية.

يكن الخليفة عمر قد صار نموذجاً وقدوة لمن جاء بعده من الخلفاء الأمويين. لقد حوّل الأمويون ساحة الخلافة إلى حلبة للصراع بين المسلمين أنفسهم أصلاً والعرب بالذات، فهناك فرقة الخوارج وغيرها. وهناك الأذكاء المتعمد للخلاف بين القيسيّين واليمنين، ناهيك عن موقف الأمويين تجاه البربر المسلمين وأبناء الطوائف الأخرى من غير المسلمين. وسيلخص لنا المؤرخ المسعودي في مروج الذهب الصورة الحقيقية للأسباب الرئيسية لسقوط الدولة الأموية في الشرق بقوله (سُئل بعض شيوخ بني أمية ومحصّليها - أي المطّلعون على أخبار الدولة - عقب زوال الملك عنهم إلى بني العباس: ما كان سبب زوال ملككم؟ قال: إنا شُغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزما، فظلمنا رعيّتنا، فيئسوا من إنصافنا وتمّنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فتخلّوا عنا، وخُربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنّا. وتأخّر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتظاهروا معهم على حربنا. وطلبنا أعداؤها فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا) [1].

لم يكن ما نقله المسعودي برغم دقة التشخيص لعوامل سقوط الدولة الأموية، وحده كافياً لإقامة الدليل القاطع على هذه الظروف، ولكننا نجد في نقل نص تراثي فيه القدر الكبير من المعقولية لنقل وقائع وأسباب انهيار الدولة الأموية في الشرق، إزاء الكثير من النصوص المعاصرة التي ارتدت قناعاً للدفاع عن العروبة والإسلام، والدولة الأمرية بخاصة، بوصفها مرحلة المجد العربي ودوره الحاسم في نشر الإسلام في بقاع نائية عن مولده الأول في مكة والمدينة. لقد زالت الدولة الأموية في الشرق وفقاً لقوانين التطور النوعي لسير المجتمعات على طريقة ابن خلدون في تفسيره للتاريخ (يبدأ تاريخ حقبة ما متدفقاً كالطفل، وبعدها نشيطاً كالشاب، فناضجاً كالكهل، ثم واهناً كالعجوز، وأخيراً عاجزاً قبيل موته، إلى أن تنهي دورة تاريخية لتبدأ أخرى).

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج 2، ص 114.

فإذا كان فهم ابن خلدون للسير حتمية تاريخية، يصح تقريباً على نشوء وانهيار الإمبراطوريات الإسلامية وتلك المحايثة لها في الغرب، فإننا سنجد لدور القائد الفرد في تاريخ الإمارة الأندلسية في عهد الأموي الطريد، شأناً متميزاً.

العباسيون يتعقبون أفراد العائلة الأموية

لم يكتف العباسيون بنصرهم المزدوج على العلويين والأمويين معاً، فبعد أن هيمنوا على مراكز القوى الأموية من خلال أبي سلمة الخلال في الكوفة وأبي مسلم الخراساني في إيران، وتنصلّهم عن أحقية العلويين من آل بيت محمد في الحكم. راحوا يلاحقون أيّ أثر للعوائل الأموية في أمصار المسلمين. فبعد سقوط خراسان على يد أبي مسلم الخراساني والكوفة على يد أبي سلمة الخلال حدث اللقاء الحاسم بين جيش الخليفة الأموي مروان بن محمد والقائد العباسي عبدالله عمّ أبو العباس السفاح العباسي. وكان مروان قد أعدّ جيشاً كبيراً في منطقة حرّان وسار به إلى الموصل في شمال العراق، وهناك على نهر الزاب الأعلى[1] كانت المعركة الحاسمة والعنيفة والتي انتهت بهزيمة الأمويين، وهروب الخليفة مروان إلى قنسرين، فتابع القائد العباسي سيره إلى حمص ثم إلى دمشق، فقابله الوليد بن معاوية بن مروان في قوة مؤلفة من خمسين ألف مقاتل، إلا أنه انهزم أمام العباسيين وسقطت دمشق. وبدأت مرحلة تصفية أفراد العائلة الأموية، فقد لاحق العباسيون مروان بن محمد وأدركوه في قرية بوصير في الفيوم في مصر فقتلوه وأخذوا رأسه إلى أبي العباس السفاح في الكوفة.

وكان أبو العباس السفاح[2]، شديداً على الأمويين حتى بعد هزيمتهم، فقد عُني بشأن مطاردتهم من خلال تكليف عمّه عبدالله بن علي وهو في الشام لتنظيم قوة مهمتها إلقاء القبض على بقايا العائلة الأموية وقتلهم، فقام عبدالله بتنفيذ أمر الخليفة

---

(1) أحد روافد نهر دجلة في العراق.

(2) هناك رأيان في لقب السفاح هما: أنه لُقّب بالسفاح لكثرة ما سفح من الدماء بينما الآخر يقول بأن أبي العباس هو الذي أطلق على نفسه هذا اللقب بعد توليه الخلافة، فقال خطيباً في مسجد الكوفة مبتدأً بقوله (فاستعدوا فأنا السفّاح المبيح، والثائر المنيح) وكان هذا في سنة 132 هـ / 749 م.

وأخذ يتعقب بني أمية ومواليهم في كل مكان حتى تمكن من قتل عدداً كبيراً من الأمراء والسادة وحتى النساء والأطفال. ومن كثرة ما سفك من دماء الأمويين يقال أن السفّاح قد ندم على قسوته تجاه الأمويين، فقرر أن يعفو عن الباقين ويمنحهم الأمان الكامل. فسلّم الذين كانوا مختبئين أملاً في عفو السفّاح ويقدّر عددهم بسبعين، ولكن السفّاح في الحقيقة كان بهذه السياسة[1] قد نصب فخاً لبني أمية، فقبض عليهم وقام العباسيون بتعذيبهم حتى الموت.

ولكن هذه المطاردة رغم دمويتها وجديتها لم تستطع أن تقضي على كل الأمويين، فقد استطاع بعضهم الإفلات من قبضة العباسيين وكان من أبرز هؤلاء هو عبدالرحمن الأمير الذي سيعيد أمجاد الأمويين في الأندلس.

الأمير الطريد

قبل الدخول في تفصيلات قصة المطاردة الطويلة لهذا الأمير الأموي من قبل العباسيين، نجد من الضروري أن نذهب إلى معرفة بعض المعلومات عن هذا الأمير. فهو عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم، ويكنى بأبي مطرف. أما أمه فهي (راح) من قبائل البربر وكانت إحدى سبايا المغرب. وُلد في عام 113 هـ / 731 م، في قرية (ديرحنا) في منطقة قنسرين في الشام فيما يرى البعض أنه وُلد في (بالعليا) في تدمر. ويرجح بعض الباحثين المعاصرين الرأي الأول[2] في ولادته، توفي أبوه عام 118 هـ / 736 م، فكفله جده هشام مع بقية أخوته. ويبدو أن عبدالرحمن كان صاحب حظوة عند جدّه هشام منذ أن تولى تربيته بعد وفاة أبيه، إذ تشير المصادر إلى أن هشام قد (وهب له جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء في الأندلس، وأقطعه إياها، ووجّه لحيازتها من الشام سعيد بن أبي ليلى)[3] ويتابع المقري وصف عبدالرحمن (بأنه كان طويل القامة، نحيف الجسم، خفيف العارضين، له

---

(1) يبدو أنها نفس سياسة الحيلة والمكر التي اتبعها معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية ضد أعدائه.

(2) أنظر مثلاً: د. خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، عصرة الإمارة، ص 43.

(3) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 312.

ضفيرتان، أصهب، أعور، أخشم): كما كان طموحاً وحليماً وهو ما سنراه من تأثير على حياته.

ملحمة الهروب

لاشك أن قصة هروب عبدالرحمن بن معاوية من بلاد الشام ووصوله إلى بلد بعيد مثل الأندلس وما صاحبها من مصاعب ومشاق كبيرة، يمثل ملحمة حقيقية كان بطلها الأمير الطريد.

بدأت وقائع هذه الملحمة منذ أن نكث أبو العباس السفاح بوعده الذي قطعه على الأمويين بالأمان وغدره بهم. إذ كان عبدالرحمن في رحلة صيد[1] فلم يستطع العباسيون من القبض عليه، فقرر الفرار وكانت محطته الأولى التوجه إلى قرية على نهر الفرات مستصحباً معه بعض أفراد عائلته، وذلك لوجود أخته في هذه القرية، وبقي هناك فترة عانى فيها من رمد عينيه، حتى تمكّن العباسيون الوصول إلى مكانه واستطاع النجاة بأعجوبة من قبضتهم. وقد يبدو أن مطاردة بنو العباس لهذا الأمير وبهذه الفاعلية والجدية تجعلنا نطرح سؤالاً عن الفكرة التي كانت تراود هذا الأمير للمكان الآمن الذي ينوي الوصول إليه؟ هل حقاً أن الأندلس هي محطته الأخيرة التي اختارها سلفاً أم أن المصادفات ومطاردة العباسيين له في كل مكان وصل إليه من الشام إلى أفريقيا والمغرب كانت السبب في اختيار الأندلس ملاذاً آمناً ؟

لا يمكن الجزم بعزم الأمير الأموي إلى السير للأندلس مقترناً بسبب واحد لاسيما إذا علمنا أن المصادر التاريخية قد جاءت بقصة أشبه بالأسطورة تفيد بنبوءة مسلمة بن عبدالملك بتولي عبدالرحمن الأموي ولاية الأندلس وهو ما زال في سن العشرين في عهد جدّه هشام الذي تكفّل بتربيته بعد موت أبيه. فأمر هذه القصة يخضع إلى احتمالين. الأول: أن هذه القصة ملفقة قد حيكت بعد الانتصارات التي حققها عبدالرحمن في مسيرته ووصوله إلى الأندلس، والاحتمال الثاني هو: أن القصة التي

---

(1) مؤنس، فجر الأندلس، ص 659.

تذهب المصادر التاريخية بأنها رويت من قبل عبدالرحمن نفسه لاستخدامها كمؤثر معنوي للوصول إلى أهداف سياسية تحقق طموحاته بنيل الولاية في مكان بعيداً جداً عن سلطة العباسين، لاسيما وأن عبدالرحمن قد وصف بالرجل الطموح والحكيم وصاحب الحظوة منذ صباه في بيت جدّه هشام بن عبدالملك. والقصة كما نقلتها المصادر التاريخية[1] تفيد وعلى لسان عبدالرحمن بقوله: (كان أبي قد هلك في زمن جدي رحمه الله وكنت صبياً إذ هلك، فأقبل بي وأخوتي إلى الرصافة إلى جدي، ومسلمة بن عبد الملك لم يمت بعد، فنحن وقوفاً ببابه على دوابنا، إذ سأل مسلمة عنّا، فقيل أيتام معاوية، فاغرورقت عيناه بالدمع ثم دعا بنا الاثنين فالاثنين فأقبل يدعو بنا حتى قدمت إليه فأخذني وقبّلني ثم قال للقيّم: هاته، فأنزلني عن دابتي وجعلني عن أمامه وجعل يقبلني ويبكي بكاءً شديداً فلم يدع بعدي من كان أصغر من أخوتي وشغل بيّ فلم يفارقني.. ثم دنا من جدي فقال له: تدانى الأمر. هو هنا. قال: أي والله ! قد عرفت العلامات والإمارات بوجهه وعنقه. قال: ثم دعى القيّم فدُفعت إليه وأنا ابن عشر سنين يومئذ أو نحوها. فكان جدي رحمه الله يؤثرني ويتعاهدني بالصلة..).

ونحن نتفق مع د. خالد الصوفي[2] في أن الأندلس كانت الخيار الواقعي لعبدالرحمن بن معاوية لأسباب مهمة تشترك مع الخيارات التي طرحناها والتي كانت أمام عبدالرحمن في هروبه الملحمي من قبضة العباسيين. وهي:

- يمكن أن تكون الأندلس البعيدة جداً عن مركز الخلافة العباسية هي الملاذ الآمن والمناسب للأمير الطريد.

- عبدالرحمن ليس أول الأمويين الذين فكروا في الهروب إلى أماكن خارج سيطرة العباسيين. فقد سبقه أبناء الوليد بن يزيد وجزي بن عبدالعزيز بن مروان وعبدالملك بن مروان وغيرهم.

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 61.

(2) د. خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 16.

- وجود أخوال عبدالرحمن من قبيلة بني نفزة في برقة من بلاد المغرب شجعه على الهروب إليهم. والتي ستكون خطوته الواثقة للوصول إلى الأندلس.
- المشهد السياسي المضطرب في الأندلس التائهة في ولائها بين الأمويين والعباسيين قد أذكى في نفسه جذوة الوصول إلى هذه المنطقة عسى أن يحقق فيها أحلامه.

وبعيداً عن كل الأسباب التي ذكرناها بخصوص اختيار عبدالرحمن للأندلس، سنمضي لتوصيف أجزاء رحلته الواقعية والتي بلغ الأندلس فيها أخيراً.

بعد الحادثة المروعة التي شهدها عبدالرحمن في بلاد الشام والتي أدت إلى مقتل أخيه الصغير على ضفاف الفرات[1]، إذ استطاع عبدالرحمن من عبوره ثم واصل السير إلى أرض فلسطين. وهناك وصل إليه أخلص التابعين له مولاه بدر وسالم مولى أخته ومعهما الأموال التي كان عبدالرحمن ذكياً في وصف خط رحلته لهم، إذ بلغه أصفياءه ومعهم عدّةً لمواصلة الاختفاء عن أعين العباسيين في مسيرته للهرب منهم.

ومن فلسطين إلى مصر وصل عبدالرحمن إلى برقة التي مكث فيها مع بدر وسالم يتفكرون في شؤون خط مسارهم للوصول إلى أبعد مكان عن السلطة العباسية.

كيف وصل الأمير إلى المغرب؟

قبل أن نذكر كيف وصل الأمير إلى المغرب، نرى أن نذكر بعض الأسباب التي نراها حاسمة لترك عبدالرحمن أفريقيا متوجهاً إلى المغرب.

كان وصول عبدالرحمن إلى أفريقيا في عهد ولاية عبدالرحمن بن حبيب الفهري. وهو قائد قد كسب حديثاً ولاء الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح[2] لتثبيته على ولاية أفريقيا بعد أن كان والياً للخلافة الأموية، فمن الطبيعي أن يكون متحمساً

(1) للمزيد من الاطلاع على هذه الحادثة، أنظر: مؤنس، فجر الأندلس، ص 66.

(2) بعد ذلك جاء الخليفة المنصور فخلع عنه الولاية، بعد أن كتب عبدالرحمن الفهري إلى المنصور بأن لا يرهقه بالعطايا لأن أفريقيا أصبحت جميعها إسلامية.

من وجود أي أموي في بلاده مثلما تؤكد المصادر التاريخية بأنه (صار ابن حبيب يقتل الواصلين إليه من بني أمية، ويأخذ أموالهم)[1] وقد نفّذ فعلاً هذه السياسة تجاه الأمويين، فقتل ولدين للوليد بن يزيد، كانا قد أحتميا به! وصادر أموالاً من إسماعيل ابن أبان بن عبدالعزيز بن مروان، وما أن سمع بوجود عبدالرحمن بن معاوية في أفريقيا كان لابد أن يستنفر قواته للقبض عليه، إلا أن الأمير الطريد صار يشم رائحة الخطر على حياته قبيل وقوع المحظور، واستطاع الفرار من أفريقيا ولعل تكرار نجاة هذا الأمير من قبضة العباسيين أو ولاتهم قدّمت مادة للمصادر التاريخية كعادتها لكي تختلق أساطير وخرافات، فجاءت قصة اليهودي ونبوءته لظهور أموي اسمه عبدالرحمن له ضفيرتان سيكون له الحكم في الأندلس. وتؤكد هذه الخرافة بأن عبدالرحمن قد اتخذ ضفيرتين تيمناً بان يكون هو المقصود. وهذا بزعمهم أدى إلى فرار عبدالرحمن من أفريقيا.

هذه أهم الأسباب التي دفعت بعبدالرحمن بن معاوية على الفرار من افريقيا، أما عن وصوله إلى المغرب، فتنقل الروايات، أن عبدالرحمن لم يستقر في منطقة واحدة دون أن تشير إلى تنقلاته من البداية حتى النهاية، ولكن خلاصة الروايات تفيد أن عبدالرحمن قد وصل إلى برقة، فأقام فيها فترةً بعد أن قدم من مصر، ثم توجه منها إلى طرابلس، ومنها إلى القيروان متابعاً سيره إلى المغرب الأقصى حيث أنهى رحلته. أما فيما يتعلق برحلته الأخيرة بين تونس والمغرب الأقصى، فيمكن تلمسها من خلال أكثر من مصدر، إذ (إن عبدالرحمن خرج هو وعامة أصحابه من أفريقية فاقتربوا من بلاد البربر، فسار ابن معاوية إلى موضع يقال له – باري- فنزل في قبيلة يقال لها – مكناسة – فنالَ عندهم تضيق يطول ذكره، ثم خرج من عندهم حتى بلغ البحر فنزل في – سَبْرَة – فكان في نفزة وهم أخواله، إذ كانت أمه نفزية).

---

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 61.

بينما يذكر مصدر آخر: (بعد خروج عبدالرحمن من أفريقية، لحق بمغيلة ويقال بمكناسة ويقال نزل على قوم من زناتة فأحسنوا قبوله واطمأن فيهم ثم لحق بمليلة)[1].

وبعد إطلاعنا على تفاصيل وصول الأمير إلى المغرب واستقراره أخيراً على شاطئ البحر المتوسط المقابل للأندلس، بدأ بالتخطيط للوصول إلى الأندلس.

يبدو أن الأشواط التي قطعها عبدالرحمن من الشام إلى المغرب، وبداية تفكيره بالوصول إلى الأندلس، تدلل على صحة الأسباب التي ذكرناها في اختياره للأندلس مقاماً أخيراً، رغم أن باحث معاصر يرى[2] (أن الطمع في الإمارة نشأ في نفسه وهو مقيم بين مغيلة عند طنجة، وربما نشأت في نفسه هذه الأطماع حينما علم أن في الأندلس جماعة لا بأس بها من الأموية تعيش في ناحيتي البيرة وجيان مشطورة بين جنود دمشق وقنسرين).

خطة عبدالرحمن لدخول الأندلس

بعد أن وصل واستقر عبدالرحمن في الساحل قرب مضيق جبل طارق، وصار الطريق إلى الأندلس على مرمى حجر، بدأ برسم خطة للوصول إليها. فكان لابد أن يكرر اسلوب الأمويين الأول في الفتح. فأرسل أكبر ثقاته وهو مولاه بدر لاستطلاع الأمر في الأندلس، ولكن عبدالرحمن قبل أن يرسل بدراً للاستطلاع كان على اطلاع بأحوال الأندلس وقوة الأمويين وضعفها، بعد أن كانت الأندلس تحت ولاية يوسف الفهري والصميل بن حاتم. لاسيما وأن أخبار الأندلس قد وصلته من سالم مولى أخته الذي شارك مع موسى بن نصير في فتوحات الأندلس، وقد شجعته أخبار سالم على المسيرة الجدية، ليس للهروب من خطر العباسيين فقط، وإنما لتحقيق أحلامه. في استعادة المجد الأموي ثانية. فما هي الظروف التي كانت سائدة في الأندلس التي

---

(1) للمزيد عن أخبار عبدالرحمن في هذه الفترة، أنظر: د. خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 20 وما يليها. كذلك، مؤنس فجر الأندلس، ص 663 وما يليها.

(2) مؤنس، فجر، ص 665.

شجعت هذا الأمير المغامر للسير إليها، ولماذا ترك عبدالرحمن الأموي بلاد المغرب وقبائلها التي وفرت له سبل الأمان والعيش الرغيد. حتى أن بعض المصادر تشير أن زوجة أحد رؤساء القبائل المغربية قد أخفت عبدالرحمن تحت ثيابها حفاظاً على حياته من غارة مفاجئة، حتى لا يقع في أيدي عبدالرحمن الفهري[1].

الواقع أن حياة عبدالرحمن في المغرب لم تكن تتلاءم مع طموحاته الكبيرة، فالعيش في ظل قبائل أخواله البربر قد بدا له غير مجدٍ بالنسبة له، لا سيما وأن الأندلس كانت معقلاً للأمويين ومواليهم وأنصارهم. وقد كان قائدا الأمويين آنذاك رجلين هما [2] أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبدالله بن خالد. ولقد شعر عبدالرحمن بنضوج الظروف للاتصال بهؤلاء فكانت بداية الخطة هي إرسال بدر ومعه خطاباً مكتوباً للقائدين الأمويين في الأندلس، يعرض عليهم إمكانية ترشيح عبدالرحمن نفسه أميراً للأندلس بدلاً من يوسف الفهري والصميل لكي يخلّص الأندلس من الفوضى التي نشبت بين العرب والبربر هناك. ويعيد لبني أمية هيبتهم وولايتهم السابقة على الأندلس. والواضح أن عبدالرحمن لم يطلب من القائدين الأمويين في الأندلس اللجوء والحماية فقط، لأنه لو أراد هذا الأمر فقط لما احتاج إلى كل هذا العناء.

فعبر بدر المضيق متوجهاً إلى القادة الأمويين ومنفذاً للخطوة الأولى من سياسة عبدالرحمن بن معاوية في الأندلس. توجه بدر فوراً للاجتماع بأبي عثمان وسلّم إليه خطاب عبدالرحمن المكتوب والذي يحمل في ثناياه (تذكير عبدالرحمن بفضل أسلافه من بني أمية ويعرّفه مكانته منهم واعتقاده بأحقيته في السلطة لأن جدّه هو هشام بن عبدالملك وهو وريثه للخلافة.. ويسأله أن يقوم بالاتصال من يرى فيه فائدة من الأمويين والموالي، ثم يمهد له طريق الوصول إلى الأندلس، كما وعده بمكافآت مالية

---

(1) نفس المصدر، ص 664.

(2) يضيف حسين مؤنس اسم قائد ثالث هو يوسف بن بخت.

وبالمنصب الرفيع إذا ما تم له الأمر في الأندلس، كما يوصيه باتخاذ الحيطة والحذر في الاتصالات. كما أوصاه بأن يعتمد على اليمانيين الغاضبين على المضريين واستغلال العداوة والثارات بينهما).

لقد قرأ أبو عثمان الكتاب وكان آنذاك في طريقه إلى سرقسطة لمساعدة قائدها الصميل الذي كان محاصراً من قبل عامر العبدي والحُباب بن رواحة الزهري وجيشهما. وكان أبو عثمان مع عدد من رؤساء القبائل ساروا لنجدة الصميل نظراً لتقاعس يوسف الفهري عن مساعدته في ذلك الحين. وأول ما فعله أبو عثمان مع رسول عبدالرحمن وكتابه أن تشاور مع صهره عبدالله بن خالد ثم يوسف بن بخت، فأجمعوا على رأيٍ واحد هو مساندة الأمير الأموي، وقد استغلوا ظرف الصميل الحرج وبرود علاقته بيوسف الفهري فاتفقوا على مفاتحته في أمر عبدالرحمن. بعد أن استطاعوا مع بقية القبائل من نجدته وفكّوا الحصار المضروب حوله وعادوا به بقواته وأمواله. وكان هذا الوقت مثالياً لمفاتحة الصميل، فاختلوا به في الطريق وأطلعوه على تفاصيل رسالة عبدالرحمن وقدموا له الرسول بدر، فبادر الصميل إلى موافقتهم وإكرام بدر بعشرة دنانير وشقة خزّ، لكنه طلب منهم أن يمنحوه بعض الوقت لدراسة الأمر واتخاذ قرار نهائي بهذا الشأن.

يبدو أن الأمويين قد فاتحوا الصميل على أساس أن عبدالرحمن قد فاتحهم بطلب الأمان ويتوسل إليك بمنحه الأمان فقط، دون أن يذكروا شيئاً عن طموحات عبدالرحمن في الحكم لمعرفتهم بطبيعة الصميل الميالة إلى حب الحكم والسلطان[1].

ولقد بلغ الصميل قرطبة وانصرف الأمويون إلى ديارهم ومعهم بدر. لكن يوسف الفهري قد استعد للخروج إلى الثغر لأن اليمنيين انتهزوا فرصة عودة الصميل إلى قرطبة فانقضوا على سرقسطة يقودهم زعماؤهم عامر وابنه وهب والحباب

(1) تشير رواية ابن القوطية على أن الصميل قد أجابهم خيراً في أمر عبدالرحمن وأملهم برعايته وضمه إلى يوسف الفهري وتزوجيه من ابنته، وإذا عارض يوسف يضربه بالسيف على صلعته.

وأعلنوا خروجهم عن طاعة يوسف. فأخذ يوسف يلح على الصميل للخروج معه للقتال والصميل يتقاعس لعلمه أن يوسف يريد إبعاده عن قرطبة والتخلص منه.

ومع تقاعس الصميل، أراد يوسف أن يستخدم الأمويين في حملته فبعث إلى أبي عثمان وعبدالله بن خالد وأعطاهم ألف دينار لتوزيعها على الموالي لكسبهم للقتال في جيشه. فقام الأمويون بتوزيع هذه الأموال على بني أمية ومواليهم، وهم يضمرون ليوسف الفهري أمراً آخر. فلما توجه يوسف إلى الثغر، اتصل الأمويون بالصميل للاستفسار عن رأيه الأخير بشأن عبدالرحمن وتشير الروايات إلى أن الصميل كان سكراناً [1] عندما قدموا إليه، فاخبرهم بأنه قرر الترحيب بقدوم عبدالرحمن، وكان حريصاً على كتمان الأمر وطلب إليهم أن يكتبوا إليه ويشجعونه على العبور. ولقد أبدى لهم ارتياحه من موقفهم في حصاره ونجدتهم له في سرقسطة. فما كان منهم إلا أن يشكروه على هذا الموقف الحاسم تجاه عبدالرحمن، وانصرفوا متوجهين إلى ديارهم في البيرة، ولم يكتفوا بالصميل وموقفه إذ إنهم فاتحوا عدداً من كبار المقاتلين الثقاة فحصلوا على موافقتهم بالانضمام إلى مساندة عبدالرحمن، كما أنهم أرسلوا الرسل إلى المقاطعات الأندلسية لحشد التأييد إلى دعوتهم، فلاقوا القبول وأصبح اسم عبدالرحمن يشغل الرأي العام الأندلسي كله.

لكن الصميل الذي أفاق من نشوة الخمرة، قد ندم على حماسته الزائدة في قضية عبدالرحمن وما قدمه من وعود للأمويين بشأن الكتابة إليه للقدوم ونصرته من قبل الصميل نفسه. ويبدو أن صحوة الصميل المبكرة جاءت بسبب تقديره لقوة يوسف الفهري الواقعية على أرض الأندلس، وعدم اطمئنانه لمستقبل قوة عبدالرحمن في الأندلس. فأرسل رسولاً يتعقب الأمويين، فأدركهم هذا الرسول وأبلغهما بأن الصميل يريد أن يلتقي بهم (يقول أبو جوشن أقيما حتى آتيكما). وفعلاً أدركهم

(1) يبدو أن فعل الخمرة ونشوتها هي السبب في انشراح صدر الصميل أمام أصحاب عبدالرحمن بن معاوية، لأننا سنلاحظ التغير في موقفه بعد قليل.

الصميل وكان لوحده ودون أتباع وهذا ما بدد الخوف في نفوسهم من عواقب مؤامرة ما. وبعد أن وصل صار يخطب فيهم بقوله (إني منذ أتيتماني برسول ابن معاوية وكتابه لم ازل في إدارة، فاستحسنت ما دعوتما إليه، ثم كان مني إليكما ما كان، فلما فارقتكما رويت فيه، فوجدته من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله. وهذا [1] رجل قد حكمنا عليه مع ماله في أعناقنا. والله لو بلغتما بيوتكما، ثم رأيتما هذا لظننت الا أقصر حتى أرجع إليكما لئلا أغركما، وإنما أعلمكما أن أول سيف يُسلّ عليه سيفي ا فبارك الله لكما في رأيكما ومولاكما). ومن ظاهر هذه الخطبة نرى أن الصميل قد تنصل عن وعده بمساعدة عبدالرحمن ضد يوسف الفهري، ولكنه في المقابل أخلصَ للأمويين بالحفاظ على سرهما ومباركة وصول عبدالرحمن لغرض طلب الحماية والأمان والثروة. وهذا ما نستشفه من جواب أبي عثمان بالرد على الصميل بقوله (أصلحك الله ما لنا رأي إلا رأيك).

فما كان من الأمويين إلا اليأس من مضر وربيعة وقائدهم الصميل في الانضمام إلى حملة عبدالرحمن الحقيقية، فقررا الاعتماد على اليمانية، إذ وجدوا فيهم الاستعداد الكامل لنصرة الأمير الأموي، ويؤيد هذا الاندفاع إقرار الأمويين بالقول (لم نمرّ بيماني له بال وثقنا به إلا وعرضنا عليه أمر ابن معاوية ودعوناه إليه فألفينا قوماً قد وغرت صدورهم يتمنون شيئاً يجدون به سبيلاً إلى طلب ثأرهم)[2].

يبدو أن رسول عبدالرحمن قد استطاع أن يبلغ رسالته كاملة، وينفذ تعليمات أميره بمهارة عالية، بمعاونة القادة الأمويين الذين كانوا على قدر عالٍ من المسؤولية تجاه دعوة عبدالرحمن حيث مهدوا له الطريق واستطاعوا أن يصلوا إلى كافة المفاصل الحيوية في المجتمع الأندلسي سواء كانوا قادة أم مقاتلين، مستغلين كل الظروف لحشد المساندة لدعوتهم الجديدة.

---

(1) يقصد يوسف الفهري.

(2) المقري، نفح الطيب، ج 4، ص 30.

ولو نظرنا إلى فحوى الرسالة التي أرسلها عبدالرحمن بيد مولاه بدر إلى الأمويين في الأندلس والتي تطرقنا إلى بعض ما فيها، لوجدنا أن دور عبدالرحمن في التخطيط كان حاسماً عبر رسم سياسة منظمة نفّذها مخلصون ثقاة. حتى بلغ الأمر بأن اشترى الأمويون مركباً خاصاً لنقل رسول عبدالرحمن بدراً ومعه أحد عشر رجلاً[1] منهم شاكر غلام هشام وتمام بن علقمة الثقفي مع تزويدهم بخمسمائة دينار للنفقات الضرورية في المغرب، ليكون هذا المركب حاملاً للبشارة.

عبدالرحمن بن معاوية في الأندلس

بعد أن وصل مركب البشارة إلى عبدالرحمن، ورأى عبدالرحمن بناءً على المعلومات التي وصلته من رسوله ومن معه، أن الفرصة باتت سانحة للذهاب إلى الأندلس بعد أن نضجت الظروف وفق الخطة الاستراتيجية لعبد الرحمن في ضوء قراءته لأحوال الأندلس آنذاك. ونجاح بدر رسوله والأمويين في تنفيذ تفاصيلها على الأرض الأندلسية. فقرر فوراً العبور إلى الأندلس. وكان الوداع الأخير للمغرب قد انتهى بمطالبة قبائل البربر للمال من أجل تحرير هذا اللاجئ. فكان للمال الذي جاء مع المركب الأثر الكبير لمغادرة عبدالرحمن. ولا نعرف في الحقيقة ما هو السبب الحاسم لمطالبة البربر بثمن لعتقه.

سار عبدالرحمن بمركب المخلصين الاثني عشر وكانت الرياح معيناً لهم في الوصول بسرعة إلى ساحل البيرة في جهة المنكب في عام 138 هـ / 756 م، وكان في استقباله على الجانب الآخر عبدالرحمن بن خالد وأبو عثمان اللذان نقلاه للإقامة في قرية طُرُش الذي يسكن فيها أبو الحجاج يوسف بن نجت، وبدأ عبدالرحمن باستقبال الأمويين والموالي والأنصار، واستقبل جدار[2] بن عمرو المذحجي شيخ عرب الأردن، وعاصم بن مسلم الثقفي وأبي عبده حسّان بن مالك الكتبي من أشبيلية، ثم

---

(1) لا نعرف تفسيراً حقيقياً لوجود اثني عشر رجلاً لبشارة عبدالرحمن إذ أن الرقم (12) يملك مفعولاً سحرياً في التاريخ اللاهوتي الشرقي.

(2) يسميه المقري جدّاد.

جاء إليه أبو بكر بن الطفيل وكثير من وجهاء الأمويين ومواليهم وأنصارهم. فكانوا النواة الأولى لجيش عبدالرحمن وساعده القوي فيما بعد.

وما كان أثر وصول عبدالرحمن إلى الأندلس مبعث ارتياح الجميع، فبقدر ما كان موضع ترحيب ومساندة من الأمويين وأنصارهم. كان سبباً لقلق قادة الأندلس ولا سيما يوسف الفهري، فقد كان يوسف عائداً من غزوته من الثغر وقد وصل إلى وادي الرملة، بعد أن قضى على تمرد اليمنيين والقرشيين في سرقسطة وقتل عامر العبدري وابنه وهب والحباب بن رواحة الزهري[1]، إذ وصلته أخبار قدوم عبدالرحمن الأموي إلى الأندلس عن طريق رسول ابنه عبدالرحمن من قرطبة. ولقد انتشر خبر وصول عبدالرحمن الأموي في صفوف جيش يوسف الفهري، فكان هذا الخبر مبعث لشماتة الكثير من المقاتلين بيوسف الذي قتل عامر وابنه والحباب بعد أسرهما، حتى أن بعض المصادر تذكر أن يوسف قد استدعى الصميل في تلك الفترة وقال له (إني أخاف أن يكون الله قد أنزل النقمة علينا بقتل هؤلاء). وبما أن الصميل كان يعلم بأمر عبدالرحمن كما ذكرنا، فقد نصح يوسف أن يستعد حالاً للانقضاض على عبدالرحمن قبل أن يشتد ساعده ويجتمع إليه الكثير من الأمويين والأنصار. ولكن يوسف الفهري كان يدرك تذمر جيشه والأعياء الذي أصابهم من حملته الأخيرة على سرقسطة، فقرر العودة إلى قرطبة للاستعداد الكامل لملاقاة هذا الأموي الخطر. الذي استطاع الفرار من قبضة العباسيين من الشام حتى وصوله إلى الأندلس. كما أن الفهري كان يأمل بأن طموح هذا الأموي لا يتعدى الحفاظ على سلامته الشخصية وإعادة الاعتبار له من الناحية المادية، لهوس بني أمية بالبذخ وحب الاستحواذ على الأموال. وتأتي هذه الفكرة من نصيحة ثانية للصميل الذي كان من أنصار القضاء على عبدالرحمن بن معاوية فوراً، إذ قال الصميل ليوسف الفهري: (إن

---

(1) كان يوسف الفهري يأمل بالتحاق أبي عثمان عبيد الله، وعبدالله بن خالد للانضمام إلى حملته على سرقسطة، وقد أعطاهم الف دينار لتجهيز قواتهم، كما ذكرنا. ولكن الأمويين كانا يريدان امر وصول عبدالرحمن فخذلاه.

عبدالرحمن قريب عهد بزوال النعمة، فهو يغتنم ما تدعوه إليه، ثم أنت بعد ذلك تحكم فيه وفي الذين سعوا إليه)[1].

محاولة لاحتواء خطر عبدالرحمن

لم يكتفِ الصميل بنصيحة الفهري بإرضاء عبدالرحمن الأموي بالأموال فقط، بل عرض عليه أن يزوجه من إحدى بناته ويصاهره لكسب ودّه، لإشغاله عن أي طموح في الحكم، ويبدو أن موقف الصميل هذا هو ترجمة لأفكاره الأولى عند التقائه بالأمويين ورسول عبدالرحمن، بدر، بعد أن يأس من استعداد الفهري للقتال فوراً. وقام يوسف الفهري بعد أن اقتنع بنصيحة الصميل، أن أرسل وفداً برئاسة كاتبه[2] خالد بن يزيد ويضم الوفد عبيد بن علي وعيسى بن عبدالرحمن الأموي، وبعث معهم هدايا وأموال[3] وكان الوفد يحمل أيضاً رسالة من يوسف الفهري تحمل الطرف الآخر من مهمة الوفد وهو التهديد والوعيد وتذكير عبدالرحمن بفضل آباء وأجداد يوسف ولا سيما عقبة بن نافع.

ومما جاء في الرسالة عن المصادر التاريخية: (أما بعد، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب، وتأبش من تأبش إليك ونزع نحوك من السرّاق وأهل الختر والغدر ونقض الإيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا، وبه جلّ وعلا نستعين عليهم، ولقد كانوا معنا في ذرى كنفٍ ورفاهية عيش، حتى غمطوا ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفاً، وجنحوا إلى النقض، والله من ورائهم محيط، فإن كنت تريد المال وسعة الجناب فأنا أولى بك ممن لجأت إليه، أكنفك وأصل رحمك، وأنزلك معي إن أردت، أو بحيث تريد، ثم لك عهد الله وذمته بي ألا أغدرك، ولا أُمكّن منك ابن عمي صاحب

---

(1) ابن عذاری، البيان، ج 2، ص 67.

(2) وهو مولى يوسف الفهري وهو أديب معروف، وتسميه بعض المصادر خالد بن زيد.

(3) وهي عبارة عن كسوة وبغلين ووصيفتين وألف دينار. او فرساً ومائة دينار. انظر: أخبار المجموعة، ص 42، وابن عذاری، البيان، ج 2، ص 67.

أفريقية ولا غيره)[1]. فتوجه وفد يوسف الفهري لمقابلة عبدالرحمن، حتى بلغوا إرش في أدنى مناطق ريّه، فاقترح أحد أعضاء الوفد وهو عيسى بن عبدالرحمن على أصحابه أن يبقى هو مع الهدايا في هذا الموقع ويتابع البقية سيرهم للقاء عبدالرحمن الأموي مخافة عدم قبول اقتراحهم ورسالة قائدهم، فترجع الهدايا إلى يوسف، خير من يستفيد منها عبدالرحمن وتكون له مصدر قوة إضافية. فنال هذا الاقتراح قبول الجميع وبقي عيسى والهدايا في إرش بينما تابع الآخران وهما خالد بن يزيد وعبيد بن علي سيرهما إلى عبدالرحمن حتى وصلا إليه في طُرُش عند أبي عثمان وكان عنده جماعة منهم دمشقيون وأردنيون وقنسريون. فتحدثا إلى عبدالرحمن في أمر مجيئهم ودعوه للجنوح إلى السلام واختيار طريق الألفة وحسن النية وسلموا رسالة يوسف الفهري إلى عبدالرحمن الذي سلّمها بدوره إلى أبي عثمان وقال له: اقرأه واجب عليه بما تعلم من رأينا [2]، فلما تناول أبو عثمان الرسالة، قال له خالد رسول الفهري بغرور واضح نتيجة لكونه أديباً معروفاً: (لتعرقن إبطاك قبل ان تحبّر فيه جواباً) ويقصد أن أسلوب الرسالة وبلاغتها سوف لن يُمكّن أبو عثمان من مجاراته فيهما. فغضب أبو عثمان من خالد[3]، وضرب الكتاب بوجهه وسبّه قائلاً: (يا ... لا يعرق لي فيه إبط ولا أحبّر فيه جواباً). وأمر بتكبيله بالحديد، وقال أصحاب عبدالرحمن: (هذا أول الفتح، هذا سلطان يوسف كله). فتدخل الرسول الآخر عبيد بن علي في الأمر وقال لهم أن خالداً سفير ورسول لا يجوز اعتقاله، فقالوا له أنت الرسول وخالد اعتدى علينا وجرح كبرياء أسياده الأمويين ولم يحترم الحاضرين.

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 67، وما يليها.

(2) يبدو ان عبدالرحمن لم يكلف نفسه عناء قراءة الرسالة بعد أن فهم محتواها من الرسولين وهو قد قرر طريقاً آخر للتعامل مع يوسف والصميل كما سترى.

(3) وهو مولى اندلسي جاء به الفهري وأعطاه مقاماً كبيراً صار موضع حسد وغيرة في نفوس العرب والذي يسمونه (علج).

وتذهب المصادر إلى أن عبدالرحمن وأصحابه قد أخلوا سبيل عبيد بن علي وحيوا خالد، ووصل الخبر إلى ثالثهم عيسى الذي رجع بالهدايا مسرعاً قبل أن يدركه أصحاب عبدالرحمن ويستولوا على الهدايا.

وعاد عيسى إلى يوسف الفهري ليخبره بما حدث وهكذا انتهت فرصة يوسف الفهري وصاحبه الصميل في احتواء خطر عبدالرحمن الأموي حتى أن الصميل عاتب صاحبه الفهري على عدم الأخذ برأيه الأول وهو الخلاص الفوري من عبدالرحمن لحظة وصوله إلى الأندلس.

الاستعدادات للقتال

بعد أن فشلت جهود الوساطة كما رأينا بين الفريقين فقد سعى كل منهما إلى تدعيم موقفه العسكري والاستعداد الجدي للقضاء على الطرف الآخر. فبدأت استعدادات عبدالرحمن بن معاوية بمراسلة القبائل والأقوام المختلفة طالباً منهم الانضمام إليه في معركته القادمة مع الفهري والصميل، فاستطاع أن يكسب أهل اليمن كلها. وتضيف المصادر التاريخية نتائج مراسلاته مع أهل الأندلس بالقول: (فأجابته اليمن بأسرها ولم يجبه من قيس إلا جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدي والحصين بن الدجن، هؤلاء الثلاثة فقط لما كان في أنفسهم مما صنع يوسف والصميل بابن شهاب وتطويحهما به، وكان الصميل قد ضرب العبدي وهلالاً)[1]، أما من ثقيف فقد انضم إليه تمام بن علقمة وعاصم العمران وأخوه عمران.

أما يوسف الفهري فقد استطاع استقطاب مضر كلها، وكان هذا يمثل انتصاراً للقوات العسكرية لمعسكر الفهري لكثرة عدد المقاتلين وقوتهم. لذا، فقد أدرك عبدالرحمن وأصحابه أن الكفّة راجحة لمعسكر الفهري فلابد من ضمّ أكبر عدد من القوات لصالحهما فقد سار على هذا الأساس إلى ريّه حيث يوجد جنود الأردن، ثم

(1) اخبار المجموعة، ص 43.

إلى اشبيلية حيث يوجد جنود حمص وإلى كورة شذونة[1] حيث هناك جنود فلسطين. وكان لمسيرته هذه أن أجابته اليمن وقضاعة كلها، وسارع إليه جند فلسطين، في حين أن بني كنانة من أهل فلسطين الذين يسكنون أطراف شذونة قد تحركوا للانضمام إلى يوسف الفهري. وقد أظهر عبدالرحمن أخلاقاً وفروسية عالية، حيث لم يتعرض إلى عائلات كنانة وأولادهم الذين خلفوهم وراءهم، كما التحق بعبدالرحمن خيرة جنود أشبيلية من الشامين والبلديين. ويقول تمام بن علقمة (دخلنا ريّه في ستمائة فارس، وخرجنا منها بألفي فارس، ثم دخلنا أشبيلية بهذا العدد وخرجنا منها في ثلاثة آلاف فارس، فلما اجتمعت لنا الجموع، وبلغنا ما يريد الفهري من الخروج إلينا، كتب الأمير عبدالرحمن الكتائب، وعبأ الأجناد وخرج إليه)[2].

ومع استكمال استعدادات الطرفين تقدم كل منهما إلى جهة الآخر. فسار يوسف الفهري عاقداً ألويته، بينما سار عبدالرحمن بلا لواء. ويقال أن رئيس عرب أشبيلية أبو الصباح بن يحيى اليحصبي الذي كان يرافق عبدالرحمن اقترح عقد لواء للجيش، وعندما وصلوا إلى قرية قُلنبيرَة، من إقليم طُشانة التابع لأشبيلية، فجيء بقناة وعمامة ليعقدوها عليه، ويقال إنهم كرهوا أن يميلوا القناة ليعقدوا اللواء عليها تشاؤماً، فأقاموها بين شجرتي زيتون متجاورتين، وصعد رجل إلى إحداهما فعقد اللواء والقناة قائمة. يقول ابن القوطية عن حادثة لواء عبدالرحمن (فأقبل أبو الصباح اليحصبي بقناة وعمامة، والقناة والعمامة لرجل من حضرموت لا أسميه، ثم دعوا رجلاً من الأنصار لا أسميه تفاءلوا باسمه ونسبه، فعُقد له قرية قلنبيرة من إقليم خشانة من كورة أشبيلية)[3]، وتنقل المصادر التاريخية أخباراً أخرى عن لواء

---

(1) عند وصول عبدالرحمن شذونة فكان يوم الفطر سنة 138 هـ / 756 م، فأمر جدار بن عمر شيخ عرب الأردن خطيب المسجد أن يسقط الخطبة ليوسف ويجعلها لعبدالرحمن. وكانت هذه أول خطبة لعبد الرحمن على منابر الأندلس. مؤنس، فجر الأندلس، ص 680.

(2) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 69.

(3) ابن القوطية: افتتاح، ص 24-25.

عبدالرحمن[1] والمعجزات التي رافقت عقده، وذلك لتهويل أمر عبدالرحمن والتمهيد لانتصاراته اللاحقة.

ولقد تابع عبدالرحمن مسيرته نحو قرطبة، بينما اكتفى يوسف الفهري بالخروج من المدينة فقط دون أن يتوجه بعيداً في اتجاه جيش عبدالرحمن الأموي. وذلك لتوجسه من عبدالرحمن الذي استطاع أن يجند أعداداً كبيرةً بإمكانها أن تهدد الفهري في عقر داره. كما أن أوضاع يوسف الفهري الداخلية لم تكن على أحسن حال نتيجة لتصرفاته غير المبررة مع الكثيرين والتي جلبت له عداوتهم كما أن الأحوال الاقتصادية كانت سيئة بسبب المجاعة التي انتشرت في الأندلس لمدة ستة أعوام متتالية، إذ كان طعام المقاتلين لا يتعدى الفول الأخضر الذي نبت في فصل الربيع، ولكن حالة جيش عبدالرحمن لم تكن بأفضل من جيش الفهري من الناحية الإدارية والغذائية لقرب جيش الفهري من العاصمة، ولوجود المال بيد الفهري.

معركة المصارة[2]

لقد تحدث المؤرخون عن الأيام التي سبقت حصول المواجهة الحاسمة بين الطرفين والتي شهدت منطقة المصارة القريبة من العاصمة قرطبة وقائعها، فقد تحرك يوسف الفهري أولاً فنزل في موقع (مدور صدف)، ثم انتقل حتى التقى بجيش عبدالرحمن عند طشانة الواقعة على نهر الوادي الكبير فحصلت بينهما مناوشات بالسهام وغيرها، وقد امتنعوا عن المواجهة الحقيقية نظراً لمياه النهر الكثيرة والتي أدت إلى حدوث فيضان. وفي هذه الأثناء أراد عبدالرحمن أن يستغل الليل ويسرع إلى العاصمة قرطبة ليقتحمها في غفلة عن يوسف الفهري، ولقد شجعه أنصاره على هذه الفكرة لوجود عدد كبير من الأمويين يعيشون في قرطبة وسيكونون عوناً له، وفعلاً تم تنفيذ الفكرة بمناورة وحيلة إذ أضرم النار في معسكره وسار بالجيش نحو قرطبة لكي

---

(1) انظر: المقري، نفح، ج 4، ص 32 مثلاً.

(2) تسميها مصادر أخرى واقعة المسارة.

يموّه على يوسف الفهري بهذه النار كدليل على وجودهم في موقعهم، إلا أن هذه الخدعة لم تمرّ على يوسف الفهري، فلقد علم بها من خلال جواسيسه، وأسرع للحاق بعبدالرحمن فأدركه وكانا في الطريق إلى قرطبة (كفرسي رهان والنهر بينهما)، حتى لاحظ عبدالرحمن عدم جدوى محاولته للوصول إلى قرطبة قبل يوسف الفهري، فتوقف عن الإسراع نحو العاصمة، وعسكر عند المصارة[1] وتذهب بعض المصادر إلى أن يوسف الفهري قد سبق عبدالرحمن واختار هذا الموقع. ولكن الثابت أن المعركة وقعت في المصارة تحديداً، وأن الفريقين قد عسكرا يوم الاثنين السادس من ذي الحجة 138 هـ / 755 م، فأقاما هناك ثلاثة أيام حدثت بينهما مراسلات للصلح من قبل يوسف الفهري تحدث عنها المقري بقوله (أن يوسف سار من قرطبة وأقبل بن معاوية على بر أشبيلية والنهر بينهما. فلما رأى يوسف تصميم عبدالرحمن إلى قرطبة رجع مع النهر محاذياً له، فتسايرا والنهر حاجز بينهما، إلى أن حلّ يوسف بصحراء المصارة غربي قرطبة، وعبدالرحمن في مقابلته وتراسلا في الصلح)[2]. فقام عبدالرحمن إلى جيشه مخاطباً إياها في شأن رسالة الصلح فقال: (إننا لم نجيء للمقام وقد دعانا هذا الرجل إلى ما علمتم وعرض ما سمعتم، ورأيي لرأيكم تبع، فإن كان عندكم صبر وجلد وحبّ للمكافحة فاعلموني، وإن يكن فيكم جنوح إلى السلم والصلح فاعلموني)[3]، ولما سمعه انصاره فقد أجمعوا على اتخاذ قرار الحرب، لذا فإن عبدالرحمن الأموي استطاع ان يحصل على ما كان يتمناه فبدأ بتنظيم قواته وتعيين القادة على الألوية استعداداً للمواجهة الحاسمة.

وتشير الروايات عن أن الطرفين ظلا ليومين قبل المعركة في حالة هدوء لأن رسل المصالحة كانت في حالة دائبة للحيلولة دون وقوع الحرب. إذ أن يوسف الفهري كان كما تشير المصادر غير راغب في القتال، ومتفائل إلى حد ما بنجاح الوساطات إذ

---

(1) المقري، نفح، ج 4، ص 32.

(2) نفس المصدر، ج 4، ص 33.

(3) اخبار المجموعة، ص 45-46.

أنه قد أمر بذبح الذبائح وإعداد طعام يكفي للجيشين معاً إذا ما تم الصلح. كما أن مسألة عبور جيش عبدالرحمن إلى الضفة التي يعسكر فيها جيش الفهري دون مقاومة إذ لم تشر المصادر إلى هذه المسألة مما يدل على أن الفهري كان يأمل بالصلح. ولكن عبدالرحمن الأموي الطموح لاسترداد أمجاد الأمويين قد أعدّ للحرب وكان تنظيم جيشه على الشكل التالي: أبو عثمان عبيد الله بن عثمان حامل اللواء، عبدالرحمن بن نعيم الكلبي على خيل جند الشام، بلوهة اللخمي من فلسطين على مشاة اليمن، عاصم - الملقب بالعريان لأنه نزع ملابسه في القتال - على مشاة بني أمية ومن معهم من البربر، حبيب بن عبدالملك القرشي على خيل بني أمية، إبراهيم بن شجرة الأودي على خيل البربر.

أما جيش يوسف الفهري الذي يأس من الصلح فاستعد هو الآخر للقتال وكان تنظيم جيشه على الشكل التالي: عبيد بن علي على خيل أهل الشام ومضر، وكنانة الكناني على قسم من المشاة. وجوشن ابن الصميل على قسم آخر من المشاة، عبدالله بن يوسف الفهري على كتيبة من حماة الرجال وخالد سودي على خيل الغلمان والصنائع.

وشهد يوم الجمعة[1] قتالاً شديداً بين الطرفين حاول كل منهما أن يحسم الموقف لصالحه قبل غروب الشمس، وكان جيش عبدالرحمن الأموي أشد تلهفاً على القتال، ليس للإخلاص لعبدالرحمن فقط وإنما للثأر من القيسيين وقائديهما الصميل ويوسف الفهري. ولقد استثمر عبدالرحمن هذا العامل وراح يعطي لأبي عثمان عبيد الله دوراً معنوياً كبيراً، حيث أنه كان يأخذ رأيه في شؤون المعركة، وعبدالرحمن يدير المعركة وفق تصوره الخاص. فسارت المعركة إلى كفة عبدالرحمن بعد أن ألحقوا بجيش الفهري هزائم قاسية إذ تذكر المصادر أن عبدالرحمن قال في هذا اليوم الحاسم (اليوم يوم جمعة، والمتزاحفان أموي وفهري، والجندان قيس ويمن، وقد تقابل الأشكال جداً، وأرجو

---

(1) العاشر من ذي الحجة سنة 138 هـ / 756م.

أنه أخو يوم مرج راهط، فأبشروا وجدّوا)[1] رغم أن بعض الباحثين يرجح أن هذه الكلمات لم تصدر من عبدالرحمن وإنما كانت من العلاء بن جابر العقيلي[2]، وهكذا انتهت المعركة لصالح جيش عبدالرحمن ودخل قرطبة ليرسم طريقاً جديداً لأمجاد الأمويين. ومن المصادفات أن عبدالرحمن وجيشه قد تناولوا الطعام الذي أعدّه الفهري للجيشين عندما كان يؤمل نفسه بالصلح. وهو دليل آخر على سرعة حسم المعركة وفي يوم واحد كان مبعث السعد لعبدالرحمن الأموي[3].

حوادث مهمة قبل دخول عبدالرحمن إلى قرطبة

لم يكن انتصار عبدالرحمن الأموي قدرياً كما تصوره بعض المصادر التاريخية، فلقد كان حصيلة نضوج عوامل كثيرة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي إضافة إلى الدور المهم والخطير الذي قام به عبدالرحمن نفسه وقد أشرنا سابقاً إلى أهمية دور الفرد في التحولات التاريخية في التاريخ الإسلامي. لذا، فإن انتصار عبدالرحمن العسكري في معركة المصارة قد أفرز ظهور بعض العوامل التي كانت في صالحه لتكون هذه المرّة ضده، لا سيما فيما يتعلق بالولاء القلق لجيش عبدالرحمن. ونعني الصراع بين اليمنيين والقيسيين والذي استثمره عبدالرحمن في ظرف سابق، ولكنه انفجر بعد الانتصار على يوسف الفهري والصميل.

فلم يرضَ اليمنيون من عبدالرحمن هذا التعفف الذي أبداه تجاه الجماعات التي ذهبت إلى بيت يوسف الفهري وانتهاك حرماته. إذ يقول مصدر تاريخي (لما دخل ابن معاوية القصر وجد الناس قد سبقوه إلى عيال يوسف فسلبوا وانتهبوا، فلما جاء طرد الناس وكسا من عُري وردّ ما قدر على ردّه، فغضبت اليمانية، وساءهم إذ حجر عيال يوسف مما كانوا أرادوه من فضيحتهم، وقالوا: عصب... وقال بعضهم لبعض: ويحكم

---

(1) يشير عبدالرحمن إلى يوم الجمعة الذي وقعت فيه معركة مرج راهط وانتصر فيها مروان بن الحكم الأموي، على الضحاك بن قيس الفهري.

(2) أنظر: د. خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 38-39.

(3) الذي لُقّب بعبدالرحمن الداخل وصقر قريش بعد دخوله قرطبة.

قد فرغنا من أعدائنا مضر وهذا ومواليه منهم، فلنضع أيدينا عليهم فيصير لنا فتحان في يوم واحد. فكره كاره ورضي راضٍ واضفقت قضاعة على الكراهة)[1]، كما يشير مصدر آخر إلى أن أبا الصباح رئيس اليمانية قال لجماعته عند هزيمة يوسف بقوله: (يا معشر يمن، هل لكم في فتحين في يوم؟ قد فرغنا من يوسف والصميل، فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية، فيصير لنا. نقدم رجلاً منا ونحمل عنه المضرية)[2].

لكن، عبدالرحمن قد وضع يده على السلطة كاملة ولم يعبأ بهذه الحوادث[3]، إذ استطاع القضاء على كل معارضيه ودخل إلى قرطبة وصلى بالناس في جامع قرطبة وخطب، فوعد الناس بالعدل والاستقرار ومن هذا التاريخ شهد الأندلس عصراً جديداً في الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة 138 هـ / 14 مايو 756 م.

مصير يوسف الفهري والصميل

بعد هزيمتهما في معركة المصارة، سار يوسف الفهري إلى طليطلة[4] ليجمع أنصاره من مضر ويحشدهم للقتال ثانية، وأما الصميل فذهب إلى جيان ليستنفر من فيها من القيسين، وقد التقى الفهري والصميل واستطاعا أن يطردا الحصين ابن الدجن عامل عبدالرحمن، ثم سارا إلى البيرة فهرب عاملها جابر بن العلاء بن شهاب. فكان لابد لعبد الرحمن أن يزحف إليهما بعد أن خلف على قرطبة أبا عثمان، وما كاد عبدالرحمن أن يترك قرطبة، حتى أغار عليها عبدالرحمن بن يوسف الفهري الذي كان مقيماً في ماردة، واستطاع أن يحاصر أبا عثمان في المسجد، واعتقاله، ولكن عبدالرحمن الأموي علم بالأمر فرجع مسرعاً إلى قرطبة ففرّ عبدالرحمن الفهري أبو زيد من القصر مستصحباً أبا عثمان وجاريتين كرهائن. ويقال أنه ترك الجارتين في منتصف الطريق وسار بأبي عثمان مكبلاً إلى البيرة.

---

(1) اخبار المجموعة، ص 47-48.

(2) المقري، نفح، ج 4، ص 33.

(3) وهذا سبب مهم للمؤامرات التي سيحوكها اليمانيون ضده.

(4) أو إلى ماردة أو البيرة كما يذكر المقري، النفح، ج 4، ص 33.

وبعد أن استتب الأمن في قرطبة أرسل عبدالرحمن إلى عامر بن علي جد بني فهر الرصافيين وكانت له هيبة وسيادة على اليمنية فاستخلفه على قرطبة وسار لمواصلة قتال يوسف الفهري الصميل فلما بلغ قرية أرملة وهي من قرى البيرة، شعر الفهري والصميل بالخطر الحقيقي على حياتهما فارسلا إلى عبدالرحمن رسولاً يدعوه للمصالحة يعترفان له بإمارة الأندلس مقابل أن يؤمن لهما حياتهما وأموالهما. فوافق عبدالرحمن على هذا العرض وأقرّ الصلح سنة 140 هـ / 757 م. وكان من بنود الاتفاق أن يفرج عبدالرحمن الأموي عن خالد بن يزيد[1] مقابل أن يفرج الفهري عن أبي عثمان، كما اشترط عبدالرحمن الأموي على يوسف الفهري اعتقال ولديه كرهينة وهما عبدالرحمن أبا زيد ومحمد أبا الأسود، على أن يكون مقر إقامتها الجبرية هو أحد القصور وليس سجن، حتى تهدأ الأمور في قرطبة ويطلق سراحهما. وبعد إتمام الصلح دعا عبدالرحمن كلاً من الصميل والفهري للنزول معه في قرطبة، فلما وصلوا إلى قرطبة نزل يوسف بمنزله المعروف ببلاط الحر (وهو بلاط الحر بن عبدالرحمن الثقفي والي الأندلس، ويقال أن يوسف تجنى على ابن الحر فقتله وأخذ المنزل ويقال اشتراه)[2] أما الصميل فنزل في داره بالربض، فأقاما في قرطبة في سلام وأمن. حتى أنهما كانا يترددان على الأمير وكان لا يتوانى عن استشارتهما في عدد من القضايا ولمرات عديدة. وكانت هذه سياسة الأمير في التسامح والعفو قد أكسبته حبّ أهل الأندلس، وشجّعت هذه السياسة على إقبال الكثير من أهل المشرق إلى الأندلس، حتى وفد عام 145 هـ الكثير من بني أمية ومواليهم، وكانوا موضع حفاوة من قبل الأمير الأموي.

ولكن حالة السلم والرخاء لم تدم أكثر من عام واحد إذ أن أنصار الفهري من موالي بني هاشم وبني فهر وقبائل قريش الذين تضرروا من سياسة عبدالرحمن الأموي إذ أزال عنهم الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في زمن الفهري، هؤلاء قاموا بتحريض

---

(1) الذي اعتقل في حادثة وفد الوساطة الأولى ليوسف الفهري مع عبدالرحمن والتي لم تنجح.

(2) اخبار المجموعة، ص 94.

يوسف على التمرد وأخذوا كما تذهب المصادر إلى أنهم (يختلفون إلى يوسف، ويلقون عليه التحريف، ويندمونه على ما كان، فلم يزالوا حتى كاتب الناس)، ولكن لم يؤيده أهل الأجناد في دعوته للقتال، إذ أنهم اطمأنوا على حياة السلام والاطمئنان بعد الفوضى السابقة، كما أن الصميل وأنصاره لم يؤيدوا يوسف في دعوته. ولكن يوسف أصر على فكرة الثورة فقرر أن يراسل أهل البلد من العرب والبربر وأهل ماردة ولقت. فأيدوه على دعوته. فاستطاع الحرب من قرطبة ناقضاً عهده مع عبدالرحمن الأموي سنة 141 هـ ووصل إلى ماردة. واستطاع أن يحشد جيشاً كبيراً [1] زحف به إلى أشبيلية وكان عليها عبدالملك بن عمر المرواني الذي لم يمتلك جيشاً مثل عدد جيش الفهري، فتحصّن داخل أسوار أشبيلية، فأهمل يوسف شأنه وأراد الذهاب إلى قرطبة، ولما وصلت الأخبار إلى عبدالرحمن سار بجيشه حتى نزل المدور، وصار يوسف الفهري بين جيشي الأمويين، فآثر أن يقاتل المرواني وبعدها يتفرغ إلى عبدالرحمن، وبدأت المعركة بين الجيشين واستطاع المرواني من هزيمة يوسف وفرار من معه. ولقد قُتل الفهري لاحقاً من قبل عبدالله بن عمر الأنصاري وجاء برأسه إلى قرطبة. وأما الصميل فقد مات خنقاً من قبل أعوان عبدالرحمن الذي استخدم سياسة الشد والعنف مع خصومه بعد أن نفذت معهم أساليب التسامح، وقد طالت هذه السياسة ابن يوسف الفهري عبدالرحمن الذي قتله الأمير واستراح من خصومه الأشداء.

عبدالرحمن الداخل اميراً على الأندلس

بعد أن استطاع عبدالرحمن القضاء على أبرز مناوئيه، انصرف إلى الاهتمام بشؤون الإمارة الإدارية والاقتصادية والعمرانية، وترسيخ ما بناه الأمويون سابقاً في المجالات المختلفة كتقسيم البلاد إلى مناطق، يتولى كل منها عامل يقيم في قاعدتها، كما قام بترسيخ النظام الحربي. ولكن عهد إمارة عبدالرحمن شهد تحولاً نوعياً في الحياة الأندلسية إذ تحولت الأندلس من ولاية تابعة لمركز الخلافة أو إلى أفريقيا إلى إمارة مستقلة، كما يشير المقري بذلك (كانت سلطنة الأندلس في صدر الفتح على ما تقدم

---

(1) تجاوز العشرين الف مقاتل.

من اختلاف الولاة عليها من سلاطين أفريقية واختلاف الولاة داع على الاضطراب وعدم تأثل الأحوال وتربية الفخامة في الدولة، ولما صارت الأندلس لبني أمية وتوارثو ممالكها وانقاد إليهم كل أبيّ وأطاعهم كل عصيّ عظمت الدولة بالأندلس وكبرت الهمم وترتبت الأحوال)[1]. ولقد تحولت قرطبة في عهد الأمير عبدالرحمن إلى عاصمة مزدهرة، شهد لها الأعداء قبل الأصدقاء. لا سيما إن هذه الشهادة قد أتت من عاصمة الخلافة العباسية بغداد ومن الخليفة أبو جعفر المنصور إذ يروى عنه قوله (الحمد لله الذي جعل بيني وبينه – يقصد عبدالرحمن – البحر). كما أن المنصور هو الذي لقب الأمير الأموي بصقر قريش، إذ تنقل المصادر التاريخية تلك الواقعة (بأن أبي جعفر المنصور قال يوماً لبعض جلسائه: أخبروني من صقر قريش من الملوك؟ قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راضى الملوك وسكّن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء. قال: ما قلتم شيئاً. قالوا: فمن يا أمير المؤمنين. قال: هو عبدالرحمن بن معاوية الذي عبر البحر وقطع القفر ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه، فمصّر الأمصار، وجنّد الأجناد ودوّن الدواوين وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته). وتشير المصادر التاريخية على المقارنة بين المنصور العباسي والداخل الأموي بأنهما كانا على درجة متساوية في العزم والشدة وضبط المملكة، وأن أمّ كل منهما بربرية ..[2].

والواقع أن هذه المقارنة بين بغداد وقرطبة الأموية، تشير بوضوح إلى ما بلغته إمارة الداخل الأموي في الأندلس إلى هذه المكانة المتميزة تاريخياً وحضارياً.

ولم تكن هذه المكانة قد جاءت من فراغ فكان لعبدالرحمن الداخل دوراً مهماً، نتيجة لما يملكه من مؤهلات شخصية قيادية جعلته يقرأ الأحداث ويسير بها إلى ما يريد.

---

(1) المقري، نفح، ج1، ص 198.

(2) نفس المصدر، ج4، ص 54، ويضيف إليهما ميزة أخرى للتشابه وهي ان كلاً منهما قتل ابن اخيه !!

مؤهلات عبدالرحمن الشخصية

لقد ذكرنا سابقاً أهمية الفرد القائد في التاريخ، ولا سيما أن هذا الفرد القائد قادر على الإمساك بزمام الأمور لتفرده في خصائص معنوية لها الأثر الكبير في كسب ودّ الجماهير في لحظة حرجة من التاريخ. تسمى في الوقت الحاضر (بالكاريزما)، أي الشخصية الجاذبة. ووفق مقاييس الجاذبية في ذلك العصر كان الأموي الداخل يتوافر على (رجاحة الحلم.. وكان فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً عن العجز سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى الراحة، ولا يسكن إلى دعه ولا يوكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً، مقداماً بعيد النظر، شديد الحدّة، قليل الطمأنينة، بليغاً، مفوّهاً، شاعراً، محسناً، سخياً، طلق اللسان)[1]. وتذهب المصادر التاريخية إلى تعظيم صفاته بالابتعاد عن الصغائر كشرب الخمرة[2]، ومعاشرة النساء بقولهم (أن أول قدومه إلى الأندلس أتوه بالخمرة، فقال: إني محتاج لما يزيد في عقلي، لا لما ينقصه، ثم أُهديت له جارية جميلة، فنظر إليها وقال: إنني إن اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي، ولا حاجة لي بها الآن)[3].

لكن عبدالرحمن الداخل لم يكن زاهداً أموياً كما تصوره المصادر التاريخية، بل كان على قدر كبير من الذكاء والدهاء لإزالة الألغام الجاهزة أمام طريقه ومبتغاه ! كان عبدالرحمن صاحب قضية وموقف وكأي أموي استخدم كل الأسلحة المتاحة للوصول إلى الهدف. ولقد نهضت له ظروف مثالية في مسيرته للوصول إلى الإمارة، ظل مخلصاً لها وللقائمين عليها. فحتى الذين ناصبوه العداء في فترة ماضية وانضموا إليه في عهد

---

(1) المقري، نفخ، ج 1، ص 321.

(2) وهي عادة مستحكمة في خلفاء بني أمية.

(3) المقري، ج 4، ص 42.

إمارته، أحسن إليهم وجعلهم عناصر في المسيرة[1]، وقدّر حقهم الواقعي. ولقد ساهمت سياسة عبدالرحمن بعيداً عن إطراء الخليفة العباسي وآراء المؤرخين بالفهم الشامل لظروف قرطبة والتي صارت أرضية صالحة لتطبيق سياسات هذا الأمير.

إنجازات صقر قريش

لقد ذكرنا أن عبدالرحمن الداخل قد اعتمد في بناء مؤسسات إمارته على الكوادر الذين واكبوا مسيرته وكانوا له الساعد القوي، الذي أوصله إلى قمة الهرم في الإمارة، فكان لابد من مكافأتهم في مناصب تليق بهم. فقد كان أول حاجب له هو مولاه تمام بن علقمة، ثم خلفه في ذلك المنصب يوسف بن نجت الفارسي مولى عبدالملك بن مروان، الذي صارت له ذرية معروفة بقرطبة، ثم عبدالكريم بن مهران من أولاد الحارث بن أبي شمر الغساني، بعده تولى المنصب عبدالرحمن بن مغيث بن الحارث ابن حويرث الغساني وبعده أبوه مغيث ثم فتاه منصور الذي رافقه حتى النهاية.

وكان لعبدالرحمن الداخل أشبه بمجلس استشاري يتألف من الشيوخ الذين كانوا يؤيدونه. كان يتشاور معهم في أمور الإمارة المختلفة، وكان في مقدمتهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبدالله بن خالد ثم أبو عبده حسّان بن مالك، وشهيد بن عيسى بن شهيد، وعبدالسلام بن بسيل الرومي، وثعلبة بن عبيد الجذامي، وعاصم بن مسلم الثقفي.

ولقد اتخذ الأمير الأموي أول كاتب له وهو كبير أصحابه أبو عثمان وصاحبه عبدالله بن خالد، ثم اتخذ أمية بن يزيد مولى معاوية بن مروان للكتابة. أما القضاء فقد أسنده عند وصوله إلى الأندلس إلى يحيى بن يزيد اليحصبي ثم عيّن بعده أبا عمرو معاوية بن صالح، ثم عبدالرحمن بن طريف ثم عمر بن شرحبيل، ثم الصعب بن

---

(1) مثلما حصل مع عيسى أحد رسل الفهري الذي فرّ بالهدية، حين عاتبه الأمير على فعله فقال له عيسى: إنها أمانة لابد أن تُرد إلى صاحبها فعفا عنه وجعله واحداً من رجاله، رغم أنه لم يوليه مناصب مهمة.

مروان وكان جدّار بن عمر يعمل بمهمة قاض متنقل بين معسكرات الجند. وبعد أن نظم الأمير عبدالرحمن شؤون الدولة على المستوى الإداري وفرغ من قمع الثورات[1] اتجه إلى الاهتمام بالأعمال العمرانية. ولقد أُنجز في عهده الكثير من المشاريع العمرانية، فقد بنى المسجد الجامع والقصر التي لا زالت آثارهما شاخصة في الأندلس إذ تقول المصادر التاريخية (بني المسجد الجامع والقصر بقرطبة، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار..)[2] (وجامع قرطبة الذي أعاد عبدالرحمن بناءه سنة 169 هـ بعد أن ضمّ إليه كنيسة سنت بنجنت متبعاً في ذلك ما فعله الخليفة الأموي الوليد عند بنائه جامع دمشق) وهذا يدل على أن الأمير الأموي كان يريد لنمط العمارة الإسلامية[3] أن يشيع في الأندلس وبرغم ما يقال عن عبدالرحمن من زهد في مجال في الألقاب وعدم اتخاذه لقب الخليفة مفضلاً لقب الأمير[4]، فإنه اتخذ لنفسه هالة كهالة الملوك، وصارت قرطبة زاهية بروائع المنشآت والمباني. فأقام لأمجاد الأمويين مآثر عديدة. امتزجت فيها حضارات سابقة كالرومانية والقوطية مع الحضارة الإسلامية لتنتج مزيجاً أندلسياً مثّل حضارة الأندلس آنذاك.

وقد حرص عبدالرحمن على جعل قرطبة شبيهة بدمشق في منازلها البيضاء ذات الأحواش الداخلية المزينة بالأزهار والورود ونافورات المياه.. وقد بنى عبدالرحمن في شمال قرطبة قصراً صيفياً على سفح جبل قرطبة سماه قصر الرصافة محاكياً في ذلك قصر جدّه هشام بن عبدالملك الذي بناه خارج دمشق في بادية الشام عام 110 هـ وسماه بنفس الاسم. ولا تزال توجد في هذا المكان من قرطبة قرية تحمل هذا الاسم La Ruzafa.

---

(1) ليس هدف دراستنا التطرق بالتفصيل إلى هذه الحوادث وبإمكان القارئ أن يرجع إليها في مصادر متنوعة قديمة وحديثة. كنا قد اعتمدنا عليها والمثبتة في حواشي الكتاب نذكر منها مثلاً، د. خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 47-93، السيد سالم، تاريخ المسلمين ص 197 وما يليها.

(2) المقري، نفح، ج 1، ص 308.

(3) في بلاد الشام وسوريا تحديداً.

(4) سنفسر هذا الأمر في الصفحات التالية.

ويمكننا تلمس شَبَه قرطبة بدمشق من خلال جامع قرطبة أيضاً فنرى المؤثرات الشامية المقتبسة من المسجد الأموي بدمشق، مثل العقود المزدوجة التي تزيد من ارتفاع السقف وتجعله مناسباً مع اتساع المسجد وإن كانت عقود مسجد قرطبة تبدو أكثر إجادة وروعة، كذلك نلاحظ التأثير في وضع المئذنة وفي الممر الذي يصل المسجد بقصر الإمارة وهو المعروف بالساباط[1]. ومن المصادفات الجغرافية أن يكون لقرطبة موقعاً على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير، ودمشق تقع على الضفة اليسرى لنهر بردى ويطل عليها جبل قاسيون، كما يطل على قرطبة جبل العروس[2].

وتحفل المصادر التاريخية بأخبار عبدالرحمن وأعماله العمرانية والإدارية فيقدم لنا المقري عن ابن حيان وصفاً لها بقوله: (لما ألفى الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غفلاً من حلية الملك، عاطلاً، أرهف أهلها بالطاعة السلطانية، وحنّكهم بالسيرة الملوكية، وأخذهم بالآداب، فأكسبهم عما قليل المروءة، وأقامهم على الطريقة، وبدأ فدوّن الدواوين، ورفع الأواوين، وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجنّد الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عدّته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه، وتحاموا حوزته، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس واستقل له الأمر فيها[3]). ولابن خلدون في كتابه العبر وصفاً آخر لعبدالرحمن وأعماله إذ يقول (استقام له الأمر، واستقر بقرطبة، وبنى المسجد الجامع... وبنى مساجد ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان يدعو للمنصور ثم قطعها لما تمّ له الملك بالأندلس ومهد أمرها وخلد لبني مروان السلطان بها، وجدّد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها، واستلم الثوار في نواصيها، وقطع دعوة العباسيين من منابرها. وسدّ المذاهب منهم دونها وهلك سنة اثنين وسبعين ومائة).

---

(1) احمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلس، ص 319.

(2) حتى قال الجغرافيون العرب عن الأندلس بأنها (شامية في هوائها).

(3) المقري، نفح، ج 1، ص 310.

وكان عصر عبدالرحمن قد شهد نهضة علمية واتساع نطاق التعليم وزيادة الاهتمام بالكتب والمكتبات في انحاء الأندلس كافة، وشملت كلا الجنسين وغدت الأندلس أحد مراكز الثقافة في العالم الإسلامي، وقام الأمير بإنشاء داراً لسكّ النقود[1]، كما اهتم الأمير بالجيش واستطاع أن يبلغ قوته مائة ألف مقاتل ما عدا حرسه الخاص من الموالي والبربر والرقيق ويبلغ قرابة أربعين ألفاً واهتم في أواخر حياته بالقوات البحرية فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن في طركونة وطرطوشة، وقرطاجنة وأشبيلية وغيرها [2].

ونتيجة للهيبة التي ظهرت عليها إمارة الأندلس في عهد عبدالرحمن فقد سعت أوروبا إلى إقامة علاقات دبلوماسية معها، وكان في الأندلس كثير من السفارات، كما تم التبادل الثقافي بين الأندلس والبلدان الإسلامية على مستوى المؤلفات والعلماء، وترى هجرة العديد من علماء الشرق إلى الأندلس، وعلماء الأندلس إلى الشرق وفي مختلف الميادين.

لقد تميز عهد عبدالرحمن أيضاً بازدهار الأدب والشعر وكانت الحياة الأدبية في الأندلس تحاكي حياة الشام الأدبية، فالشعر في الأندلس كلاسيكياً في فترته الأولى وكأنه شعر الفرزدق والأخطل وجرير في المشرق. ولقد برز عبدالرحمن نفسه كشاعر مثل من سبقه من الولاة مثل أبي الخطار بن ضرار الكلبي، والصميل بن حاتم. ويمتاز عبدالرحمن بلغة رفيعة إذ أنه (كان من البلاغة بالمكان العالي، الذي يرتد عنه أكثر بني مروان حسيراً)[3].

نماذج من نثر وشعر عبدالرحمن الداخل

لقد ذكرت المصادر التاريخية الكثير من النصوص النثرية والشعرية للأمير الأموي عبدالرحمن سوف نقوم باختيار بعض منها، ومن نماذج نثره يذكر مصدر الرد

---

(1) وكان موسى بن نصير أول من سكّ النقود في الأندلس.

(2) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 196، 197.

(3) المقري، نفح، ج 4، ص 39.

البليغ الذي وجهه عبدالرحمن إلى رجل قدم إلى مقابلته من أجل طلب المال فقال له: (قد سمعنا مقالتك، وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقامك، فلا تعودنّ ولا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك. بتصريح المسألة والإلحاف في الطلب، وإذا ألمّ بك خطب أو ضربك أمر، فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك، كيما نستر عليك خلّتك، ونكفّ شمات العدو عنك، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عزّ وجهه بأخلاف الدعاء وصدق النية)[1]، فقد كانت درساً في البلاغة ودرساً أخلاقياً لرعيته بالكف عن طلب الحاجة شفاهياً دون كتابتها في ورقة، حفاظاً على ماء وجه السائل أولاً والتعبير عن عدم احترام مقام الأمير في مثل هذه المخاطبة في مجلسه شفاهياً. وهنا مقطع جميل نقلته المصادر التاريخية يخاطب فيه أحد الجنود الذين أقبلوا عليه بالتهنئة المباشرة بمناسبة سحقه لثورة سرقسطة، والأصول المتبعة لا تبيح لهذا الجندي العادي أن يقدم التهنئة للأمير مباشرة فقال له: (والله لولا أن هذا اليوم قد أسبغ عليّ فيه النعمة من هو فوقي فأوجب عليّ ذلك أن أنعم على من هو دوني لأصلينّك ما تعرضت له من سوء النكال، من تكن حتى تقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ولا متهيب لمكان الإمارة ولا عارف بقيمتها؟ حتى كأنك تخاطب اباك أو أخاك، وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة). ولكن يبدو أن هذا الجندي عارف لمقامه إذ ردّ الأمير بالقول: (ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة، لا أعد منية الله تعالى).

فانتبه الأمير إلى فصاحة هذا الجندي وقال (ليس هذا باعتذار جاهل نبّهونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها)[2].

---

(1) هذه الحادثة تشابه حالة حدثت في زمن الخليفة علي بن ابي طالب فقال للسائل عن قضاء حاجة مادية: اكتب حاجتك على الرمل وامض، فإني والله اكره ان ارى في وجهك ذلّ السائل، وأن ارى في وجهي زهو المسؤول.

(2) المقري، نفح، ج 4، ص 41.

وهناك رسائل للأمير عبدالرحمن دارت بينه وبين مولاه بدر بعدما ساءت العلاقة بين الرجلين، تحمل قيمة أدبية عالية بالإضافة إلى قيمتها التاريخية والتي توضح شدة حزم الأمير حتى على اقرب الناس إليه إذا ما خالف مبادئ مسيرته في الإمارة [1]. فقال عبدالرحمن رداً على خطاب بدر الذي جاء فيه (إنما تعبنا أولاً لنستريح آخراً.. أما كان جزائي في قطع البحر، وجوب القفر.. الذي أهانني في عيون أكفائي، وأشمت بي أعدائي.. وأظن أعداءنا بني العباس لو حصلت بأيديهم ما أبلغوا بي أكثر من هذا).

فردّ الأمير عليه بقوله (وقعت على رقعتك المنبئة عن جهلك، وسوء خطابك، ودناءة أدبك، ولئيم معتقدك، والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا متاتاً أتيت بما يهدم كل متات مشيّد بما تمنّ به، بما قد أضجر الأسماع تكراره، وقدحت في النفوس إعادته، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك، وهضنا جناح إدلالك فلعل ذلك يقمع منك ويردعك حتى نبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى، فنحن أولى بتأديبك من كل أحد، إن شرّك مكتوب في مثالبنا، وخيرك معدود في مناقبنا)[2].

وهناك رسالة أخرى بليغة كتبها إلى مولاه بدر بعد أن أمر بنفيه عن قرطبة إلى أحد المدن الشمالية والقريبة من خطوط أعداء قرطبة فجاء في الرسالة (لتعلم إنك لم تزل بمقتك حتى ثقلت على العين طلعتك، ثم زدت إلى أن أثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى أن أثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر فبالله إلا ما أقصرت، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق معي الدنيا، ورأيتك تشكو لفلان وتتألم من فلان، وما تقوّلوه عليك، ومالك عدو أكبر من لسانك، فما أطاح بك غيره، فاقطعه قبل أن يقطعك)[3].

---

(1) وهذا ما حصل عندما قتل ابن أخيه.

(2) المقري، ج 4، ص 39.

(3) المقري، نفح، ج 4، ص 41.

أما في مجال الشعر يبدو الأمير عبدالرحمن شغوفاً به إلى درجة كبيرة، فبالإضافة إلى أنه كان شاعراً يقرض الشعر كما سنرى، فإنه يضع الشعر وحفظه والاطلاع على تاريخ الشعر العربي معياراً لقيمة الرجال. فقد روي عنه، إنه كان يقارن بين أولاده في رجاحة العقل عن طريق ؟؟ الشعر. فلقد سأل يوماً أحد أولاده[1] وهو هشام وقال له: لمن هذا الشعر:

وتعرف فيه من أبيه شمائلاً ومن خاله أو من يزيد ومن حُجُرْ
سماحة ذا، مع برِّذا، ووفاء ذا ونائل ذا، إذا صحا وإذا سكرْ

فقال له هشام: (يا سيدي، لامرئ القيس ملك كنده، وكأنه قاله في الأمير أعزه الله). ثم عاد لطرح نفس السؤال على سليمان فأجابه (لعلهما لأحد أجلاف العرب، أليس لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب). فكان لجواب ابنيه أن حدد وجهة نظر عبدالرحمن في كلا منهم في مستقبله السياسي الذي سنرى أنه سينصب لصالح هشام في ولاية أبيه من بعده. ونقلت الكثير من المصادر التاريخية شعر الأمير عبدالرحمن وسنختار منه بعض المقاطع التي تدور موضوعاتها على الحنين الطاغي للأمير إلى وطنه الأول دمشق مثل قوله:

أيها الراكب الميّمم ارضي أقر من بعضي السلام لبعض
إن جسمي كما علمت بأرضٍ وفؤادي ومالكيه بأرض
قدّر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وهناك مقاطع شعرية للأمير تدور موضوعها حول اعتزازه بنفسه ودورة الحاسم في وصول قرطبة إلى مجدها بعد أن بلغه من البعض الذين أعانوه قولهم (لولا أنا ما توصل لهذا الملك)، فنظم أبياتاً جميلة رد فيها عليهم بالقول:

(1) البالغ عددهم أحد عشر من الذكور.

لا يُلف ممتنّ علينا قائل (لولاي ما ملك الأنامَ الداخلُ)
سعدي وحزمي والمهند والقنا ومقادير بلغت وحال حائلُ
إن الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا أيرومُ تدبير البرية غافلُ
ويقول قوم سعده لا عقله خيرُ السعادة ما حماها العاقلُ
أبني أمية قد جبرنا صدعكم بالغرب رغماً والسعود قبائل
ما دام من نسلي إمام قائم فالملك فيكم ثابت متواصل

والحقيقة أن النظرة النقدية لشعر الأمير لا تجعله في مصاف الشعراء الكبار أو حتى شعراء بني أمية السابقون، ولكن شعره يفيض بإحساس إنساني خالص عندما يكون موضوعة ذكرياته عن مجد الأمويين في دمشق، فبعد أن شيّد الملك وأقام القصور ودانت له الرعية، تراه مرهف الحس أمام نخلة ذكرته بنخلة دمشق وهذه هي إحدى ميزات الشاعر الحقيقي. فقال:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأت بأرض أنتِ فيها غريبة فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي يسحّ ويستمري السماكين بالوبل

وله في موضوعة الحنين أكثر من قصيدة. ونلاحظ أن ما اخترناه من أعمال عبدالرحمن الداخل النثرية والشعرية بقدر ما تعبر عن قدرته الأدبية، فإنها تضاف كصفة أخرى لهذا الأمير الطموح الذي استطاع أن يؤسس قرطبة حضارية في الأندلس.

وفي آخر ما نذكره عن هذا الأمير هو احتفاظه بصفة أمير رغم كل المؤهلات والإمكانيات التي كانت تسعفه لاتخاذ ألقاباً مثل خليفة أو ملك، فهل هذا تواضع منه أم سعة حلم ورجاحة عقل ؟

يبدو أن عبدالرحمن قد امتلك لآخر لحظة في حياته قدرة هائلة على التوازن بين حلمه المتحقق في الواقع، وواقعيته في التعامل مع لحظات الانتصار دون انبهار وانقياد لنزوات لا طائل من ورائها. ولعل هذا الأمير كان يشعر بالخطر الماثل على إمارته من مركز الخلافة العباسية، كما أن رفضه للتعامل مع الألقاب جاء بسبب معرفة مكانة الخلافة وأصلها في الحجاز بعد أن ذهبت الخلافة الأموية إلى العباسيين، وكأنه أراد أن يحقق نوعاً من الموازنة تكفيه شر الطامعين بإمارته المزدهرة. فالعامل الحاسم في اختياره للقب الأمير كان سياسياً بالدرجة الأولى، ولكن ابن خلدون كان له رأي آخر في هذا الخصوص، إذ يقول إن سبب عزوف عبدالرحمن عن لقب الخليفة يعود (إلى تأدّبه في حق الخلافة بمقرّ الإسلام ومنتدى العرب)[1]، ويعود ابن خلدون في مقدمته لتفسير هذا الأمر بالقول (إلى القصور عن ملك الحجاز، أصل العرب والملّة، والبُعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية)[2].

ومهما يكن من الأمر فإن عبدالرحمن الداخل قد واصل مسيرته الملحمية من الشام إلى الأندلس، واستطاع أن يكوّن إمارة أموية جديرة بالتقدير، ولقد توفي هذا الأمير عن عمر ناهز الستين عاماً ودُفن بالروضة من قصر الإمارة بقرطبة، عام 172 هـ / 788 م غريباً وبعيداً عن وطنه. وخلفه في ولاية الإمارة ابنه هشام.

وبهذا التاريخ انتهى عهد عبدالرحمن الداخل الذهبي، وتابع مسيرته أمراء آخرون في مقدمتهم ابنه هشام الذي كان موضع تقدير عبدالرحمن الداخل. كما أشرنا سابقاً.

أمراء قرطبة بعد عبدالرحمن الداخل

الأمير هشام الرضا

لقد كانت المؤشرات واضحة لتولي هشام الإمارة من بين أبناء الأمير عبدالرحمن[3] الأحد عشر. رغم أن المصادر التاريخية تشير إلى أن الأمير عبدالرحمن

---

(1) ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 122.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 190.

(3) وهم سليمان وهشام وعبدالله، ومسلمة وأمية ويحيى والمنذر وسعيد ومحمد والمغيرة ومعاوية.

قد تردد في مبايعة أحد أبناءه، ولا سيما إن المنافسة كانت محصورة بين سليمان وهشام. إذ تذهب الرواية التاريخية إلى أن الأمير عبدالرحمن لم يحسم أمر خلافته وهو على فراش الموت، فاستدعى ابنه عبدالله وقال له: (من سبق إليك من أخويك، فارم إليه بالخاتم والأمر. فإن سبق إليك هشام فله فضل في دينه وعفافه واجتماع الكلمة إليه، وإن سبق إليك سليمان فله فضل سنّه ونجدته وحبّ الشاميين له)[1]. وانقياداً للرواية في تسلسلها الواقعي فقد وصل هشام قبل أخيه سليمان وتولى الإمارة. ولكننا لا يمكن أن نطمأن إلى هذه الرواية في كونها سبباً مباشراً وحاسماً لإمارة هشام على الأندلس دون أخيه سليمان. فإذا ما سلمنا بتردد عبدالرحمن في نهاية عمره كجزء من الحنين لماضيه الشامي الذي يمثله ابنه سليمان المولود في الشام والذي قضى فترة شبابه هناك وجاء إلى الأندلس متأخراً حيث نصّبه والده حاكماً على طليطلة، وبين هشام الذي وُلد في إسبانيا من جارية إسبانية اسمها (حلال)، وهو يمثل البيئة الأندلسية بموالبها وغيرهم من سكان البلاد الأصليين الذي ينتمي إليهم هشام، فكانت الغلبة لهشام الأندلسي وفقاً لسير الضرورة التاريخية بعد زوال قوة الفرد في التأثير بمسار الأحداث، وهذا ما حصل لسليمان الذي أراد أن يكون الأمير على الأندلس فأخذ البيعة له في طليطلة، واشتعلت الحرب بينه وبين أخيه أدت إلى هزيمته ونفيه إلى المغرب عام 174 هـ ، بعد أن قدّم له هشام المال الكثير لإبعاده عن المنافسة. والحق أن سليمان البعيد عن ظروف الأندلس والمعروف عنه بالانصراف إلى الملذات الأموية كان واقعياً بقبول العرض الدسم. والتنازل عن الإمارة لأخيه هشام. وكان هشام عند إمارته للأندلس في الثالثة والثلاثين. وكان يُكنى بأبي الوليد، ولقد لقّب بالرضيّ نظراً لحسن سمعته وسعة حلمه.

شخصية الأمير هشام

يبدو أن المصادر التاريخية اتفقت على وصف شخصية الأمير هشام بمواصفات تدل على رجاحة عقله وحسن سيرته التي اتسمت بالعدل والتديّن والابتعاد عن

---

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، ج 2، ص 92.

الملذات التي كانت عنواناً لسيرة الأمويين على وجه العموم فقد كان (كريماً، عادلاً، فاضلاً، متواضعاً، عاقلاً، لم تعرف عنه هفوة في حداثته، ولا زلّة في أيام صباه)[1]، ولُقب بالرضا لورعه وتقواه، وحسن طباعه وشمائله، حتى شُبّه بالخليفة الأموي العادل عمر بن عبدالعزيز، لأن هشام قد اتخذ طريقة عمر بإرساله مبعوثين إلى المناطق المختلفة ليتحروا حياة الناس وهمومهم ومشاكلهم، وأداء قادتهم مع الرعية، فيقوم الأمير بإحقاق الحق وإنصاف المظلوم، كما كان يفعل الخليفة عمر الأموي، وتمضي المصادر التاريخية في تقديرها لسيرة الأمير هشام إلى درجة إيراد قصة اشبه بالخرافة تعلل السبب الرئيسي الذي حدّد سلوك الأمير مع رعيته إذ يروى أن: (لما ولي هشام أشخص المنجم المعروف بالضبيّ من وطنه بالجزيرة الخضراء إلى قرطبة، وكان في علم النجوم بطليموس زمانه، حذقاً وإصابة، فلما أتاه وخلا به وقال له: يا ضبيّ، لست أشك أنه قد عناك من أمرنا إذ بلغك ما لم ندعْ تحديد النظر فيه، فأنشدك الله الا ما نبأتنا، بما ظهر لك فيه، فلجلج وقال: أعفني أيها الأمير فإنني ألمت به، ولم أحقّق النظر فيه لجلالته في نفسي، فقال له: قد أجلتك لذلك، فتفرغ للنظر فيما بقى عليك منه. ثم أحضره بعد أيام فقال: إن الذي سألتك عنه حدّ مني، مع أني والله ما أثق بحقيقته، إذ كان من غيب الله الذي استأثر به، ولكني أحب أن أسمع ما عندك فيه، فالنفس طُلعة، والزمه الصلة أو العقوبة. فقال: اعلم أيها الأمير إنه سوف يستقر ملكك، سعيداً جدّك، قاهراً لمن عاداك، إلا أن مدتك فيه فيما دلّ عليه النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها. فاطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: يا ضبيّ ما أخوفني أن يكون النذير كلمني بلسانك، والله لو أن هذه المدة كانت في سجدة لله تعالى، لقلّت طاعةً له، ووصله وخلع عليه، وزهد في الدنيا، ولزم افعال الخير والبر[2]).

---

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، ج 2، ص 91.

(2) المقري، نفح، ج 1، ص 314.

ولقد وردت هذه القصة في أكثر من مصدر، ونحن لا نمتلك أي مصدر لتكذيبها، ويمكن أن نقول أن للمنجمين حظوة في بلاط الملوك والأمراء في السابق وحتى الوقت الحاضر. ولكن دراسة سيرة هذا الأمير الذي حظي بتقدير الأب عبدالرحمن كما ذكرنا سابقاً، ولتربيته الأندلسية وانتصاره للمولدين من أهل الأندلس وهم الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات إسبانيات، ومثلوا الغالبية في عهد أمراء بني أمية. كان لها الأثر المهم في التكوين النفسي لشخصية الأمير هشام المتوازنة، ويمكننا أن نستدل أيضاً على سماحته من خلال الطريقة التي تعامل بها مع أخويه سليمان وعبدالله الملقب بـ (البلنسي)، رغم خروجهما عن طاعته وحربهما له، فقد اكتفى بقبول السلام معهما، على عكس سيرة الأمويين بقتل الأخوة وكما حدث مع أبيه عبدالرحمن الذي قتل ابن أخيه. كما أن هناك عامل قد أثر في تركيبة الأمير النفسية، وهو عامل ديني يتمثل باعتناق الأندلس وأميرها للمذهب المالكي وتركها المذهب الأوازعي[1]. إذ روي عن الإمام مالك إعجابه بالأمير هشام حتى جاء عنه قوله: (وددت لو أن الله زيّن موسمنا به)[2]، ويقصد الإمام مالك بأن الأمير هشام هو زينة موسم الحج إلى الكعبة إذا ما أقبل لأداء فريضة الحج في ذلك الموسم.

ولكننا لا يمكن أن نطمئن إلى هذا التوصيف الأخلاقي الكامل لشخصية الأمير هشام، لأن المصادر التاريخية سوف تذكر لنا حادثة مهمة تدل على القسوة البالغة التي أبداها هشام بحق أحد الشعراء[3] الذي انتصر لأخيه سليمان قبل فترة إمارته بالقول:

وليسوا مثل من إن سُئل عُرفاً   يُقلّب مقلة فيها اعورارا

---

(1) للمزيد من الاطلاع حول تأثير هذا العامل، أنظر، حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 279، وسنبحث هذا الموضوع في فقرة مظاهر الحضارة الحجازية فيما بعد.

(2) اخبار المجموعة، ص 93.

(3) هو الشاعر الشامي عاصم بن زيد المعروف بأبي المخشي أو المخشي.

إشارة من الشاعر إلى الحول في عيني هشام، فاستقدمه إلى مدينة ماردة حين كان والياً عليها، مؤملاً هذا الشاعر بالجائزة، فلما وصل الشاعر أمَر هشام بقطع لسانه[1].

ومع كل ما ذكرناه عن شخصية الأمير هشام، فقد كان أميراً مثّل آمال وتطلعات البيئة الأندلسية وكان ميّالاً للسلم إلا أنه كان مضطراً للدخول في حروب لتوطيد الأمن في إمارته.

حركة المقاومة في عهد الأمير هشام

بعد أن استطاع الانتصار على أخيه سليمان كما أشرنا سابقاً، تمكن من إخماد ثورتين يمانيتين اندلعتا في سرقسطة وبرشلونة، الأولى كانت بقيادة القائد الحسين بن يحيى الأنصاري الذي أغلق أبواب سرقسطة في وجه شارلمان. والثانية بقيادة مطروح بن سليمان بن يقظان الأعرابي الذي لعب دوراً كبيراً في تلك الغارة التي قضى فيها على مؤخرة جيش شارلمان في جبال البرتات، ولقد أخمدت هاتان الثورتان وقتل أصاحبها. وبعد أن استقر الوضع في الإمارة، اتجه لمحاربة المسيحيين في الشمال، فحارب الإسبان في ولاية أشتوريش في شمال غرب إسبانيا، وكان لهذه الولاية جبهتان مع الحدود الإسلامية. الأولى من جهة الشرق وهي منطقة القلاع والتي عُرفت بقشتالة بعد ذلك، والثانية من جهة الغرب هي منطقة جليقية.

ولقد عمد الأمير هشام إلى إرسال حملات صيفية على ولاية سبتانيا في جنوب فرنسا، واستطاع أن يحصل على غنائم كثيرة من تلك الحملات، واستخدم هذه الغنائم في بناء مساجد عديدة على شاطئ الوادي الكبير وإعمار مسجد قرطبة، إذ أضاف إليه المئذنة والميضأة وبعض السقوف الناقصة، كما أعاد بناء الجسر القديم الممتد على

---

(1) وهذه الحكاية قد امتدت لها خرافة الرواة إذ تذهب الرواية إلى أن الشاعر قد نبت له لسان بعد سنة، وأن الإمام مالك عندما سمع بهذه الحكاية، عدّل في بعض أحكامه، وأفتى بالتأني في ديّة اللسان لمدة سنة بدلاً من تنفيذها فوراً، مستشهداً بحادث الشاعر أبي المخشي. كما أن هشام الأمير قد قتل ولدين من أولاد موالي بني أمية ظلماً. وقد أخفى الفقهاء ذلك، رغم أن هشام اعتذر عن هذا الفعل وعوّض الورثة بالمال.

الوادي الكبير، والذي يربط العاصمة بالجنوب، والذي عُرف بجسر قرطبة. ويبدو أن حروب الأمير هشام مع المسيحيين جاءت بسبب نزعته الدينية والتي ترى الحرب نوع من الجهاد الواجب ضد عدو متربص للقضاء على الإمارة الإسلامية في قرطبة.

مظاهر الحضارة الحجازية

لقد أخذت الحروب الداخلية والخارجية الوقت غير القليل من حكم الأمير هشام، إلا أن حروبه الداخلية ضد أخيه سليمان قد مهّدت لنشوء مظاهر الحضارة الحجازية، بعد أن كان النفوذ الشامي هو السائد سابقاً. إذ أن الأندلسيين قد تحرروا من النفوذ الشامي ووجدوا ضالتهم في حضارة الحجاز، لا سيما وأن الحجاز في القرن الثاني الهجري كان مركزاً حضارياً هاماً للعلوم الديني بالإضافة إلى الفنون والموسيقى[1]. فقد ظهرت أولى المدارس الموسيقية في مكة والمدينة، وكانت هذه المدارس تجمع بين الموسيقى العربية الأصلة مع الموسيقى البيزنطية والفارسية نتيجة للتأثير الذي حصل بعد الفتوحات الإسلامية لهذه الأقطار. ولقد شهدت مكة والمدينة تنافساً على هذا اللون من الموسيقى والغناء الأمر الذي أدى إلى ازدهاره، ووصل تأثيره إلى الأندلس عبر الجواري والمغنيين والمغنيات الذين نقلوا معهم إلى جانب الموسيقى والغناء العديد من مظاهر الحضارة الاجتماعية والثقافية، والتي كانت مزدهرة في الحجاز في ذلك الوقت. ولقد ذاع صيت أسماء مشهورة في عالم الغناء ومن هذه الأسماء المغنية عجفاء التي سحرت الأندلسيين بغنائها على عهد الأمير هشام. وسوف يكون للمغنيات شأناً كبيراً في عهد عبدالرحمن الثاني حفيد هشام الذي بنى قصراً لمغنياته المدنيات وسماه دار المدنيات. ولم يقتصر تأثير الحجاز على الأندلس في النواحي الثقافية والاجتماعية والفنية، بل تعداها إلى تحوّل الأندلسيين إلى مذهب الإمام مالك

---

(1) لقد كان بعض خلفاء بني أمية يبعثون بأبنائهم من دمشق إلى المدينة ليتعلموا فيها العلوم والفنون.

بن أنس[1] الذي كان شائعاً في المدينة. برغم وجود مذاهب أخرى كالشافعية والحنفية، ولكن لماذا اختار الأندلسيون المذهب المالكي دون سواه؟ يشير باحث معاصر[2] إلى أن السبب في ذلك هو أن أصحاب تلك المذاهب لم يرزقوا بتلاميذ يدوّنون مذاهبهم وينشرونها في الآفاق، أما مالك فقد حظي بتلاميذ نجباء أمثال (عبدالرحمن بن القاسم وأشهب بن عبدالعزيز)، ومن ثم (أسد بن الفرات وعبدالسلام بن سعيد المعروف بسحنون) وكان لهؤلاء التلاميذ الفضل في نشر مذهب مالك في المغرب والأندلس. بالإضافة إلى أن مالك بن أنس كان معاصراً للأمير كما ذكرنا ومعجب به. وهناك سبب آخر لا يقل أهمية عما ذكرناه في تحوّل أهل الأندلس على مذهب مالك هو أن الإمام مالك كان على خلاف مع العباسيين وذلك من خلال موقفه من ثورة العلويين بقيادة محمد النفس الزكية حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب سنة 145هـ أيام خلافة العباس أبي جعفر المنصور، والتي أيّدها مالك بقوله إلى أهل المدينة: (إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين أو طلاق). ولقد تعرض مالك إلى الضرب بالسياط من قبل والي المدينة، وهذا ما شكّل سبباً في تعاطف الأمويين في الأندلس مع مالك نكاية بالعباسيين.

ويذكر ابن خلدون في المقدمة، إن سبب تحوّل الأندلسيين هو تشابه البيئة الأندلسية والمغربية مع بيئة الحجاز من حيث البساطة والبُعد عن التعقيد. وكانت تغلب عليهم نزعة أهل الحديث وهو مذهب مالك الذي يتقيّد في إصدار أحكامه وفتاويه بنصوص القرآن والحديث وعمل أهل المدينة ولا يلجأ إلى استعمال الرأي

---

(1) لقد سبق وأن ذكرنا ان أهل الأندلس كانوا على مذهب الأوزاعي، ولكنهم رغم تبدل مذهبهم، اجازوا لأنفسهم غرس الأشجار في صحون المساجد رغم عدم إقراره من قبل الإمام مالك.

(2) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 269.

والقياس إلا في حدود ضيّقة. حتى عُرف عن أهل الأندلس بأنهم لا يعرفون سوى القرآن وموطأ مالك[1].

وتوفي هشام في عام 180هـ / 796 م بعد أن حكم الأندلس لمدة ثمانية أعوام. وتولى الحكم من بعده ابنه الحكم الأول عام 180 هـ وعمره لم يتجاوز الستة وعشرين عاماً.

الأمير الحكم الأول بن هشام

(180- 206هـ / 796-822م)

شخصيته:

تضاربت المصادر التاريخية في تحديد السمات العامة لشخصية هذا الأمير الشاب الذي لم يتجاوز عمره الستة وعشرين عاماً، فقد شُبّه بشخصية الخليفة العباسي المنصور لشدة بأسه وقوته وعزيمته. وقالوا عنه (كان من أهل الخير والصلاح، كثير الغزو والجهاد)[2]، وإنه كان (شديد الحزم، ماضي العزم، عظيم الصولة، حسن التدبير)[3]، وكان (افحل بني أمية بالأندلس وأشدهم إقداماً ونجدة، عُرف بشدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء). وأمام هذا المديح والثناء، نرى في مصادر أخرى ما هو عكس ذلك تماماً فوصفه عبدالرحمن المراكشي بأنه (كان طاغية مسرفاً، وله آثار سوء قبيحة، وهو الذي أوقع بأهل الربض)[4] ويصفه ابن حزم الأندلسي بـ (أنه كان من المجاهرين بالمعاصي، السافكين للدماء، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء)[5].

---

(1) كتاب في الفقه والحديث معاً وضعه مالك بن أنس واطلق عليه اسم الموطأ اي السهل الواضح. رتب فيه أبواب الفقه على الحديث، بمعنى أنه ذكر أبواب الفقه المختلفة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والمعاملات.. الخ، ثم ذكر الأحاديث النبوية المتعلقة بكل موضوع من هذه المواضيع الفقهية.

(2) المقري، نفح، ج 1، ص 319.

(3) ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 125.

(4) ومنها لُقّب بالربضي وسنشير إلى هذه الواقعة في حينها.

(5) المقري، نفح، ج 1، ص 320.

لكن الباحث لا يمكن أن يصدر حكماً وفقاً لهذا التناقض التاريخي بشأن هذا الأمير الشاب الذي قالوا عنه بأنه شاب ميالاً للمتع والراحة، مرح مولع بالصيد والقنص وحفلات الرقص والغناء ومجالسة الشعراء والندماء. كما أنه (كان فصيحاً، بليغاً، شاعراً، مجيداً)[1]، كما نقلوا عنه بأنه كان ميالاً للإنصاف، متواضعاً، عزيز النفس. وحتى تثبت المصادر صفاته الحميدة، مع وجود كل الصفات المناقضة لما يقول المقري بأن الأمير (أنه تنصّل أخيراً وتاب).

هذه هي السمات العامة لشخصية الأمير الأموي وسنرى في بقية الحديث عن عهده ما إذا كانت هذه المصادر متحاملة عليه أم منصفة له ؟! لا سيما وأن هذا الأمير قد استعاد النبض الأموي في طريقه التعالي على الآخرين.

التحديات التي واجهها

لقد واجه الأمير الحكم عدة تحديات لإمارته منها داخلية وأخرى خارجية، أما الداخلية فتمثلت بثورة عميّه عبدالله وسليمان. أما عمّه عبدالله والذي كان في المغرب حين علم بوفاة أخيه هشام، فعبر المضيق ووصل إلى الأندلس من جديد، إذ اتجه إلى مدينة سرقسطة لتأليب الأندلسيين على إمارة قرطبة لكنه لم يجد الدعم المطلوب، وبعد أشهر من إقامته في سرقسطة ويأسه من إثارة الناس ضد ابن أخيه، سار بصحبة ولديه عبيد الله وعبدالملك إلى شارلمان[2]، بقصد طلب نجدته، ولكن شارلمان رغم ترحيبه بالأموي عبدالله، لم يرغب في خوض مغامرة غير متوقعة النتائج[3]، ولكن حسين مؤنس[4] يؤكد أن عبدالله عندما ذهب لمقابلة شارلمان في (اكس لاشابل) قد وجد كل الدعم منه، إذ أرسل شارلمان جيشاً دخل الأندلس، ولكن أبا صفوان حاكم الثغر الأعلى ردّه على أعقابه سنة 180هـ / 797م. وكانت لمحاولة عبدالله هذه في الثغر

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 118.

(2) ذكر ابن عذاري في البيان المغرب أن وجهة عبدالله آنذاك إلى بلاد الفرنجة. ج 2، ص 103.

(3) د. خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 132.

(4) مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 274.

الأعلى أن كشفت لرجال شارلمان ضعف الجبهة الإسلامية من هذه الناحية، وبالفعل سارت قوات إفرنجية من النصارى سنة 190هـ / 806م نحو الأندلس، بعد أن تحفّز أهل شمال شبه الجزيرة من النصارى على تلك الحملة، فعبرت الجبال وحاصرت برشلونة، وثبت القائد العربي سعدون الرعيني مدافعاً على أمل وصول الإمدادات من قرطبة، إلا أن الحكم كان مشغولاً بعمّيه في الجنوب وسقطت برشلونة في يد الفرنجة، وأنشأ شارلمان فيها ولاية تسمى (لاماركا هيسبانيكا) والتي أصبحت مكمن خطر للدولة الإسلامية في الأندلس فيما بعد. أما عبدالله فقد ذهب إلى بلنسية واستمر بالدعوة إلى الثورة على الحكم، حتى بعث إليه الحكم عام 156هـ / 802م بوفد يحمل له العفو والأمان وكان الفقيه يحيى بن يحيى وابن أبي عامر هما اللذان عقدا الصلح بعد موافقة عبدالله عليه وبقي في بلنسية مع راتب ألف دينار كل شهر وألف دينار كل عام لتغطية النفقات واللوازم الخاصة به وعاد الرسولان من بلنسية بعقد الصلح مستصحبين معهما أحد أولاد عبدالله، فيما تشير بعض المصادر إلى أن عبدالله هو الذي طلب الصلح من ابن أخيه بعد يأسه من النجاح في ثورته وأن ابنيّ عبدالله قد عادا مع الرسولين، فزوّجهما الحكم من ابنتيه عزيزة وأم سلمة، ومهما يكن من الأمر فقد انتهى خطر العم عبدالله على طول حكم الأمير الحكم.

أما عمّه ا لآخر سليمان فهو الآخر أسرع إلى الوصول للأندلس بعد وفاة أخيه هشام، واجتمع له الكثير من أهل الأندلس وسار مباشرة إلى قرطبة، فخرج إليه الحكم ودارت بينهم معركة استطاع الحكم من هزيمة سليمان الذي آثر الانسحاب وتنظيم قواته من جديد للإغارة على الحكم ثانية، فالتقيا في منطقة تدعى (بخيطة) وهُزم سليمان ثانية. واتجه إلى (أستجة) هذه المرة حيث استطاع أن يحصل على أنصار جدد من البربر، ولكن الأمير الحكم لم يمهله كثيراً إذ سار إليه وهناك حدثت معركة شديدة دامت أياماً وأسفرت أيضاً عن هزيمة سليمان وقواته في عام 183هـ / 799م، وتكررت المعارك للمرة الرابعة والخامسة بينهما وتصف المصادر هذه المعارك بالقول (وفي عام 184هـ حشّد أبو أيوب سليمان بن عبدالرحمن في المشرق، فاحتل بجيّان ثم البيرة، فأتبعه جماعة في الكورتين، والتقى معه الحكم فدام القتال بينهم أياماً حتى همّ

الحكم بالهزيمة، ثم انهزم سليمان وأفلت، وقتل في المعترك بشر كثير، وأخيراً لجأ سليمان إلى ماردة لمتابعة ثورته على ابن أخيه الحكم، فكلّف هذا الزعيم البربري في ماردة وهو أصبغ بن السوس أن ينهض لقتال سليمان فلاحقه هذا فعلاً وتمكن من القبض عليه وساقه أسيراً إلى الحكم فأمر بقتله) وبهذا انتهى خطر العمّين عبدالله وسليمان إلا أن المواجهات والثورات لم تتوقف.

نود أن نؤكد على الوضع السائد في قرطبة آنذاك فنلاحظ نشوء طبقة جديدة من المولدين، وقد نمت هذه الطبقة الاجتماعية بسرعة كبيرة حتى صارت تؤلف الغالبية من سكان الأندلس، فكان منهم التجار والمزارعين وأهل الحرف المختلفة والطلبة والفقهاء، ولقد شعر هؤلاء المولدين بالغبن ونقص حقوقهم العامة إذ إنهم يتحملون عبء الضرائب دون أن يكون لهم نصيب في ثروات البلاد. والمناصب العليا كانت حكراً على الطبقة الأرستقراطية العربية الأموية الحاكمة. ومما زاد الأمور تعقيداً أن الأمير الحكم كان مثلما رأينا سابقاً من سيرته كان مولعاً بشرب الخمرة وحفلات الرقص ومجالسة الشعراء والندماء فشعر الفقهاء ورجال الدين أنهم قد حرموا من امتيازاتهم القديمة على أيام هشام، فتوترت العلاقة بين الأمير وهذه الطبقة، فأخذ رجال الدين يهاجمونه في خطبهم على منابر المساجد، ويتهمونه بالفجور والفسوق ويحرضون الناس على عزله، ولقد استجاب لندائهم الكثير من المولدين الذين كانوا يشعرون بالغبن والدّونية. فكانوا من خلال هذا الاستياء العام أرادوا أن يحققوا هدفهم الأول في تحسين أوضاعهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فقاموا بثورتين كبيرتين: الأولى قامت في مدينة طليطلة، عاصمة القوط القديمة، وقاعدة الثغر الأدنى، وكان معظم أهلها من المولدين والمستعربين الذين كان هدفهم الاستقلال عن سلطان بني أمية في قرطبة، وكان لسان حالهم الشاعر غريب بن عبدالله الطليطلي الذي كان يثير الحماس لدى مواطنيه ويدعوهم للثورة على الإمارة الأموية.

ولقد اعتمد الثوار على تحصينات مدينتهم بارتفاعها وقوة أسوارها، مما اضطر الحكم إلى استعمال سياسة المكر والخداع، وذلك من خلال تعيينه والياً من المدينة نفسها

وكان هذا الوالي واسمه عمروس بن يوسف من المولدين ولكنه كان مخلصاً للحكم، ثم كتب الحكم إلى أهل طليطلة بأنه قد اختار لهم حاكماً منهم ليطمانهم على تحوّل وتحسّن أوضاعهم، ولقد تظاهر عمروس بكره بني أمية حتى استمالهم إليه، ثم بنى خارج المدينة قلعة جديدة ليقيم فيها المقاتلين بعيداً عن أهل المدينة لعدم إقلاق راحتهم. وبعدها أقام وليمة في هذه القلعة بمناسبة مرور ولي العهد بالمدينة وهو الأمير عبدالرحمن بن الحكم. فدعا إليها جميع أعيان البلد وزعمائهم وبعد حضورهم قام بإعدامهم جميعاً، وألقى بجثثهم في حفرة كبيرة أُعدت سلفاً لهذا الغرض. وبموت هؤلاء الزعماء والأعيان استطاع الحكم أن يسيطر على المدينة لضعف مقاومتها وخضعت تماماً لسلطان قرطبة، وقد سميت هذه المذبحة بواقعة الحفرة عام 181هـ / 797م[1].

ثورة الربض[2] الأولى والثانية

لقد كان لأنباء واقعة الحفرة والمذبحة التي حدثت في طليطلة وقعاً سيئاً في نفوس أهل قرطبة من المولدين، ومن ثم تحولت إلى مشاعر غضب شديد تجاه الأمير الحكم. وقبل أن نبحث في أمر الثورتين اللتين حدثتا في الربض، نشير إلى قوة المولدين في هذه المنطقة والتي جاءت بسبب أن قرطبة منذ زمن تأسيسها أيام الفينيقيين ثم الرومان وبعدهم القوط كانت مدينة ذات نسبة سكانية جيدة. ولما جاء عبدالرحمن الداخل وجعلها حاضرة لإمارته، نزح إليها الكثير من العرب المهاجرين من المشرق، ومن البربر القادمين من المغرب، فأصبحت قرطبة غاصة بالسكان مزدحمة، في إمارة هشام إذ أعاد بناء الجسر الروماني القديم الممتد على نهر الوادي الكبير ليربط المدينة بأرباضها الجنوبية، وقد عرف بجسر قرطبة، وكان لهذا الجسر الأثر الكبير في امتداد العمران إلى ضفة النهر الأخرى المواجهة للمدينة فنشأ حي مكتظ بالسكان عُرف بالربض[3] وامتد من ضفة النهر جنوباً حتى بلدة شقندة، ولقد سكنه الكثير من التجار

---

(1) في حين يقول بعض المؤرخين أنها حدثت عام 191هـ / 807م.

(2) الربض كلمة عامة تعني الحي والجمع ارباض.

(3) لا يزال هذا المكان معروفاً حتى الآن باسم Arrabal.

وأهل الحرف والطلبة والفقهاء وغالبيتهم العظمى من المولدين، ومن هنا نشأت خطورة وقوة المولدين في هذا الحي الذي سنستعرض بالتفصيل لثورتين حدثتا ضد حكم الأمير الحكم في هذا الحي.

فثورة الربض الأولى قامت في سنة 189هـ/ 805م، لأسباب قد تحدثنا عن معظمهما في واقعة الحفرة، ولقد جاءت هذه المذبحة بحق المولدين لتزيد من تفعيل شرارة ثورة الربض، رغم أن مصدر تاريخي[1] كان يعارض هذه الثورة بقوله (كان أهل ذلك الهيج الأشر والبطر، إذ لم تكن ثمة ضرورة من إجحاف في مال أو انتهاك لحرمة ولا تعسف في مملكة، والحال تدل على صحة ذلك، فإنه لم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ولا سخر ولا شيء يكون سبباً لخروجهم على السلطان، بل كان ذلك أشراً وبطراً، وملالاً للعافية، وطبعاً جافياً، وعقلاً غبياً، وسعياً في هلاك أنفسهم، أعاذنا الله من الضلال والخذلان وأسباب البوار والخسران). ولقد كانت شرارة الثورة قد انطلقت من قبل عدد من الفقهاء[2] والذين ألّبوا الناس وقاموا بعقد اجتماعات سرية مع وجهاء المدينة ولقد اتصلوا بمحمد بن القاسم أحد أبناء عم الأمير الحكم فشاوروه في خطتهم للقضاء على الحكم وتعيينه أميراً عليهم كما يشير مصدر تاريخي بالقول (حضر أهل قرطبة وفقاؤها عند محمد بن القاسم القرشي المرواني عمّ هشام بن حمزة وأخذوا له البيعة على أهل البلد.. فاستنظرهم ليلة ليرى رأيه ويستخير الله، فانصرفوا وحضر هو عند الحكم وأعلمه الحال وإنه على بيعته له..)[3] وكان لوشاية هذا المرواني عند الحكم السبب المباشر للقضاء على الثورة. إذ أمر الحكم بالقبض على الثائرين في الحال ولم يتمكن من الفرار سوى عدد قليل منهم، وأمر بصلبهم أمام

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 113. ولعل رأي ابن عذاري هذا فيه إجحاف كبير للحقيقة التي تحدثت فيها المصادر التاريخية المختلفة عن قسوة وطغيان الحكم، وظلم المولدين على المستوى الاقتصادي والحرمان من الحقوق السياسية.

(2) ومنهم يحيى بن مضر القيسي، ومالك بن يزيد التجيبي وأبو كعب بن عبد البر. كما يذكر ابن عذارى نفس المصدر، ص 106.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج 22، ص 32.

قصره وكان عددهم اثنين وسبعين رجلاً. كما أمر بقتل اثنين من أعمامه من أبناء عبدالرحمن الداخل وهما مسلمة المعروف بكليب وأمية اللذان كانا في السجن منذ وصول الحكم إلى منصب الأمير.

ولقد أحدثت هذه الإجراءات المباغتة والسريعة والقاسية بحق المتمردين إلى إخماد هذه الثورة في مهدها. ولكن بذورها لم تمت في نفوس الغالبية، إذ كانت قرطبة على موعد جديد مع ثورة ثانية في 202هـ/ 818م، قادها الفقهاء أيضاً [1]، وبالإضافة إلى الأسباب التي أدت إلى كل ثورات المولدين، فإن الشرارة الأولى لثورة الربض الثانية تمثلت في حادث عابر تصفه المصادر التاريخية بالقول: أن أحد المماليك التابعين للحكم ذهب إلى أحد الحدادين في الربض ليصلح سيفه، فتأخر الحداد في إصلاح السيف بعض الوقت، فحدثت مشادة بينهما أدت إلى قتل الحداد، الذي كان من المولدين، فأثار هذا الحادث غضب أهل الربض، فقتلوا المملوك وأغلقوا المتاجر واتجهوا إلى قصر الإمارة عبر الجسر، وكان الحكم في طريق عودته إلى القصر بعد رحلة صيد فاعترضه بعض المولدين الغاضبين وأسمعوه كلمات جارحة و(شافهه بعضهم بالقول، وصفقوا عليه بالأكف)، فأمر الحكم بالقبض على عشرة من رؤسائهم وقام بصلبهم، فأدى هذا التصرف إلى زيادة الغضب والهيجان الشعبي، وكان أول من ثار أهل الربض القبلي ثم اجتمع إليهم أهل الأرباض الأخرى بالسلاح.

ولقد وصلت أنباء أهل الربض إلى الحكم الذي يقال إنه استقبل هذه الأنباء ببرودة أعصاب وطلب من خادمه زجاجة عطر وأفرغها على رأسه وهو يقول: (من أين يعرف رأس الحكم من رأس غيره؟) وبقدر ما تشير هذه الحكاية إلى تصميم الحكم على قتال المولدين، فإنها تشير أيضاً إلى خوف الحكم وتقديره لقوة المولدين. ثم استدعى رئيس حرسه الخاص وأمره بالدفاع عن القصر، وأمر ابن عمه عبيد الله

---

(1) مثل يحيى بن يحيى الليثي وطالوت بن عبد الجبار وعيسى بن دينار وابن وزير. وذكر ابن الخطيب إنه من جملة الفقهاء الثائرين (جد لنا يعرف بابن وزير، ممن طرحت النوى بركابه، واستقر بطليطلة ومنها تحوّل إلى مستقرنا بلوشة، فكان خطيباً بها، وله يحسب بيتنا من بعد السنة الأولى).

ابن عبدالله البلنسي، باختراق صفوف الثوار والوصول إلى الربض وإشعال النار في البيوت، فاستطاع عبد الله من تنفيذ مهمته وأشعل النار في الربض وعندما رأى الثوار ألسنة النيران تلتهم بيوتهم ومتاجرهم، عادوا مسرعين وبفوضى واضحة لإنقاذ عوائلهم وأموالهم، فاستغل جنود الحكم هذه الحالة، فقاموا بتعقب الثوار وقتلهم فنالوا منهم حتى بلغ عدد القتلى ما يقارب العشرة آلاف مقاتل[1]، ولقد استمرت ملاحقة الثوار ثلاثة أيام كاملة، وقبضوا على رؤوس الثورة فأمر الحكم باختيار ثلاثمائة منهم وصلبهم أمام القصر، وبعد أن انتهت المقاومة، قرر الحكم بعد ذلك هدم الربض وتحويله إلى مزرعة بعد أن (أقسم الحكم بمحرجات الإيمان ألا يمشي عن الربض حتى يدعه دكّاً، فصيّره على عظمه وهوله وأصالة بنائه، مزرعة)[2].

ومن هذه القسوة البالغة التي استخدمها الحكم للقضاء على ثورة الربض، فلقب على هذا الأساس بالحكم الربضي. وتفرق أهل الربض إلى أماكن متفرقة من المغرب والإسكندرية وكريت. ورغم انتصار الحكم واستتباب سلطته في الإمارة، لكن ثورة الربض صارت درساً بليغاً له ولمن جاء بعده على قدرة الشعب الأندلسي على الثورة، وضرورة معاملة الناس بالعدل والإحسان. ولقد استطاع الحكم خلال فترة إمارته من القضاء على العديد من الثورات الأخرى كثورة سرقسطة وثورة ماردة وغيرها من الثورات الصغيرة كثورة جابر بن لبيد في جيّان وثورة البربري في موررور والتي أُخمدتا في سرعة خاطفة[3].

غزوات الحكم

هناك غموض في المصادر التاريخية عن غزوات أمراء قرطبة ومنهم الحكم إلا أننا نستطيع تتبع غزواته في ما تيسّر من هذه المصادر. فكانت أول غزوات الحكم نحو

---

(1) ابن الخطيب، اعمال الأعلام، ص 16.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع، أنظر خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص 146، وما يليها.

الشمال الإسباني في عام 180هـ/ 796م، وهو العام الذي تولى فيه الإمارة. وكانت هذه الغزوة بقيادة الحاجب عبدالكريم ابن عبدالواحد فقد توجه على رأس جيش كبير، في حملة قد اتبعت في خط سيرها وادي الإيبرو، فاستولت على مدينة قلهرّة ثم سارت إلى الشمال فاجتاحت منطقة اشتورياس، إذ يصف ابن عذارى هذه الغزوة بالقول: (احتل عبدالكريم الثغر وتوافدت عليه الجيوش. ثم تقدم فاحتل شاطئ البحر، وقسّم الجيش على ثلاثة أقسام وقدم على كل قسم رئيساً وأمر كل واحد منهم للسيطرة على الناحية التي قصدها ووجه إليها، فمضوا وأغاروا واستباحوا وأباحوا، وانصرفوا غانمين ظافرين، ثم عادوا ثانية إلى الإغارة وجاوزوا خلجاً كانت تحدّ وتحصر، وكان أهل تلك النواحي قد تحرروا بها ونقلوا إليها العيال والماشية والأموال، فأغاروا عليها واحتووا على جميع ما وجدوا فيها وانصرفوا سالمين غانمين[1].

وبعد خمس سنوات من الانقطاع عن الغزو لانشغال الحكم وجيشه بقمع الثورات الداخلية استؤنفت هذه الحملات بإرسال الحكم جيشاً إلى منطقة جليقية، استطاع احتلالها ثم اتجه الجيش بعد ذلك صوب برشلونة فوصل إلى ضواحيها دون أن يستطيع فتحها. ويصف ابن خلدون نتائج هذه الحملة بالقول: (استطاعت أن تثخن في أرض العدو وأن تحرز النصر وتعود إلى قرطبة ظافرة)[2] !

وفي عام 187هـ/ 803م قاد عبدالملك بن مغيث حملة نحو منطقة البه والقلاع[3]، ثم بعد خمس سنوات أرسلت حملة بقيادة هشام عبدالحكم نحو جليقية استطاعت أن تحتل جزءاً من الأراضي التي تحتلها دولة البرتغال الآن، وعادت منتصرة.

وفي سنة 194هـ/ 710م قاد الحكم حملة نحو منطقة وادي الحجارة ويقال أن من أسباب هذه الحملة هي استغاثة امرأة مسلمة وقعت أسيرة في تلك المنطقة كما يقول المقري إن هذه المرأة قالت: (واغوثاه يا حكم، لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا،

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 103.

(2) ابن خلدون، العبر، ج 4، ص 125.

(3) ولم يعرف شيئاً عن تفاصيل هذه الحملة.

فآيمنا وتيمنا)[1]، فأمر الحكم بالتعبئة للحرب فوراً وسار إلى تلك المنطقة فتوغل فيها وفتح حصونها وهدم المعاقل واستطاع أن يأسر عدداً كبيراً من أهل وادي الحجارة، كما استطاع أن يحرر تلك المرأة المسلمة الأسيرة. وآخر غزوات الحكم كانت في عام 200هـ/ 816م والتي اكتفى المؤرخون القدماء بتحديد اتجاهها بقولهم إنها كانت ناحية (وادي آرون)، وهذا أدى إلى حصول اختلاف في وجهات نظر المؤرخين المحدثين حول تحديد موقع ذلك الوادي، فقال بعضهم إنه كان في منطقة جليقية، بينما ذكر آخرون إنه كان في منطقة أخرى تقع إلى شرقي جليقية قريبة من وادي الإيبرو.

ولقد وصف ابن خلدون هذه الحملة بقوله (وفي سنة مائتين بعث الحكم العساكر مع الحاجب ابن مغيث، فأقبل عليه ملك الجلالقة في جموع عظيمة وتناولوا على النهر واقتتلوا عليه أياماً ونالَ المسلمون منهم أعظم النيل، وأقاموا على ذلك ثلاث عشرة ليلة ثم كثرت الأمطار ومدّ النهر وقفل المسلمون ظافرين). في حين يصف ابن عذارى هذه الحملة بقوله (فلما أصبح، نهض عبدالكريم ومن معه إلى فحائض الوادي، ونهض أعداء الله إليهم فقاتلوهم على كل مخاضة فيها، فجالدهم المسلمون عليها مجالدة الصابرين المحتسبين، واقتحم أعداء الله النهر إليهم فاقتتلوا على مخاضته ثم حمل المسلمون عليهم حملة صادقة، فاضغطوهم في المضائق وأدخلوهم على غير طريق، فأخذتهم السيوف والطعن بالرماح، فقتل من المشركين عدد عظيم لا يُحصى كثرة، ومات أكثرهم بالردى، وداس بعضهم بعضاً، وصاروا بعد المطاعنة والمجالدة بالرماح والسيوف إلى القذف بالحجارة وأكثروا الحرّاس بالمخائض ووعّروها بالخشب، وحفروا الحفائر وخندقوا الخنادق ونزلت الأمطار، وكان قد فرغ ما كان للعدو من المرافق، وضاقت الحال أيضاً بالمسلمين، فقفل عبدالكريم ظافراً..)[2].

---

(1) المقري، نفح، ج 1، ص 321. كما ترد هذه العبارة في مصادر أخرى وبصيغ مختلفة، لكنها تتفق على المضمون.

(2) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 12.

الحكم شاعراً

يبدو أن بني أمية رغم قسوتهم وطغيانهم كانوا على درجة مميزة في ملكاتهم الأدبية. ولقد برز منهم أكثر من شاعر وأديب ولعل جدّ الحكم عبدالرحمن الداخل كان أديباً وشاعراً كما عرفنا. ويصف المؤرخون الحكم بأنه كان (فصيحاً، بليغاً، شاعراً، مجيداً)[1]، كما وصفه ابن الخطيب بالقول: (إنه كان على فظاظته شاعراً مطبوعاً، آثر عنه قول الشعر)، ولكن ما نقل من أشعاره قليل.

ومن شعره الغزلي:

قُضُبٌ من البان ماست فوق كثبان ... اعرضن عني وقد أزمعن هجراني

ناشدتهن بحقي فاعتزمن على الـ ... عصيان لما خلا منهن عصياني

ملكنني مُلك مَنْ ذلّت عزيمتُه ... للحب ذُلّ أسيرٍ موثقٍ عاني

مَنْ لي بمغتصبات الروح من بدني ... غصبنني في الهوى عزي وسلطاني

وله في الغزل أيضاً:

ظلّ من فرط حبّه مملوكاً ... ولقد كان قبل ذاك مليكا

أن بكى أو شكى الهوى زيد ظلماً ... وبعاداً يدني حماماً وشيكا

تركته جآذر القصر صباً ... مستهاماً على الصعيد تريكا

يجعل الخد واضعاً فوق تربٍ ... للذي يرتضي الحرير أريكا

هكذا يحسن التذلل بالحبّ ... إذا كان في الهوى مملوكا

ولقد قصيدة نظّمها بعد انتصاره في معركة الربض الثانية:

رأيتُ صدوعَ الأرض بالسيف راقعاً ... وقدماً لأمتُ الشعبَ مذ كنت يافعا

فسائل ثغوري: هل بها الآن ثغرة ... أبادرها مستنضي السيف دارعا

---

(1) نفس المصدر، ص 118.

وشافةً على الأرض الفضاء جماجماً كأقماف شريان الهبيد، لوامعا
تنبيك أني لم أكن عن قراعهم بوان، وإني كنت بالسيف قارعا
وإني إذا حادوا جزاعاً عن الرّدى فلم أكُ ذا حيد عن الموت جازعا
حميتُ ذماري وانتهكتُ ذمارهم ومن لا يحامي ظلّ خزيان ضارعا
ولما تساقينا سجال حروبنا سقيتهم سماً من الموت ناقعا
وهل زدتُ أن وفّيتهم صاعَ قرضهم فوافوا منايا قدّرت ومصارعا؟
فهاكَ بلادي، إنني قد تركتها مهاداً، ولم أترك عليها منازعا

وفعلاً لقد ترك الأمير الحكم إلى ابنه عبدالرحمن إمارة قوية متماسكة، خاضعة لسلطة بني أمية. إذ أن الحكم قد توفي أواخر سنة 206 هـ بعد أن صارع المرض، ويقال إنه قد ندم أواخر أيامه على ما فعله في الربض. وقد أخّر أهل بيته إعلان موته بنفس الوقت إلا بعد أن تقرر أمر الإمارة كاملاً إلى ابنه عبدالرحمن المعروف بالأوسط.

الأمير عبدالرحمن الأوسط

تمثل ولاية هذا الأمير بداية عصر الاستقرار والذي ازدهر في ولاية عبدالرحمن الناصر، وهو الملقب بعبدالرحمن الثاني لأنه كان ثاني ثلاثة[1] حملوا الاسم ذاته. ويكنى بأبي المطرّف، ولقد تميز هذا الأمير بطبعه الهادئ وسياسته اللينة مع الرعية وكان حازماً في الوقت المناسب، إذ أنه كان (ذا همّة عالية) و(أيامه كانت أيام هدوء وسكون)[2]، و(كان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة)[3]. وتميز عهد الأمير عبدالرحمن بفترته الطويلة زمنياً من 206 هـ - 248 هـ كما امتاز الأمير باهتمامه بالأدب والشعر والعلم فقرّب إليه علماء أمثال يحيى بن حكم الغزال وعباس بن فرناس ومن الشعراء عباس بن ناصح وعبدالله بن الشمر إذ كان الأمير مولعاً بسماع الشعر والأدب، مؤثراً له على

---

(1) وهم عبدالرحمن الداخل وهو وعبدالرحمن الثالث أو الناصر.

(2) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 135.

(3) المقري، نفح، ج 1، ص 325.

جميع ملذاته[1]، كما كان مهتماً بالموسيقى والغناء، وكان في مقدمة الموسيقيين الذين احتضنهم الأمير هو علي بن نافع الملقب بزرياب الذي قدم إلى الأندلس من بغداد.

بالإضافة إلى اهتمامه بالعمارة والبناء، إذ أنه (أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة وكسا الخلافة أبهة الجلالة، فشيّد القصور وجلب إليها المياه، وبنى الرصيف وعمل السقائف، وبنى المساجد والجوامع بالأندلس، وعمل الساقية على الرصيف، وأحدث الطرز واستنبط عملها، واتخذ السكة بقرطبة، وفخّم ملكه)[2]، كما شهد عهده رخاءً، اقتصادياً ملحوظاً إذ بلغت أموال الجباية مليون دينار بعد أن كانت ستمائة ألف قبل ذلك. لذا، فإن بعض المؤرخين أطلقوا على عهد الأمير عبدالرحمن بأيام العروس، ولقد نافست قرطبة بغداد ولا سيما في زمن الفتنة بين الأمين والمأمون العباسيين.

وبقدر ما لاحظنا من اهتمام الأمير بشؤون الإمارة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فكان له كبقية الأمويين ولع في الجواري وعطاياه الكبيرة لهن، فلقد أهدى لإحدى جواريه وهي (طروب) مبلغاً كبيراً من المال وعقداً نفيساً بغية مصالحتها بعد خصومة وقعت بينهما، وعندما سمع كلام بعض وزرائه عن عظم هذه الهدية فأجابهم (بأن لابسه أنفس منه خطراً وأرفع قدراً)، وقد امتلكت هذه الجارية التي أصبحت زوجته وأم ولده عبدالله، في موقع مؤثر في السلطة. كما كان للأمير الكثير من الجواري اللاتي حظين بموقع مؤثر في نفس الأمير مثل (مدثرة) التي تزوجها و(الشفاء) و(قلم)...

سياسة الأمير الإدارية

لقد اعتمد الأمير عبدالرحمن الثاني في سياسته الإدارية على أربعة مفاصل مهمة تسير على موازين دقيقة في اختيار الأشخاص الذين سيتولون هذه المناصب الحساسة

---

(1) نفس المصدر، ص 328.

(2) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 83.

والذي يمثل نجاحها في الأداء، نجاحاً للسياسة الإدارية في حكم الإمارة، ومن ثم ضمان تطبيق العدل والمساواة بين الناس.

ففي منصب القضاء كان المعيار الأساسي لشاغله هو العلم والتمسك بمبادئ الدين الإسلامي والعدل وعدم التحيز لفئة دون أخرى من المجتمع، كما أن الأمير تفرّد بتعيين القضاء ولم يسمع رأي الآخرين بهذا الخصوص[1]. وتذكر المصادر التاريخية احترام الأمير عبدالرحمن للفقيه يحيى بن يحيى ولآخرين مثل سعيد بن محمد بن بشير وابن شراحيل المعافري، وأبو عمر بن بشير، وفرج بن كنانة اللدوني، ويحيى بن معمر اللاهاني الأشبيلي، الذي عزله الأمير بعد أن هاجه الفقيه يحيى بن يحيى، ثم تولى القضاء ابن صفوان القرشي الذي عُزل هو الآخر على إثر حادثة قيل أن امرأة قالت للقاضي: (يا بن الخلائف، انظر منّي نظر الله إليك) فلم يستنكر هذه العبارة، فنقل أحد الحاشية للأمير[2] هذه الحادثة بالقول: (تشرك في سلطانك من يتسمى باسمك)، فغضب الأمير من القاضي وعزله، وهذا يؤكد ملاحظاتنا في الحاشية رقم (1) بأن الأمير لم يلتزم بالمعايير التي سنّها لتعيين القضاة، وتوالى على القضاء أحمد بن زياد وبعده ابن عثمان الجيّاني ثم أخاه معاذ وبعده سعيد بن سليمان الغافقي. ولا شك أن تبدّل القضاة يتناسب مع طول فترة حكم الأمير.

أما في منصب الحجابة والوزارة فقد تناوب على هذين المنصبين كبار الشخصيات في ذلك العهد مثل عبدالكريم بن مغيث الحاجب وعيسى بن شهيد، ويوسف بن بخت، وعبدالله بن أمية بن يزيد، وعبدالرحمن بن رستم ومهران بن عبد ربه وغيرهم. وكان من هؤلاء الأسماء من رجال الأدب والفكر والذي كان الأمير عبدالرحمن يحرص على رعايتهم واحتضانهم. وأما منصب الخزانة فقد تولاه عدة ثقاة منهم موسى بن جدير وابن بسيل، وطاهر بن أبي هارون، ومهران بن عبد ربه الذي كان حاجباً. ومن معرفة سيرة هؤلاء الرجال الذين تناوبوا على إدارة المراكز الحساسة

(1) لكن هذه السياسة لم تستمر طويلاً، لأنه اخذ برأي الآخرين في تولية او عزل القضاة.

(2) وهو موسى بن جدير صاحب الخزينة.

في الإمارة وهي القضاء والحجابة والوزارة والخزانة، نعرف أن الأمير عبدالرحمن قد حرص جاهداً على وضع الرجل المناسب في المكان المناسب وهي بلا شك قاعدة إدارية لابد منها لإنجاح السياسة الإدارية العامة للحكم في أي زمان ومكان.

قرطبة وحضارة العراق

سبق وأن ذكرنا بأن عبدالرحمن الداخل قد نقل من دمشق إلى قرطبة مظاهر العمارة الشامية والنخلة التي راح يشاطرها الحزن على وجودهما الطارئ على أرض غريبة وبعيدة، ولكن عهد عبدالرحمن الثاني لم يشهد مثل هذه الأحزان والحساسية العاطفية لكون الأمير قد نشأ وترعرع في الأندلس، فلم يجد حراجة في الانفتاح على بغداد حاضرة العباسيين بعد أن تأثرت الأندلس بالحضارة الشامية والحجازية من قبل. لا سيما وأن العباسيين قد كفوا تماماً عن محاربة بني أمية في الأندلس حتى في زمن هارون الرشيد الذي شهد علاقات جيدة مع شارلمان الفرنسي، إذ يذهب الباحث المعاصر حسين مؤنس إلى الاستعانة بجهود د. عبدالعزيز الدوري الذي خرج من هذه المراسلات والعلاقات والهدايا بين الرشيد وشارلمان، بكونها لم تكن رسمية، وإنما قامت بها جماعات من تجار المسلمين من المغاربة حملوا الهدايا إلى بلاط شارلمان، وزعموا أنها من الرشيد ليحصلوا على تسهيلات وامتيازات تجارية، ليؤكد الباحث رأيه بأن هارون الرشيد لا يمكن أن يتحالف مع ملك نصراني ضد أمير الأندلس المسلم[1]. ولكننا نستطيع أن نقطع بأن العباسيين قد انصرفوا عن متابعة الأمويين منذ زمن عبدالرحمن الداخل، والذي أطلق عليه الخليفة العباسي كما أشرنا سابقاً لقب صقر قريش. لكن الظروف لم تنضج حينها للاتصال ببغداد، وفي عهد الأمير عبدالرحمن الثاني الذي كان عهد استقرار بينما بغداد تشهد تحولات هائلة في عهد الرشيد وما بعده لإعادة الصلة بين قرطبة وبغداد، فبغداد قد شهدت نهضة حضارية شاملة أهّلتها أن تكون حاضرة عالمية، فكان من المنطق أن تتجه الأندلس مثل غيرها من البلدان الإسلامية صوب تلك الحضارة. إذ أن الأمير قد اتبع سياسة الانفتاح على

(1) انظر حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 288.

العراق خلافاً للعزلة السائدة في سياسة أسلافه، ورأى أن يجاري حركة التحديث الجديدة والتي ازدهرت في بغداد، حتى أن الأمير اخذ يقلد الخلفاء العباسيين في مظهرهم وهيبتهم التي اكتسبوها من خلال بُعدهم واحتجابهم عن العامة.

كما فتحت أسواق الأندلس أمام التجار والبضائع العراقية، وخصوصاً الملابس وأدوات الزينة حتى أن الأمير عبدالرحمن، كما تروي المصادر التاريخية، قد اشترى عقداً للسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد بمبلغ عشرة آلاف دينار وأهداه لجاريته السناء[1]، ويعرف هذا العقد بعد الثُبا [2] أي الملتف مثل ثعبان، وقد سرق ضمن الأشياء الثمينة الأخرى التي نُهبت في بغداد إبان الأزمة بين الأمين والمأمون.

كما شهد عهد الأمير الانفتاح على الموسيقى العراقية التي استطاعت أن تحتل الواجهة الفنية وخصوصاً بعد قدوم الموسيقار العراقي الفارسي الأصل علي بن نافع الملقب بزرياب[3] إلى الأندلس، فقد سعى زرياب إلى تعليم الأندلسيين طرقاً موسيقية جديدة في كيفية ابتداء الغناء وإنهائه، وجعل مضراب العود من قوادم النسر بدلاً من الخشب وهو أمر يساعد على نقاوة الصوت وسلامة الوتر. وأضاف وتراً خامساً للعود جعله في الوسط وهو يقابل النفس في الجسد. بينما الأوتار الأربعة الأخرى تقابل الطبائع البشرية الأخرى وهي الدم والصفراء والسوداء والبلغم. وما زال تأثير موسيقى زرياب ماثلاً في الأندلس ودول المغرب العربي.

وعلّم زرياب الأندلسيين طريقة الطهي العراقي، وضرورة الترتيب في تقديم الأطعمة أو كما يقال الآن بـ (الأتكيت). إذ يبدأ الإنسان بالحساء أو المقبلات ثم بالخضراوات واللحوم ثم بالحلوى أو الفاكهة. كما أشار عليهم باستخدام الأواني الزجاجية بدلاً من الأواني الفضية والذهبية.

---

(1) وتذكر بعض المصادر اسمها الشفاء.

(2) ابن عذارى، البيان المغرب. ج 2، ص 136.

(3) زرياب، كلمة فارسية تُطلق على طائر أسود حسن التغريد.

ولم يقتصر زرياب بهذا، فقد علّم القرطبيين طريقة تصفيف الشعر ورفعه خلف الآذان بدلاً من تركه مسدولاً على جباههم وعيونهم. وأشار إليهم بارتداء الملابس في أوقاتها المناسبة من حيث اللون أو الخفّة والثقل. ولقد عُرفت هذه التعليمات والآراء التي جاء بها زرياب باسم مراسيم زرياب. وفي الحقيقة إنها رمز للحضارة الشرقية العراقية التي اجتاحت الأندلس في عهد الأمير عبدالرحمن الثاني، ويُذكر أن الأندلسيين كشعب متحضر لم يقبلوا هذه التجديدات بسهولة لأنهم يتفاعلون مع الحضارات بشكل واعي. ولا يتبعون أي تقليد جديد على عواهنه. وتمثل هذا في معارضة بعض العلماء والوزراء لزرياب أمثال تمام بن علقمة والشاعر يحيى الغزال، الأمر الذي تطلب تدخل الأمير لحماية زرياب وقام بتأنيب تمام بن علقمة ونفى يحيى الغزال. وصالح بين زرياب والوزراء.

ومن المظاهر الحضارية العامة التي شهدها عهد الأمير عبدالرحمن فهي ولع الأمير بالأعمال الإنشائية حتى شُبّه بالخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك، فقد بنى الأمير مسجداً جامعاً في إشبيلية وهو مسجد ابن عَدَبس[1]، ثم بنى مسجداً آخر في مدينة جيان وأقام عدة إصلاحات في جامع قرطبة وعدداً آخر من المساجد سميت بأسماء جواريه[2]، ولم يقتصر عمران الأمير على المساجد فقام ببناء مدينة مرسية على يد جابر بن مالك عامل تدمير بعد أن كانت مرسية قرية صغيرة تابعة لمدينة تدمير على الساحل الشرقي الأندلسي، وقام ببناء سور حجري كبير يحيط بمدينة إشبيلية بعد غارة النورمانديين عليها. أما في قرطبة فأقام على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير طريقاً ساحلياً سياحياً عُرف بالرصيف.

وقد بنى لنفسه قصراً جديداً بجوار قصر الإمارة القديم، وجلب إليه الماء العذب من قمم الجبال المحيطة بقرطبة، وأقام أبراجاً مغطاة بالزجاج الشفاف لتمكنه من رؤية المناظر الطبيعية التي أمامه مثل الوادي الكبير وسفنه الراسية، وصحراء الربض وما

---

(1) على اسم القاضي عمر بن عدبس الذي اشرف على بنائه عام 214هـ.

(2) مثل مسجد طروب ومسجد السناء (الشفاء) ومسجد فجر.

ووراءها من مزارع، والتي كثيراً ما كان الأمير يصعد إلى هذه الأبراج ليمارس هواية النظر إلى جمال الطبيعة الخلابة هناك. ولقد ذكرنا سابقاً مدى شغف الأمير بالآداب والفنون والتي هي أحد أهم المظاهر الحضارية لأي مجتمع. وهنا سنورد قصة الأمير مع العلماء الذين يشكلون ركناً أساسياً في صروح الحضارات إذ كان الأمير يشجع العلماء ويرعاهم وعلى وجه الخصوص عباس بن فرناس[1] الذي كان عالماً بعلوم الرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء. ولعل محاولته في الطيران التي تعتبر أول محاولة للطيران في التاريخ تمثل جانباً من شخصية هذا العالم المتفردة. بالإضافة إلى العلوم كان عباس بن فرناس عالماً باللغة العربية وآدابها. وتورد المصادر قصة تاجر عراقي حمل إلى الأمير عبدالرحمن كتاب العروض للخليل بن أحمد الفراهيدي، فلم يفهمه الأمير حتى أطلع عليه عباس بن فرناس وأقرّ بأن هذا الكتاب غير مكتمل، فأمر الأمير بإحضار الجزء الناقص من العراق، فاستطاع بن فرناس أن يفهمه ويشرحه للناس. وكان أول من درس العروض في الأندلس. فأكرمه الأمير بثلاثمائة دينار وكسوة. ولقد تعرض العالم عباس بن فرناس إلى حملة شعواء شنّتها العامة عليه ووصفوه بالساحر والمشعوذ والزنديق لاشتغاله في علم الكيمياء، لكن قاضي الأمير برّأه من هذه التهم.

الفتن في عهد الأمير عبدالرحمن[2]

لقد ذكرنا أن عهد الأمير قد تميّز بالهدوء والسلام وهذا لا يعني خلوه تماماً من الثورات الداخلية والغزوات الخارجية. وكان الأمير غير مهتم كثيراً بالفتن الداخلية إذ يظل ينتظرها حتى تهدأ من داخلها أو يقوم بإخمادها بأقل خسارة. وكما فعل مع فتنة المضريين واليمنيين التي استمرت سبع سنوات في تدمير والتي سميت مرسيه في الشرق

---

(1) اختلفت المصادر في نسبه، فمنهم من قال إنه إسباني المولد من إقليم رنده، ويرى آخرون أنه مغربي الأصل.

(2) لم نتوسع ونتابع كل الفتن بالتفصيل وللمزيد حول هذه الفتن، انظر مثلاً، حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس. ود. خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس ص 173، وما يليها.

الأندلسي كما مرّ بنا، وكانت تدمير من المناطق المجندة، وكان معظم جنودها من مصر وغالبيتهم من اليمن، ولكن المضريين كانوا يحاولون السيطرة على اليمنية، وهنا قامت الفتنة، فكان الأمير عبدالرحمن يرسل إليهم جيشاً لإطفاء الفتنة بين الحين والآخر، إلا أن الأمر قد تفاقم فأرسل إليهم القائد يحيى بن خلف على رأس جيش كبير استطاع السيطرة على الموقف قرب موقع (لورقه) وانتهت هذه الفتنة عام 213 هـ / 828 م. وكذلك كان موقف الأمير من أهل البيرة الذين قدموا إلى قرطبة للشكوى من ظلم الأسقف والي النصارى هناك، فانتظر أن يهدأوا فلما يأس من ذلك أرسل إليهم جيشاً فانهى تمردهم.

وكان الأمير عبدالرحمن بالإضافة إلى اهتمامه بحسم الفتن الداخلية، كان أيضاً شديد الاهتمام بحماية الحدود الشمالية للأندلس، إذ أن نشاط العدوان على أراضي الأندلس قد تزايد وخصوصاً بعد ولاية (لويس التقي)[1] على عرش فرنسا، وهو من كبار ملوكها، وكانت له أطماع واسعة في إقليم قطلونية، وقد عرف عبدالرحمن بسياسته الصائبة في كسب صداقة البشكونس ضد الفرنسيين، فوقفوا إلى جانبه، واستطاع أن يرد غزوة الفرنسيين على إقليم قطلونية في عام 209 هـ / 824 م.

كذلك كان لملك جليقية واشتورياس الفونسو الثاني نشاط في الهجوم على الأندلس، فاستولى على مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط، فاستطاع القائد عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث من القضاء على جيش الفونسو الثاني في معركة حاسمة في سهل (فج جرنيق) في إقليم ألبه، وقد قتل في هذه المعركة عدد كبير من جيش العدو، ونهبت ذخائره الكثيرة، وألزم القائد الأموي ملك جليقية بدفع الجزية. وكانت هذه آخر غزوة للقائد عبدالكريم الذي يعتبر من أكبر القادة العسكريين الذين ظهورا في الأندلس. فقد ظل طوال أكثر من ثلاثين سنة يدافع عن الأندلس، وأبدى خلال خدمته قدرة عسكرية عالية وإخلاصاً نادراً ولقد أسس تقاليد عسكرية سوف تتبع من بعده، وقد خلفه في قيادة جيوش الإمارة أمية بن معاوية بن هشام واستطاع أن يواجه

---

(1) أو لويس الحليم.

ثورات كثيرة في مناطق شتى من الأندلس، من بينها حملته على اليمنية في إقليم تدمير، إذ عاد رئيسهم إلى التمرد ودعا إلى الخلافة العباسية فتمكن أمية من هزيمته بالقرب من لورقة بعد ذلك بسنتين وكان الأمير عبدالرحمن لا يتوانى بقيادة الحملات العسكرية بنفسه في معظم الأحيان، فاستطاع أن يحمي حدود بلاده في ألبه والقلاع وأراضي البشكونس وإقليم قطلونية، وفي عام 228 هـ / 843م استطاع هزيمة قوات إمارة نبرة وفي نفس السنة توفي الفونسو الثاني[1] ملك جليقية بعد 51 سنة من الحكم ومعاداة المسلمين في الأندلس.

وهناك خطر كان يهدد أراضي الأندلس تمثل في غزوات قاموا بها النورمان[2] وهم القراصنة الذين كانوا يأتون من الجهات الشمالية في أوروبا وبالتحديد من البلدان الإسكندنافية، أطلقوا عليهم اسم النورمان والمؤرخون العرب القدماء لقبوهم بالمجوس، وكانوا هؤلاء القراصنة من أجرأ القرصان وأكثرهم وحشية لا هَمَّ لهم سوى السلب والنهب، وكانت غاراتهم مرعبة في أساطيل متكونة من سفن صغيرة ذات أشرعة سوداء. بدأوا بمهاجمة لشبونة ثم قادس وشذونة وجزيرة قبطيل ثم تابعوا سيرهم إلى قورة وصعدوا إلى طلياطة والتي تبعد ميلين عن اشبيلية ووصلوا اشبيلة دون أن تستطيع المراكب والسفن العربية من اعتراضهم، فسلبوا ونهبوا واحرقوا المساجد وقتلوا الشبان والشيوخ والنساء[3]. حتى استطاع الأمير عبدالرحمن من التصدي لهم بعد أن جهّز الاستعدادات الكافية لمواجهة ذلك الخطر وحدثت معركة حاسمة قرب قرية طلياطة سنة 230هـ / 844م استطاع جيش الأمير من هزيمة القراصنة وقتل الكثير منهم وأسر ما لا يقل عن أربعمائة قرصان وأعدموا على

(1) الملقب بالكاستو أي العنيف.

(2) أو النورمانديين أو الأردمانيين.

(3) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 131.

الساحل. وانزاح خطرهم فهدأت أحوال الإمارة. وبناءً على هذا التحدي النورماندي أمر الأمير ببناء سور حول أشبيلة وأقام داراً لصناعة السفن وأصلح ما خرّبته الحرب.

وعندما أدرك النورمانديون قوة تلك الإمارة الإسلامية، أرسلوا وفداً للمصالحة مع هدية للأمير وبادل الأمير هذه المبادرة بإرسال وفداً وإرسال وهدايا فكان الصلح بينهما وهكذا انتهى آخر خطر كبير واجهته الإمارة.

نهاية الأمير المؤلمة

بعد حياة امتدت لاثنين وستين عاماً وإمارة امتدت لإحدى وثلاثين سنة ونيف، كانت حافلة بالإنجازات والمخاطر كما رأينا، لكن نهاية هذا الأمير كانت مؤلمة ومليئة بالدسائس والمؤامرات التي شهدها قصر الإمارة. نتيجة منطقية للحياة الخاصة لهذا الأمير المزواج إذ بلغ عدد أبناءه بين الذكور والإناث إلى ثمانين. وتذهب بعض الروايات التاريخية إلى أن الأمير كان يشعر بمشكلة خلافته وهذا ما جعله لا يوصي لأحد من أبنائه، في حين تشير روايات أخرى إلى أنه قد أوصى إلى ابنه محمد ليكون خلفاً للإمارة.

ولعل أبرز قصة للمؤامرة على حياة الأمير، كانت على يد جاريته الأثيرة إلى نفسه (طروب) والتي حاولت أن يكون ولدها عبدالله ولياً للعهد لكنها أخفقت في تحقيق هذه الرغبة، لأن المرشح الساخن لخلافة الأمير والمعروف بين الناس هو ابنه الأكبر محمد. فاتفقت طروب مع شخصية مهمة في الإمارة وهو نصر الخصيّ قائد الحرس والقصر على التخلص من الأمير وولي العهد معاً وذلك بقتلهما بالسم. ولكن هذه الحادثة قد تم اكتشافها من قبل أحد نساء الأمير وهي (فجر) وبعد هذه الحادثة بسنتين توفي الأمير عبدالرحمن سنة 238هـ / 852م. وخلفه ابنه الأكبر محمد أميراً على قرطبة.

عصر الاضطرابات

- الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم.

- الأمير المنذر بن محمد.
- الأمير عبدالله بن محمد.

لقد سبق وأن رأينا سير الأمور في إمارة الأندلس بعد عبدالرحمن الداخل، وكيف استطاع الأمراء الثلاثة والذي كان آخرهم عبدالرحمن الثاني من تثبيت دعائم الإمارة وإحلال السلام فيها وشيوع مظاهر الحضارة في مختلف نواحي الحياة، فكانت قرطبة في عهدهم قوة مركزية دانت لها كل الأقاليم بعد أن نجح الأمراء من إخماد الثورات والفتن الداخلية، وأوقفوا الغزوات والتوسع المسيحي في قلب الأندلس، كما حافظ الأمراء السابقين على التفوق السياسي والعسكري للإمارة. وكان لجهودهم في المحافظة على أسباب القوة وتنميتها السبب المباشر في بقاء الإمارة تعيش بسلام وسط كل الظروف الصعبة والتي تحيط بقرطبة، فلما توفي عبدالرحمن الثاني تولى من بعده الحكم أمراء ضعفاء مهزوزين بدءً بالأمير محمد بن عبدالرحمن والتي امتدت ولايته من 248هـ - 273هـ وخلفه الأمير المنذر بن محمد من 273هـ - 275هـ، ثم خلفه الأمير عبدالله بن محمد 275-300هـ[1]. وكانت مدة حكمهم تقدر بنحو 62 عاماً، كانت حافلة بالاضطرابات السياسية والفتن والثورات وقيام دويلات مستقلة قد رفعت راية العصيان عن سلطة الحكومة المركزية في قرطبة. حتى أصبح الأمير لا تمتد صلاحياته وأوامره إلا في قرطبة ونواحيها فقط. وهكذا أحاطت المخاطر بالإمارة الأموية وتفككت وحدتها السياسية، ويعلل ابن الخطيب[2] هذا التشرذم والتمزق الذي أصاب الإمارة الأندلسية في عهد هؤلاء الأمراء الثلاثة بالأسباب التالية:

1. منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقاربتهم للنصارى في الشمال.
2. علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطاعة، إذ كان منهم الإشراف الذين يأنفون الخضوع والإذعان.

---

(1) لذا ارتأينا أن ندرسهم كموضوع واحد للتشابه الكبير في الظروف التي عاشوها كما فعل ذلك بعض الباحثين.

(2) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 41.

3. الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى ملوك النصارى الذين كانوا يحرصون على ضرب المسلمين بعضهم ببعض.

الواقع أن المجتمع الأندلسي لم يكن في تلك الحقبة التاريخية شعباً واحداً، بل كان يضم في تركيبته السكانية شعوباً وأجناساً متعددة، فبالإضافة إلى سكان البلاد الأصليين وهم الغالبية، الذين ينقسمون إلى قسمين: المولدين المسلمين والمستعربين المسيحيين. وهناك العرب الفاتحون وهم الأقلية من حيث العدد، وهم ينقسمون أيضاً إلى عرب الجنوب وعرب الشمال، ولقد شهدنا صراعاتهم التقليدية على مرور تاريخهم في الأندلس، وهناك من الفاتحين البربر وهم أكثرية الفاتحين عدداً، يضاف إليهم شعوب الولايات الشمالية الإسبانية مثل سكان جليقية، والبشكنس سكان نافارا والجبال الشمالية، والقطلان سكان قطالونيا، وغيرهم. فهؤلاء الأقوام والأجناس يمثلون طبيعة المجتمع الأندلسي الذي لا يمكن السيطرة على هذا التنوع العرقي والديني إلا بوجود قوة مركزية كالتي كانت عليها الإمارة في العهد السابق، أما عهد هؤلاء الأمراء فقد قلنا إنه شهد ضعف مركزية الإمارة، فلابد أن تظهر إلى سطح الواقع المطامع ونزعات الاستقلال. ولقد استغلت هذه العناصر المتنوعة الظرف الذي تعيشه الإمارة بعد وفاة الأمير عبدالرحمن الثاني فأخذوا يؤسسون عدة كيانات مستقلة عن الإمارة المركزية في قرطبة. فالمولدون أعلنوا عن تشكيل دويلات مستقلة ثلاث، الأولى: إلى بني موسى في منطقة سرقسطة أو الثغر الأعلى التي كانت ثغراً على أرجوان وقطالونيا في شمال شرق إسبانيا. والثانية: إلى بني مروان الجليقي وقد استقلوا بولاية بطليوس في غرب إسبانيا. والثالثة: لبني حفصون وزعيمهم عمر بن حفصون وقد استقلوا في المرتفعات الجنوبية الإسبانية الممتدة بين مدينتي رندة غرباً ومالقة شرقاً وكانت قاعدتهم قلعة ببشتر. وكذلك كان الحال مع زعماء البربر فقد استقل بنو ذي النون في طليطلة وبنو الملاخ في مدينة جيان. ومن العرب إبراهيم بن حجاج في إشبيلية وقرمونة. وهكذا أصبح حال الأندلس في ظل الأمراء الثلاثة.

موجز للمشهد السياسي في عصر الاضطرابات[1]

بعد أن تولى الأمير محمد بن عبدالرحمن الإمارة واجه أول ثورة من قبل أهل طليطلة التي كانت بحكم موقعها الجغرافي وغالبية سكانها من المولدين تعتبر معقلاً للثورات. فقد ثارت قرطبة وقام أهلها بسجن عامل الأمير عليها، مقابل أن يطلق الأمير رهائنهم من سجن قرطبة، فوافق الأمير وامتثل لشروطهم، ولكنهم لم يكتفوا بهذا فهجموا على قلعة رباح وأرغموا قوتها على الانسحاب، فبعث الأمير أخاه الحكم على رأس جيش لمعالجة الأمر في طليطلة عام 279هـ فاستطاع استرجاع قلعة رباح وأمر ببناء سورها وأرجع من هرب منها. كما جهّز الأمير قائديه قاسم بن عباس وتمام بن أبي العطاف للسير إلى شنتله فلما اقتربا من اندوجر، باغتتهم قوات من طليطلة وألحقت بهما هزيمة قاسية. وسعى أهل طليطلة إلى أردون بن ردميرة ملك اشتوريش لتقديم المساعدة لهم، فلم يتردد بإسعافهم بكل الوسائل لأن مصلحته كانت تقتضي بإشعال نيران الحرب الأهلية في الأندلس. وبقي مشهد الكرّ والفرّ والمساجلة العسكرية والمواجهات المتكررة بين أهل طليطلة وجيش الإمارة، إلى أن خرج الأمير محمد بنفسه عام 244م إلى طليطلة بعد أن أنهكتهم المنازلات فاستطاع أن يهزمهم، وبالتالي تم الصلح معهم. ومن ثم أعيدت كرّة المنازلات بعد عشر سنوات وأخيراً انتهت ثورتهم بعدما انتصر أهل طليطلة للوالي طربيشة بن ماسديه الذي انفرد بالولاية بعد إقصاء أخ الأمير مطرف بن عبدالرحمن.

ثم جاء دور مدينة ماردة التي أعلنت الثورة وتنازعت مع إمارة قرطبة لعدة سنوات إلى أن أرسل الأمير محمد ابنه المنذر عام 263هـ على رأس جيش كبير واستطاع أن يرغم القوات المعادية إلى الهروب في المرتفعات والتحصّن في جبل أشبرغوزة، إلى أن حصل ابن مروان استقلاله في بطليوس.

---

(1) للمزيد من التفصيل: انظر د. خالد الصوفي، تاريخ العرب، 248، وما يليها.

وتتوالى الثورات في سرية وعمروس الوشقي في وشقه وفي تطليه وسرقسطة، وفي منطقة ريه والجزيرة وتاكرنا وفي مدينة الحامة، وكانت أخطر الثورات هي التي قام بها عمر بن حفصون في قلعة ببشتر عام 267هـ والذي استمر بالعصيان حتى أرسل الأمير هاشم بن عبدالعزيز من أجل مواجهة بن حفصون والذي استطاع هزيمته فعلاً سنة 280هـ وأسر الكثير ومنهم حفصون وسار بهم إلى قرطبة إلا أن بن حفصون استطاع الهرب. واستطاع المنذر أن يحرز الانتصار على خصوم الإمارة، إلا أن وفاة الأمير محمد سنة 272هـ / 886م قد جعلته يعود إلى قرطبة ويستلم منصب الإمارة. ولم يكن عهد هذا الأمير بأحسن حالاً من سابقه، إذ أن هيبة الإمارة وقوتها المركزية قد بلغت حداً خطيراً من التدهور، واستمرت الحروب والفتن. وعلى المستوى الإداري، فقد عزل المنذر وزير أبيه هشام بن عبدالعزيز وسجنه وقتله أخيراً، مما زاد الأمور تعقيداً، فقد برز بن حفصون من جديد واستطاع أن يجمع أتباعاً من اهالي الحصون الواقعة بين ببشتر وحتى الساحل. ويستفحل خطره حتى اضطر الأمير إلى السير شخصياً إليه واستطاع حصار قواته لمدة 43 يوماً في ببشتر، إلا أن الأمير لقي حتفه ونقل جثمانه إلى قرطبة، ليتولى الأمير الثالث في عصر الاضطرابات وهو عبدالله بن محمد منصب الإمارة. وكانت الظروف المحيطة بالإمارة تسير من سيء إلى أسوء، فقد مزقها الانشقاق والفتن. وأتعبتها الحروب، فهناك ابن حفصون يمثل الخطر الأكبر على الإمارة بعد أن استولى على أكبر مدن الجنوب، وصار يهدد العاصمة قرطبة. وهناك ابن الحجاج الذي استقل بأشبيلية وقرمونة، وعبدالرحمن بن مروان الجلقي ببطليوس، وعبدالله بن أبي الجواد بباجة، وابن سليم بشذونة وغيرهم الكثير على مختلف مناطق الأندلس خارج قرطبة. فقد ظلّ الأمير عبدالله يقارع هذا الطرف ويهادن ذاك حتى توفي سنة 300 هـ وبنهايته يكون عصر الولاة بعد عبدالرحمن الداخل قد انتهى ليبدأ عهداً جديداً سيشهد انتعاشاً واضحاً لدولة الأمويين كما سنرى في الفصل القادم.





- الخلافة الأموية في الأندلس
- عبدالرحمن الثالث خليفة في قرطبة
- سياسة عبدالرحمن الثالث
- علاقات الخلافة مع الدول الأوروبية
- المظاهر الحضارية في قرطبة
- الخليفة الحكم الثاني (المستنصر بالله)
- الأخطار التي واجهت قرطبة
- علاقة الخلافة مع الدولة الإسبانية

الفصل السادس

الأمير عبدالرحمن الثالث (الناصر)

تشير الأحداث التي مرت بها الأندلس في عصر الاضطرابات إلى الشلل الكامل الذي أصاب قوة الإمارة في قرطبة، فأصبحت لقمة سائغة للطامعين والطامحين بها. لذا، فإن نهاية هذا العهد تتطلب وجود قائد حازم يتولى شؤون الإمارة الأموية المتداعية، ولقد شكّل اختيار الأمير عبدالرحمن الثالث كأمير لقرطبة الاستثناء الأول للنظام المتبع للإمارة في تداول الحكم. إذ أن عبدالرحمن لم يكن أبناً للأمير السابق عبدالله، وإنما كان حفيده، ووفق لنظام تداول حكم الإمارة لا يمكن للحفيد أن يكون أميراً بوجود عدد من الأعمام. كما أن الأمير عبدالله قد ترك أولاداً كثيرين يستحقون خلافة أبيهم. والسؤال الجدير بالطرح لماذا تخلى الورثة الشرعيين - وفقاً لنظام الإمارة - لعبدالرحمن الثالث عن حقهم بالإمارة؟

من المعلوم تاريخياً أن والد عبدالرحمن وهو الأمير محمد، قد توفى في حياة أبيه عبدالله، وهناك رواية تشير إلى أن محمداً حاول الثورة على أبيه والانتصار إلى حركة ابن حفصون - الذي أشرنا إلى خطورتها - فأمر الأب إلى ابنه المطرف بقتل محمد أخاه. وكان عبدالرحمن وقتها طفلاً فتعهد جدّه عبدالله بتربيته فأحسن التربية واهتم به اهتماماً كبيراً وصار يفضله على أبنائه. وهكذا توفر لعبدالرحمن البيئة المناسبة لإعداد رجل يتميز بصفات طيبة اهلّته للترشيح للإمارة بالإضافة على مواصفاته الفردية واستعداده الفطري للقيادة.

وهناك سبب وجيه لاختيار عبدالرحمن للإمارة هو اضطراب وسوء الحالة العامة التي تعانيها الإمارة الأموية كما رأينا جعلت من أعمامه العزوف عن الطمع في منصب لا يضيف لهم جاهاً ولا مالاً بالإضافة إلى إن هذا المنصب قد يكون نهاية كل منهم. فآثروا أن يكون عبدالرحمن هو المرشح خدمة للمصلحة العامة كما يشير أحد المصادر الحديثة[1].

ولقد بدأ عبدالرحمن الثالث عهده بسياسة المصالحة مع جميع أطراف النزاع، إذ أصدر رسالة عامة إلى جميع الأطراف، يدعوهم فيها إلى العودة إلى الوحدة ونبذ الفرقة ويعدهم إذا ما استجابوا لطلبه هذا بأن يمنحهم امتيازات مادية ومعنوية كبيرة، وإلا فإن القتال والتشريد ومصادرة الأموال هو عقاب الذين لم يستجيبوا لنداء المصالحة والوحدة. ولقد حظيت دعوة عبدالرحمن بترحيب عام ما عدا أقلية صغيرة كان من بينها بني حفصون، وخصوصاً وأن تأثيرهم قد فقد بريقه بعد موت قائدهم عمر بن حفصون، واستطاع عبدالرحمن من هزيمتهم. وخلال سنوات قليلة استطاع عبدالرحمن أن يوحد الأندلس ثانية تحت قوة قرطبة المركزية ويعيد لها السيادة الإسلامية.

وهنا يثار سؤال عن السرّ في هذا التحول الجديد في مركز الإمارة وبهذه المدة القصيرة؟

والجواب على هذا السؤال هو إننا نرى أن عبدالرحمن الثالث لا يملك عصاً سحرية للوصول إلى هذه الانتصارات الباهرة، بقدر ما كانت الظروف الموضوعية والذاتية لأطراف النزاع مهيأة لقبول مبادرة عبدالرحمن، الذي استغل الوقت المناسب لإصدار رسالته. وهو وقت قد ملّت الناس فيه من كثرة الحروب والكرّ والفرّ التي شهدتها حروبهم الطاحنة على طول عهد الأمراء الثلاثة في عصر الاضطرابات. كما أن جهود أمراء عصر الاضطرابات قد انصبت جميعها على مقاومة وقتال المنشقين مما أدى إلى إضعاف قوتهم. واستطاع عبدالرحمن بعقله الراجح من قراءة هذه العوامل

(1) د. احمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 277.

مجتمعة والوصول إلى اتخاذ قرار المصالحة الذي كان الحل المناسب لحسم النزاعات بعد أن ضمن حقوق جميع الأطراف. فما أرادوه في الحرب ولم يتحقق بشكل كامل، قد حصلوا عليه عن طريق السلام والعودة إلى طاعة السلطة المركزية في قرطبة.

عبدالرحمن الثالث خليفة في قرطبة

على عكس سيرة أسلافه في حمل لقب الأمير والتي بدأت منذ عهد عبدالرحمن الداخل، فقد رأى هذا الأمير الشاب أن يتقلد لقب (خليفة)، مظاهياً بذلك الخلفاء العباسيين، وهو أمر لم يجرأ عليه أحد سواه، إذ أن الأمراء الأمويين في قرطبة قبله كانوا قد اكتفوا بلقب أمير وأن قطعوا الدعوة إلى العباسيين على منابرهم[1]، ويعلق د. أحمد مختار العبادي على هذا التحول بقوله: (ينبغي أن نقف هنا وقفة قصيرة لنناقش البواعث الخفية والظاهرة التي جعلت عبدالرحمن يُقدم على إقامة خلافة سنّية جديدة في غرب العالم الإسلامي رغم وجود خلافة أخرى قديمة بالمشرق وهي الخلافة العباسية، لقد سبقت الإشارة إلى أن أمراء بني أمية الذين حكموا قبل الناصر.. اكتفوا بتلقيب أنفسهم بأبناء الخلائف.. غير أن مصلحة العمل وتغير الظروف السياسية بعد ذلك، حتّمت الخروج عن ذلك الأصل النظري ووضعه محل الاجتهاد، ومن ثم أجاز السنيون لأنفسهم بتعدد الخلافة ما دامت هناك مصلحة تقتضي بذلك. واعترفوا بشرعية إمامين يتوليان الحكم في وقت واحد على شرط أن تكون بينهما مسافة كبيرة ومساحة شاسعة لمنع الاصطدام والفتنة بين المسلمين. وقد يؤيد ذلك ما رواه صاحب كتاب الحلل الموشية من أن الأندلسيين أنفسهم قد طلبوا من الأمير عبدالرحمن الثالث أن يكون خليفة وبايعوه على ذلك، وحمّلوه على حمل هذين الاسمين: أمير المؤمنين والناصر لدين الله، وصاروا يخاطبونه باسم خليفة قبل إعلانه رسمياً، وكل هذا يدل على أن نظرية الخلافة السنّية قد تكيّفت تكيفاً جديداً تبعاً للواقع وللضرورة السياسية

---

(1) لقد أوضحنا سبب هذا الاختيار عند حديثنا عن عهد عبدالرحمن الداخل.

ومصلحة المسلمين. والنظريات الناجحة هي التي تتبع الواقع وتتأثر به)[1]. والواقع إن هذا التفسير يبدو صالحاً لتبرير قبول الفقهاء في قرطبة لهذا التحول في اتخاذ لقب خليفة من قبل الأمير عبدالرحمن الثالث ولكنه غير ملزم للخلفاء والفقهاء العباسيين العلويين، لأنهم لم يرتضوا أصلاً بفكرة وجود إمارة أموية خارج سلطانهم في بغداد، لولا وجود عوامل عديدة مررنا عليها سابقاً. ثم إن الدكتور العبادي يشير إلى أن الأمير (قد أقدم على أمر خطير وهو تلقبه بلقب خليفة) فما هو وجه الخطورة إذا كان هذا الأمر جاء متوافقاً مع المرونة الشرعية في نظرية الخلافة السنّية ؟ ثم أن العديد من المصادر التاريخية ومنها ابن عذارى الذي ذكره العبادي[2] تشير إلى أن عبدالرحمن هو الذي قرر هذا الأمر بنفسه بعد أن دانت له جميع المناطق خارج قرطبة إذ يقول ابن عذارى (أنه في سنة 316هـ / 929م قرر عبدالرحمن بن محمد أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات عنه في جميع ما يجري ذكره فيه، بأمير المؤمنين لما استحقه من هذا الاسم، فعهد إلى أحمد بن بقي القاضي صاحب الصلات بقرطبة، بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة بذلك. وفي اليوم التالي، ذي الحجة سنة 316هـ أصدر الخليفة الجديد منشوراً عاماً إلى عمّاله في الكور والمدن الأندلسية يقول فيه: وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا، وردودها علينا كذلك، إذ أن كل مدعو بهذا الاسم غير منتحل له ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه منه. وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه، واسم ثابت أسقطناه، فامر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله). وبهذا المرسوم الصادر من عبدالرحمن الثالث، أصبح الأمير خليفةً للمسلمين، ولو أمعنّا النظر في قراءة هذا المرسوم الصادر من عبدالرحمن الثالث سنجد الأسباب التي دعته لاتخاذ هذا القرار. فهو يرى أن لقب الخليفة هو حق ثابت للأمويين تمادوا في تركه وإضاعته، فهو إذ يستعيد حقاً لا أن يجتهد فقهياً لمسايرة تغيرات جديدة. ولا يكتفي

(1) د. أحمد العبادي، في التاريخ العباسي، ص 379-380.

(2) نفس المصدر، ص 378.

عبدالرحمن بهذا الحق المستعاد بل إنه قد حصره به وحده فهو الخليفة الشرعي للمسلمين، وغيره هو منتحل ومغتصب للقب الخلافة، ولا يستثني من هذا الخلفاء العباسيين أنفسهم. وهذا أمر يدل على معرفة عبدالرحمن بضعف الخلافة العباسية التي تناهبتها الأهواء التركية في أيام المقتدر. كما أن لقب الأمير كان بالنسبة لعبدالرحمن يمثل مرحلة ضعف المكانة السياسية للأمويين في الأندلس. سواء إزاء العباسيين أولاً، وإزاء أهل الأندلس ثانياً. فلابد من استعادة هيبة الحكم ولا سيما بعد أن نجح في القضاء على مناوئيه. لذا نرى أن قضية لقب الخلافة قد كانت قضية سياسية بالدرجة الأولى، نضجت لها كل الظروف في عهد عبدالرحمن الثالث واستطاع استغلالها على الوجه المثل. والدليل على أن الخلافة سياسية فقد كان النظام في الخلافة الأموية الأندلسية يقوم على أساس الوراثة بشرطها السياسي وليس الديني. ولكن الحق يقال، أن الخلافة الأندلسية قد اتسمت بقدر معقول من الحرية في مناقشة الخليفة أو تعرضه للنقد من قبل رجال الدين على عكس الخلاف العباسية التي كانت في أوج قوتها تستمد من الدين مكانتها السياسية، فالخليفة العباسي في العصر العباسي الأول كان خليفة الله في الأرض[1]، وبعدها بلغ الخليفة العباسي هارون الرشيد من العظمة وهو يخاطب غيمة في السماء (ليقول: اذهبي أينما شئت فخراجك ليّ). فإذا كان العباسيين في أمر السماء هكذا فكيف سيكون حالهم مع رعية الأرض !!؟

فالخلافة الأموية في الأندلس اتسمت بهامش الحرية ومما تذكره المصادر التاريخية أن الخليفة عبدالرحمن قد شهد معارضة شديدة تزعّمها قاضي قرطبة المنذر بن سعيد البلوطي، بعد أن بنى الخليفة مدينة الزهراء، وأخذ القاضي يُعرّض بالخليفة في مسجد الزهراء أيام الجمعة، حتى أن الخليفة قد شكا لولده الحكم من هذه المعارضة قائلاً (والله لقد تعمّدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي فزعزع قلبي وكاد بعصاه يقرعني)، ثم أقسم الخليفة بالا يصلي وراء المنذر في صلاة الجمعة أبداً، وتحوّل للصلاة وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة في

(1) مثلما كان يقول أبو جعفر المنصور (إنما أنا سلطان الله في أرضه).

قرطبة[1]. وهذا يدل على تساهل الخليفة وليونته أمام معارضيه ونقّاده. وأن الخلافة الأندلسية لم تقم على أساس الحق الطبيعي الموروث الذي سلكته الخلافة العباسية.

سياسة عبدالرحمن الثالث (الناصر)

لقد واجهت الخلافة الأموية في عهد عبدالرحمن الناصر عدة مخاطر خارجية هددت مستقبل الخلافة حتى كادت تطيح بها. استطاع الخليفة من التعامل معها بعقلية سياسية راجحة سوف نتعرض لها بعد قليل. وتكاد المصادر التاريخية والحديثة تُجمع على إجمال هذه المخاطر على النحو التالي:

1. الخطر النورماندي.
2. الخطر الفاطمي.
3. الخطر المسيحي الإسباني.

الخطر النورماندي

يعود هذا الخطر إلى أيام الأمير عبدالرحمن الثاني، إذ قام النورمانديون بغارات نهب وسلب وقتل[2] في مناطق عديدة من الأندلس. وما قام به الأمير من الاهتمام بالصناعة الحربية البحرية. فقد تابع عبدالرحمن الناصر ومنذ بدء خلافته بالاهتمام بالقوة البحرية وبناء الأساطيل ويذكر ابن خلدون في هذا الشأن: (انتهى في أيامه إلى مائتي مركب أو نحوها)[3]. وبذلك، استطاع الخليفة أن يجهز الموانئ بالسفن والعتاد والجنود، وأصدر أوامره إلى هذه السفن بفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق، ومنع وصول الإمدادات من ساحل أفريقيا الشمالية إلى الثائر الأندلسي ابن حفصون الذي تحالف مع الدولة الفاطمية في المغرب. ويذكر ابن عذارى عن هذه الإمدادات الفاطمية بقوله: (في سنة 301هـ ألفيت للمشرك عمر بن حفصون مراكب

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج 2، ص 106.

(2) لقد وضّحنا أمرهم في الحديث عن عهد الأمير عبدالرحمن الثاني.

(3) ابن خلدون، المقدمة، ص 278.

في البحر كانت تميره من العدوة المغربية، فأحرق جميعها)[1]. اما الخطر النورماندي في عهد الخليفة الناصر فيذهب باحث معاصر[2] إلى أن المصادر لم تذكر ما يفيد بأنهم قاموا بغارات بحرية على السواحل الأندلسية في أيامه. إلا أنه يلاحظ أن الخطر النورماندي اتخذ طابعاً مستقراً ثابتاً حينذاك نتيجة لاتخاذهم قاعدة بالقرب من ثغور الأندلس الشمالية وسواحلها الغربية في ولاية نورمانديا غرب فرنسا. وتاريخ هذه القاعدة يرجع إلى سنة 300هـ / 912م، أثناء المنازعات التي قامت بين أفراد الأسرة الكارولنجية، إذ يروى أن ملك فرنسا شارل الثالث، أعطى للزعيم النورماندي رولون هذه الولاية والتي عرفت باسم نورمانديا. ولقد اعتنق هذا الزعيم المسيحية وغيّر اسمه إلى روبرت.

وقد شكلت هذه الولاية النورماندية الدنماركية خطراً كبيراً على الأندلس عن طريق الحملات البحرية التي كانت تنطلق من موانئها وتقوم بالغزو جنوباً على السواحل الغربية، كذلك عن طريق حملاتها البرية التي كانت تعبر جنوب فرنسا لغزو الثغور الأندلسية الشمالية. إلا أن ابن عذارى يشير إلى أن الغزوات النورماندية على سرقسطة كانت على عهد الخليفة عبدالرحمن الثالث، إذ يقول: (وسجل أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر ليحيى بن محمد بن عبدالملك على بربشتر والقصر في سنة 330هـ / 942م، فكان بها إلى أن أسره المجوس الذين خرجوا إلى ثغر لاردة وسرقسطة، في يوم السبت لثمان مضين من شوال من العام المؤرخ 330هـ ففداه رجل من التجار بألف مثقال، وقدم يحيى إلى سدة أمير المؤمنين عبدالرحمن، فأمر للذي فداه بتضعيف ما أداه فيه، وصرفه إلى بربشتر فدخلها سنة 331هـ)[3]، ويبدو أن غزوات النورمانديين على الأندلس في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر قد اتخذت طابعاً برياً.

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج2، ص 247.

(2) د. احمد العبادي، في التاريخ الأندلس، ص 411.

(3) ابن عذارى، ص 72.

الخطر الفاطمي

بعد أن تأسست الدولة الفاطمية في المغرب، متخذة من المذهب الشيعي منهجاً لسياستها، بفضل جهود الداعية أبو عبدالله الشيعي المؤسس الأول للدولة الفاطمية بالمغرب. بعد أن سبقه إلى المغرب دعاة أحدهما يُعرف بالحلواني وآخر يُعرف بأبي سفيان، إذ يروى أن الإمام جعفر الصادق أوفدهما إلى المغرب وقال لهما: (إن المغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر). وبعد أن استقر الأمر للخليفة المهدي في الغرب صار هدفه غزو الأندلس لجعل المغرب الإسلامي كله خاضعاً للتشيع الفاطمي[1] حتى يصبح العالم الإسلامي منقسماً إلى قسمين قسم شرقي تابع للخلافة العباسية وغربي تابع للخلافة الفاطمية الشيعية[2]. والواقع أن وجود خلافتين إسلاميتين مختلفتين في المذهب ومتجاورتين جغرافياً لابد أن يشكل سبباً في صراعهما. وهو ما حدث فعلاً، إذ قام الفاطميون للتمهيد لمذهبهم في الأندلس، مستخدمين الجواسيس والدعاة الذين كانوا يقصدون الأندلس متخفين تحت ستار التجارة أو السياحة أو طلب العلم، وكان لهؤلاء الرجال مواهب متميزة وخبرة في التعامل مع شرائح المجتمع الأندلسي وقدرة على التأثير. ولقد كانت مهمة هؤلاء بتقديم تقارير وافية عن أوضاع الأندلس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وكان من أشهر هؤلاء الجواسيس أبو اليسر الرياضي وابن هارون البغدادي وابن حوقل النصيبي الذي تستر بالتجارة عند دخوله الأندلس، إذ يطلق عليه ياقوت الحموي بالتاجر الموصلي[3]، ولقد اهتم ابن حوقل بدراسة مصادر الطبيعة الزراعية والمعدنية في الأندلس، ورفع تقريراً إلى الفاطميين بذلك مع إشارته إلى ضعف أهلها وعجزهم

---

(1) وهم من فرقة الشيعة الإسماعيلية.

(2) لزيادة الاطلاع على وصول المذهب الشيعي إلى المغرب، انظر، د. احمد العبادي، في تاريخ الأندلس، ص 313 وما يليها.

(3) الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 348.

عن الدفاع عنها، ويشجع مولاه المعز لدين الله الفاطمي لغزو الأندلس. ولقد جاء في تقريره: (وليس لجيوشهم حلاوة في العين، لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها، وإن شجعت أنفسهم، وعرفوا القتال، فإن أكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة، وما رأيت ولا رأى غيري بها إنساناً قط جرى على فرس فارة أو برذون هجين ورجلاه في الركابين، ولا يستطيعون ذلك، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم من السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم..، ومن أعجب هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده، مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبُعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الأنجاد والأبطال، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جبايتها ومواقع نعمها ولذاتها). ولقد قام ابن سعيد بالرد على ابن حوقل واتهمه بالظلم والتعصب[1]. ولاشك أن تقرير ابن حوقل كان مجانباً للصواب لمبالغته في وصف أهل الأندلس بهذه الصورة البائسة. لذا، فإنه لم ينجح في مسعاه ولم تأخذ السلطة الفاطمية بتقريره. ولكن الفاطميين قد أصابوا بعض النجاح في كسب تأييد أنصار لهم مثل ابن أبي المنظور قاضي إسماعيل المنصور، وابن هانئ الشاعر الذي التحق بخدمة المعز وكذلك عمر بن حفصون الذي ثار بجنوب إسبانيا ضد الحكم الأموي أواخر القرن الثالث الهجري. واعترف بزعامة الخليفة عبيد الله المهدي الفاطمي (297-322هـ) ودعا له في مساجد بلاده. وهناك القائد علي بن حمدون الجذامي المعروف بابن الأندلس الذي جاء من الأندلس إلى المغرب واتصل بالمهدي ثم بابنه القائم وقد كلّفه القائم ببناء مدينة المسلية والتي سميت بالمحمدية. ثم ولاّه على الزاب في جنوب المغرب الأوسط.

ومما زاد في خطورة الدولة الفاطمية على الأندلس هو امتلاكها لقوة بحرية منظمة في المغرب وصقلية إذ ورثتها عن الأغالبة، ثم عملت على تطويرها، وقد بنى

---

(1) المقري، نفح، ج 1، ص 197.

الخليفة المهدي على الساحل التونسي بين سوسة وصفاقص مدينة المهدية والتي أشادت المصادر التاريخية بقوة أسوارها وضخامة أبوابها وكثرة مراجلها.

ولكن الخلافة الأندلسية لم تقف متفرجة تجاه هذا الخطر الفاطمي فكان لها جواسيسها الذين انتشروا في أنحاء المغرب. وقد ساعد وجود جاليات أندلسية على طول الساحل المغربي في طنجة ووهران، وتنس وبونة، وبجايه، ومرس الدجاج في نجاح مهمة هؤلاء الجواسيس، لا سيما وأن هذه الجاليات، قوية التمسك بعقيدتها السُّنِّيَة، وشديدة الكراهية للمذهب الشيعي. ولقد تلخصت سياسة الخليفة الأندلسي في مقاومته للخطر الفاطمي بالطرق الآتية[1]:

1- قام الناصر بالتلقّب بلقب الخليفة والناصر لدين الله أمير المؤمنين، لفرض سلطته وهيبته داخل الأندلس وخارجها، ولقد ذكرنا سابقاً أن هذا الأمر هو تحدياً لسلطة العباسيين المتهالكة في الشرق. ونجد هنا أنه كان أيضاً تحدياً للخلافة الفاطمية في المغرب والتي رأت في لقب الخليفة الذي اتخذه عبدالرحمن الأموي تعدياً على حقوقهما، ولذلك فرضوا القتال، واستحلال دمه وهو ما جاء في خطاب الخليفة المعز الفاطمي إلى أهل الأندلس قائلاً: (وهو يزعم أنه أمير المؤمنين، كما تسمّى دون من سلف من آبائه، وإمام الأمة بدعواه وانتحاله، ونحن نقول: إننا أهل ذلك دونه ودون سواه[2]، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه، مع ما بين أسلافنا وأسلافه ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وآباه، من العداوة القديمة الأصلية والبغضة في الإسلام والجاهلية).

2- قام الخليفة عبدالرحمن الناصر ببث بذور الفتنة والشقاق بين قبائل البربر في بلاد المغرب لزعزعة الأمن الداخلي وإضعاف الدولة الفاطمية من الداخل، فانضم إليه بنو إدريس أمراء العدوة، وملوك زناتة، فوالاه موسى بن أبي العافية صاحب

---

(1) انظر د. السيد سالم، المسلمون وآثارهم في الأندلس، ص 287 وما يليها. كذلك د. احمد العبادي، في التاريخ الأندلسي، ص 396 ما يليها.

(2) إشارة واضحة للخلافة العباسية.

المغرب، وأمدّه عبدالرحمن بالخلع والأموال، فظهر أمر موسى واجتمع له أنصار كثيرون من البربر فتغلب على مدينة جراوة. كذلك استولى الخليفة الناصر على معبريّ الأندلس، سبتة وطنجة ومليلة، واستطاع بذلك السيطرة على الملاحة في مضيق جبل طارق، واهتم عبدالرحمن بتحصين سبتة، فبنى سورها بالحجر الكذان، وكان أسطوله بقيادة أحمد بن محمد بن إلياس، ويونس بن سعيد، قد استطاع عبور مرسى الجزيرة واحتلال العدوة ومحاصرة محمد بن أبي العيش بن عمر بن إدريس. ونجح قاسم بن محمد قائد أسطول عبدالرحمن في إخضاع بقايا الأدارسة، وعقد الخليفة الصلح مع أبي العيش بن عمر الذي أرسل الوسطاء الأدارسة إلى قرطبة.

3- كما عمل الخليفة على تحصين سواحله ولا سيما في المنطقة الجنوبية التي كانت معرّضة لغزو الفاطميين، وتشير المصادر التاريخية إلى أن الخليفة ذهب بنفسه إلى هذه المنطقة وأشرف على الأعمال الدفاعية في طريف والجزيرة الخضراء[1]. وأقام في الجزيرة الخضراء داراً لصناعة الأساطيل. وكان من قوة البحرية الأندلسية تصدّيها للحملة التي شنّها الأسطول الفاطمي بقيادة الحسن بن علي على مدينة المريّة الذي استطاع أن يحرق السفن الراسية بالميناء وأسر العديد من سكان المدينة، فقام الأسطول الأندلسي بقيادة غالب بالرد على هذه الحملة، فشنّ هجوماً في ستين سفينة على سواحل أفريقية وبالذات على مرسى الخرز ودمّر منطقة سوسة بالكامل.

4- سعى الخليفة عبدالرحمن إلى تشجيع الدويلات المغربية من خلال توطيد علاقته بها حتى وإن كانت مختلفة مع الخلافة الأندلسية من ناحية المذهب، كدولة بني رستم الخارجية في تاهرت وتشجيع الثائرين على الخليفة الفاطمي أمثال أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار.

5- سعى الخليفة عبدالرحمن إلى توطيد أواصر الصداقة بأعداء الفاطميين، فتحالف مع ملك إيطاليا الذي كان ناقماً على الفاطميين الذين دمّروا ميناء جنوة. كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة الذي كانت لديه طموحات في استرجاع صقلية من

(1) لا تزال آثار القصر الذي بناه الخليفة في طريف باقية إلى الآن.

قبضة الفاطميين، كذلك سعى إلى توطيد علاقته بالأخشيديين في مصر، وعمل على إرسال الفقهاء المالكية من الأندلس إلى مصر لغرض محاربة المذهب الشيعي، ومن هؤلاء الفقهاء أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي.

وهكذا استطاع الخليفة بواسطة هذه السياسة من تجنب خطر الفاطميين الذين انصرفوا عن غزو الأندلس إلى فتح مصر.

الخطر المسيحي الإسباني

بعد انتصار المسلمين إبان فترة الفتوحات الأولى على الإسبان، اتجه قسم من الإسبان إلى المناطق الشمالية الغربية لاتخاذها قاعدة لمقاومة المسلمين، وكانت منطقة جليقية وهي إقليم جبلي وعر قاحل بارد هي بؤرة هذه المقاومة منذ زعامة بلاي لها ثم أخذت تنمو وتتسع بعد وفاته ولا سيما في عهد حفيده ألفونسو الأول، الذي استولى على مدينة ليون وسيطر على جميع المنطقة الشمالية الغربية[1] – وتقع على ضفاف نهر دويرة أي على حدودها الجنوبية والغربية المتاخمة لحدود المسلمين –، سلسلة من القلاع والحصون لحماية تلك الحدود. وقد اتحدت هذه القلاع في القرن الرابع الهجري في إمارة عرفها العرب باسم قشتالة ومعناها القلاع. ولقد امتدت حركة المقاومة المسيحية على سفوح جبال البرتات شرقاً ومن أهمها مملكة نبرة. وقد ساعد هذه المقاومة المسيحية حدودها الشمالية المتاخمة لأوروبا وكانت على اتصال بفرنسا والبابوية الأمر الذي أمدّها بالمساعدات المادية والروحية ضد المسلمين في الجنوب. ولقد استغلت المقاومة الانقسامات والشقاق بين المسلمين لتمتد نحو السهول المجاورة بعد أن كانت تقيم في المناطق الشمالية الغربية فقط.

وعندما تولى الخليفة عبدالرحمن الناصر الخلافة وجد نفسه أمام خطر الحلف المسيحي المعقود بين ملك نبرة شانجة الأول وبين ملك ليون أردون الثاني، إذ أن أردون الثاني قد جهّز جيشاً سنة 914م وقصد مدينة يابرة فاستطاع احتلالها وقتل العديد من

---

(1) وصارت تُعرف بمملكة ليون.

سكانها وقتل في هذه المعركة حاكم المدينة مروان بن عبدالملك، كذلك في 917م دارت معركة بين جيش المسلمين بقيادة أحمد بن محمد بن أبي عبدة مع جيوش القشتاليين قرب شنت أشتبن هُزم فيها المسلمون وقُتل القائد[1]. عندها قرر الخليفة بعد هذه التطورات الخطيرة أن يجهز جيشاً ويكون بقيادته، ففي سنة 308هـ / 920م قاد عبدالرحمن الجيش وسار به إلى جليقية ونبرة وخاض حرباً طويلة مع المسيحيين انتهت بانتصاره، وهدم حصن قاشتروموش والحصون المجاورة ولقّنهم دروساً قاسية، كما أنه استعاد مناطق كثيرة كانت تحت سيطرة المسيحيين مثل أوسما وتطيلة. وفي هذه الأثناء مات الملك أردون الثاني سنة 924م، وخلفه أخوه فلوبير الثاني الذي توفي بعد عام واحد، فصار مكانه أخوه أذفونش الرابع[2] الذي تنازل عن الحكم لأخيه راميرو الثاني وكان هذا الملك شجاعاً عنيداً وطموحاً، استمرت الحرب بينه وبين عبدالرحمن الناصر زمناً طويلاً، استطاع أخيراً هزيمة جيش المسلمين هزيمة قاسية وتسمى هذه الواقعة بواقعة الخندق، وكانت في سنة 327هـ / 938م قرب مدينة شمنقة أو شنت منكش. قُتل فيها قائد عبدالرحمن نجدة الصقلبي وفرّ الخليفة الناصر بأقل من خمسين فارساً بعد نجاته من الموت بأعجوبة إذ تقول المصادر أن عبدالرحمن (لم تكن له بعدها غزوة بنفسه)[3]، ويذهب البعض إلى أن سبب هذه الهزيمة هو أن جيش عبدالرحمن كان مكوناً من العرب والبربر والصقالبة، وإن العرب قد غضبوا من تقديم صقلبي لقيادتهم ففترت همّتهم في القتال، وتركوا الصقالبة لوحدهم في المعركة[4]. وبعد ذلك أخذ الخليفة عبدالرحمن يحتاط في حروبه ولم يخرج للقتال بنفسه. وعاد الجيش الإسلامي لتحقيق انتصارات مهمة ما أدى إلى عقد هدنة معهم بعد أن بعثوا إليه السفراء والهدايا طالبين الصلح. ففي

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 1، ص 255.

(2) ويعرف بالمدونات الإسبانية باسم الفونسو الراهب، انظر د. السيد سالم، المسلمون وآثارهم، ص 289.

(3) اخبارا لمجموعة، ص 155.

(4) انظر التحليل الموسع لسبب الهزيمة عند د. احمد العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 407 -410.

سنة 344هـ / 955م حضر إلى قرطبة رسول الملك أردون الثالث طالباً السلم فعقدت معه معاهدة صلح. وكذلك وفدت إلى قرطبة سنة 347هـ / 958م الملكة طوطة يرافقها حفيدها شانجة المعروف بسانشو السمين الذي عزله نبلاء ليون وقشتالة عن عرش نبرة وليون، وتولى مكانه أردون الرابع المُلك. وكان سبب زيارة الملكة وحفيدها هو الطلب من الخليفة مساعدة سانشو لاسترداد عرشه الذي اغتصب منه مقابل تنازله للخليفة عن بعض الحصون، فوافق الخليفة بعد أن استقبلهم في قصر الزهراء وأكرمهم. وجهّزهم بجيش سار إلى ليون وأعادت لسانشو العرش سنة 349هـ. ولكن سانشو لم يفِ بوعوده للناصر. ومهما يكن من الأمر فهذا يدل دلالة واضحة على قدرة الخليفة عبدالرحمن على بسط نفوذه في الشمال المسيحي وصار له أن يتدخل في شؤون ملوكه فينصّب من يشاء ويعزل من يشاء.

هكذا سار عبدالرحمن الناصر بسياسته الحكيمة للتخلص من الأخطار التي حاقت بخلافته الأندلسية وهي كما ذكرنا قد تمثلت في الخطر النورماندي والفاطمي والمسيحي في شمال إسبانيا، فتوطدت أركان خلافته واستقر له الأمر وصار سيداً على إسبانيا.

علاقات الخلافة مع الدول الأوروبية

بعد أن وطّد الخليفة عبدالرحمن الناصر علاقاته مع دول وملوك الشمال الإسباني، راح يتطلع إلى علاقات دبلوماسية متينة مع إمبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين السابع، وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أوتو الكبير التي يذهب بعض الباحثين[1] إلى أن هذه العلاقة قد جاءت نتيجة للغارات البحرية التي كان يشنّها الأندلسيون على سواحل بلاده الجنوبية، فإن أوتو الكبير اعتبر حينها أن الناصر هو المسؤول عن أعمال القرصنة والتخريب التي يقوم بها البحّارة الأندلسيون وأرسل إلى الخليفة رسالة شديدة اللهجة ردّ عليها الخليفة برسالة مماثلة سنة 339هـ / 950م. وبعد رسائل عديدة متشنجة ورسل فشلوا في تحقيق السلام والصلح. أرسل الخليفة

(1) انظر: د. أحمد العبادي، في تاريخ الأندلس، ص 412-413.

سفيراً إلى الإمبراطور أوتو واختار لهذه المهمة رجلاً يجيد العربية واللاتينية والذي يسمى ربيع بن زيد إذ استقبله الإمبراطور وأكرمه وأجابه إلى كل ما اقترحه، وهكذا تمّ الصلح بين الجانبين.

وتذكر المصادر التاريخية إلى مراسيم استقبال الخليفة رسل الملوك الذين وفدوا إلى قرطبة بالوصف التالي: (فقعد الناصر على سرير الملك بقصر الزهراء لدخولهم عليه، بعد أن أمر باستقبالهم بالعدد والأجناد. واستوى الناصر على سريره في بهو المجلس الزاهر، وقعد على يمينه ابنه الحكم، وقعد سائر أولاده عن يمينه ويساره، قعد الوزراء والحجّاب على منازلهم صفوفاً. فدخل الرسل وقد قدموا الهدايا بين أيديهم، وقد دُهشوا لهول ما عاينوه من جلالة الملك ووفور الجمع، فصعقوا بين يدي الخليفة، فأشار إليهم أن لا، فدعوا إليه كتاب مرسلهم قسطنطين. وكان الكتاب مصبوغاً بلون سماوي مكتوباً بالذهب)[1].

وهذه المراسلات والوفود ومعاهدات الصلح تدل على سعة أفق الخليفة عبدالرحمن الناصر الذي كما تشير هذه الوقائع كان محترماً ومهيوباً من قبل الملوك والأباطرة في دول أوروبا. وهذا جانب مهم لاستقرار الأحوال في قرطبة.

المظاهر الحضارية في قرطبة

لقد شهد عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر نهضة حضارية شاملة. وكانت العاصمة قرطبة أهم الحواضر التي احتضنت معطيات النهضة الحضارية بوصفها المدينة الأم، ومقر الفنون والآداب والعلوم والعمران. وقبل استعراض الجوانب الحضارية التي شهدتها قرطبة سنقوم أولاً بتوصيف لجغرافية وتاريخ هذه الحضارة الإسلامية في الأندلس[2].

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 324.

(2) اعتمدنا بشكل أساسي في استعراض هذه المعلومات على مصدرين هما: د. احمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 414 وما يليها. د. السيد سالم، المسلمون وآثارهم في الأندلس، ص 292 وما يليها.

تقع قرطبة على سفح جبل العروس من جبال (سيرامورينا) أو الجبال السوداء، وتحتل سهلاً فسيحاً يقع بين هذه الجبال والوادي الكبير، وفي هذا الوادي يزرع الزيتون ومختلف أنواع الثمار والأشجار، لا سيما وأننا رأينا شغف الأمويين بزرع وجلب مختلف الأنواع من الأشجار من بلاد الشام كما حصل في عهد الأمير عبدالرحمن الداخل. فكان نهر قرطبة (مكتنفاً بديباج المروج، مطرزاً بالأزهار، تصدح في جنباته الأطيار وتنعر النواعير ويبسم النوار)[1]. وتمتد عمارة قرطبة على الضفة اليمنى لهذا الوادي الذي ينحني في مجراه انحناءة طفيفة نحو الغرب مؤلفاً أهم طريق طبيعي في جنوبي إسبانيا. أما مصادر ثروة قرطبة فهي الزراعة أولاً وأهم محاصيلها الزيتون الذي يستخدم في العديد من الصناعات كاستخراج الزيت. ومن محاصيل قرطبة الزراعية الفواكه وعلى الأخص الرمان السفري. وتحتل المعادن المصدر الثاني لثروة قرطبة، فيها الفضة والزئبق وحجر الشادنه الذي يستخدم في التذهيب، وفي جبالها يكثر الرخام الأبيض الناصع والخمري.

أما من الناحية التاريخية، فمدينة قرطبة اشتهرت في العصور الوسطى وصارت تُقرن بمدينة القسطنطينية. وهي مدينة قديمة يرجح الدكتور السيد سالم أصلها الأيبيري بسبب وجود التماثل البرونزية الأيبيرية التي كشف عنها البحث الأثري، بالإضافة إلى اسم أيبيري وهو اسم محرّف من كردوبا وهو اسم أيبيري. كما ورد اسم قرطبة في الحرب البونية الثانية إبان الصراع بين روما وقرطاجنة. بعدها دخلت قرطبة سنة 206 ق.م في فلك الإمبراطورية الرومانية وأصبحت عام 169 ق.م عاصمة لإسبانيا الجنوبية أو السفلى المعروفة بباطقة. وازدهرت قرطبة في عصر الحاكم الروماني مركوس كلوديوس الذي بنى فيها روائع المنشآت العمرانية، والأسوار المنيعة التي اشتهرت بها العمارة الحربية الرومانية.

ثم انقسمت إسبانيا الجنوبية في عهد القيصر أغسطس إلى إقليمين وهما: لشدانية وباطقة، واتخذت قرطبة عاصمة لهذا الإقليم. وأصبحت أحد المراكز القضائية الأربعة

(1) المقري، نفح الطيب، ج1، ص 146.

مع قادس وأشبيلية واستجه، وعندما حدثت غزوات الوندال والسواف والآلان إلى شبه جزيرة أيبيريا عام 409م، استولى الوندال على إقليم باطقة، وجعلوا أشبيلية عاصمة لهم. أما قرطبة فقد ظلت تحت النفوذ البيزنطي إلى أن نجح ليوفيخلد من الاستيلاء عليها سنة 568م وجعلها مركزاً أسقفياً، ثم أخذت تتقهقر مكانة قرطبة أمام طليطلة التي تفوقت عليها منذ أواخر القرن السابع حتى مطلع القرن الثامن الميلادي عندما افتحها المسلمون سنة 712م.

وأصبحت قرطبة منذ أن استقر فيها أيوب بن حبي اللخمي سنة 97هـ / 715م داراً للإمارة الإسلامية، واستعادت مكانتها من مدينة طليطلة. وعندما تولى السمح بن مالك الخولاني 100هـ / 719م على قرطبة جعلها حاضرة ترتقي إلى مصاف الحواضر الكبرى، إذ بنى قنطرتها الشهيرة، وعندما جاء عبدالرحمن الداخل أعاد بناء سورها سنة 766م على هيئة السور الروماني القديم، وكانت قنطرة قرطبة تنتهي ببرج يعرف ببرج الأسد ويسمى الآن بالقلعة الحرّة.

وتألقت قرطبة منذ أن اتخذها عبدالرحمن الداخل عاصمة له ولأبنائه وأحفاده من بعده، وأصبحت في عهده مهد الحياة الرفيعة ومصدر الحضارة السامية وموطن الفلاسفة والشعراء ومركز الفنون والآداب وكانت أكثر مدن أوروبا سكاناً فقد بلغت في عهد الدولة الأموية تطوراً عمرانياً لا مثيل له في دول الغرب المعاصرة والتي كانت تغط في سبات عميق وبلغ عدد سكان قرطبة في أزهى عصورها وهو عصر عبدالرحمن الناصر نصف مليون نسمة وفق للإحصائيات التي قام بها المستشرقون. ووصفها الحجازي في المسهب بالقول (كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام، ومجتمع أعلام الأنام بها استقر سرير الخلافة المروانية، وبها تمخضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، ونهرها من أحسن الأنهار، مكتنف بديباج المروج، مطرز بالأزهار..) وقال عن قرطبة أيضاً الحجازي[1] (حضرت قرطبة منذ افتتحت الجزيرة، هي كانت في منتهى الغاية، ومركز الراية، وأم القرى، وقرارة أولي الفضل

---

(1) المقري، نفح، ج 2، ص 10.

والتقى، ووطن أولي العلم والنهى، وقلب الإقليم، وينبوع متفجر العلوم، وقبّة الإسلام، وحضرة الإمام، ودار صوب العقول، وبستان ثمر الخواطر، وبحر درر الخواطر، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض، وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، وبها أنشئت التاليفات الرائعة، وصنّفت المصنفات الفائقة، والسبب في تبريز القوم حديثاً وقديماً على سواها من أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب).

وكانت قرطبة أكثر بلاد الأندلس كتباً وأهلها أشد الناس اعتناءاً بخزائن الكتب كما ذكر ابن سعيد. وقد أغرم أهل قرطبة باقتناء الكتب حتى كانت الكتب من أشهر وأروج تجارة فيها. وبذلك قالوا: (إذا مات عالم في أشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى أشبيلية)[1].

كما ذكر ابن غالب الأندلسي في فرحة الأنفس نقلاً عن أحمد الرازي أن (قرطبة قاعدة الأندلس وأم المدائن، وقرار الخلافة، ودار الملك، تجيء إليها ثمرات كل جهة، وخيرات كل ناحية واسطة من الكور، وموفية على شاطئ النهر، مشرقة رائعة مونقة، نهرها ساكن في جريه، ليّن في انصبابه، بقيتها بطاح سهلة، وبجوفها الجبل المنيف المسمى بالعروس، المغروس بالكروم وسائر الأشجار وأنواع الأزهار).

ولقد اشتهر عصر الناصر بالرقي والازدهار الداخلي وبناء المنشآت المعمارية العظيمة التي تمت في عهده. فهو من هذه الناحية يوصف بأنه أعظم ملوك العالم في العصور الوسطى.

ففي مجال العمارة كان جامع قرطبة مركزاً للحج في الأندلس وقد وصفه إبراهيم ابن صاحب الصلاة الولني بالقول[2]: (وإني شخصت إلى حضرة قرطبة حرسها الله منشرح الصدر، لحضور ليلة القدر، والجامع قدّس الله بقعته ومكانه، وثبّت أساسه وأركانه، قد كسي ببردة الازدهاء، وجلي في معرض البهاء، كان شرفاته

(1) المقري، نفح، ج 1، ص 147.

(2) نفس المصدر، ج 2، ص 90-91.

فلول في سنان، أو أشر في السنان، وكأنما ضربت على سمائه كلل، أو خلعت على أرجائه حلل، وكأن الشمس خلقت فيه ضياءها، ونسجت على أقطاره أفياءها، فترى نهاراً قد أحدق به ليل، كما أحدق بربوة سيل، ليل دامس، ونهار شامس، وللذبال تألق كنضنضة الحيات، أو إشارة السبابات في التحيات.. والشمع قد رفعت على المنار رفع البنود، وعرضت عليها عرض الجنود، ليجتلي طلاقة روائها القريب والبعيد، ويستوي في هداية ضيائها الشقي والسعيد...). ويصف قباب الجامع ومحرابه بالقول: (وظهور القباب مؤللة وبطونها مهللة، كأنها تيجان، رُصع فيها ياقوت ومرجان، قد قوّس محرابها أحكم تقويس، ووشم بمثل ريش الطواويس، حتى كأنه بالمجرة مقرطق وبقوس قزح ممنطق، وكأن اللازورد حول وشومه، وبين رسومه، نتف من قوادم الحمام، أو كسف من ظلل الغمام).

ولقد مرّ بناء جامع قرطبة بعدة مراحل كانت أولها في عهد الأمير عبدالرحمن الداخل الذي بناه عام 169هـ / 785م، وبعده عبدالرحمن بن الحكم سنة 206هـ / 822م، الذي أضاف إلى الجامع بلاطين جانبين ثم مدّ بلاطات الجامع كلها جنوباً مسافة 26 متر. أما المرحلة الثالثة فكانت في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر الذي قام بتوسيع الفناء، واقامت مئذنة ضخمة من الحجر سنة 340هـ / 951م. وإلى جانب جامع قرطبة كان فيها مساجد أخرى ثانوية بلغ عددها نحو 3877 مسجداً وقيل 1600 مسجداً[1]، ولم يبق من هذه المساجد الآن سوى ثلاث مآذن هي اليوم أبراج كنائس سان خوان وسانتا كلارا وسانت ياجو.

واشتهرت قرطبة بقصورها الفخمة والتي كانت تقام عادة في الضواحي خارج المدينة فيما عدا قصر الإمارة وهو القصر الذي فيه (البدائع الحسان والرياض الأنيقة والمياه العذبة والمجلوبة من جبال قرطبة في قنوات الرصاص التي تصب في البحيرات البديعة، والصهاريج، وأحواض الرخام العجيبة)[2].

(1) نفح الطيب، ج 2، ص 79.

(2) نفس المصدر، ج 2، ص 13.

ومن قصور قرطبة قصر الرصافة وقصر دمشق وقصر الزهراء وقصر الزاهرة والقصر الفارسي وقصر حير الزجالي. وكما اشتهرت قرطبة بالحمّامات العامة الكثيرة ولم يبقَ منها سوى بقايا حمامين: الأول يقع في شارع الحمام والثاني في شارع كوميدياس. ويتألف الحمام الثاني من قاعة وسطى، بها عقود مفرطحة ومتجاورة تحملها عشرة أعمدة، وكانت تعلو هذه العقود قبوة لم يبقَ لها وجود اليوم بعد أن تحولت القاعة إلى صحن بينما تحتفظ الغرف المجاورة بقبواتها، وبهذا الحمام غرفة تعلوها قبوة كانت تتخللها مضاوي لنفاذ الضوء سُدّت جميعها اليوم. ولقد كانت قرطبة مكتظة بالعمران وكانت دورها تقرب من 213077 داراً وهذا يدل على اتساع المدينة وضخامتها.

ولقد كان لجامع قرطبة دوراً كبيراً في نهضة قرطبة العلمية بالإضافة إلى روعته العمرانية. فهو جامعة لتدريس علوم الدين واللغة يتعلم فيه الطلاب المسلمين والمسيحيين على حدٍّ سواء، وكانت قرطبة في القرن الرابع الهجري تنقسم إلى جانبين كبيرين، جانب شرقي كان يعرف بالشرقية وجانب غربي. وهو نفس التقسيم الروماني القديم وكانت تضم بالإضافة إلى قصر الإمارة والجامع الكبير والقياسرية والحمامات والأسواق. أحياءاً تعرف بالحوامات منها حومة باب الفرج، وحومة الزقاقين قرب باب أشبيلية أو العطارين، وحومة البخارين، وحومة عين فرقد شرقي قرطبة وحومة غدير بني ثعلبة، وحير الزجالي خارج باب اليهود وكان من أبدع المواضع وأجملها.

ولقد بلغ عدد ضواحي قرطبة أحد وعشرين ضاحية (ربضة)، فالمدينة القديمة بعدوة النهر فيها ضاحية شقندة ومنية عجب، وأما الغربية فتشتمل تسع ضواحي هما: حوانيت الريحان والرقاقين، ومسجد الكهف، وبلاط مغيث، ومسجد الشفاء، حمام الإلبيري، ومسجد السرور والروضة والسجن القديم. وأما الشمالية فتشمل ثلاث ضواحي هي: باب اليهود، ومسجد أم سلمة، والرصافة. والشرقية تشتمل على سبع ضواحي هي: شبلاد (وهي تسمية لاتينية تعني الأرض الرملية)، وفرن بريل، والبرج، ومنية عبدالله، ومنية المغيرة، والزاهرة، والمدينة العتيقة.

وأن بعض هذه الضواحي المحيطة بالمدينة الوسطى التي كانت تعرف بالقصبة كانت تبعد عنها كثيراً كضاحية الزاهرة والرصافة وهما اسمان لقصرين، كما أن الكثير من هذه الضواحي كانت تقع على امتداد نهر الوادي الكبير حيث تقام المنيات والقصور. ولقد كانت هذه الضواحي بلا أسوار ويذكر ابن غالب بأنه هناك خندق يدور بجميع الضواحي ومساكنها لم تقدر أمة من الأمم على عمل مثله. وتجمع المصادر العربية على أن الجزء الأوسط من قرطبة يتفق وموقع العاصمة القديمة[1] للإقليم الروماني المعروف باسم باطقة، وهي مدينة قرطبة نفسها أو القصبة أو المدينة الوسطى[2] بوصفها واقعة وسط خمسة مدن أخرى، وكان يحيط بهذه المدينة في جميع العصور سور من الحجر الجيري، وكان هذا السور موضع اهتمام الولاة والخلفاء الأمويين، ولم يتبق من هذا السور إلا أجزاء متناثرة، ولكن بقي من السور الروماني جزء يمتد على جانبي باب أشبيلية الذي يعتبر هذا الباب من أبواب قرطبة في العصر الروماني أو عصر القوط الغربيين.

وكان سور مدينة قرطبة الوسطى على شكل متوازي الإضلاع لا يتجاوز محيطه أربعة كيلو مترات، وهو ما يتفق مع تقدير ابن حوقل الذي يقول: (ودرت في قرطبة في غير يوم قدر ساعة)[3]. كما تجمع المصادر التاريخية العربية على أن عدد أبواب مدينة قرطبة سبعة أبواب[4] أهمها: الباب الجنوبي المعروف بباب القنطرة، لأنه يؤدي إلى قنطرة قرطبة المقامة فوق الوادي الكبير وكذلك يسمى باب الوادي الكبير ويطلق عليه أيضاً باب الجزيرة لاتجاهه نحو هذه المدينة أو يسمي باب الصورة بسبب تمثال كلاسيكي كان يقوم فوق عقد هذا الباب ونسبه المسلمون إلى العذراء مريم. وكان هذا الباب ينتهي بالرصيف الأعظم الممتد على طول الضفة الشمالية للنهر. وقد

---

(1) المدينة العتيقة.

(2) كما يُطلق عليها الإدريسي.

(3) المقري، نفح، ج 2، ص 9.

(4) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 59.

وصف الحميري الرصيف فقال: (وتحت القنطرة يعترض الوادي برصيف مصنوع من الأحجار والعمد الجافية من الرخام)[1]، وينفتح في السور الشرقي بابان وهما: الجنوبي وهو الباب الجديد ويقع قرب النهر ويعرف هذا الباب باسم باب سرقسطة[2]. أما الباب الثاني فيعرف بباب عبدالجبار نسبة لعبدالجبار بن الخطاب مولى الخليفة الأموي مروان بن الحكم، ويقع هذا الباب شمالي السور الشرقي، وكان يطلق عليه كذلك اسم باب طليطلة بسبب اتجاهه إلى هذه المدينة، وسمي كذلك رومية نسبة إلى السكة العظمى[3] وهو الطريق الروماني المرصوف الذي كان يبدأ من قادس وينتهي بأربونة ماراً بقرطبة وإشبيلية وسرقسطة وطركونة ويقول عنه الحميري (وكانت المحجة العظمى عليها من باب نربونة إلى باب بيارة إلى باب قرطبة)، وأشار إليه ابن بشكوال بقوله: (وباب ابن عبدالجبار هو باب طليطلة وباب رومية، وفيه تجتمع الثلاثة الرصف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طركونة إلى أربونة مارة في الأرض الكبيرة)[4].

أما السور الشمالي فكان ينفتح فيه باب يُعرف بباب ليون أو باب طليرة أو باب اليهود، وقد كرهوا اسم باب اليهود فسمّوه باب الهدى، ويشرف هذا الباب على حير الزجالي، وظل هذا الباب يعرف حتى سنة 1903م باسم باب أوساريو نسبة إلى مقبرة كان يؤدي إليها، تعرف في العصر الإسلامي باسم مقبرة أم سلمة.

أما الجانب الغربي من السور فكان فيه ثلاثة أبواب: الأول: شمالي يعرف بباب عامر القرشي وينسب هذا الباب إلى عامر بن عمرو القرشي، وكانت له مقبرة خارج هذا الباب فأمر الخليفة عبدالرحمن بفتح هذا الباب في شعبان 302هـ / 916م، لتيسير الذهاب إلى المقبرة.

---

(1) الحميري، ص 158.

(2) المقري، نفح، ج 2، ص 13.

(3) او المحجة العظمى.

(4) المقري، ج 2، ص 13.

والباب الثاني يتوسط هذا السور ويُعرف بباب الجوز أو باب بطليموس، والباب الأخير يقع جنوب السور الغربي ويُعرف باسم باب أشبيلية، وكان يسمى باب العطارين. ولقد عمل الخليفة عبدالرحمن الناصر على تحصين أبواب مدينة قرطبة فبنى لها أبواباً داخلية توازيها سنة 301هـ، لسهولة الدفاع عنها، وإتاحة الفرصة للحراس لمضاعفة الحراسة. وكانت تتفرع من هذه الأبواب شوارع تؤلف في الداخل شبكة من الدروب والأزقّة. وذكرنا أن طريقاً كبيراً كان يشق قرطبة تسميه المصادر العربية المحجة العظمى، وكان هذا الطريق العظيم يمتد من باب القنطرة شمالاً ماراً بين المسجد الجامع وقصر قرطبة ثم يميل شرقاً نحو باب عبدالجبار، ويخرج من هذا الباب ويتجه نحو الشمال الشرقي يخرج من باب عباس أحد الأبواب الثلاثة التي كانت تفتح في سور ضاحية الشرق المعروف بالشرقية أما البابان الآخران فهما باب الفرج وباب الحديد.

وكان يلتقي بهذا الطريق الأعظم طريقان أحدهما غربي يمتد من باب عامر، والثاني شمالي يمتد من باب اليهود، بحيث يتألف من تقابل هذه الطرق الثلاثة شكل صليب كان هو النظام الرئيسي في تخطيط المدن الرومانية. وكان يتفرع من هذه الطرق الرئيسية شبكة من الطرق والأزقة، ويذكر ابن القوطية درباً بقرطبة من زمن عبدالرحمن الأوسط أسماه بدرب ابن شراحيل، نسبة إلى محمد بن شراحيل المعافري قاضي قرطبة[1] ويذكر الخشني أن جده عمر بن شراحيل المعافري كان يعيش في قرطبة بدرب الفضل بن كامل الواقع قبالة مسجد أبي عثمان، وهذا في زمن الأمير عبدالرحمن الداخل، ويذكر ابن الفرضي اسم دربين آخرين بقرطبة أحدهما درب أبي الأشهب والآخر درب بني فطيس. وكان يقوم بحراسة كل درب من هذه الدروب حارس يسمى درب على نحو ما كان متبعاً في المشرق إذ أن خطة التجول الليلي للدروب أو العسس في الأندلس تشبه خطة أهل المشرق في الحراسة.

---

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 58.

ويذكر ابن سعيد المغربي بأن (بلاد الأندلس لها دروب بإغلاق تُغلق بعد العتمة، ولكل زقاق بائت فيه، له سراج معلّق، وكلب يسهر، وسلاح معدّ، وذلك لشطارة عامتها، وكثرة شرهم، وإعيائهم في أمور التلصص، إلى أن يظهروا على المباني المشيّدة، ويفتحوا الأغلاق الصعبة، ويقتلوا صاحب الدار خوفاً أن يقر عليهم، أو يطالبهم بعد ذلك)[1]. ومن هذا النظام الدقيق للحماية نستنتج أهمية الدروب ودورها الكبير في حماية السكان. لأن للدرب منفذ واحد وهذا يسهل عملية الدفاع على بيوتهم. وشوارع قرطبة تشبه في تسمياتها الشوارع العربية القديمة مثل شارع الرنيقة وشارع المؤنسة أي الصابون، وشارع القيسرية، وشارع الخياطين، وشارع المعزة أي الحبر الأحمر. كما أن بعض شوارع قرطبة في الوقت الحاضر ما زالت تحتفظ بأقواسها التي كانت تعلّق فيها المصابيح.

ولم تقتصر المظاهر الحضارية في قرطبة على هذا الثراء العمراني والهندسي الرائع، فإن المجالات الأخرى مثل الآداب والموسيقى والعلوم والفنون هي الأخرى شهدت انتعاشاً كبيراً استطاعت أن تشكل لوحة متعددة الألوان للحاضرة الأندلسية قرطبة. ففي الأدب نبغ أبو عبدالله محمد بن مسعود القرطبي وأبو بكر يحيى بن سعدون تمام الأزدي القرطبي وأحمد بن مسعود بن محمد الخزرجي القرطبي، وأبو جعفر أحمد بن شطرية القرطبي. كما اشتهر في حقل القضاة أبو الوليد أحمد بن رشد وفي المجال العلمي بالإضافة إلى دور الجامع الكبير في قرطبة شهدت نشاطاً علمياً لم تشهده أية مدينة أخرى حتى أصبح اسم قرطبة يقترن بالعلم والعلماء ولقد اختصر الشاعر عظمة العلم في قرطبة في هذين البيتين:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شيء وهو رابعها

---

(1) المقري، نفح، ج 1، ص 204.

ومن أعمال الخليفة عبدالرحمن الناصر في مجال العمارة هو إعادة بناء مدينة سالم التي تقع شمالي مدريد بنحو 153 كم في الطريق بين مدريد وسرقسطة وهي الآن جزء من مقاطعة سورية. وقد عرفت هذه المدينة قديماً في العصر الروماني باسم أوسيلس، ولما فتح المسلمون إسبانيا، قام بإعمارها الزعيم المغربي سالم بن ورعمال المصمودي الذي كان من قادة الرعيل الأول للفتوحات في إسبانيا، ومن ذلك أخذت المدينة اسمها. وكانت الفتن التي حدثت في أيام عبدالله الأموي قد خربت المدينة، ولما تولى الزعامة عبدالرحمن الناصر أعاد بناءها وجعلها ثغراً حربياً لمواجهة إمارة قشتالة الناشئة، وأشرف على بنائها مولاه غالب وغيره من قوّاد الثغور، فنقلوا إليها البنّائين والآلات وأصبحت مدينة سالم منذ ذلك الوقت قاعدة للثغر الأوسط إلى جانب طليطلة قاعدة الثغر الأدنى، وسرقسطة قاعدة الثغر الأعلى.

وهكذا كانت قرطبة تشهد أيامها الذهبية في عهد عبدالرحمن الناصر الذي توفي سنة 350هـ / 961م عن عمر ناهز الثالث والسبعين، بعد حكم دام نصف قرن. وبرغم عهده الطويل زمنياً والمليء بالأحداث الكبيرة تشير بعض المصادر إلى أنه قال عبارة وكتبها بنفسه مفادها أن الحياة السعيدة التي تمتع بها حقاً كانت أربعة عشر يوماً فقط[1].

ومن مبلغ المكانة التي احتلها الخليفة الناصر في الأندلس وخارجها يشار إلى أن الملك الإسباني أوردونيو الرابع ملك ليون عندما زار الأندلس في أوائل عهد الخليفة الحكم المستنصر بن عبدالرحمن الناصر، سأل عن مكان قبر الخليفة وذهب لزيارته مبدياً آيات الاحترام الكبير للخليفة في قبره، تقديراً لسيرته وتاريخه الطويل الحافل بالإنجازات الكبيرة.

الخليفة الحكم الثاني (المستنصر بالله)

لقد تولى الخلافة بعد وفاة الخليفة الناصر وتلقّب بالمستنصر بالله. وهو في عمر تجاوز الخامسة والأربعين، وهذا يرجع إلى طول فترة حكم أبيه. ولكن هذا الخليفة كان

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 233.

مساهماً في إدارة الحكم ولم يكن عاطلاً أو متفرجاً، فقد أشركه الخليفة السابق في تدبير شؤون الخلافة، كما كلّفه بالإشراف على بناء مدينة الزهراء، وقد أظهر كفاءة وخبرة في عمله، أهّلته لتسيير دفّة أمور الخلافة في عهده. ولقد عُرف بشخصيته العلمية وحبّه الشديد للقراءة واقتناء الكتب والمراجع النادرة، والبحث عنها في كل مكان. ويقال أن لديه عملاء في بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها من المدن كلّفهم بشراء الكتب أو نسخها وبأي ثمن، ومن الروايات التي تؤكد ولعه الغريب بجمع المراجع من البلاد البعيدة، أنه عَلِم إن أبا الفرج الأصفهاني يؤلف كتابه الشهير الأغاني فأرسل إليه ألف دينار لشراء الكتاب قبل أن يصدر في الشرق. وبما أن أبا الفرج من موالي بني أمية السابقين، فقام بإرسال الكتاب قبل أن يُقرأ في الشرق إلى قرطبة.

وكان حصاد الخليفة من الكتب أن ازدهرت في القصر الملكي بمدينة الزهراء مكتبة ضخمة متنوعة المصادر بلغ عددها 400 ألف مجلد[1]. ولم يكن شغل الخليفة هو جمع الكتب فقط، بل أولى العلماء أهمية خاصة، فحرص على جذبهم ومجالستهم وتشجيعهم على البحث الابتكار، وكان من أبرز العلماء الذين ظهروا في عهده، العالم اللغوي أبو علي القالي[2] الذي وصل الأندلس في عهد عبدالرحمن الناصر سنة 330هـ وأصله من العراق وقد نال الاحترام الشديد والحظوة العظيمة في عصر الناصر والخليفة الحكم المستنصر، كذلك برز المؤرخ القرطبي الشهير أبو بكر محمد ابن القوطية وهو من نسب امرأة قوطية إسبانية وهي الأميرة سارة حفيدة الملك غيطشة وقد تزوجها القائد العربي عيسى مزاحم مولى هشام بن عبدالملك وكان ابن القوطية من أحفادها. وله مؤلفات عديدة أهمها كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس) الذي يؤرخ لفترة الفتح الإسلامي لإسبانيا حتى وفاة عبدالله الأموي سنة 912م. وله كتاب آخر

---

(1) يقال أن كل كتاب كان يحمل هوامش الخليفة دليل قراءته لكل الكتب وبقدر المبالغة في الأمر إلى أنها تدل على اهتمامه ورعايته للكتب والعلماء والأدباء.

(2) نسبة إلى مدينة قالي في ديار بكر ومن أهم أعماله كتاب الأمالي.

مهم في النحو وهو (كتاب الأفعال)، ومن العلماء في عهد المستنصر العالم المغربي محمد بن حارث الخشني الذي انتقل من القيروان إلى قرطبة بدعوة من الخليفة الذي كلّفه بكتابة تاريخ القضاء الأندلسي، وسمح له بدخول المكتبة الملكية للاستعانة بمراجعها الغنية وفعلاً كتب الخشني كتابه الشهير (كتاب القضاة بقرطبة)، والذي تضمن معلومات هامة عن الحياة في الأندلس.

بالإضافة إلى هؤلاء فقد برز علماء غير مسلمين كانوا موضع عناية الخليفة ورعايته، فقد قرّب إليه الأسقف المستعرب ربيع بن زيد الذي كان مهتماً بدراسة الفلسفة والعلوم الفلكية. ولقد كان الخليفة الحكم يجمع في شخصيته بين حب العلم والأدب والعلماء وحب رعيته وتصدقه على الفقراء وحثّهم على طلب العلم بشكل مجاني. ويذكر مصدر تاريخي عنه بالقول[1]: (ومن مستحسنات أفعاله، اتخاذه المؤدبين يعلّمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حول المسجد الجامع، وبكل ربض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرين مكتباً، منها حواليْ المسجد الجامع ثلاثة، وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة). وهناك دار أنشأه الخليفة يسمى بدار الصَدَقة في الجانب الغربي من الجامع الأموي لتوزيع الصدقات على المحتاجين.

وكان للخليفة نصيب في الأعمال العمرانية في قرطبة ومن أهمها التحسينات والتوسعات التي أجراها على جامع قرطبة من جهة القبلة سنة 961م لمواجهة مشكلة الزيادة السكانية في قرطبة وضيق الجامع أمام كثرة المصلين، كما أوصل الماء العذب إلى سقايات الجامع، والمضأتين اللتين على جانبيه، وقد جاء بالماء من عين بجبل قرطبة، حفر له الأرض، ويجري في قناة من حجر أودع في باطنها أنابيب من الرصاص لضمان نقاوة الماء.

---

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 240-241.

الأخطار التي واجهت قرطبة

لم يختلف المستنصر في سياسته عن أبيه كما لاحظنا في موضوع الاهتمام بشؤون الحكم وتطوير الخلافة وإعمارها. كذلك كانت سياسته مع الأخطار والتحديات والتي واجهت الخلافة في عهده وهي نفس المصادر التي كانت تهدد خلافة الناصر في عهده.

1- الخطر الفاطمي

لقد أبدى المستنصر فطنة مبكرة في إدراك الخطر لفاطمي المتعاظم في أفريقيا، إذ أنه كما يشير ابن عذارى، أن الخليفة ذهب سنة 353هـ من قرطبة على ثغر المرية لتفقد قواته هناك والاطمئنان على حصون الجبهة الشرقية المواجهة للفاطميين، ولقد اشرف على المقاتلين الذين يستعدون لمجابهة أي هجوم فاطمي عليهم. ولقد حدثت بوادر الخطر الفاطمي عندما أرسل الخليفة العزيز بالله الفاطمي رسالة إلى المستنصر الأندلسي يهجوه فيها، وقد ردّ عليه الخليفة المستنصر بجملة وجيزة ومُعبّرة في معناها بالقول: (قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك)، ورغم أن الخطر الفاطمي قد ضعف في بلاد المغرب الأقصى نتيجة لانقسام المغرب على نفسه بعد أن تمكّنت قبائل صنهاجة أو بمعنى آخر الدولة الزيرية، من فرض سيطرتها باسم الفاطميين على النصف الشرقي من المغرب، أما القسم الغربي من نهر ملوية إلى طنجة فكان تحت سيطرة زناتة وحلفاؤها الأمويون. وهذا الوضع قد أحدث نوع من التوازن على سيطرة المغرب وبذلك خفت سيطرة الشيعة الفاطميين على المغرب الأقصى والأندلس[1].

إلا أن الخليفة المستنصر كان له رأي آخر فهو يرى أن الخطر الفاطمي لا زال موجوداً ويؤكد على ضرورة سيطرته على مضيق جبل طارق عن طريق احتلال القواعد المغربية المطلّة على المضيق مثل سبتة وطنجة ومليلة ومن خلال هذه القواعد تستطيع الأندلس أن تضمن نفوذها إلى قلب المغرب. إلا أن سياسة المستنصر هذه لقيت

---

(1) انظر: د. أحمد مختار العبادي، في التاريخ المغربي والأندلسي، ص 424، وما يليها.

مقاومة أمراء الأدارسة من بني محمد الذين كانوا يستعدون لاسترداد مواقعهم في الجهة الشمالية للمغرب، فقاموا بثورة كبيرة سنة 361هـ / 972م بقيادة قائدهم الحسن بن جنون، وخرجوا من طاعة الخلافة، إذ قطعوا الدعوة لبني أمية على منابرهم، وقاموا باحتلال طنجة وتطوان وأصيلا، وكافة المنطقة الجبلية الممتدة شمالي وادي اللكوس، وأقاموا موقعاً لقيادتهم في قلعة شاهقة الارتفاع في شمال شرق القصر الكبير تسمى حصن الحجر أو حجر النسر دلالة على ارتفاعها. ولقد سبّبت هذه الثورة الإحراج للخلافة الأموية على المستوى الشرعي والسياسي، فقرر الخليفة أن يغير سياسته السابقة والقائمة على الخفاء وإثارة الفتن من وراء الستار، على المجابهة العسكرية كما صمم من قبل كما رأينا، ورأى أن يستخدم السبب الديني للتدخل في المغرب وذلك لحماية الإسلام والسنّة فيها من الهراطقة الشيعة على حدّ قوله، فقام بإرسال الأساطيل والجيوش عبر المضيق لاسترداد سيطرت الخلافة هناك. وأرسل قائده ووزيره محمد بن القاسم بن طلمس الذي عبر المضيق إلى سبتة في سنة 361هـ وكانت الأساطيل بقيادة القائد البحري عبدالرحمن بن رماحس بن رماحس قد لحقت بالوزير وتكاملت القوات الأندلسية عند وصولها إلى سبتة، فشنّوا هجوماً على طنجة براً وبحراً، وكان في الجانب الآخر الأمير الحسن بن جنزن لقيادة قوات الأدارسة الذي فشل في مجابهة قوات الخليفة رغم محاولته لرفع معنويات جيشه، إلا أنه ترك المدينة هارباً واستسلمت طنجة بعد أن خرج شيخهم ابن الفاضل مع وجهاء طنجة وهم ينادون (الطاعة لله ولأمير المؤمنين الحكم)، فأعطاهم القائد عبدالرحمن ابن رماحس الأمان ودخل طنجة في شوال سنة 361هـ / 972م، أما القائد محمد بن القاسم بن طملس، فاستمر بقواته البرية بملاحقة جيش الحسن بن جنون المتقهقر على الساحل المحيط الأطلسي، ثم احتل مدينة أصيلا، ودخلها وأمر بإحراق معالم الولاء الذي وجدها في جامع المدينة وهي مرسومة على المنبر باسم الشيعي معد بن إسماعيل (المعز لدين الله). ولكن الأدارسة لم يرضخوا للأمر الواقع وتقبل الهزيمة، فتراهم ينظمون صفوفهم ويوحدون شملهم من جديد بقيادة الحسن بن جنون ويهاجمون الجيش الأندلسي بشكل مباغت في مكان يسمى بفحص مهران بضواحي طنجة ويلحقون به هزيمة قاسية أدت إلى مقتل القائد الأندلسي محمد بن

القاسم بن طملس سنة 362هـ / 972م وهزيمة بقايا المقاتلين إلى سبتة طالبين العون والمدد من الخليفة الحكم.

وقام الخليفة على الفور بعد سماعه أنباء الهزيمة الساحقة لجيشه ومقتل قائده، باستدعاء وزيره والقائد الأعلى للقوات غالب بن عبدالرحمن من ثغر مدينة سالم. فأقبل القائد مع قواته إلى قرطبة سنة 362هـ وأمدّه الخليفة بجيش كبير وأمره بالسير إلى قتال الحسن بن جنون قائلاً له: سرْ سير من لا إذن له في الرجوع حياً إلا منصوراً، أو ميتاً فمعذوراً، وابسط يدك في الأنفاق، فإن أردت نظمت لك الطريق بيننا قنطار مال[1].

كما أمر الخليفة قائد الأسطول المرابط في طنجة عبدالرحمن بن رماحس والقائدين اللذين معه سعد وقيصر، وقوّاده بمدينة أصيلا[2] بعدم التفاوض مع الحسن بن جنون وعدم القيام بأي عمل عسكري ضده إلى حين وصول القائد غالب وجيشه، وسيكون عملهم قبل وصول غالب تأمين المعلومات الضرورية عن حركة الحسن من خلال استخدام الجواسيس. ولقد أبحر القائد غالب مع قواته من الجزيرة الخضراء قاصداً طنجة في سنة 362هـ، ولكن الظروف الجوية السيئة وهبوب عاصفة شديدة قد اضطرته للانتظار أياماً لعبور المضيق إلى طنجة ثم إلى أصيلا، وعندما وصل إلى طنجة، أسرع القائد عبدالرحمن بن رماحس لتحريك أسطوله من طنجة إلى أصيلا كي يكون عوناً وشريكاً للقوات الأندلسية بقيادة غالب، وهذه الخطوة باركها الخليفة المستنصر بالقول: (إن اجتماع الأسطولين فيه صواب التدبير).

واستدعى الخليفة كذلك القائد يحى التجيبي من قاعدته سرقسطة مع قواته وأرسله إلى المغرب لتعزيز القوات الأندلسية هناك بقيادة غالب، كما أرسل معه الشعراء والقضاة والأمناء ليقوموا بمهمة الإسناد المعنوي للمقاتلين وكذلك تزويدهم بالمعلومات المهمة عن معسكر الأعداء، فقد أرسل الخليفة الشاعر محمد بن حسين

(1) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 365-367.

(2) مثل عبدالرحمن بن أرمطيل، ورشيق بن عبدالرحمن.

التميمي المعروف بالطبني[1] إلى هناك لمعرفته بأخبار المغرب وسكانها وخبرته في شؤونهم، كما أرسل قاضي أشبيلية وصاحب الشرطة محمد بن عامر الذي سلّمه الخليفة قضاء المغرب وجعله عيناً على الجيش وأمر قوّاده وعمّاله بالعمل بمشورته.

وبهذه التدابير العسكرية والسياسية الصارمة استطاع المسلمون من تشديد الحصار حول حصن محمد بن جنون المعروف بحجر النسر، الذي استسلم نتيجة لهذه الجهود الكبيرة التي قامت بها قوات الخليفة، وطلب الأمان فاستُجيب طلبه، ودخل القائد غالب الحصن وصلى في مسجده صلاة الجمعة مع الأمير الإدريسي محمد بن جنون، وأعيدت الدعوة من المنبر إلى الخليفة المستنصر بالله في 29 جمادى سنة 363هـ / 973م[2].

وبعدها عاد القائد غالب مستصحباً الحسن بن جنون وأقربائه الأدارسة، فدخلوا مدينة الزهراء في يوم مشهور بفخامة الملك وكثرة الجمع.

وهكذا استطاع الخليفة من إخماد أكبر خطر يهدده ويضمن بذلك السيطرة على مضيق جبل طارق، وأن يحمي بلاده من أي خطر شيعي أو زيري يتهددها من جانب منطقة المغرب. وبعدها حرص الخليفة الحكم إلى أن يستخدم أميراً أندلسي الأصل حاكماً على هذه المنطقة وهو الأمير جعفر بن علي بن حمدون المعروف بعداوته للزيريين وقد اشترك معه شقيقه يحيى في حكم المنطقة بالتعاون مع زعماء قبائل زناتة من مغراوة وبني يفران.

وتشاء الأقدار ويصاب الخليفة بمرض اشتد عليه وأدى إلى فقدانه السيطرة على تسيير أمور الخلافة وآلت السلطة إلى الوزراء والحاشية والنساء، فساءت الأحوال واضطربت وأخذ ضغط الإسبان يشتد على الجبهات الشمالية لذلك قرر الوزير جعفر بن عثمان المصحفي إعادة القائد يحيى بن محمد التجيبي من المغرب، ولقد حضر

---

(1) نسبة إلى مدينة طبنة شرقي الجزائر.

(2) ابن عذارى، البيان، ج4، ص 365.

فعلاً إلى قرطبة سنة 365هـ وأرسله على الفور إلى سرقسطة لحماية الثغور الأندلسية، ثم قام الوزير المصحفي بخطوة غير مدروسة وهو إخراج الأمير الإدريسي الحسن بن جنون وأصحابه من الأندلس حتى يتخلص من الإنفاق عليهم، فأذن لهم بالرحيل إلى المشرق بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بعدم نزولهم في بلاد المغرب، فخرجوا من ميناء المرية وعبروا البحر إلى مصر، وهناك استقبلهم الخليفة الفاطمي العزيز بالله، وصاروا في رايته كسلاح يتمكن استخدامه ضد الأمويين في المغرب الأقصى عندما يحين الوقت المناسب.

2- الخطر النورماندي

بعد أن وطّد النورمانديون موقعهم على السواحل الغربية الأندلسية من خلال إقامة قاعدة ثابتة لهم بالقرب من هذه السواحل، أصبحوا خطراً يهدد ثغور وسواحل الأندلس، وهذا ما أثار هواجس الخليفة المستنصر، وتروي المصادر التاريخية أن دوق نورماندیا ريكاردو الأول حفيد رولون مؤسس هذه الولاية، أمر أساطيله بالتحرك صوب إسبانيا، فخرجت من موانئ نورماندیا على شكل جماعات واتجهت نحو السواحل الغربية الإسبانية، غير أن الخلافة الأندلسية في ذلك الوقت كانت على استعداد تام لمقاومة هذه الأساطيل من خلال متابعة أخبارهم وتقصي تحركاتهم منذ انطلاقتهم من الموانئ وحتى وصولهم، إذ أن الخليفة المستنصر بالله كان يرسل الجواسيس إلى مدينة شنت ياقب في أقصى بلاد أعدائه في جليقية[1] لتقصي أخبار القراصنة النورمانديين والذين يطلق عليهم العرب اسم المجوس كما رأينا سابقاً. كما أن الخليفة قد تحالف مع بعض الحكام الإسبان في الغرب من جليقية وكان له عوناً بإمداده بأخبار تحركات النورمانديين في الوقت المناسب. وقد حدثت مثل هذه المساعدة الاستخبارية في سنة 360هـ / 970م، إذ أرسل الحاكم الإسباني وفداً إلى الخليفة يخبره بظهور النورمانديين في شواطئ إسبانيا الغربية.

---

(1) شمال غرب إسبانيا.

وتروي المصادر التاريخية[1] أيضاً أن الخليفة المستنصر ولزيادة الحيطة والاستعداد الكامل لمواجهة خطر المجوس، أنه أمر بصنع مراكب على هيئة مراكب المجوس وقد أطلق الأندلسيون اسم القراقر على مراكب المجوس وقالوا إنها مراكب عظام تجري إلى أمامها وإلى خلفها بقلوع مربعة.

ولقد وضعت هذه المراكب الجديدة في الوادي الكبير إلى جانب الصوائف البرية والبحرية التي كانت تتجه إلى الساحل الغربي الأندلسي، في صيف كل عام، وتتجول فيه براً وبحراً استعداداً لقتال القراصنة النورماند وتقصي تحركاتهم في الناحية الغربية والتي اعتادوا الظهور منها، وكان على رأس هذه القوات البرية والبحرية قواد أكفاء أمثال الوزير غالب بن عبدالرحمن، وعبدالرحمن بن رماحس، وصاحب الخيل زيادة بن أفلح، وصاحب الشرطة العليا هشام بن محمد بن عثمان وغيرهم.

وهناك ثلاثة تواريخ للغارات النورماندية على الأندلس في عهد الخليفة المستنصر حصرها المؤرخون الأندلسيون وهي 355هـ / 966م، و 360هـ / 971م، 361هـ / 971م[2] ويشير ابن الخطيب[3] إلى غزوة غير ناجحة قام بها النورمانديون على حصن القبطة من حصون المرية في شرق الأندلس. إلا أن كل المصادر تتفق على أن غارات النورماند كانت على غرب الأندلس وفي مياه المحيط الأطلسي.

فقد كان الهجوم الأول سنة 355هـ للنورمانديين على منطقة قصر أبي دانس في جنوب البرتغال، وفي سهول لشبونة والتي شهدت معركة عنيفة قتل فيها الكثير من الجانبين إلا أن الأسطول الأندلسي المرابط في أشبيلية تمكن من تعقب الأسطول النورماندي حتى لحق به عند مصب وادي شلب، واستطاع تحطيم معظم سفنه واسترداد الأسرى المسلمين الذين نُقلوا على ظهر الأسطول بعد معركة لشبونة[4]،

(1) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 356.

(2) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 356، المقري، نفح، ج 1، ص 360.

(3) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 41-42.

(4) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 356.

وكان الأسطول النورماندي مكوناً من ثمانية وعشرين سفينة، تحتوي كل منها على ثمانين مقاتلاً، اي أن مجموع المقاتلين النورمانديين كان 2240 مقاتلاً، لم يصمدوا أمام قوة الأسطول الأندلسي. وأما الغارات التالية والتي حدثت في سنة 360، 361هـ فإنها لم تستطيع أن تنزل إلى الشواطئ الأندلسية وهذا يعود إلى اليقظة التي تتمتع بها القوات الأندلسية وكذلك قوة الأسطول الذي هزم النورمانديين وفرّق شملهم في المعارك السابقة. وكان لهذه الانتصارات في عهد الخليفة المستنصر أن جنّبت الأندلس الخطر النورماندي، كما كانت من عوامل الاستقرار والهدوء في المجتمع الأندلسي، والذي انعكست آثارها على الحياة الفكرية والأدبية فتغنى الشعراء في هذه الانتصارات وأشادوا بفضل الخليفة وقادته.

علاقة الخلافة مع الدول الإسبانية

لقد ذكرنا سابقاً سياسة الخليفة عبدالرحمن الناصر إزاء الخطر المسيحي بأن الخليفة قد استقبل الملك سانشو السمين الذي وفد إلى قرطبة مع الملكة طوطة، وكان سانشو قد عُزل من منصبه، فساعده الخليفة باسترداد العرش على مملكة ليون مقابل عدة حصون إسبانية يتنازل عنها للخليفة، ولما توفي الخليفة الناصر لم يفِ الملك سانشو بوعوده وأخذ يماطل الخليفة المستنصر معتقداً بأنه رجل علم وفلسفة ولا شأن له بالحروب، غير أن الخليفة المستنصر كان على غير ما يعتقد سانشو فقد قرر أن يأخذ الحصون بالقوة، ولقد استعدّ لهذا الأمر جيداً، وبينما كانت استعدادات الخليفة للحرب جارية، وصل إلى قرطبة الملك أوردنيو الرابع الذي خلعه الناصر، فكان ورقة رابحة بيد المستنصر ضد سانشو ولقد استقبله الخليفة المستنصر استقبالاً مناسباً، ووعده باسترداد العرش من سانشو، وعندما وصلت الأخبار إلى مملكة ليون تغيّر موقف سانشو خوفاً على مستقبل عرشه، فعاد للاتصال بالخليفة المستنصر مبدياً استعداده الكامل لتنفيذ الوعود التي قطعها على نفسه أمام عهد الناصر، فأوقع الخليفة المستنصر في حيرة من أمره، في اختيار أي الملكين لضمان حقوقه وأمن الخلافة.

ولكن موت الملك المخلوع أوردنيو الرابع أزال هذه المشكلة، ولكن سانشو عندما علم بموت غريمه عاد لنقض وعوده واحتفظ بالحصون، ثم أخذ يجهز لمقاتلة المسلمين وقد عقد حلفاً مع مملكة نبرة وتحالف أيضاً مع إمارة قشتالة التي كانت حديثة التكوين آنذاك. ولكن الخليفة المستنصر استطاع أن يواجه هذا الخطر وقام بغزو الدول الشمالية وانتصر عليها بفضل قوة جيشه ووجود قادة مميزين على رأس هذا الجيش. ولقد انتهت الحرب باستلام الحصون وضمّها إلى سيطرة الخلافة.

بعدها توفي الخليفة المستنصر سنة 366 هـ بعد أن استمر بالحكم خمسة عشر عاماً، مخلفاً ولده هشام الثاني عن عمر لا يتجاوز عشر سنوات، ولقد كان المستنصر يعلم بصعوبة مهمة ولده القاصر، فقرر قبل موته أن يجمع المسؤولين عن الدولة، وأخذ عليهم العهد بالإخلاص ومؤازرة وتأييد ولي عهده بعد موته. ولكن الأمور لم تجري كما يتمنى الخليفة وهو ما سنراه في الفصل القادم.



الفصل السابع

- الخليفة هشام الثاني وأفول الخلافة
- لمحة عن تاريخ بني عامر
- عهد المنصور ابن أبي عامر
- سياسة المنصور العسكرية
- منجزات المنصور العمرانية والإدارية
- نهاية عهد المنصور
- عبدالملك بن المنصور (المظفر)
- عبدالرحمن بن المنصور ونهاية الدولة العامرية
- المهدي وعهد الفتنة
- المستعين بالله خليفة قرطبة
- عودة المهدي إلى قرطبة
- المستعين يعود إلى قرطبة وخلافة هشام الثالث
- عهد آل حمود
- علي بن حمود ملكاً على الأندلس
- القاسم بن حمود المأمون
- يحيى بن حمود المعتلي بالله
- عبدالرحمن بن هشام المستظهر بالله
- محمد بن عبدالرحمن المستكفي بالله
- هشام بن محمد المعتد بالله ونهاية الخلافة الأموية
- آراء المؤرخين في نهاية عهد الخلافة الأموية في الأندلس

الفصل السابع

الخليفة هشام الثاني وافول الخلافة

لقد كان الخليفة السابق المستنصر بإصراره على ولاية العهد لولده القاصر وتخطيه لأخوته الثلاثة الأقوياء[1]، قد حفر قبر الخلافة بيده، إذ شهدت قرطبة انقسامات حادة في الرأي حول من هو الأقدر على خلافة المستنصر. فكان الوزراء وأتباعهم يرون أن تنفيذ وصية الخليفة السابق بتولية هشام هو الصواب، لأن ذلك سيجعلهم الحكام الفعليين للدولة. بينما يرى آخرون أن المغيرة هو الجدير بالخلافة لأن هشاماً قاصر وضعيف ولا يليق أن يكون على رأس الجيش والخلافة. والفريق الثالث التزم الحياد، بينما كان العامة وفقراء الناس لا شأن لهم بشخص محدد إلا ما يقوم به من مراعاة لمصالحهم وتحسين أوضاعهم المعاشية.

ولكن فريق الوزراء قد انتصر بمبايعة الصبي هشام بالخلافة، وتشير المصادر التاريخية بأن مبايعته كانت بفضل وزير أبيه محمد بن أبي عامر والحاجب جعفر ابن عثمان الصحفي، وغالب مولى الحكم وحاكم مدينة سالم، إذ قام هؤلاء بقتل المغيرة اخ الحكم والمرشح للخلافة[2]. وهناك رواية تصف أزمة الخلافة بالشكل التالي: (وكان الناس يومئذ أربعة: صنف همّه الدنيا التي ينالها بسبب الولد هَبْهُ بالغاً أو طفلاً في المهد، وهم صنائع الحكم وكل ذي علاقة به، وصنف يؤمل أمراً ويرجو من القرابة

---

(1) وهم الرجال الأقوياء عبدالعزيز والإصبغ والمغيرة.

(2) المقري، نفح، ج 1، ص 372.

الراجحة زيداً وعمرواً.. وصنف من الديوان راضٍ بحظه من الزمان لا يتشوق إلى المزيد ولا يحذر من النقصان فقد تساوت في الدول أحواله، فإن تعيّن الطفل أو الكهل لا يهمه فهو هادن ساكن وإلى فئة العافية راكن، وصنف من أهل الدنيا والآخرة قلّدوا أهل الحل والعقد اجتهادهم وسألوا الله توفيقهم وسدادهم.. وصنف غارم (فقير) لا همّ له إلا فيمن يخفف عسره، وهؤلاء أوباش السوق وحمقى ما لهم من خلاق.. وصنف همّه الآخرة بعيد عن الدنيا لا يتكلم في مثل هذا ولا يتكلم معه، إنما مشغول بربّه خاصة وهذا جيل قليل، إنما لا تخلوا الأقطار منهم..)[1].

وهكذا استقرت الخلافة لهشام وصار الحاجب محمد بن أبي عامر وصياً عليه بعد أن أثبت جدارة وتفوق على زميله جعفر الصحفي.

وكانت خلافة هشام صورية فقط. ومن المفيد أن نذكر هنا إن هشاماً ابناً لجارية بشكنسية من نبرة اسمها صبح وكان الخليفة يسميها جعفر، وكانت مغنية عنده، وولدت منه هشام فصارت أم ولد استطاعت بذكائها وحبّ الخليفة لها أن تسيطر وتتمتع بنفوذ واسع في قصر الخلافة. وهي التي كانت مسيطرة في البداية على ابنها حتى ظهور شخصية موهوبة وهو محمد بن أبي عامر[2] الذي استطاع أن يسيطر على الخليفة وأمه معاً وصار هو الحاكم الفعلي أما الخليفة فكان أشبه بالمعتوه لا يهتم إلا بالأشياء السخيفة التي يجلبها إليه المشعوذون، كما يصفه ابن الخطيب بالقول: (كان مندرجاً في كنف كافله الحاجب المنصور، بحيث لا يُنسب إليه تدبير، ولا يُرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير، إذ كان في نفسه وأصل تركيبه مُضعفاً مهيناً مشغولاً بالنزهات، ولعب الصبيان والبنات، وفي الكبر بمجالسة النساء، ومحادثة الإماء، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات، فقد كان بخزانته من ألواح تعود إلى سفينة نوح، ومن قرون منسوبة إلى كبش إسحاق، ومن حوافر منسوبة إلى حمار عزيز، ومن ضفاف منسوبة إلى ناقة صالح، لم يسترب في تعددها.. إلى مصليات منسوبة

---

(1) ابن الخطيب، اعمال الأعلام، ص 44-47.

(2) والذي لُقب فيما بعد بالمنصور.

لعباد، وأواني وضوء متوارثة عن زهّاد: بذل في ذلك من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها، وهي مجتلبة من المجازر والمعاطي، ملتقاة من أيدي المخابث)[1]، وبهذه الشخصية الهزيلة للخليفة الشرعي، أصبح الحكم الفعلي في الأندلس بيد الأسرة العامرية وليست بيد بيت الملك، وصارت هذه الأسرة تستبد بالحكم وتُصرف شؤونه بإرادتها التامة، وهكذا رأينا الخلافة الأموية تسقط في الأندلس لتفسح المجال لعهد الدولة العامرية والتي كانت ممثلة في الحاجب المنصور بن أبي عامر وولديه المظفر وعبدالرحمن.

لمحة عن تاريخ بني عامر

يرجع تاريخ هذه الأسرة إلى عرب اليمن، وكان جدّ ابن أبي عامر وهو عبدالملك المعافري من رجال العرب الأوائل الذين اشتركوا مع طارق بن زياد في الفتح الإسلامي الأول لإسبانيا، وقد أبدى شجاعة وبسالة عاليتين في فتح قرطاجنة، وبعدها استقر بنو عامر في مدينة طرش بعد الفتح، واستمرت العائلة في خدمة الدولة الإسلامية في الأندلس.

فخدم أبو عامر بن الوليد وابنه عامر في عهد الدولة الأموية، وكان عبدالله بن عامر والد المنصور رجلاً اهتم بالدين وانصرف إلى الحياة الدينية. وهكذا نشأ ابنه محمد دارساً للحديث والأدب واللغة على يد أبي علي البغدادي، وعلى أبي بكر بن القوطية، ودرس الحديث على أبي بكر بن معاوية القرشي. أما ابن أبي عامر فقد اتخذ مهنة الكتابة فافتتح دكاناً عند باب القصر يكتب فيه للخدم ومرافقي الخليفة ما يريدونه من رسائل أو غير ذلك. حتى وصل خبره إلى زوجة الخليفة صبح البشكنسية وتطورت علاقتهما حتى أصبح كاتبها فأعجبها كثيراً ونقلت إعجابها إلى الخليفة الحكم وأوصته بأن يهتم به فولاّه قضاء بعض المواضع في رية، وأثبت كفاءة عالية ترقّى بعدها إلى مناصب الزكاة المواريث في أشبيلية، ولقد أصبح له موقع متميز في

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 58.

قلب صبح لما قدّمه لها من التحف والخدمات ما لم يتمكن به غيره[1] وتذكر الروايات أنه صنع قصراً من الفضة لصبح أم هشام وحمله على رؤوس الرجال حتى أن الخليفة الحكم قال عنه: (إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا بما يتحفهن به). وقال عنه ابن بسام: (فعلت حاله، وعرض جاهه، وعمر بابه في حياة الحكم، وهمّته ترتمي به ما وراء ما يناله أبعد مرمى، وهو في كل ذلك يغدو إلى باب جعفر ويروح، ويختص به ويتحقق نصيحته، إلى أن أحظاه الجد، وساعده القضاء)[2]. ويذكر مصدر تاريخي آخر الأسباب التي أهلّت ابن أبي عامر لتبوأ هذه المكانة في قرطبة وفي نفس زوجة الخليفة الحكم صبح بالقول: (بحسن الخدمة وموافقة المسرّة وسعة البذل في باب الإتحاف والمهاداة، حتى استهواها وغلب على قلبها، وكانت الغالبة على مولاها، وابن أبي عامر يجتهد في برّها والمثابرة على ملاطفتها، فيبدع في ذلك، ويأتيها بأشياء لم يعهد مثلها.. وقال الحكم يوماً لبعض ثقاته: ما الذي استطلف به هذا الفتى حَرَمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه، ولا يرضيهن إلا ما أتاه، إنه لساحر عليم أو خادم البيت، وإني لخائف على ما بيده)[3]، ولقد صدق ظنّ الحكم بهذا الرجل الذي استطاع إنهاء حكم الأسرة المالكة وابتداء تاريخ جديد لحكم الأسرة العامرية في الأندلس، ومما يذكر عن الحظوة التي كان بها مؤسس الدولة العامرية عند الخليفة الحكم هو أنه عندما مات عبدالرحمن الابن الأصغر للخليفة، قام الخليفة بتقليده وظيفة جديدة وهي أن يكون وكيلاً لهشام ولي العهد، وهذا المنصب الجديد أدى إلى ارتفاع مكانة ابن أبي عامر في الدولة، وإمساكه بالخيوط المهمة لتسيير دفّة الحكم فيما بعد. ولقد أظهر هذا الرجل سياسة راجحة في كسب التأييد له من خلال هذا المنصب، فسعى إلى التعامل مع الرعية بأخلاق رفيعة وسهّل عليهم مقابلته وجعل داره داراً للضيافة والكرم ولم يقلل من شأن منافسه

(1) المقري، نفح، ج 1، ص 376.

(2) ابن بسام، الذخيرة، المجلد 4، ص 43.

(3) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 375.

جعفر بن عثمان المصحفي وهو يغدو إلى داره ويختص به[1]. كما أصبح ابن أبي عامر صاحباً للشرطة الوسطى سنة 361 هـ ثم قاضي القضاة بالمغرب، وقد كلّفه الخليفة الحكم بأخذ البيعة لهشام سنة 365هـ فقام ابن عامر بتوزيع قرار البيعة على الناس جميعاً رعية ومسؤولين. وبعد موت الخليفة الحكم، قام ابن أبي عامر بالتكشير عن أنيابه واستخدام أسلوب التصفية الجسدية لكل الطامعين إلى موقع الخلافة حتى ولو كان رجل بوزن المغيرة أخ الخليفة الحكم. ولقد نفّذ فعلاً هذه التصفية بقيامه بقتل المغيرة خنقاً [2] وإقصاء أكبر المنافسين واستتباب الأمر كله له في الحكم الفعلي.

عهد المنصور ابن أبي عامر

بعد أن انتصر هذا الرجل بمبايعة الفتى القاصر هشام للخلافة، وبعد يومين فقط تسلّم منصب الوزارة تاركاً الحجابة لأبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفي. وهنا بدأ الصراع الخفي بين الرجلين، فكانت سياسة الحاجب تقوم على الاستئثار بالأعمال، واحتجان الأموال[3]، أي أنه كان ينفرد في شؤون الدولة، ويوزع المناصب على أقاربه وفيه تشير المصادر التاريخية بأن جعفر (تجرد للعليا، وتمرد في طلب الدنيا، حتى بلغ المنى، وتسوغ ذلك الجنى، فسما دون سابقة، وارتقى إلى رتبة لم تكن للبيئة بمطابقة، فألتاح في أفياء الخفة، وارتاح إليها بعطفه كنشوان السلافة، واستوزره المستنصر وعنه قد كان يسمع وبه يبصر، فادرك بذلك ما أدرك، ونصب لأمانيه الحبائل والشرك واقتنى وادخر، وزرى بمن سواه وسخر)[4]. ولقد كان المنصور له بالمرصاد فعارضه في هذه السياسة مستغلاً علاقته بأم الخليفة صبح إذ كان المنصور (يمكر به ويضرب بين

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 365.

(2) ابن الخطيب، عمال الأعلام، ص 58.

(3) ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع من المجلد الأول، ص 42.

(4) انظر السيد سالم، المسلمون وآثارهم، حاشية رقم (2).

حمدته، ويناقضه في أكثر ما يعامل الناس به، ويستعمل إليهم بالبذل وقضاء الحوائج، ويتقدم من المعالي إلى ما يحجم جعفر عنه، يستضم الرجال وجعفر يدفعهم)[1]

ولم يكن طريق المنصور معبّداً تماماً للوصول إلى رأس السلطة العليا، إذ أن وجود منافسين له في الداخل والخارج شكّل هاجسه الأول، فاستطاع أن يطيح بهم بالدهاء والمكر، وكان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي أبرز خصومه السياسيين، ومن الحوادث التاريخية التي استغلها المنصور للإيقاع بجعفر، هي غارة القشتاليين على قلعة رباح بعد وفاة الحكم بزمن قصير والتي كانت قاسية على أهل الثغور الذين لم يصمدوا أمام القشتاليين، وجاءوا صوب قرطبة يطلبون العون والنجدة، وقد خذلهم الحاجب جعفر، ولم يقاتل القشتاليين، رغم وجود جيش قرطبة القوي مع المال الوفير، فقام المنصور بتهيئة الجيش للجهاد وإعداد السلاح والعُدّة المناسبة للقتال، وقاد المنصور هذه القوات بعد اكتمال استعدادها للقتال، فسار سنة 366هـ / 977م قاصداً الثغر الجوفي إلى جليقية، فاجتاز وادي آنة ثم عبر نهر تاجو وحصن الحامية[2]، وافتتح ضواحيه، وحصل على غنائم كثيرة، ثم رجع بالغنائم والسبايا إلى قرطبة إذ استُقبل بحفاوة وتكريم، وحظي بثقة المقاتلين لشجاعته فالتفتوا حوله[3]، وبهذه الحادثة أخذت أهمية الحاجب جعفر وشعبيته تنخفض أمام صعود نجم المنصور، ولقد تابع المنصور سياسته للإيقاع بالحاجب فانتهز فرصة العداء بين الحاجب جعفر وأبي تمام غالب الناصري حاكم مدينة سالم القائد لعسكري المحنك، فاستمال غالب لجانبه وتزوج ابنته أسماء فأصبح الجيش بيده، وأخذ المنصور بامتداح غالب وإعلاء منزلته عند السيدة صبح أم الخليفة هشام، حتى نجح في تقليد غالب من قبل الخليفة منصب ذي الوزارتين، وأمره بالاجتماع مع المنصور لتدبير شؤون الجيش، حيث يكون جيش

---

(1) ابن بسام، ص 43.

(2) يقع هذا الحصن في مديرية سلمنقة ويقابل بلدة بانيوس على حدود إقليم ليون وأسترامادور، وعلى السفح الغربي لسيرا جريدوس حيث يطلق على قمتها اسم مكان المنصور العربي.

(3) ابن عذارى، البيان، ج2، 394، المقري، نفح الطيب، ج 4، ص 86-87.

قرطبة تحت إمرة المنصور وجيش الثغور بإمرة غالب[1]. فسار ابن أبي عامر في سنة 366هـ / 977م بالصائفة الثانية واجتمع مع غالب بمدينة مجريط، وتم الاتفاق على الإطاحة بالحاجب جعفر المنصور المهزوز المكانة لدى الخليفة، وسارا بجيشهما صوب وادي الرمة. وافتتحا حصن مولة، وغنموا الكثير، فعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة بالغنائم والسبايا مستفيداً من الانتصار العسكري الذي كان يرجع بالدرجة الأولى إلى غالب الذي قال له وهو يودعه: (سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل يشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصة، فإياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلدها دونه)[2].

وكان لهما ما أرادا، فقام الخليفة بعزل جعفر عن رئاسة الشرطة والمدينة وتقليدها لابن أبي عامر[3]، ولقد أظهر ابن أبي عامر كفاءة عالية ونزاهة في إدارة شؤون الشرطة والمدينة، حتى أنه (سدّ باب الشفاعات، وقمع أهل الفسق والزعارات حتى ارتفع البأس، وأمن الناس. وأمنت عادية المتجرمين من حاشية السلطان، حتى لقد عثر على ابن له فاستحضره في مجلس الشرطة وجلده جلداً مبرحاً كان فيه حِمَامة، فانقمع الشر في أيامه جملة)[4]. وكان جعفر قد انتبه إلى هذه المؤامرة ضده، فسعى إلى مبادرة للمصالحة مع غالب، وخطب أسماء ابنته لابنه عثمان، ولكن ابن أبي عامر أفسد هذه الخطبة، وتزوج أسماء كما ذكرنا، وبعدها خرج مع صهره غالب للغزو فالتقيا في طليطلة وافتتحا معاً حصن رنيق، واستوليا على ضواحي سلمنقة وعاد ابن أبي عامر كعادته إلى قرطبة بالغنائم فعظمت منزلته عند الخليفة[5] وقلّده منصب ذي الوزارتين،

(1) المقري، ج4، ص 88.

(2) ابن عذارى، ج2، ص 396.

(3) كان هذا المنصب محتكراً من قبل جعفر منذ عهد بعيد إلى ابنه محمد.

(4) ابن بسام، الذخيرة، المجلد الأول، القسم الرابع، ص 47.

(5) الحقيقة ان المنصور لم يكن مهتماً لمنزلته عند الخليفة لأن الخليفة أصلاً غير معنيّ تماماً بشؤون الخلافة، ولكن المهم عند المنصور هو منزلته في قرطبة والتي ستساعده على القضاء على خصومه.

بينما قلّد غالب الحجابة بالاشتراك مع جعفر، ولقد بلغ ابن أبي عامر منزلة رفيعة عند الخليفة أو بالحقيقة عند أمه، فامر أن يكون زواج المنصور في قصر الخلافة، ولقد مضى إلى الإيقاع بجعفر الحاجب حتى بعد أن كفّ هذا عن معارضة وأخذ يسايره، إلا أن ابن أبي عامر استطاع أخيراً من إفساد علاقته بمركز القرار في الخلافة نهائياً، وأدى إلى عزله عن الحجابة سنة 367هـ / 978م، وامر بالقبض عليه وعلى ولده، وسجنهما في سجن المطبق بالزهراء، وطالبهم بالأموال التي تصرفوا بها، وأوكل إلى ابن أبي عامر لمحاسبتهم، فأخذ يمارس القسوة معهم ويصفي أموالهم، وينتهك حرماتهم، فقُتل هشام ابن أخي جعفر في المطبق، وباع ابن أبي عامر قصر الحاجب السابق جعفر في الرصافة، وكان من أعظم قصور قرطبة، واستمرت محنة جعفر ستين يفرج عنه حيناً ويعاد إلى السجن حيناً آخر، وأخر ينقله المنصور معه في غزواته، حتى أودع سجن المطبق بالزهراء، وقضى في سجنه الأخير عدة أيام، ثم أُخرج ميتاً وسُلّم إلى أهله، وليس على جسده شيء يواريه غير كساء خلق لبعض البوابين[1]. ومما يذكر أن جعفر المصحفي كان شاعراً فكتب إلى الخليفة يسأله العفو بقوله:

هبني أسأت فأين العفو والكرم ... إذ قادني نحوك الأذعان والندمُ
يا خير من مُدت الأيدي إليه أما ... ترثي لشيخ نعاه عندك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر ... إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا[2]

كما ينقل عنه قوله:

لا تأمنن من الزمان تقلباً ... إن الزمان بأهله يتقلبُ
ولقد أراني والليوث تهابني ... وأخافني من بعد ذاك الثعلب

وهكذا طوى ابن أبي عامر صفحة خصمه اللدود جعفر، وأخذ يستعد لتصفية شخصية قوية قد ينازعه الحكم وهو صهره غالب أمير الثغور وحاكم مدينة سالم

(1) نفس المصدر، ص 50-53، المقري ج 2، ص 124، 125.

(2) ابن العذارى، البيان، ج 2، ص 286.

القائد العسكري الشجاع، الذي كان السبب الحاسم في انتصارات ابن أبي عامر وحليفه القوي ضد جعفر.

فرسم المنصور خطة محكمة لاحتواء نفوذ صهره غالب تمثلت بالاستعانة بقائد عسكري يشار له بالبنان وهو جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي، وهو من أصل أندلسي، قد انضم جدّه ووالده إلى دولة الفاطميين في المغرب ولما رحل الفاطميون إلى مصر تركوا على حكمها الزعيم الصنهاجي يوسف بن بلكين بن زيزي، مما أدى إلى غضب جعفر بن حمدون الذي كان يطمح بهذا المنصب، فترك المغرب وجاء إلى الأندلس هارباً، حيث لجأ هو وأخوه يحيى إلى الخليفة الحكم المستنصر، الذي رحّب بهما وجعلهما حُكاماً للمغرب. بعد أن قمع حركة الحسن بن جنون كما مرّ بنا سابقاً، وهكذا استدعى ابن أبي عامر هذا القائد من المغرب، فاستجاب لندائه وجاء مع جنوده البربر إلى الأندلس بعد أن ترك الأمر لأخيه يحيى في المغرب.

ولقد قابلهم المنصور بالحفاوة والتكريم وأطلق على هذه القوة الجديدة اسم جند الحضرة أي جيش العاصمة، وأغدق عليهم بالأموال حتى صاروا قيد إرادته، وبهذا حقق المنصور عامل التوازن بين قوة جيش الثغور بقيادة غالب وجيش العاصمة بقيادته، ولقد ضاق غالب بهذا التصرف وغيرها من التصرفات التي يتبعها المنصور في الانفراد بكل شؤون الدولة العسكرية والإدارية، فتوترت العلاقة بين الحليفين بالأمس، لا سيما وأن منصب الحجابة كان مشتركاً بينهما، لكن المنصور استبد بالسلطة وسيطر على الخليفة وحجر عليه، معتمداً على القوة البربرية الجديدة التي استخدمها خير استخدام، فرتب منهم جنوده واصطنع أولياءه، واتخذ فريقاً من الخصيان الصقالبة عزموا بالخلفاء، كما سعى إلى تقديم البربر في المناصب على العرب فتم له الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر[1] ولم يكتف بسيطرته على قرطبة بل سعى إلى اقتحام معقل صهره غالب الذي كان مسؤولاً عن الثغور، والمشاركة معه في

(1) ابن خلدون، كتاب العبر، ج 2، ص 147-148.

الحروب الشمالية حتى يكسب الجولة كاملة ويسحب البساط من قدمي غالب في الثغور أيضاً. وسار إلى الشمال والتقى في حصن أنتية في الثغور الشمالية بالقائد غالب، ودار بينهما نقاش وعتاب في وليمة أقامها له صهره غالب، تطورت هذه المشادة إلى معركة كلامية جارحة، أقدم غالب على استلال سيفه ضارباً المنصور محاولاً قتله لكن المنصور نجا بأعجوبة من هذه المكيدة. بعدها أعلنت العداوة العلنية بين الرجلين. فأخذ غالب يستعد لمواجهة انتقامية محتملة من قبل المنصور وقواته البربرية فسعى للتحالف مع بعض ملوك الدول الإسبانية الشمالية، التي كانت ترحب بمثل هذه النزاعات في الدولة الإسلامية الأندلسية. وفي سنة 371 هـ وقعت المعركة الحاسمة بين المنصور وغالب استطاع غالب أن يظهر شجاعة وبراعة في ميدان القتال لا تتناسب مع كبر سنّه الذي قارب الثمانين عاماً، ولكنه سقط في الأخير من فرسه ميتاً من غير أثر لطعنة أو ضربة سلاح فقيل أن قربوس سرجة أصاب جانب قلبه، وقال آخرون غير ذلك، ولم يتفقوا في تحديد السبب الحاسم في موته.

وبموت غالب أزاح المنصور أكبر عقبة كانت تقع في طريقه للانفراد الكامل في السلطة، ولم ينس أن يتخلص من قائده الأندلسي من البداية مخافة أن يستثمر انتصارات قوته البربرية ليتحول إلى طامح جديد ومنافس للمنصور الداهية في المكر والتخلص من حلفائه في لحظة الانتهاء من خدماتهم لبلوغ مآربه الخاصة، فهو لم يتورع باستخدام كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للقضاء على خصومه الفعليين أو المحتمل وجودهم كما هو الحال مع القائد الأندلسي الذي جاء من المغرب ليكون الساعد الأيمن للمنصور في القضاء على عدوه القوي القائد غالب، فما كان جزاءه غير إيقاعه في مكيدة من خلال دعوته إلى حفلة مندامة، تعمد المنصور الوصول بالقائد إلى حد الثمالة والسكر، وبعد انصراف ضيفه أرسل له من يقتله في الطريق إلى منزله. وهكذا كان جزاء المنصور لصاحبه. وفي هذه الحالة استتب الأمر كاملاً لابن أبي عامر في سنة 371هـ / 981م إذ تلقّب بالمنصور (ودعي إليه على المنابر به، استيفاءاً لرسوم

الملوك، فكانت الكتب تنفذ عنه: من الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن ابي عامر إلى فلان، وأخذ الوزراء بتقبيل يده ثم تابعهم على ذلك وجوه بني أمية، فساوى محمد بن أبي عامر الخليفة في هذه المراتب. ولم يجعل فرقاً بينه وبين (الخليفة) إلا في الاسم في تصدير الكتب عنه، حتى تنامت حالة من الجلالة وبلغ غاية العز والقدرة)[1].

ولقد وصف ابن الخطيب سياسة المنصور الذي اتسمت بالدهاء والمكر والخديعة وصولاً على هذه الحالة من الجاه العالي بقوله (كان آية من آيات الله في الدهاء والمكر والسياسة، عدا بالمصاحفة - أصحاب الحاجب جعفر المصحفي - على الصقالبة حتى قتلهم، ثم عدا بغالب على المصاحفة حتى قتلهم، ثم عدا بجعفر بن الأندلس على غالب حتى استراح منه، ثم عدا بنفسه على جعفر حتى هلكه. ثم انفرد بنفسه ينادي صروف الدهر، هل من مبارز؟ فلما لم يجده، حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعده. واستقام له أمره منفرداً بسابقة لا يشاركه فيها غيره)[2]. والحق فإن ابن الخطيب قد أوجز ببلاغة عالية سيرة المنصور التي قطعها محارباً لمنافسيه في السلطة حتى بلوغه ذروة المجد على راس الدولة العامرين، بعد أن أنهى سلطة الخليفة حتى الشكلية.

سياسة المنصور العسكرية:

بعد أن وطّد المنصور أركان حكمه داخل الأندلس، سعى إلى العمل على متابعة الفتوحات الخارجية، معتمداً على مبدأ الجهاد في سبيل الله لكي يكتسب عمله الشرعية الدينية لضمان تأييد الناس له، فبدأ بغزو الممالك المسيحية الشمالية قائداً للجيوش الإسلامية بنفسه، ولقد كثرت هذه الغزوات حتى زادت على الخمسين غزوة، وكان له في السنة غزوتان في الربيع وفي الخريف (الصوائف والشواتي) رغم إصابته بمرض النقرس الذي كان يعالجه بالكي على رجليه ويديه. ولم تسجل له أية هزيمة في غزواته خلال فترة حكمه التي بلغت خمساً وعشرين عاماً، ويروى عنه أنه

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 379-380.

(2) ابن الخطيب، اعمال الأعلام، ص 77.

كان يجمع الغبار العالق على وجهه في غزواته، فكان الخدم يحفظون غبار وجهه بالمناديل. في كل غزوة حتى صار منه صرة ضخمة، أوصى بأن تكون حنوطاً له عند موته، وكان يحمل هذه الصرّة أينما سار مع كفنه تحسباً للموت في أي لحظة[1]، وهذا يدل على أن المنصور قد خاض قتالاً في جبهات كثيرة مع الدول المسيحية الإسبانية، فقد شهدت قشتالة وليون، ونبرة، وقطالونيا صولات المنصور وجيشه الذي أنزل بهذه المدن الخسائر الفادحة ووصل فيها إلى ما لم يصل إليه ملك من المسلمين من قبل، واستطاع أن يسيطر على جميع إسبانيا شمالاً وجنوباً.

وكانت غزوته على برشلونة وقطالونيا قد خرجت من قرطبة واتخذت مسيرتها على طرق البيرة وبسطة ثم مرسية، ومن هناك اتجهت شمالاً في الطريق الساحلي الشرقي المطل على البحر المتوسط حتى بلغت برشلونة بعد شهرين تقريباً، فاستطاعت أن تحتل المدينة ولم يجرؤ حاكمها بريل الثاني على مواجهة جيش المنصور. ومن أهم غزوات المنصور التي زادت على الخمسين، غزوته الرابعة وفيها وصل إلى مدينة سمورة سنة 371هـ / 981م، وهزم ملكها ردميرة الثالث وهدم المدينة واستباحها [2]، وعلم المنصور بعد ذلك أن الملوك المسيحيين عقدوا حلفاً ضد الإسلام في الأندلس، وأن هذا الحلف يتألف من ردميرة الثالث، وقومس قشتالة غرسيه وملك بنبلونة شانجة، فأسرع المنصور للسير إلى طليطلة، ووصل إلى وادي دويرة الأوسط حيث كان تجمع القوات المسيحية، والتحم الجيشان في رويدة في مقاطعة بلد الوليد على بُعد 25 كم جنوب غرب شنت مانكش، وانتصر فيها جيش المنصور.

وتعد حملة جليقية وهي الغزوة الثامنة والأربعون من الغزوات المهمة، والتي كان غرضها هو غزو مدينة شنت ياقب أي القديس يعقوب أو سان جاك، أحد الحواريين الإثني عشر ومن أخص الناس بيسوع المسيح حتى اعتبره المسيحيون أخاه للزومه إياه. ويرى المسيحيون أن هذا القديس كان أسقفاً لبيت المقدس وأنه كان داعية في

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 288.

(2) ابن الخطيب، كتاب أعمال الأعلام.

الأراضي لدين يسوع المسيح حتى مات هناك ودُفن فيها، وأقاموا فوق ضريحه كنيسة عظيمة هي كنيسة سنتياجو. يحج إليها المسيحيون من جميع أنحاء العالم، ولا تزال مدينة شنت ياقب هي القاعدة الدينية لإسبانيا، والميثولوجيا الإسبانية تشير إلى أن سنتياجو، كان يخرج للمحاربين الإسبان على شكل ملاك بيده سيف، ويمتطي فرساً أبيض ليعاون المقاتلين المسيحيين في حروبهم ضد المسلمين، حتى يكتب لهم النصر، ولهذا أطلقوا عليه لقب قاتل المسلمين.

ولهذا نرى[1] أن هدف المنصور هو الوصول إلى كنيسة سنتياجو وهدمها لتحطيم أسطورة سنتياجو الحربية، لطعن الإسبان في صميم زعامتهم القومية والروحية.

وقد اشترك في هذه الغزوة الأسطول الأندلسي الذي حمل المشاة والأسلحة والأرزاق واقلع من ميناء قصر أبي دانس على ساحل غرب الأندلس واتجه نحو الشمال، بينما سار المنصور براً على رأس قواته البرية مخترقاً الأراضي الإسبانية شمالاً حتى بلغ نهر دويرة، وهناك التقى بأسطوله الذي دخل النهر وعقد منه جسراً لعبور الجند ثم زحف المنصور بقواته مخترقاً بلاد العدو حتى بلغ مدينة سانتياجو، فوجدها خالية لفرار سكانها فأمر المنصور بتدمير المدينة وكنيستها، وعاد محملاً بالأسرى والغنائم والتي كان من بينها أبواب الكنيسة ونواقيسها والتي استخدمت في تسقيف الجزء الذي زاده في جامع قرطبة، كما استعمل النواقيس ثريات للمسجد. وكان من نتائج هذه الحملة أن اكتسب المنصور شعبية كبيرة بين المسلمين وزادت هيبته وسطوته داخل البلاد وخارجها وفي هذا الباب يقول عبدالواحد المراكشي في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب بالقول: (وملأ الأندلس غنائم وسبياً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم، وفي أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلي والدور، وذلك لرخص أثمان بنات الروم، فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزونهن به، ولولا ذلك لم يتزوج أحد. بلغني أنه نودي على ابنة عظيم من

---

(1) انظر د. مختار العبادي، في التاريخ المغرب والأندلس، ص 248، وما يليها.

عظماء الروم بقرطبة، وكانت ذات جمال رائع، فلم تساوِ أكثر من عشرين ديناراً عامرية).

ومن سيرة المنصور في غزواته نرى أنه لم يكن ورعاً للجهاد في سبيل الله، بقدر ما كان سفاحاً سياسياً لا يرى في أعماله غير تثبيت سلطته بارتداء مختلف الأقنعة، ولقد اختلفت آراء الباحثين في قيمة وأهمية غزوات المنصور ونشاطه العسكري الضخم، فيعدّه باحث معاصر[1] بأنه مفخرة من المفاخر الإسلامية، لم تشغله أمور الدولة عن الجهاد وأن المنصور غرس في قلوب أعدائه الرعب والهلع، فيما يرى باحث آخر إن عهد المنصور قد عُرف بنشاط عسكري ضخم، بيد أن النتائج كانت هزيلة، ويرى ثالث[2] أن المنصور كان دموياً في تعامله مع منافسيه، ومع أعداء الدولة من الثوار. ولعل من غرائب التفاسير في سيرة المنصور ما يورده الدكتور حسين مؤنس[3] بقوله: (وربما تغاضى الناس عن جرائم المنصور لو أنه كان وريث بيت ملك وسيادة ولا ننسى أننا في العصور الوسطى، أيام كان الناس يؤمنون بأن هناك بيوتاً عريقة ذات حسب، ولها الحق في أن تصل إلى الملك، أما بقية الناس فلا حق لهم في الوصول إلى العرش). وكأن خروج الحاكم من بيت ملك أو نسب قرشي سيعفيه من المساءلة التاريخية في دراسة التاريخ موضوعياً دون تحنيطه بالظروف الأحادية السائدة في ذلك العصر.

ولم يكتف المنصور بنشاطه العسكري في الأندلس، بل امتد إلى المغرب، مقلداً سياسة خلفاء بني أمية مثل عبدالرحمن الناصر والحكم، والتي تقوم على ضرورة الاحتفاظ بالجبهة المغربية لتكون خطاً دفاعياً أمامياً ضد الخطر الشيعي من الجهة الجنوبية. فأول هجوم واجه المنصور من المغرب كان في سنة 369هـ / 979م، بقيادة

---

(1) السيد سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 331.

(2) د. محمد عبده حتاملة، الأندلس، التاريخ والحضارة والمحنة، ص 408.

(3) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 345، رغم أنه يشير إلى غزوات المنصور بأن لها دويّ عظيم ونتيجة قليلة، ص 342.

الأمير بلكين بن زيري الصنهاجي ملك الدولة الزيرية في المغربين الأدنى والأوسط، ولكن المنصور استطاع أن يعدّ له جيشاً كبيراً في منطقة سبتة وعندما رأى هذا المغربي جيش المنصور من أعالي الجبال المطلة على سبتة. اقتنع أن سبتة بجيش المنصور اصبحت كالحية التي قررت ابتلاعه فقال لأصحابه: (إنما سبتة حيّة ولت ذنبها حذاءنا وفغرت فاهاً نحونا)، فانصرف راجعاً إلى وطنه.

وفي سعي المنصور للسيطرة على المغرب جهز جيشاً في سنة 375هـ / 985م، وبعثه إلى (العدوة المغربية، فحاصر حسن بن قنون (جنون)، الشريف الحسني، كان قد حاول الخروج من الدعوة المرانية واجتمع إليه خلق من أهل المغرب، وظهره أمره)[1] وعندما وصل الجيش إلى المغرب لم يجد ابن جنون طريقاً سوى الاستسلام وطلب الأمان، فأجابه قائد الجيش، وجاء به إلى قرطبة، فأمر المنصور بقتله ليلاً في الطريق بغياً وتعدياً [2]، واستمرت نشاطات المنصور العسكرية في المغرب بالانتصارات على مناوئيه في المغرب إلى أن نجح في ذلك نجاحاً باهراً لم يبلغه أحد من قبل ولا من بعد، إذ أدخل للطاعة الأموية كل بلاد المغرب الممتدة إلى سجلماسة جنوباً سنة 370هـ وإلى ولايتي تلمسان وتاهرت شرقاً سنة 381هـ.

ولقد أثار مقتل الحسن بن جنون غضب واستياء العلويين من المنصور، فأخذوا ينتقدونه في مجالسهم ويهجونه في أشعارهم، ومنها قول الشاعر إبراهيم بن إدريس الحسني:

فيما أرى عجب لمن يتعجب	جلّت مصيبتنا وضاق المذهب
أني لأكذب مقلتي فيما أرى	حتى أقول غلطت فيما أحسب
أيكون حياً من أمية واحد	ويسوس ضخم الملك هذا الأحدب

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 398.

(2) ابن عذارى، البيان،ج 2، ص 279-280.

تمشي عساكرهم حوالي هودج أعوانه فيهن قرد أشهب
أبني أمية أين اقمار الدجا منكم وما لوجوهها لا تغيب

ويبدو أن الشاعر يخاطب المنصور بالأحدب، وهذا ما يقوله عنه صهره غالب عندما كان يخاطبه (يصفه بالأحدب الملعون دلل على أن المنصور كان أحدباً فعلاً).

ولعل من أبرز المخاطر التي واجهت المنصور في المغرب هي ثورة الزعيم المغربي زيري بن عطية الزناتي عام 386 هـ / 996م. وكان الزناتي حليفاً للمنصور في إنهاء ثورة الحسن بن جنون العلوية، على هذا أقامه المنصور حاكماً على بلاد المغرب، ولقد اتسمت علاقتهما في البداية بالود والصفاء، إذ كان الزناتي حريصاً على إظهار الولاء للدولة الأموية بقيامه بإرسال الهدايا الثمينة إلى المنصور، لكن هذه العلاقات اتخذت طابع الفتور والتوتر بعد أن طمع الزعيم المغربي بالاستقلال عن الأندلس، وتختلف المصادر التاريخية في تحديد أسباب الخلاف بين الزعيم المغربي والمنصور، فيشير أحدها إلى أن زيري بن عطية استقل العطاء الذي كان يخصصه له المنصور كل سنة، ويقال أن الزناتي قد استخفّ بلقب الوزير الذي لقبه به المنصور عندما ولاّه على المغرب، واستنكره عندما ناداه أحد رجاله بالوزير قائلاً له: (وزير يالكع، لا والله إلا أمير بن أمير، واعجبا لابن أبي عامر ومخرقته، لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله وأن له منا ليوماً)[1]. كما تشير رواية أخرى إلى أن الزعيم المغربي قد استاء من معاملة المنصور للخليفة، وتحالف مع السيدة صبح أم هشام التي ساءت علاقتها بالمنصور، وسعت إثر ذلك إلى إرسال الأموال إلى المغرب لجلب جيوش للقضاء على المنصور، فأخذت الأموال من بيت المال في القصر الخلافي بالزهراء، ووضعتها في جرار على شكل هدايا إلى حليفها الجديد المغربي زيري بن عطية، ولكن المنصور اكتشف المؤامرة فاستولى على الأموال، وقام بنقل بيت المال من مدينة الزهراء إلى مدينة الزاهرة التي بناها كبديل لمدينة الخلافة واتخذها مقراً لحكمه[2].

(1) ابن خلدون، العبر، ج 2، ص 41.

(2) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 302.

ومهما تكن أسباب الخلاف بين الزناتي والمنصور فقد أعلن الزعيم المغربي القطيعة مع الأندلس إذ أقدم على طرد عمال الخلافة من جميع البلاد المغربية سنة 386هـ / 996، ما عدا القواعد الأموية المطلة على المضيق مثل سبتة وطنجة ومليلية، وكان قد اتخذ شعاره الحربي بعبارة (هشام يا منصور) ولقد قابل المنصور هذه الإجراءات بأن عزل الزعيم المغربي عن الوزارة وقطع ما كان يعطيه من راتب، وأعلن براءته منه، واستعد له بجيش جهزه بقيادة مملوكه واضح الصقلبي قائد مدينة سالم، وسار الجيش إلى المغرب عابراً المضيق سنة 387هـ / 977م ونزل في مدينة طنجة إذ انضم إليه الموالين للمنصور من قواد البربر ومقاتليهم، بعدها سار واضح الصقلبي بالجيش إلى مدينة فاس ولكنه لقي مقاومة شديدة من جيش الزعيم المغربي فاضطر للانسحاب إلى طنجة ولما وصلت أخبار هزيمة جيش المنصور إلى الأندلس، لم يقف المنصور مكتوف لأيدي، بل قام بتجهيز قوة عسكرية ضخمة، إذ أنه ضمّ جميع جيوش الأندلس وسارّ بها إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى سبتة، وقام بتقليد ابنه عبدالملك المظفر بقيادة الجيوش وعزل واضح الصقلبي، وبقي المنصور في الجزيرة الخضراء لمراقبة نتائج المعركة عن قرب.

وعندما علم الزعيم المغربي بالقوات الأندلسية الكثيرة العدد، قام بالاستنجاد في جميع قبائل زناتة في أنحاء المغرب، فلبّت قبائل زناتة نداءه، فاستعد للقتال، وشهد وادي منى في طنجة وقائع المعارك الشرسة بين الطرفين وكان فيه القتال سجالاً، تعادلت كفتهما ولم يستطع أحدهما أن يحقق نصراً نهائياً على الآخر، إلا أن حدثاً دراماتيكياً قد أخلّ بميزان القوة لصالح الجيش الأندلس، إذ تشير الرواية إلى أن غلاماً أسود اسمه كافور بن سلام، كان الزعيم المغربي قتل أخاه من قبل، استطاع أن يصل إلى خيمة الزعيم ويطعنه طعنة نافذة في رقبته ثم هرب إلى معسكر عبدالملك بن المنصور يبشره بمقتل زيري، ولكن مصدر آخر ينسب محاولة قتل زيري إلى ابن عمه الخير بن مقاتل الذي طعنه في ظهره وهرب[1]. ومهما يكن، فقد أحدث هذا الفعل اضطراباً في الجيش المغربي فقام عبدالملك باستغلال الفرصة الذهبية، فحمل على

(1) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 421.

جنود زيري بن عطية واستطاع هزيمتهم والاستيلاء على مالهم وسلاحهم. ثم استولى على فاس وتادلا وسجلماسه وغيرها من المدن المغربية المهمة، واستطاع أن يبسط نفوذه على المغرب لأقصى، بعدها عاد عبدالملك بن المنصور إلى الأندلس، بعد أن تمّ تعيين واضح الصقلبي حاكماً على المغرب من قبل المنصور سنة 389هـ / 999م.

أما الزعيم المغربي فقد توفي متأثراً بجراحه وخلفه في زعامة زنانة ابنه المعز الذي اتبع سياسة المصالحة مع دولة الأندلس، وتم الصلح بعد أن دخل في طاعة المنصور، وبهذا يكون المنصور قد بسط نفوذه ثانية على معظم المغرب الذي صار يدين للدولة الأندلسية بالولاء.

وكان المنصور بعد هذا قد جنّد الكثير من البربر والمماليك[1]، وأكثر من الاعتماد على هؤلاء وخاصة البربر حيث قدمهم وآخر رجل العرب وأسقطهم عن مراتبهم[2] وهذا ما سيكون عاملاً لقوة البربر فيما بعد.

منجزات المنصور العمرانية والإدارية:

إن الحديث عن سياسة المنصور الدموية في الجانب العسكري واستخدامه كل الوسائل لتصفية خصومه السياسين، لا يلغي الحديث عن المنصور كرجل دولة استطاع استغلال حالة الفراغ السياسي في دولة الخلافة الأموية، للوصول وبسرعة إلى هذه المكانة الشخصية، مستغلاً كل الظروف المتاحة وأهمها ضعف الحكم المستنصر في آخر أيامه وإصراره على تولي ابنه القاصر هشام للخلافة من بعده كما أشرنا سابقاً. كما أن المنصور استطاع من بناء دولة قوية مهيبة. لما يتمتع به من مواهب وقدرات قيادية لا تُنكر، كما تشهد الرواية التاريخية على حرصه الشديد للإمساك بكل شاردة وواردة في الحكم. إذ أجاب مرة أحد خدّامه في ليلة أطال فيها السهر، عندما قال له الخادم: (قد أفرط مولانا في السهر، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم، وهو يعلم ما يحركه عدم

---

(1) المقري، نفح، ج 1، ص 397.

(2) نفس المصدر، ج 1، ص 397.

النوم من علّة العصب). فأجابه المنصور: (إن الملك لا ينام إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومي، لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة)[1]. فكان لهذا القائد إسهامات عمرانية شهدتها الأندلس في عصره ومنها بناء مدينة الزاهرة والتي جعلها البديلة لحكمه عن مدينة الزهراء التي يقيم فيها الخليفة، وقام أيضاً بتوسيع بناء المسجد الجامع في قرطبة سنة 377هـ / 987م، لكي يتسع لعشرات الآلاف من المسلمين الذين توافدوا على قرطبة وخصوصاً البربر من شمالي أفريقيا والتي (ضاقت الأرباض وغيرها، وضاق المسجد الجامع على حمل الناس)[2]. ويذكر أن الزيادة في المسجد كانت من جهته الشرقية مما اضطر المنصور إلى هدم الدور والمنازل القائمة في هذه الجهة بعد تعويض أصحابها عينياً أو مادياً، وقد استخدم الأسرى الإسبان في بناء الزيادة على المسجد الجامع وقد استغرق العمل فيها عامين ونصف وتمت في سنة 380 هـ.

كما أنشأ المنصور قنطرة على نهر الوادي الكبير[3]، وقد استغرق بناؤها نحو سنة ونصف، حيث بدأ العمل فيها سنة 378هـ / 988م، وتم الانتهاء من بنائها سنة 379هـ / 989م[4]، وقد أنفق على هذه القنطرة مائة وأربعين ألف دينار كما قام ببناء قنطرة أخرى على نهر شنيل لدى مروره بمدينة أستجه الذي تقول المصادر التاريخية عنها (فتشجّم لها أعظم مؤونة، وسهل الطرق الوعرة، والشعاب الصعبة)[5] ولم تقتصر سياسة العمران في عهد المنصور على الأندلس، بل شملت أيضاً البلاد المسيحية التي غزاها ولا سيما القريبة منها للحدود الإسلامية، شأنه في ذلك شأن أي ديكتاتور قديم أو معاصر في المساهمة في البناء وإعمار البلاد الذين يحكمونها لاعتقاده بدوام الملك له على كل هذه البلاد! كما كان للمنصور إسهامات إدارية في الجانب القضائي

---

(1) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 298.

(2) نفس المصدر، ج 2، ص 287.

(3) نهر قرطبة الأعظم.

(4) المقري، نفح، ج 1، ص 408.

(5) ابن عذاري، البيان، ج 2، ص 288.

والأمني وتنظيم القوات المسلحة، فعلى مستوى القضاء حرص المنصور على سير العدالة بصرامة شديدة، وهناك روايات كثيرة تشير إلى هذا المنحى وهذه الصرامة برأينا لا تدل على محبة العدل الحقيقية طالما أن المنصور كان فوق كل قانون ولا تطاله الأحكام العادلة التي يصدرها القضاة بحق الرعية ولو كانوا من المقربين له !!

وفي الجانب التنظيمي للجيش أعاد المنصور هيكلة النظام العسكري فقد كان الجيش قبل عهده يتكون من نظامين:

1. نظام عسكري دائم يُقيم في العاصمة ويتقاضى أفراده رواتب ثابتة، وتمثله فرقة الحرس النظامية المعروفة باسم الصقالبة وهي تمثل في العصر الحديث الجيش النظامي المحترف.
2. النظام الإقطاعي العسكري والذي تمثله القبائل العربية والمغربية والتي تتوزع على أنحاء المدن الأندلسية بعد الفتح العربي، وأبيح لها حق استغلالها وجباية عطائها من أموالها، في مقابل المساهمة في الحروب وهي تشبه تشكيلات الجيوش غير النظامية أو الاحتياط الذين يدعون في حالة اندلاع الحروب.

فعمد المنصور إلى إلغاء هذا النظام بجعل الجيش كله وحدة نظامية متماسكة خاضعة لسيطرته، فألغى العنصرية في الجيش، كما ألغى النظام الإقطاعي العسكري، بل وحدّ الجيش في فرق نظامية، وكل فرقة تتألف من عناصر المجتمع الأندلسي كافة كالعرب والبربر والصقالبة، وكل جندي يتقاضى راتباً شهرياً من الدولة حسب رتبته. ولقد كان هذا النظام قد ساعد المنصور في تحقيق انتصاراته العسكرية ورفع درجة الولاء للحكم المركزي في عهد قوته، ولكنه سيتحول إلى عامل تمزيق للدولة بعد ذلك كما سنرى فيما بعد. كما اشتهر المنصور بحبه للعلم والعلماء وعلى أثر ذلك استوزر أبا العلاء صاعد بن الحسن الربعي اللغوي البغدادي الذي له كتاب سماه: النصوص على كتاب النوادر لأبي علي القالي، وكان المنصور يعقد كل أسبوع مجلساً يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته من كان مقيماً بقرطبة، كما قام المنصور بإحراق ما كان في خزائن الحكم من الكتب الفلسفية.

نهاية عهد المنصور

لقد دام حكم المنصور سبعة وعشرين عاماً، وتوفي في 27 رمضان 392هـ / 1002م عن عمر ناهز الخامسة والستين عاماً، جمع خلالها المنصور نقائض الطباع البشرية في التعامل مع الأصدقاء والخصوم. وخلّف وراءه دولة قوية ولكنها تحمل في ثناياها بذور الفرقة والشقاق. وأوصى المنصور بالملك لابنه عبدالملك، ولقد اختلفت الروايات في سبب موته، رغم اتفاقها على أنه توفي بعد عودته من آخر غزواته على إمارة قشتالة. فالرواية العربية تؤكد أن موته نتيجة اشتداد المرض عليه، إذ يذكر ابن حيان: (إنه اقتحم أرض جليقية من تلقاء مدينة طليطلة، ومرضه يخف وقتاً ويثقل وقتاً، ونفذ إلى عمل بني غومس إلى أرض قشتلية.. فقويت عليه العلة هنالك، فاتخذ له سرير خشب وضع عليه أعضاءه، وسوى مهاده متطاول الشكل ويمكنه الاضطجاع عليه متى خارت قواه)[1] وظل هكذا حتى توفي في مدينة سالم التي دفن فيها. أما الرواية التي تذكرها بعض المصادر الإسبانية فتقول أن المنصور جرح في هذه الغزوة عند بلدة هناك في قشتالة تسمى قلعة النسور، وأنه مات متأثراً بجراحه، استناداً على مثل شعبي أسباني يقول ما معناه: في قلعة النسور مات المنصور وفقد طبله[2].

ولاشك أن وفاة المنصور قد أحدثت في الأوساط المسيحية موجة من الفرح والدليل على ذلك أن الحوليات اللاتينية التي كان يكتبها الرهبان في الكنائس والأديرة، قد اهتمت بتسجيل هذا الحادث، فكتبت تقول: (في سنة 1002م مات المنصور وذهب إلى جهنم). ودفن المنصور في قصره في مدينة سالم وقد نقش على قبره الأبيات الشعرية التالية:

آثارهُ تنبيك عن أخباره   حتى كأنك بالعيون تراه
تالله ما ملك الجزيرة مثله   حقاً ولا قاد الجيوش سواه

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، المجلد الأول القسم الرابع، ص 55.

(2) أنظر، د. مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 266.

ويشير باحث معاصر[1] إلى أن الروايات الإسلامية أجمعت على التحدث بمآثر المنصور دون أن تخفي جرائمه ومعظمها يصفه بالتقوى.. والحقيقة أن رجالاً من طراز المنصور كانوا لا يتورعون عن الجرائم في سبيل سلطانهم، أما خارج السلطان وبعيداً عن منافساته فلا مانع أن يكون ذي عاطفة دينية واهتمام بشؤون العباد.

عبدالملك بن المنصور

تسلم الخلافة بعد موت أبيه وقد حصل من الخليفة هشام الثاني على تفويض يمنحه السلطات التي كان يحوزها المنصور في حياته، وكان عمره آنذاك 28 سنة، وقد لقب بالمظفر سيف الدولة، ولقد اختلف المؤرخون في توصيف سيرة هذا الرجل وسياسته في الحكم. فيذهب ابن الخطيب على أن عبدالملك قد افتتح عهده بإسقاط سدس الجباية عن جميع البلاد، ثم حرص على إظهار العدل، وحماية الشعب، ونصرة المظلوم، وقمع أعداء الدين، والتقرب من الأولياء الصالحين، فاجتمع الناس على حبه، ولم يداهنوا في طاعته، فانشرح قلبه، وخلّصه الله من الفتن[2]، فيما يشير مصدر آخر إلى أن المظفر كان منكباً على شرب النبيذ مستغرقاً في الملذات[3] ويؤكد باحث معاصر[4] أن عبدالملك لم يكن مؤهلاً للوقوف في وجه العقبات التي لابد له من تخطيها إذ كان ينقصه العمق الإنساني والتكوين الفكري، وأنه لم يكن غير جندي جاهل تربى وسط الجنود دون أن تكون لديه موهبة القيادة، فكان طوال حكمه القصير نهباً بين رجاله وأهمهم صقبلي من موالي أبيه يسمى (طرفة) ووزير مناور وخدّاع يسمى (سعيد بن القطاع) بالإضافة إلى إسرافه في الشرب، وسماعه وشايات الوشاة، ففتك بمولاه طرفة ثم قتل سعيد القطاع في مجلس شرابه على أسوأ صورة.

---

(1) د. مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 351.

(2) ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص 81.

(3) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 3.

(4) د. حسين مؤنس، معالم تاريخ، ص 381-382.

ونرى أن من أسباب ضعف شخصية عبدالملك بالإضافة إلى حداثة تجربته بالحكم وصغر سنه، هو أن شخصية والده المنصور القوية والقاسية المستبدة وخلال حكمه الطويل نسبياً لم يترك لأحد أن يظهر كفاءة ولا ممارسة في الحكم وخصوصاً لولده وخليفته لتجعل منه رجلاً مُجرباً قادراً على تولي المسؤولية، كما أن مراكز القوى العديدة والتي استطاع المنصور قهرها بالقوة والحيلة والدهاء كشرت عن أنيابها في عهد عبدالملك الذي لم يجار المنصور في شخصيته وقدرته على التعامل مع الظروف المختلفة في سياسات مناسبة، لكن شبه الإجماع التاريخي كان على أن عبدالملك سار على نهج أبيه في القتال ومع أنه لم يسدّ مسدّه، ولم يحلّ موضعه،وكان يزاحم بغير عود[1]، وقد حقق بعض الانتصارات في غزواته التي قادها، والتي قاربت السبع غزوات على حد بعض المصادر التاريخية.

وكانت أولى غزواته سنة 393هـ / 1002م، وقد استعد لها جيداً، وتسابق المسلمون للمساهمة فيها من الأندلس وخارجها، وتكاملت الحشود في قرطبة وتجهزت القوات بالمعدات والأسلحة الكافية، إذ أن عبدالملك قد أمر (خازن الأسلحة بتوزيع خمسة آلاف درع وخمسة آلاف بيضة، وخمسة آلاف مغفر على طبقات الأجناد الدراعين في جيشه)[2]، وتوجه بهذا الجيش إلى طليطلة ومنها إلى مدينة سالم، وإلى سرقسطة ومنها واصل زحفه شمالاً وتمكن من فتح الحصون و(أخذوا كثيراً منهم، وملكوا عيالهم وأبناءهم، وصاروا فيئاً للمسلمين)[3]. واستمر عبدالملك في غزواته التي لم تخلو من المهارة ولكنها كانت على طراز غزوات أبيه، أي أنها طلعات عسكرية قصيرة الأمد فغزا قطلونية وبرشلونة سنة 393هـ / 1003م، وأرغم أميرها رامون بوريل الثالث على طلب الصلح. وفي صيف 395هـ / 1005م غزا أرض ليون، وفي صيف 396هـ / 1006م غزا مملكة نبرة واحتل بنبلونة، وفي 397هـ / 1007م غزا كرنتية قشتالة، ثم

---

(1) د. حتاملة، الأندلس التاريخ والحضارة، حاشية رقم 7 ، ص 415.

(2) ابن عذاري، البيان، ص 4.

(3) نفس المصدر، ص 6.

غزاها مرة ثانية في العام التالي، وأراد أن يخرج للغزو للمرة الثالثة إلا أن المرض اشتد عليه وتوفي في عام 1008م / 399هـ. وهو في الرابعة والثلاثين من عمره.

وقبل أن نتطرق إلى الروايات المختلفة لموته وسبب هذا الموت، نذكر أن نشاط عبدالملك العسكري لم يقتصر على غزواته ضد المدن والممالك الإسبانية، فلقد كان له صولة في بلاد المغرب والذي جعل زعماء قبائل زناتة يسارعون إلى مبايعته والدعاء له وللخليفة هشام على المنابر. وقد كافأهم المظفر بأن استخدمهم في جيشه كما كافأ المعز بن زيري بن عطية بأن ولاّه حكم المغرب بدلاً من القائد الأندلسي مملوك المنصور واضح الصقلبي الذي أعاده إلى الأندلس. كذلك عمل عبدالملك المظفر مع بني زيري بن مناد الصنهاجيين حكام الدولة الزيرية في أفريقيا على عهد الفاطميين، بانتقال فرع منهم برئاسة زاوي بن زيري إلى الأندلس واستقروا بنواحي غرناطة.

والآن لننتقل إلى المصادر والروايات التاريخية ونعرف منها مدى التباين الذي تقدمه على موت عبدالملك المظفر كما اختلفت في سيرته في حياته.

يشير مصدر إلى أن حكم عبدالملك المظفر لم يستمر أكثر من سبع سنوات، وأصابته ذبحة صدرية أودت بحياته سنة 399هـ / 1009م.

فيما يذكر مصدر آخر مؤكداً تاريخ الوفاة سنة 399هـ / 1008م ويحدد بالضبط مدة ولايته التي امتدت ست سنين وأربعة أشهر وسبعة أيام[1] وإنه مات مسموماً ويورد مصدر آخر تفاصيل سبب موت عبدالملك المظفر فيقول: (أن أخاه عبدالرحمن سمّه في تفاحة قطعها بسكين كان قد سمّ أحد جانبيها فناول أخاه ما يلي الجانب المسموم، وأخذ هو ما يلي الجانب الصحيح فأكله بحضرته، فاطمأن المظفر، وأكل ما بيده منها فمات، فلما توفي ولي بعده أخوه عبدالرحمن)[2]. في حين يؤكد د. حسين مؤنس دون الإشارة إلى مصدر تاريخي بأنه توفي ربما بسبب التهاب رئوي نتيجة

---

(1) ابن عذارى، البين، ج 3، ص 4.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 7، ص 83-84.

لانهماك عبدالملك في ملذاته، واستهتاره بصحته وتعرضه للبرد وإسرافه في السهر حتى أعيى جسده[1].

في حين يرى باحث آخر أن موت عبدالملك حاكم الأندلس كانت ميتة غامضة، بعد أن برهن على أنه حاكم كفء وقائد عسكري من الدرجة الأولى وأن لم يبلغ شأن أبيه[2].

من الواضح أن هذا التخبط في نقل الوقائع التاريخية على مستوى المصادر التاريخية أو الاستنتاجات المعاصرة، تدل على اضطراب الوضع السياسي والاجتماعي العام في قرطبة العامرية حكماً واقعاً وخلافة أموية صورية معطلة. فإذا ما قلنا سابقاً أن الخلافة قد سقطت مع دولة بني عامر وكان عهد المنصور العامري يمثل صحوة الموت في تاريخ الأمويين في الأندلس، فإن عهد عبدالملك القصير كان مرحلة الإنعاش الاصطناعي لقلب الأمويين المعطوب.

عبدالرحمن بن المنصور ونهاية الدولة العامرية

بعد موت عبدالملك المظفر تولى الحكم أخوه أبو المطرف عبدالرحمن بن المنصور، الملقب بشنجول ويذكر ابن الكردبوس أن العامة لقبته بشنجول ومعناه الأحمق[3]، بينما يشير مصدر تاريخي آخر إلى أن شنجول هو تصغير لشانجة المسيحي ملك بنبلونة، وكان هذا الملك قد أهدى ابنته للمنصور فتزوجها وحسن إسلامها، وكانت من خيرات نسائه ديناً متيناً، وحسباً أصيلاً، وأولد منها عبدالرحمن[4] وامه اسمها عبده كانت تناديه في صغره شنجول تحبباً وتذكراً منها لاسم أبيها شانجه خاصة وأنه كان شديد الشبه بجده[5]. المهم أن عبدالرحمن اتخذ منصب أخيه وجلس في مجلسه

---

(1) حسين مؤنس، معالم تاريخ، ص 352.

(2) مونتغمري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص 96.

(3) ابن الكردوبوس، تاريخ الأندلس، ص 66، حاشية رقم 4. د. حاملة، الأندلس التاريخ والحضارة، ص 419.

(4) ابن الخطيب، ص 103.

(5) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 38.

(ودخل بيده، فعزاه الخليفة في أخيه، وأقام عنده برهة ثم انصرف، وقد خلع عليه خلعاً سلطانية، وقلّده الحجابة)[1]. وكما رأينا في سيرة أبيه وأخيه أن وجود الخليفة وأوامر السلطانية كانت مجرد شكليات، والحقيقة أن الحكم الحقيقي بيد الحاجب، وقد سار على نهج أسلافه في الحجر على الخليفة والاستبداد عليه، والاستقلال بالملك دونه[2]. وتلقب بالناصر ثم بالمأمون وكان يدعى بالحاجب الأعلى، المأمون، ناصر الدولة. ولاشك أن هذه الألقاب ومن غير فعل ملموس تدل على غرور عبدالرحمن المنصور بنفسه فهو لم يلتفت إلى التاريخ للاستفادة من تجارب أسلافه، بل كان على عكس أبيه وأكثر تهوراً وإسرافاً من أخيه المظفر في التهالك على الملذات والليالي الحمراء الصاخبة فقد افتتح عهده (بالخلاعة والمجانة، فكان يخرج من منية إلى منية، ومن متنزه إلى متنزه مع الخيالين والمضحكين، مجاهراً بالفتك وشرب الخمر)[3].

ولم يكتف شنجول بما أغدقه عليه الخليفة من الألقاب الشكلية كالمأمون والناصر، بل صار يتطلع إلى الخلافة والقضاء على الدولة الأموية في الأندلس، فبعد شهر ونصف من توليه الحجابة أرسل إلى الخليفة المؤيد من يهدده شراً إذا لم يجعله ولي عهده[4] ويذكر أبو مروان بن حيان بهذا الخصوص:

(وقد تقدم القول في سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة عجرفية من غير تأويل ولا عقيدة، وكيف استهواه كيد الشيطان، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة، لم يشاور فيها نصيحاً، ولا فكر في عاقبة، بل جبرها بالعجلة). وقد استجاب الخليفة لطلبه لضعفه المعتاد فولاّه عهده في ربيع الأول من سنة 399هـ / 1008م، ويذهب ابن عذارى في ذكر هذه الحادثة بأن عبدالرحمن خرج مع الخليفة هشام إلى قصر الزهراء، فأقاما هناك يومين، ثم تحرك الخليفة في اليوم الثالث إلى منية

---

(1) المقري، نفح، ج 1، ص 424.

(2) نفس المصدر.

(3) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 39.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص 84.

جعفر برفقة حاجبه، الذي اشتد به عجبه، وأخذ شنجول يتقرب من الخليفة ويختلي به، فأطال به الخلوة هذه الليلة حتى استدنى منه بالخؤولة، إذ كانت أُمّاهما بشكنسيتين[1]، ثم خرج عبدالرحمن يزعم أن الخليفة نص على توليه عهده صراحة، وأنه اختاره للخلافة دون بني عمه وذويه، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته، ولكننا نرى أن عبدالرحمن لا يحتاج إلى مثل هذا التزلف والتقرب لخليفة ضعيف ومحجور عليه منذ زمن المنصور العامري. وأنه لم يخرج على الناس بالزعم في تولية العهد، فهي حصلت فعلاً، وقد أحضر الخليفة الأموي بنفسه مع أهل الشوارى، وأهل الحل والعقد وأمام هؤلاء وغيرهم ممن احتشدوا في يوم تولية شنجول ولاية عهد الخليفة وقرأ على الجميع ما كتبه كاتب الرسائل، أبو حفص أحمد بن برد ومما جاء في الرسالة (هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة. وبعد أن قطع الأوامر، واسخط الأقارب، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده، ويفوض إليه الخلافة بعد، لفضل نفسه، وكرم خيمه، وشرف مرتبته وعلو منصبه، مع تقاته وعفافه، ومعرفته وحزمه، من المأمون الغيب، الناصح الجيب، أبي المطرف عبدالرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، وفقه الله..)[2]. وبهذا العهد ظنّ شنجول أنه صار وارثاً للخلافة دون منازع، فأقام مراسيم خاصة، لتهنئته من قبل رجالات دولته و(أذن لخاصته من الوزراء والأصحاب وأكابر أهل الخدمة بالدخول إليه، فأفاضوا في ذكر تهنئته بما أكرمه الله به، والدعاء له يمدونه في غيّه، وقلوبهم منكرة عليه)[3] وقام ولي العهد الجديد بتنصيب ابنه عبدالعزيز الحجابة، وعلى المستوى الخارجي أمر بإرسال الكتب إلى سائر أنحاء الأندلس والمغرب لإشعارهم بولاية العهد له ويأمرهم بالدعاء له على المنابر بعد الدعاء للخليفة. وعندما استتب

---

(1) ابن عذارى، البيان، ص 42.

(2) هناك نص كامل لعهد الخليفة في أكثر من مصدر تاريخي، المقري، نفح، ج 1، ص 424-425 مثلاً.

(3) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 46.

الأمر له وهو أمر لم يجرؤ أبوه أو أخوه من قبله على التفكير به لما يحمله من مخاطر تزيد من محنة دولة بني عامر. فسار في سياسة حمقاء قوامها الاستهتار بمقدرات الرعية والانصراف إلى الملذات ومعاشرة سوقة الناس ورعاع المجتمع، وإذلال الأشراف، وانتهاك الحرمات وتشجيع الدعارة والزنا (ثم تجاوز ذلك كله إلى أن حمل بعض أصحابه على بعض بحضرته، وفي مجلس شرابه وخلوته)[1]. وأحاط نفسه بحاشية من أصحاب السوء حتى أنه اصطحب معه في غزوته إلى جليقية رجلاً (من سفّال أهل قرطبة يقال له ابن الرسان جعله صاحب شرطته وأدناه منه)[2].

ولقد جوبهت هذه السياسة بالرفض من قبل أمراء بني أمية والأرستقراطية في قرطبة ومن أهالي قرطبة. فقد قرر الباقون من بني أمية انتهاز فرصة ابتعاد شنجول عن قرطبة لخروجه إلى غزوة في جليقية مع جيشه للثورة عليه، وكان في مقدمة الأمويين الثوار محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر، وقد ساعدتهم (الذلفاء) أم عبدالملك شقيق شنجول والذي اتهمته بقتل ولدها في السم، فحقدت عليه وسعت إلى اغتياله[3] وسخرت للمهمة رجلاً من الصقالبة كان موالياً للأمويين، فاتصل بالأمويين ودعاهم لاسترجاع دولتهم بمساعدة الذلفاء التي تشترط القضاء على شنجول والثأر لولدها عبدالملك، وفعلاً أرشدوا الصقلبي إلى محمد بن هشام بن عبدالجبار الذي كان عبدالملك المظفر قد قتل أباه، وقالوا للصقلبي أن هذا الرجل (حرّان ثائر جسور مخاطر، وقد بلغنا أنه تطلّب هذا الأمر منذ قتلتم أباه، وتآلف من شرار الناس كثيراً، وشيعتنا تلقاه وتؤمله، فليس لكم غيره)[4]، واتصل به الرجل ونقل إليه رسالة الذلفاء فوافق على الأمر وكان الأمويون في هذه الفترة (كلمتهم يومئذ في بغضاء العامريين متفقة، ونفوسهم من مخافتهم مختلسة، فلاذوا بمحمد بن

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 47.

(2) نفس المصدر، ص 42.

(3) نفس المصدر، ص 52.

(4) نفس المصدر، ص 52.

هشام ويبايعوه سراً). واتفق الثائر محمد بن هشام مع أشياعه الأمويين وأهل قرطبة الناقمين على شنجول بالانتظار حتى يصل مع جيشه إلى أراضي النصارى لكي يقوموا بالثورة، لأن جيش عبدالرحمن سيكون أمامه مسيرة شهر لكي يستطيع العودة إلى قرطبة ستكون كافية للسيطرة على الأمر من قبل الثوار حتى لو سمع بثورتهم. وبالفعل نفذوا ثورتهم في 16 جمادى الأول 399هـ / 1009م. وبدأوا بالهجوم على قصر قرطبة وقتلوا صاحب المدينة عبدالله بن أبي عامر، كما كسروا باب سجن العامة (فانطلق جميع من كان فيه من اللصوص والدعّار وأصحاب الجرائم فسارعوا إلى محمد فاستعان بهم، وتداعى بنو عم محمد الناصريون وغيرهم إلى نصر محمد، واستنهضوا الناس لمعونته، ولبّوا دعوته)[1]، وهكذا بويع محمد بن هشام بالخلافة واختار قريباً له يسمى سليمان بن هشام وجعله ولي عهده، وأجبر هشام الثاني على التنازل عن الخلافة، فتنازل عنها بعد أن قضى فترة 33 سنة خليفة بالاسم فقط. وكان هذا في 17 جمادى الأول 399هـ / 1009م ويروى أن الخليفة هشام في تلك الأثناء كان في قصره، وقد أمر بإغلاق أبواب القصر عليه، ثم صعد إلى سطح مرتفع (وأشرف على العامة بين مصحفين يحملهما خادمان له، وأشار إلى من تحته من العامة بالسكون بيده، فصاحوا به: لا حاجة لنا بك، وليس الملك من شأنك، وهذا أولى منك به، يعنون محمد بن هشام، فلما سمع ذلك منهم ولّى منصرفاً إلى داره، وأمر خدمه الا يقاتلوا أحداً منهم، ولا يرموا بسهم ولا حجر عليهم حتى يقضي الله قضاءه)[2]. وتصف الرواية كيفية دخول الأموي الغالب على الخليفة المغلوب بالقول (هاجم ابن عبد الجبار قصر الخلافة وكان حرسه يتقهقرون أمام المهاجمين ولم يخفّ أحد من أهل الزاهرة لنجدة الخليفة الذي بادر عندئذ إلى مراسلة ابن عبد الجبار يسأله الكفّ عنه على أن يُعينه وبني عمّه على ما نقموا عليه، ويقصي آل عامر عنه، ويقلده عهده، ويشركه فيأمره). غير أن ابن عبدالجبار لم يستجب للخليفة رافضاً عروضه، وأصر أن

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 426.

(2) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 56.

يدخل القصر بعد أن يخليه الخليفة ففعل الخليفة وأخلى القصر، فدخل الأموي الغالب قصر الأموي المغلوب الذي بادر بالتخلي عن الخلافة أيضاً. أما عبدالرحمن شنجول فقد وصله خبر ثورة قرطبة فتخلى عنه معظم الجيش ونصحه مولاه واضح الصقلبي حاكم طليطلة أن يبقى في مكانه ولا يذهب إلى قرطبة، لكن شنجول الأحمق كان يعتقد أن وصوله إلى قرطبة سيخرج الناس مرحبة به، فسار نحوها بعد أن رفض زعماء البربر وخاصة (محمد بن يعلي الزناتي) على اقتحام قرطبة بالقوة. ووصل عبدالرحمن إلى منزل هانئ في أدنى الأماكن إلى قرطبة في آخر جمادى الآخر سنة 399 هـ / 1009م، وكان جنود البربر قد تخلوا عنه ولم يبق معه إلا قلة من الحاشية والغلمان وقد شعر بحالة الضعف فبدأ ينادي الناس بالتنازل عن ولاية العهد ويدعو لإرجاع الخليفة هشام ولم تجدي كل محولاته فسار إلى قرطبة ليلاقي حتفه حيث قبض عليه الحاجب بن ذرى مولى الحكم هو وصاحبه ابن غموس وقتلهما. ثم حملت جثتيهما إلى قرطبة لتعلقا على أبوابها. وانتهت دولة بني عامر ومعها الخلافة، وتسلم محمد بن هشام الخلافة ولُقّب بالمهدي.

المهدي وعهد الفتنة

لقد استقبل أهل قرطبة ولاية المهدي بالفرح العارم لما عانوه من بطش الدولة العامرية وخصوصاً في أيام شنجول كما رأينا، وقاموا بتدمير مدينة الزاهرة العامرية تدميراً شاملاً و(عفا رسمها فاصبحت بلقعاً كأن لم تغن بالأمس)[1] دلالة على حقدهم على بني عامر، وتصف المصادر التاريخية فرحة أهل قرطبة بانقضاء عهد العامريين بأنهم (أحدثوا برحاب قرطبة وأرباضها ولائم وأعراساً، وداموا على ذلك أياماً تباعاً يتقلون من موضع إلى موضع بالمزامير والملاهي راجين تمام أملهم، وانتظام أمرهم)[2]. وكان لهم الأمل الكبير في إعادة الخلافة الأموية إلى عصورها الزاهية،

---

(1) ابن عذاري، البيان، ج3، ص 62-63.

(2) نفس المصدر، ص 74.

ولكن محمد بن هشام المهدي لم يكن بمستوى الظن والأمل به، ولم يقم بشيء سوى الانتقام من العامريين والاستمتاع بحقوق الخلفاء. وكان طائشاً قليل التفكير سوقي النزعات، لطول ما عاش في الأحياء الفقيرة متنكراً بين رعاع قرطبة، ولذلك أحاط نفسه بطائفة ممن كانوا على شاكلته، لا يحسنون غير النهب والسرقة فآذوا الناس أذىً شديداً [1]، كما أن المهدي لم يتورع من الإساءة إلى أقرب الناس إليه وهو سليمان بن هشام بن عبدالرحمن الناصر وولي عهده إذ قام بسجنه. كما قام بسجن بعض وجوه قريش، وسعى إلى إهانة البربر وزعمائهم عقاباً لهم لتأييدهم السابق لبني عامر. وأظهر المهدي نزعة واضحة لسفك الدماء وإذلال أكابر وأشراف الناس وترك العامة في حالة فوضى، وكان الأحرى به أن يمسك مقاليد النظام ويرجع الأمور إلى نصابها بعد فترة الانقلاب وسيادة الفراغ الأمني. لكنه لم يمتلك الحكمة ولا الحزم في معالجة اضطراب الأحوال في ظرف حرج كالذي مرّت فيه قرطبة آنذاك.

ومن حماقاته التي مارسها بحق البربر وهم قوة ضاربة في الجيش الأندلسي لم يحسن استثمارها، فقد روي أنه أهان شيخهم زاوي بن زيري الصنهاجي ومُنع من دخول القصر وأُهين.

كما ارتكب حماقة نادرة بحق الخليفة المعزول هشام والسجين في قصره، إذ قرر التخلص منه فأخرجه من القصر (وأسكنه في دار الحسن بن حيّ وشخّص بمثله رجلاً نصرانياً وقيل يهودياً ميتاً كان يشبه المؤيد، وأدخل الوزراء والخدم عليه، فعاينوه ميتاً ولم يشكّوا أنه المؤيد)[2] وكان هذا الأمر قد تمّ في 399هـ / 1009م. ودُفن هذا الرجل بحضور القاضي أبي العباس بن ذكوان. ولقد سخر الناس في قرطبة من هذه الحماقة لأنهم كانوا يعرفون الحقيقة التي لم يستطيعوا ذكرها أمام المهدي، وهي أن هشاماً لم يمت وهذه مكيدة.

---

(1) د. حسين مؤنس، معالم تاريخ، ص 354.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 7، ص 84.

وهكذا اجتمع للمهدي أعداء من كل حدب وصوب في قرطبة. فبالإضافة إلى بني عامر الذي قتل منهم نحو سبعة آلاف[1]، كان البربر الأكثر فاعلية في التحضير للخلاص من المهدي، فقد ألّفوا جميعهم قوة خارج قرطبة في فحص السرادق[2]، وقرروا اقتحام قرطبة بعد أن اختاروا لهم خليفة وهو هشام بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر بعد أن وجدوا فيه الرجل المناسب لمواجهة المهدي، فقصدوه في بيته وأخرجوه من داره (وبايعوه، فتلقب بالرشيد)[3] وبدأت تحركاتهم سرية أول الأمر إلا أن أمرهم انتشر بين الناس دون أن يتمكنوا من إكمال استعداداتهم الكافية، ولكنهم قاموا باقتحام قرطبة واستطاعوا من الوصول إلى قصر المهدي وحاصروه يوماً وليلة، غير أن المهدي أغرى بهم السواد الأعظم، وهزمهم، وشتت شملهم بعد أن قتل الرشيد[4]، واشتعلت نيران الفتنة في قرطبة بين البربر وعامة أهلها، فاضطروا البربر إزاء هذا الوضع من الخروج من قرطبة إلى الثغر[5].

ولم تكن هذه الهزيمة القاسية للبربر سبباً في نكوصهم، بل إنهم أعادوا تنظيم قواتهم وصفوفهم وراحوا يبحثون عن قائد أموي ليتولى قيادتهم من جديد للقصاص من المهدي، فوجدوا سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر، الذي وافق بالانضمام إليهم فاجتمعوا له وبايعوه بالخلافة في شعبان سنة 399 في موقع يعرف بصلب الكلب. وكان أهل قرطبة قد أطلقوا على سليمان بإمام البربر، ولقد تلقب بلقب المستعين بالله. ولم يكن البربر هذه المرّة قد اعتمدوا على قوتهم العسكرية فحسب، فقد قرروا الاستعانة بمساعدات خارجية فعمدوا إلى الاستعانة بشانجة بن

(1) غير الذين هاجروا إلى شرق الأندلس واستقروا هناك.

(2) وهو احد متنزهات قرطبة المشهورة، يقصده الناس للتنزه.

(3) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 83.

(4) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 427.

(5) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 81.

غرسيه بن فرذلند، قومس قشتالة[1]، بينما يذكر ابن خلدون والمقري أن البربر استنجدوا بابن الفونسو (أذفونش) فخف لنجدتهم[2]، ومهما يكن فقد أصبح في البلاد خليفتان: واحد في قرطبة هو المهدي والآخر على رأس البربر وهو سليمان الذي كان مقيماً بشقنده حين قتل الرشيد في قرطبة، فتوجهت إليه فلول البربر المنسحبة من قرطبة وبايعوه ونهضوا به إلى ثغر طليطلة[3]، وعقدوا العزم على إنهاء عهد المهدي بأي ثمن وإسقاط قرطبة بأيديهم، وقد شعر المهدي بخطرهم، فأرسل إليهم رسولاً عند وصولهم إلى قلعة رباح في طريقهم إلى الثغر الأوسط، يدعوهم للعودة إلى قرطبة ورسول المهدي هو عباس البرزالي الذي جوبه برفض قاطع من البربر وقالوا له: (لولا أنك رسول وتاجر لقتلناك، وسيجازيه الله بما فعل)[4]، واستمروا في طريقهم ووصلوا إلى وادي الحجارة حيث قابلوا صاحب المهدي على طليطلة وضاح الصقلبي ودخلوا المدينة بالقوة، واستباحوا أهلها، ثم تحوّلوا إلى مدينة سالم ولكنهم لم يستطيعوا دخولها، وقاومهم وضاح وفرض عليهم حصاراً مادياً إذ أرسل إلى جميع الثغور بأن لا يتعاونوا مع البربر ولا يرسلوا إليهم أي مؤونة أو طعام وجاء في إعلانه: (من حمل شيئاً من الطعام إلى محلة البربر فقد أُحل ماله ودمه)[5]، وبقوا على حالة الحصار هذه لمدة خمسة عشر يوماً ويقال إنهم ظلوا يأكلون الحشيش والنباتات الطبيعية في الأرض، وعندما اشتدت الصعوبة على حياتهم أرسلوا إلى شانجة بن غرسية قومس قشتالة المعروف عند المؤرخين العرب باسم ابن مامه دونه (وهذا الاسم تحريف من اسم جده شانجة وأم فردلند غند التي كانت تسمى موما دمنا)[6]، ولم يتردد شانجة الذي كان يتابع عن كثب ما يجري، لا سيما وأن المهدي قد

(1) نفس المصدر، ص 13.

(2) المقري، نفح الطيب، ج 1 ص 428.

(3) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 83.

(4) نفس المصدر، ص 82.

(5) نفس المصدر، ص 86.

(6) انظر د. السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 349 حاشية رقم 6.

أرسل إليه الرسل والهدايا لغرض عقد المصالحة بينهما، لكن آثر مناصرة البربر للقضاء على أعدائه المسلمين، بعد أن وعدوه بإعطائه ما يختار من الثغور في حالة مساندتهم والانتصار على خليفة قرطبة المهدي. فأرسل إليهم ألف عجلة من الدقيق والعقاقير وأنواع الأطعمة، وألف ثور، وخمسة آلاف شاة، ثم سار إليهم بنفسه على رأس جيش كبير، وفي موقع قلعة عبدالسلام في وادي شرنبة، دارت معركة حامية في سنة 400 هـ انهزم جيش واضح، وتقدم البربر يتعقبونه نحو العاصمة، حتى وصل إلى أرملاط، وكان المهدي الذي يأس من مساندة النصارى، خرج ليلتقي بجيش البربر عند ملتقى وادي أرملاط بالوادي الكبير[1]، ولقد شهد هذا الوادي معركة فاصلة انتصر فيها البربر على جيش المهدي، قتل خلالها أكثر من ثلاثين ألفاً من المسلمين، وتشير المصادر التاريخية على هذه المعركة بأنها (كانت أول ثارات المشركين على المسلمين)[2]، وأول واقعة قتل فيها (الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين)[3]، ولقد اختلفت الروايات في هذه المعركة من حيث موقعها وعدد القتلى والكثير من التفاصيل، فيقال أن المهدي كان يحصن أبواب قرطبة وأفواه الضواحي والأسوار، ويوزع الجنود وقوادهم على مراكز معينة، وأمر بحفر الخنادق حول الضواحي قبل لقاء الجيشين، وأن خسائر قرطبة كانت عشرة آلاف وليس ثلاثين ألف. ويقال أيضاً أن المهدي حاول أن يستميل البربر أثناء المعركة فأظهر لهم الخليفة السابق هشام لأنهم كانوا يترحمون على أيامه ويطالبون بدمه، إذ أجلسه في شرفة على باب القنطرة، وكان البربر قد أعلنوا الوفاء للأموي خليفتهم المستعين بالله، وقالوا لرسول المهدي، القاضي ابن ذكوان بتهكمهم الواضح: (سبحان الله يا قاضي، يموت هشام بالأمس وتصلي عليه أنت وغيرك، واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه، وجعلوا يتضاحكون منه)[4] وعندها

---

(1) في مدينة قنيتش إلى الشمال الشرقي قليلاً من بلدة القليعة.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 7، ص 84-85.

(3) ابن خلدون، تاريخ، ج4، ص 193.

(4) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 89.

شعر المهدي باليأس من مقاومة المستعين بالله وجيشه فهرب من قصر الخلافة ليلاً واختفى في المدينة أياماً، ثم رحل متنكراً إلى طليطلة في جمادى الأول سنة 400 هـ إذ استقبله واضح الصقلبي الذي ظلّ وفياً للمهدي مع أهل طليطلة التي يحكمها.

وتصف المصادر التاريخية فرار المهدي من القصر واختفاءه من دار إلى دار بأنه كان لا يصحو من سكر ولا يزع من فسق[1]، وأخيراً حلّ في بيت صديقه سليمان بن عيسى الذي وشى به إلى صاحب الشرطة، ولكن المهدي أدرك المكيدة فهرب إلى طليطلة.

وبعد هروب المهدي من القصر بايع الناس المستعين بالله بالخلافة في يوم الثلاثاء الموافق 17 ربيع الأول 400 هـ / 1009م، ولُقّب بالظافر أيضاً وبدأ بممارسة سلطاته القانونية كخليفة في الأندلس.

المستعين بالله خليفة قرطبة

بعد أن بايع أهل قرطبة المستعين بالله، درج كعادة الحكام على إرسال وفوده وكتبه إلى سائر أنحاء الأندلس، لدعوتهم لإظهار الطاعة والولاء له. ولكنه قد بالغ كثيراً في التهديد والوعيد لمن تسول له نفسه الخروج عن طاعة مركز الخلافة. فقد توعد الخارجين عن الطاعة باستباحة دماءهم مما أثار مشاعر الناس تجاهه. ولقد تصرف المستعين في مدة حكمه القصيرة بشكل لا يدل على كفاءة وبُعد نظر، فكان عهده قد شهد أياماً (كانت كلها شداداً نكدات، صعاباً مشؤومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، لم يعدم فيها حيف ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا فقد محذور، مع تغير السيرة وخرق الهيبة، واشتعال الفتنة، واعتلاء المعصية، وطعن الأمن وحلول المخافة..)[2]. كما أن اعتماد المستعين على البربر وإعلاء شأنهم من باب الإنصاف لهم وهم الذين جلبوه إلى سدّة الحكم، قد أثار حفيظة أهل قرطبة، إذ انتقل بجيش البربر إلى مدينة الزهراء، حتى يبعدهم عن أهل

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 485.

(2) ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول، ص 25.

قرطبة، فكان تصرفه هذا قد (أجلب لنفار القلوب، وقرف الندوب وبُعد الشرود، ونبش الحقود، لما وتر جميعهم بالحادثة في قرطبتهم، فاستشعروا بعضه، وانقادوا لكل من عانده، ورد أمره من عبد أو حر... فكان ذلك سبباً في تفريق البلاد وتملك أصحاب الطوائف)[1]. ويبدو أن المستعين احسّ بهذه المتناقضات في الولاء والتي سببها أصلاً هروب المهدي إلى طليطلة قاعدته الأمنية، فقرر أن يمضي بنفسه لتصفية عدوه اللدود المهدي هناك بعد نفاذ الدبلوماسية معه.

وقد كانت طليطلة موالية للمهدي، فقد استقبله أهلها، وأيّدوه، كما ذكرنا، إلا أن المستعين أراد أن يستعمل الطريق السليم، فأرسل وفوده لإقناع واضح وأهل طليطلة بتسليم المهدي، لكن المؤشرات السياسية في قرطبة وغضب أهلها من المستعين جعلت من طليطلة أكثر صموداً من تهديدات المستعين، عندئذ قرر المستعين أن يستخدم الحل العسكري فحاول الهجوم على مدينة سالم فلم يفلح كما يشير ابن عذارى (فنزل على مدينة سالم في وقت ضيق من البرد والثلج وقلّة الميرة فلم يمكث بها، ورجع فكان وصوله قرطبة لثلاث بقين من شعبان)[2]، وكان واضح قد خرج من مدينة سالم ومضى إلى طرطوشة قريباً من الحدود الفاصلة بين مدينة سالم وإقليم قطالونية، واتفق مع قومس برشلونة ريموند بوريل الثالث، وأخيه أرمنجول[3] على أن يقدما له العون العسكري مقابل تخليه عن مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط، فوافقا على مساعدة واضح وقدموا له فرقة عسكرية عاد ليحارب البربر بها ولكن بشروط قاسية منها: (أن يلتزم كل رجل منهم دينارين في كل يوم بالإضافة إلى ما يقوم به من الشراب واللحم وغير ذلك، وأن يجري على القومس في كل يوم مائة دينار وما يقوم

(1) نفس المصدر.

(2) البيان، ج 3، ص 93.

(3) يسميه العرب أرمقند.

به من الطعام والشراب، وأن يستولوا على كل ما في معسكر البربر من سلاح ومال غنيمة لهم، وأن يستحلوا نساء البربر ودماءهم وأموالهم)[1].

وكان لابد من قبول القائد واضح لكل الشروط، فسار مع جيش الخلفاء إلى سرقسطة، وبعدها إلى طليطلة حتى ينضم إليهم المهدي. وعند تكامل القوات، زحفت الجيوش إلى قرطبة بقيادة المهدي. وتذكر المصادر التاريخية على أن مجموع المقاتلين الذين زحفوا إلى قرطبة يقدر بنحو 39 ألف فارس، بينهم تسعة آلاف من النصارى[2]. فيما كان على الطرف الثاني المستعين الذي تخلى عنه أهل قرطبة لإفراطه في إهانتهم وغلبة البربر عليهم. فسار بجيش من البربر لملاقاة أعداءه حيث التقى الطرفان في موقع يقال له عقبة البقر أو دار بقر وهي بلدة صغيرة تقع إلى الشمال من قرطبة. وتحديداً على بُعد 20 كم شمال قرطبة. وحدثت معركة طاحنة أدت إلى هزيمة جيش المستعين والبرابرة بعد أن أثبت البربر شجاعة فائقة استطاعوا أن يقتلوا عدداً كبيراً من النصارى ومن بينهم الملك أرمقند، وتقهقر المستعين وجيش البربر إلى الجزيرة الخضراء، إذ فرّ المستعين ونجا بنفسه إلى شاطبة. ولقد انتهز أهل قرطبة هزيمة البربر فانقضوا على مدينة الزهراء، ودخلوها ونهبوا ما وجدوه من تحف ودخلوا المسجد الجامع وجرّدوه من كل ممتلكاته حتى المصاحف والأبواب[3].

عودة المهدي إلى قرطبة

ولقد أحدثت هزيمة المستعين رجوع المهدي إلى قرطبة وبايعه أهلها ثانيةً، لكن هاجس مطاردة البربر لم يفارقه، حتى أنه أقسم على أن لا يستقر له حال إلا إذا أنهى خطر البربر والمستعين تماماً، ولقد تعاون معه أهل قرطبة فقدموا له المال وانضم إليه مقاتلين من العبيد بأعداد هائلة، كما انضم إليه فتيان بني عامر أمثال عنبر وخيران

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 94.

(2) نفس المصدر، ص 96.

(3) نفس المصدر، ص 95.

الذين قدموا من شاطبة[1]، فسار المهدي على رأس هذه الجيوش التي شملت أهل قرطبة والبوادي والإفرنج[2]، وكان لقاؤهم مع جيوش البربر عند نهر وادي (آيره) بالقرب من الرندة في 6 ذي القعدة سنة 400هـ / 1010م، وأسفرت نتائج هذه المعركة عن هزيمة جيوش المهدي وواضح الصقلبي ومن معهم من القوات المسيحية، هزيمة كبيرة وقتل من الإفرنج وحدهم ما يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل بالإضافة إلى أعداد الغرقى[3]. وكان من بين القتلى الوزير اليهودي لملك الإفرنج ريموند بوريل، واستولى جيش البربر على أموالهم ومعداتهم العسكرية من سلاح ودواب. وعلى أثر هذه الهزيمة انسحب المسيحيون إلى بلادهم بعد أن رفضوا فكرة المهدي لمعاودة القتال. ولم تكن قوات المهدي كافية لاستئناف القتال فقرر أن يكتفي بحفر خندق حول قرطبة، كما قام ببناء سور خلف هذا الخندق[4]. بينما انسحب الصقالبة العامريون إلى شاطبة وشرقي الأندلس.

وعلى أثر هذه الهزيمة لجيوش المهدي وحلفائه، أحس البربر بنشوة الانتصار، فاستولوا على جبل ببشتر، وأخذوا بالإغارة كل يوم على نواحي قرطبة.

أما عن مصير المهدي الذي اهتز موقفه بعد فشله الذريع أمام البربر، فما كان من حاجبه واضح إلا السعي إلى قتله، وفعلاً قتله في سنة 1010م وبعث برأسه إلى سليمان المستعين، طمعاً في كسب ودّه وإرضاءاً للبربر بعد أن أعاد المؤيد هشام إلى الخلافة، ودعا المستعين والبربر للدخول في طاعة الخليفة بوصفه الحاكم الشرعي، لكن هذه المحاولات لم تجدي نفعاً ولا سيما أن واضحاً الصقلبي قد أظهر خيانة لقائده، جلبت له مشاعر السخط وعدم الثقة بهذا الرجل الذي خان وغدر بقائده المهدي.

---

(1) لقد كان هؤلاء الفتيان يساعدون المهدي في الظاهر ولكنهم يضمرون له سوء النية على ما فعله بعبدالرحمن شنجول العامري.

(2) د. عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص 354.

(3) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 98.

(4) ابن الخطيب، كتاب أعمال الأعلام، ص 135.

وعلى هذا الأساس أصرّ البربر على دخول قرطبة، عبر قيامهم بسلسلة من غارات القتل والترويع لأهلها الذين خذلوهم وانتصروا للمهدي، ثم دخل البربر إلى مدينة الزهراء سنة 401هـ / 1010م وشددّوا الحصار على قرطبة، وقطعوا عنها المؤن والأقوات، وسار جيش منهم إلى جيان ومالقة والبيرة والجزيرة فأدخلوها في طاعة المستعين. ولقد اشتدت الأمور سوءاً نتيجة لشحة المواد الغذائية وهدم السيول لجوانب كثيرة قرطبة، فقد حاول واضح أن يهرب من قرطبة إلا أنه وقع في قبضة وداعة القرطبي الذي قتله سنة 402هـ / 1011م، وازداد الضغط على قرطبة مما اضطر أهلها إلى الاستسلام وطلب الأمان، إذ خرج القاضي ابن ذكوان مع بعض الفقهاء إلى المستعين ورؤساء القبائل البربرية، لهذا الغرض، فاستجيب لمطالبهم بعد دفعهم أموالاً كثيرة[1].

المستعين يعود إلى قرطبة وخلافة هشام الثالثة

وهكذا دخل المستعين قصر قرطبة في سنة 403هـ واحضر هشاماً المؤيد الخليفة، الذي اعتذر علناً له وخلع له ولاية العهد، بينما صار هشام خليفة للمرة الثالثة في حياته البائسة. وتذكر المصادر التاريخية أن المستعين قد اغتال الخليفة خنقاً[2].

ولم تكن مدة خلافة المستعين التي بلغت ثلاث سنوات كافية لاستتباب الأمور في قرطبة، إذ أن الفتنة بدأت تدخل طوراً خطيراً، فسادت الفوضى في البلاد، ولم يكن المستعين بهذا القدر من الذكاء والحزم للقضاء على هذا التداعي الذي استشرى على جميع مرافق الحياة، بعد أن ذهب المستعين مع جيشه البربري إلى مدينة الزهراء. وترك مراكز القوى الناشطة أن تستقر بعيداً نوعاً ما على مركز الخلافة، فقد أقام بنو حمود العلويون في شقندة، كما أن المستعين قسّم مناطق الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية لكسب ولائهم، فاستقر في البيرة لحبوس بن ماكسن الصنهاجي وقبيلته، واستقر في سرقسطة منذر بن يحيى التجيبي الذي ساعد المستعين في فتح قرطبة، وأعطى المستعين

---

(1) ابن عذاري، البيان ج 1، ص 112.

(2) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 404.

جيان لبني برزال وبني يفرن، وشذونة ومورور لبني دمر، ولقد خصّ المستعين علياً بن حمود ولاية سبتة، والقاسم بن حمود ولاية طنجة وأصيلاً والجزيرة الخضراء[1]. وهكذا أصبح المشهد السياسي يشير إلى اختلال موازين القوى قد صبّ بمجمله لصالح البربر، وهو حق لهم كما نرى بعد أن أصبح الخليفة ومركز الخلافة مجرد رمز افتقد إلى شرعيته الدينية (الروحية) أو العملية. فبدأ تأثير البربر واضحاً وأخذوا يحصدون ثمار انتصاراتهم وينتقمون لوضعهم السابق في عهد المهدي، كما استمروا في السيطرة على أنحاء الأندلس فحلّ باديس بن حبوس في غرناطة، والبرز في قرمونة، واليفرني في رندة وخرزون في شريش[2].

وفي ضوء هذا الوضع اشتد طموح البربر إلى الزعامة المطلقة على الأندلس، فتشير المصادر التاريخية إلى تحرك بعض العامريين والموالي والصنائع الهاشميين إلى أمير سبتة علي بن حمود وسلّموه وثيقة منسوبة إلى هشام المؤيد وبخطة عهد فيها بالأمر بعده إلى علي بن حمود[3]، ومهما يكن من أمر صحة هذه الوثيقة من عدمه، فإن الأمر يدل على تحالف مستتر ظهر للسطح للإطاحة بالمستعين، لا سيما وأن حبوس الصنهاجي حاكم البيرة، وخيران العامري حاكم المرية قد طمأنا علي بن حمود على سهولة الاستيلاء على مركز الخلافة في قرطبة، فسار إلى الأندلس تحت ذريعة الإفراج عن الخليفة هشام[4]، ثم اتجه إلى المرية والتقى بأنصاره العامريين وعلى رأسهم خيران العامري، ومن هناك سار بالجيوش صوب قرطبة وكان أخوه القاسم قد جهّز نفسه لتقديم المساعدات عند الضرورة.

ولقد وصلت أنباء هذا التحالف إلى المستعين، ووصلت أنباء الحشود الزاحفة إلى قرطبة كذلك، فخرج بما تبقى له من أنصار لملاقاة جيوش تحالف البربر بقيادة علي بن

---

(1) ابن عذارى، ص 113.

(2) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 429.

(3) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 113.

(4) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 113.

حمود، وكانت نتيجة المعركة هزيمة المستعين في سنة 407 هـ، ودخول علي بن حمود وأنصاره إلى قرطبة. بعد أن قبضوا على المستعين. ولقد قام بن حمود بالبحث عن الخليفة المؤيد متظاهراً بعدم معرفته بموته حتى يؤكد شرعية ثورته على المستعين، ولكن الشهود في قرطبة أكدوا له موت الخليفة وأرشدوه إلى قبره، فأخرجه وتعرف على جثته، ثم أعاد دفنه، وقرر على الفور قتل المستعين وقتله بيده، ثم قتل شقيقه عبدالرحمن، ثم قتل أبيهما الشيخ، وجعل رؤوس الثلاثة في طست وأخرجت من القصر إلى المحلة ينادي عليهم: هذا جزاء من قتل هشاماً المؤيد[1].

عهد بنو حمود وسقوط الدولة الأموية

لقد كان من أسرار قوة الخلافة الأموية في الأندلس هو استحواذها على السلطتين الشرعية والواقعية، ورأينا كيف تبددت هذه القوة وخصوصاً في زمن الحاجب المنصور والدولة العامرية، وأصبحت فيما بعد الخلافة خرقة بالية منذ خلافة هشام المؤيد. وجاء بنو حمود ليكملوا مشوار التدهور والانحطاط والصراعات والفتن بين البربر والصقالبة وأهل قرطبة.

وبنو حمود هم من الحسنيين الذين قدموا من المغرب إلى الأندلس، إذ يرجع نسبهم إلى علي بن أبي طالب[2]، وتزعم الروايات التاريخية أن الخليفة هشام المؤيد قد عهد إلى علي بن حمود بولاية عهده لرفعة بيته وبُعد صيته[3] وكان علي بن حمود هو أول سلالة بني حمود الذين بويع بالخلافة بعد قتل المستعين في باب السدّة من قصر قرطبة سنة 407هـ / 1016م.

علي بن حمود ملكاً على الأندلس

بعد مبايعته بالخلافة تلقّب بالناصر لدين الله، ويكنى بأبي الحسن، ولقد شهدت فترة حكمه الأولى محاولات لتوحيد البلاد تحت قيادة الخلائف من البيت الأموي

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول، ص 29.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 284.

(3) ابن عذاري، البيان، ج 3، ص 120.

الذي قاد الأندلس أكثر من قرنين ونصف، وصلت فيها إلى قمة الازدهار الحضاري، غير أن هؤلاء الأمويين كانوا على درجة من الضعف، بات التعويل عليهم أمراً غير منطقي، ويذهب الدكتور السيد سالم[1] على أن علياً كان موفقاً في بداية عهده، إذ كان حكمه يقوم على إرهاب البربر وتشدده في معاملتهم، حتى أطاعه كل عاصي، ويستشهد بقول ابن حيان الذي يقول: (وكان يجلس – علي بن حمود – بنفسه لمظالم الناس وهو مفتوح الباب، مرفوع الحجاب للوارد والصادر، يقيم الحدود مباشرة بنفسه، لا يحاشي أحداً من أكابر قومه، فانتشر أهل قرطبة في الأرض ذات الطول والعرض، وسلكت السبل، ورخا السعر) وهذا يعني أن بداية عهد علي بن حمود قامت على العدل وإنصاف المظلومين لذلك فُتن به أهل قرطبة وأحبوه[2].

ويرجع سر هذا الحب من أهل قرطبة إلى تشدده مع البربر إذ يروي ابن حيان (بأنه كان يقيم الحدود بنفسه، وضرب لذلك مثلاً فقيل: إنه قدمت إليه عصابة من البرابر الأكابر في جرائم تجاوزت حدّ النكال، فأمر بضرب أعناقهم وعشائرهم ينظرون خيفة، لا ينبسون، ولا يجسرون عليه في شفاعة).

ولم يكن علي بن حمود الناصر قاسياً على البربر فقط، وإنما كشّر أسنانه على أهل قرطبة وكما يشير ابن عذارى بأنه (انقلب عن التجمل الذي كان يظهره لأهل قرطبة، وأغرمهم من المغارم، وغرم على إخلائها وإبادة أهلها)[3] والانتصار إلى حزبه البربري وتفضيله لهم ثانية، ويعود السبب في هذا الانقلاب المفاجئ على أهل قرطبة هو ظهور أحد الأمويين في شرق الأندلس وهو المرتضى عبدالرحمن بن عبدالملك بن الناصر سنة 407هـ والذي كان ظهوره بإيعاز ومساندة من خيران العامري بعد أن تنصل العامري عن بيعة بن حمود وخرج من طاعته، وذلك لسببين: أولهما (أنه كان طامعاً أن يجد المؤيد هشام حياً فلم يجده...) والثاني (نُقل إليه أن علياً

---

(1) د. سيد سالم، تاريخ المسلمين، ص 308.

(2) ابن عذارى، ص 122.

(3) البيان، ج 3، ص 121.

الناصر يريد قتله)[1] ولقد كان أهل قرطبة قد أظهروا التأييد للأموي المرتضى الذي بايعه خيران وعدد كبير من أنصاره. وأصبح خيران العامري من أشد المؤيدين للمرتضى، إذ قام بإرسال الوفود إلى أمير سرقسطة والثغر الأعلى منذر بن يحيى التجيبي، كما راسل أهل شاطبة وبلنسية وطرطوشة والبونت، لحملهم على مبايعة الأموي المرتضى، وقد أجابوه بالموافقة والخروج عن طاعة علي بن حمود[2]، وصار لهذا الأموي أتباع من خارج قرطبة وداخلها إذ أن وجهاء قرطبة كانوا قد اجتمعوا في مكان يعرف بالرياحين وأقرّ الفقهاء والشيوخ بيعتهم للأموي في عيد الأضحى من سنة 408هـ / 1017هـ[3]. وهكذا تهيأ للمرتضى جيشاً سار به إلى غرناطة للاستيلاء عليها من أميرها زاوي بن زيري، فوقعت بينهما معركة أدت إلى هزيمة المرتضى، وكانت الهزيمة على أثر خلافات بينه وبين منذر بن يحيى وخيران العامري، وكانت نهاية المرتضى الأموي على يد خيران الذي جعل عليه عيوناً (لئلا يخفي أثره، فلحقوه بقرب وادي آش، وقد امن على نفسه، فهجموا عليه، فقتلوه، وجاءوا برأسه إلى خيران في سنة 408هـ / 1017م[4].

ولم تكن نهاية علي بن حمود بأحسن من غريمه المرتضى، فقد قُتل وهو بصدد المسير إلى شرقي الأندلس لقتال خيران والعامريين، إذ تذهب المصادر التاريخية إلى أن الجيش قد تجمع في قرطبة بانتظار علي بن حمود ولكنه أبطأ (فلما طال على الناس انتظاره بحثوا عن أمره، فدخلوا عليه، فرأوه مقتولاً فعاد العسكر إلى البلد)[5].

ويذكر ابن عذارى على أن منفذي القتل كانوا من خدمه وفتيانه من صقالبة بني مروان، وكانوا ثلاثة صبيان (سدّوا عليه باب الحمام، وتسللوا فلم يحسّ أحد بهم،

(1) نفس المصدر، ص 121.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 7، ص 285.
(3) نفس المصدر.
(4) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 285.
(5) نفس المصدر، ص 285-286.

فاستطال نساؤه بقاءه، فدخلوا عليه ودمه يسيل فصحّ خبر مقتله)[1]. وتولى خلافته أخوه القاسم.

القاسم بن حمود المامون

وهو القاسم بن حمّود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبيد الله بن إدريس الحسني، تلقّب بالمامون ويكنى أبو محمد وأمه البيضاء القرشية[2]، بويع بالخلافة في 4 ذي القعدة سنة 408 هـ، وكانت بداية عهده قد شهدت الاستقرار وانتشار الأمن في ربوع الأندلس، إذ أن القاسم قد أحسن إلى الناس وأنصفهم بعدله وتلقاهم (وأجمل مواعيدهم، وأخرج النداء في أقطار البلد بأمان الأحمر والأسود، وبراءة الذمة ممن تسوّر على أحد)[3]. وتمكن القاسم من تطبيق القصاص على قاتلي أخاه الثلاثة بعدما أقروا بجريمتهم فامر بقتلهم (وتنسم الناس روح الرفق، وباشروا ظل الأمن، واطمأنت بهم الدار.. وأقرّ القاضي والحكام والعمّال على منازلهم).

كما قام القاسم بعد استقرار الحكم له بمراسلة العامريين، وولى زهير العامري على جيان، وقلعة رباح وبياسه، وراسل خيران واستماله وجاء له واجتمع به ثم عاد إلى المرية، وتذكر المصادر التاريخية عن اعتناق القاسم المذهب الشيعي. لكنه على ما يبدو لم يجهر ذلك، ولم يجبر أحد على تغيير مذهبه وعاداته، لكن حالة الاستقرار في عهد القاسم لم تدم طويلاً، إذ أنه قد وقع تحت سيطرة البربر والفتيان العامرية القائمين على شرق الأندلس، فضعف أمره وتلاشى سلطانه وحقد عليه أهل قرطبة وعلى سياسته الجديدة، وكان القاسم قد ولّى السودان بالغ عنايته إذ (قوّدهم على أعماله إلى أن ضعف أمره)، حتى تسلطوا عليه واحتقروه، مما دفعه إلى مراسلة منذر ابن يحيى التجيبي سراً، يدعوه لمناصرته على البربر إلا أنه لم يتمكن من ذلك[4].

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 122.

(2) نفس المصدر، ص 124.

(3) نفس المصدر، ص 130.

(4) ابن عذارى، ج 3، ص 130.

ولقد برز عامل آخر ضد سياسة القاسم وهو ظهور يحيى وإدريس ابنا أخيه المقتول، إذ أخذا يخططان للاستيلاء على قرطبة، وقد كان يحيى مقيماً في سبته، بينما كان إدريس في مالقة، وكانا يظهران البيعة للقاسم بالظاهر، لكنهما كان يعملان على خلع عميهما، فاتفقا على أن يتولى إدريس أمر سبته وأن يتولى يحيى أمر مالقة، ما كاد يحيى يجتاز جبل طارق إلى مالقة استقر الأمر له واستخفّ بعمّه القاسم الذي تخلى البربر عنه. ووجدوا في التنافس بينه وبين ابن أخيه فرصة لإضعاف الرجلين[1]، فتجمع ليحيى جيشاً من البربر وزحف بهم إلى قرطبة، فأدرك عمّه القاسم أن المواجهة لم تكن بصالحه ففرّ إلى أشبيلية في 22 ربيع الثاني سنة 412 هـ، ودخل يحيى قرطبة. فدعا الناس إلى بيعته فأجابوه وكان يحيى يعتمد بشكل مباشر على البربر الذين آزروه وانضموا لقواته إذ إنهم هم الذين ضبطوا له قصر قرطبة.

يحيى بن حمود المعتلي بالله

لقد بايعه أهل الأندلس من البربر وأهل قرطبة بالخلافة في أول جمادى الأول سنة 421هـ وتلقب بالمعتلي بالله، وقام باتباع سياسة متوازنة لا تميل إلى العصبية، واتبع طريق العدل والإنصاف بين الناس في أول عهده، متخذاً سيرة أبيه الناصر نموذجاً يهتدي بها في سياسته، ولكن لم يستمر المعتلي بهذه السياسة إذ ركبه الغرور واستبدّ به الإعجاب بنفسه فساءت حالته وكما تشير الرواية على أنه (إلا العجب والكبر شانا خصاله إلى أن خلّط وتبلّد، وتمرست عفاريت زناتة فضيقت عليه في التكاليف، حتى اقتصر بعد ما قصّر، وأخذ الإعجاب منه فكانت عاقبة أمره خسراً)[2].

ولقد شهد عهد يحيى ظاهرة وجود خليفتان في الأندلس، وهو (أمر لم يُسمع بأذل منه، ولا أدلّ منه على إدبار الأمور)[3]. فقد كان هو الخليفة في قرطبة وعمّه القاسم خليفة في إشبيلية. وقد استثمر القاسم هذا الانقسام في الولاء للخلافة

---

(1) نفس المصدر، ص 131.

(2) نفس المصدر، ص 132.

(3) ابن عذاري، ج 3، ص 132-133.

فاستعان ببعض البرابرة واستطاع أن يشكل منهم قوة تمكن بها من مهاجمة قرطبة، والتي قام البربر فيها بخلع المعتلي في 12 ذي القعدة سنة 413 هـ واستدعوا القاسم وجددت له البيعة للمرة الثانية في 18 ذي القعدة سنة 413 هـ فدخل القاسم قرطبة، وغادرها يحيى متوجهاً إلى مالقة. وصار يتسمى بأمير المؤمنين[1]. فيما سار المعتلي إلى الجزيرة الخضراء واستولى عليها، أما إدريس أخوه فقد استولى على طنجة، وفي ظل هذه الظروف المتشابكة والمتسارعة، أخذت كفة الموازين تشير إلى ضعف كفّة القاسم، إذ أن أهل قرطبة تعاضدوا على خلعه بعد أن تسلط البربر على شؤون الدولة، واستبدادهم بالأمر وظلم أهل قرطبة، فثاروا عليه وخلعوه في 21 جمادى الآخرة سنة 414هـ، وحاصروه في قصره أياماً حتى أرغموه على مغادرته إلى الضاحية الغربية هو وجيشه البربري، وأغلقوا أبواب المدينة كلها طوال خمسين يوماً، بعد أن اضطروا إلى قتال البربر قتالاً شديداً وهزموهم هزيمة شنعاء[2].

غادر على أثرها القاسم مهزوماً إلى إشبيلية وكان فيها ولداه محمد والحسن، أما البربر الذين كانوا معه فقد تخلوا عنه (ولحقت كل طائفة منهم ببلد واستولوا عليه)[3]. ويبدو أن القاسم كان يعتقد أنه مُرحباً به من قبل إشبيلية كسابق عهده، ولكنهم خيّبوا ظنه فقد (غلّق أهل إشبيلية أبوابها دونه لكراهيتهم البربر، وأخرجوا له ابنيه من قصرهما ومن كان معهما من البربر وضبطوا بلدهم)[4]، وقد قام أهل إشبيلية بتنصيب أو اختيار – على وجه الدقة – ثلاثة من وجوه القوم وأكابرهم وهم: القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل اللخمي، ومحمد بن بريم الألهاني، ومحمد بن الحسن الزبيدي، لقيادة أمر الحكم في إشبيلية والذي استقر أخيراً للقاضي اللخمي.

---

(1) نفس المصدر، ص 133.

(2) ابن بسام، الذخيرة، المجلد الثاني، ص 14.

(3) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 432.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 287.

ولم يجد القاسم طريقاً إلا الهروب إلى شريش، بينما تخلى البربر عنه، ولما علم يحيى بن حمود بوجود القاسم هناك، زحف إليه في شريش مع ما انضم إليه من البربر الذين تخلوا عن القاسم، واستطاع حصار شريش وأسر القاسم إذ يقول المقري (فحصروه ثم أخذوه أسيراً، فحبسه يحيى فبقي في حبسه إلى أن توفي يحيى وملك أخوه إدريس، فلما ملك قتله، وقيل: بل مات حتف أنفه، وحُمل إلى ابنه محمد وهو بالجزيرة الخضراء فدفنه)[1].

أما في قرطبة فقد قام أهلها باختيار ثلاثة من أمراء المروانية وهم سليمان بن المرتضى ومحمد بن العراقي وعبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار. وتم اجتماع في جامعة قرطبة في 4 رمضان سنة 414 هـ لكافة مستويات وطبقات أهل قرطبة لانتخاب واحد من الثلاثة ومبايعته بالخلافة، فكان الاختيار الأول لسليمان بن المرتضى لإنهاء حالة الفراغ السياسي في قرطبة بعد نهاية المعتلي بالله والقاسم. ولكن هذا الاختيار لم يصمد أمام قدوم عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار مع شرذمة من رجاله، شاهرين سيوفهم لغرض القتال إن لم تتم البيعة لصاحبهم عبدالرحمن، فبويع عبدالرحمن (وكشط شيوخ قرطبة الذين كانوا يسعون لخلافة سليمان اسم سليمان من الرق، وكتبوا مكانه اسم عبدالرحمن بن هشام)[2].

عبدالرحمن بن هشام المستظهر بالله

وهو عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر، وكنيته أبو المطرف، وهو من أم رومية اسمها غاية[3]، تولى الخلافة وعمره اثنان وعشرون سنة، واتخذ لقب المستظهر، ولقد حاول هذا الرجل أن يستلم الحكم من قبل هذه المرة إذ أنه (قد كان همّ بالوثوب على الخلافة عند انقراض سلطان القاسم بن حمود بقرطبة، بينما ظلّ هو متخفياً)، ولا عجب أن نرى كيف انقضّ هذه المرة على الخلافة

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 432.

(2) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 135.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 7، ص 287.

وانتزعها من أهل قرطبة غصباً كما رأينا قبل قليل في وقت كان سليمان المرتضى قد حصل على الموافقة الأولى من أهل قرطبة (وكان أول من وافى منهم سليمان المرتضى في أبهة دلت على أن المراد فيه، فدخل والسرور بادٍ عليه، فقدّمه أصحابه في البهو، فأجلس على مرتبة لا تصلح لسواه وهو جذلان لا يشك في تتمة الأمر له)[1].

وهكذا استقر الحكم للمستظهر، الذي كان (فطناً لوذعياً يقظاً لبيباً أديباً فصيح الكلام جيد القريحة مليح البلاغة)[2]، إلا إنه بعد أن استأمن الناس والوجهاء في قرطبة على أنفسهم، نكث وعوده، معتداً برأيه إلى درجة الغلو، فقام بسجن جماعة من وجهاء قرطبة لاتهامهم بالميل إلى سليمان المرتضى، وكان من بينهم ابن عمران وهو شديد الكراهية له، ولكن الوجهاء استطاعوا أن يتصلوا بصاحب المدينة الذي استجاب لطلبهم هو مع جماعة من أهل قرطبة فهاجموا السجن وأخرجوهم كما ثاروا على الخليفة ومن بين أسباب ثورتهم هو أن المستظهر قد أكرم وفداً من البربر قدم إليه، فصاح الناس: عاد شر البرابر جذعاً، وهاج الناس وماجوا وقتلوا الضيوف البرابرة وحاصروا القصر، وكان من بين الساخطين ضد الخليفة أبو عبدالرحمن محمد بن عبدالرحمن بن عبيد الله بن عبدالرحمن الناصر، الذي قاد الثوار فقلدوه الخلافة وبايعوه. واستمروا بالهجوم على قصر الخلافة حتى سبي المهاجمون بعض نساء المستظهر (وحملوهن إلى منازلهم علانية، وجرى عليهن ما لم يجر على حرم سلطان في مدة تلك الفتنة)[3] أما المستظهر عندما شعر بانه أصبح في قبضة المهاجمين بعد أن أحاطوا بالقصر من كل جهة، فهرب إلى الحمّام وتجرّد من ثيابه حتى بقي في قميصه، واستخفى في أتون الحمام، وقد عُثر عليه لاحقاً (وقد انطوى انطواء الحية في مكان حرج في قميص سود بحال قبيحة، وجيء به إلى محمد بن عبدالرحمن، فبطش به بعض

---

(1) ابن عذارى، ج 3، ص 136.

(2) ابن عذارى، ج 3، ص 139.

(3) نفس المصدر.

الرجال القائمين على رأسه فقتلوه[1]، وكان ذلك في 3 ذي القعدة سنة 414هـ / 1023م، وقد انتهت خلافة المستظهر والتي دامت سبعة وأربعين يوماً فقط[2].

محمد بن عبدالرحمن المستكفي بالله

بويع بالخلافة وتلقّب بالمستكفي بالله، ويكنى بأبي عبدالرحمن، بدأ عهده بقتل الخليفة السابق وواصل بداية عهده الدموي بقتل ابن عمه محمد بن العراقي خنقاً سنة 415هـ فكان هذا الخليفة سيئ الخلق، عاهراً، عاطلاً من الخصال والفضائل، منصرفاً إلى اللهو والعبث[3]، تشبهه المصادر التاريخية بالخليفة العباسي المستكفي بالله لاشتراكهما في صفات مشتركة (واستظهراهما بالفسق، واعتداء كل منهما على ابن عمه.. ومن العجب أنهما اتفقا في الأخلاق والعهر واللعب، وأن كل واحد منهما عاش اثنين وخمسين سنة، وكل واحد منهما ملك سنة ونحو خمسة أشهر، وكل واحد منهما تركه أبوه صغيراً، وتوافقا في اللقب، وبالجملة فهما رذل قومهما)[4]، وكان المستكفي بالله (همّه لا يعدو فرجه وبطنه، وليس له همّ ولا فكر سواهما)[5] وإنه (لم يكن محمد هذا من الأمر في ورد ولا صدر إنما أرسله الله تعالى إلى أهل قرطبة الخاسرين بليّة، وكان منذ عُرف عطلاً منقطعاً إلى البطالة، محمولاً على الجهالة، عاطلاً من طل ظلّة تدل فضيلة). كما شهد عهد المستكفي دماراً امتد إلى قصور عبدالرحمن الناصر في قرطبة وقصور الزاهرة، ولكن المستكفي قد خلّف ابنته الأديبة المشهورة ولادة بنت المستكفي[6]، والتي هي أبرز مآثره الحسنة كما نرى. ولقد ظل المستكفي في خلافته (أسير الشهوة عاهر الخلوة) وهو أمر لم يتحمله أهل قرطبة كثيراً، فبعد ستة عشر شهراً

(1) نفس المصدر.

(2) المقري، نفح، ج 1، ص 437.

(3) ابن عذاری، ج 3، ص 141.

(4) ابن عذاری، ص 141.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 287.

(6) المقري، نفح، ج 1، ص 437.

ثاروا عليه وخلعوه[1]. وأخرجوه عن قرطبة بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجوناً لا يصل إليه طعام ولا شراب، ثم نفوه، وتذهب رواية ابن عذارى على أنه لبس ثياب الغانيات متنقباً بين امرأتين، لم يميز منهما. وبعد سبعة عشر يوماً من خلعه وُجد مقتولاً، وقيل مسموماً في قرية من أعمال مدينة سالم، في ربيع الآخر سنة 416 هـ / 1025م[2].

وفي رواية أخرى تقول إنه في 25 من ربيع الأول سنة 416 هـ دخل عليه وزرائه وأمروه بأن يخرج معهم لقتال يحيى بن علي بن حمود الذي زحف إلى مالقة بقصد الاستيلاء على قرطبة. فتظاهر بالقبول وهو يضمر في قرارة نفسه النجاة بحياته، فتسلل من قصره بقرطبة في زي غانية بين امرأتين لم يميز منهما، وخرج من قرطبة مع بعض رجاله، واختلف معهم في الطريق فقتلوه في بلدة أقليج. ومن خلال سير الأحداث في قرطبة كان يحيى بن علي المعتلي بالله، يراقب الموقف ويوثق من منزلته وشأنه في مالقة، إذ كان لا زال يخطب لنفسه فيها بالخلافة، مما كان من أهل قرطبة أن (كتبوا إليه، وخاطبوه بالخلافة، وكتبوا له في رمضان سنة 416 هـ فأجابهم إلى ذلك). وقد دخل قرطبة في 16 رمضان سنة 416 هـ مستعيداً خلافته على الأندلس للمرة الثانية. فأقام فيها ما يقرب أربعة أشهر، ثم رحل إلى مالقة في 8 محرم سنة 417، وترك وزيره أبا جعفر أحمد بن موسى على قرطبة، فانتهز حبوس بن ماكسن صاحب غرناطة هذه الفرصة فأوعز إلى مجاهد وخيران إلى دخول قرطبة، وعندما اقتربا من قرطبة وتأكد وصولهما عند أهلها، ثاروا على البربر وقتلوا منهم نحو ألف رجل وذلك في ربيع الأول سنة 417هـ / 1026م[3]. وهرب الوزير الكاتب أحمد بن موسى إلى مالقة، وتهيّب يحيى من العودة إلى قرطبة، فقرر البقاء في مالقة.

وتختلف المصادر التاريخية حول رجوع يحيى إلى قرطبة بعد أن كاتبه أهلها وبايعوه بالخلافة، إذ يشير البعض إلى أن يحيى المعتلي أرسل إلى قرطبة عبدالرحمن بن

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 287-288.

(2) ابن عذارى، البيان، ج 3، ص 142.

(3) ابن عذارى، ج 3، ص 143.

عطاف اليفرني والياً عليها ولم يحضر هو[1]. وهكذا يقرر المراكشي بعدم دخوله إلى قرطبة وإنه كان مقيماً بقرمونة.

وقد ظل يحيى في مالقة حتى قُتل خارج أبواب قرمونة في محرم من سنة 427هـ، على أيدي رجال إسماعيل بن عباد. وهكذا تنتهي خلافة المعتلي الثانية والتي قاربت الثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً[2].

أما خيران ومجاهد العامريان، فأقاما لمدة شهر في قرطبة بعدها حدث بينهما خلاف، أثار بينهما الريبة والشك والخوف، فخرجا من قرطبة، إذ انسحب خيران منها في أواخر ربيع الآخر سنة 417هـ بينما بقي مجاهد فترة من الوقت بعدها غادر قرطبة إلى دانية.

ولقد شهدت قرطبة فراغاً سياسياً آخر إلى أن (أجمع أهلها على خلع العلويين لميلهم إلى البربر، وإعادة الخلافة بالأندلس إلى بني أمية)[3]، فاختاروا هشام بن محمد بن عبدالملك أخي المرتضى، الذي غدر به العامريون وقتلوه في وادي آش.

هشام بن محمد المعتد بالله

بايعه أهل قرطبة وهو في منطقة حصن البنت، وتلّقب بالمعتد بالله، ويكنى بأبي بكر، إذ أن هشاماً قد فرّ بعد هزيمة أخيه المرتضى بالقرب من غرناطة والتجأ إلى صاحبه عبدالله بن قاسم الفهري في حصن البنت (البونت) في شرقي الأندلس، وقيل كان مقيماً بالثغر في لاردة عند ابن هود[4]. وظلّ يحكم لمدة عامين وسبعة أشهر وقرطبة تخطب باسمه خليفة، وهي فترة حكم جيدة قياساً إلى ما سبقه من خلفاء

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 288.
(2) ابن عذارى، ج 3، ص 145.
(3) ابن الأثير، ج 7، ص 290.
(4) نفح الطيب، ج 1، ص 413.

عصر الفتنة، وفي عام 420 هـ استوزر رجلاً يعرف بحكم ابن سعيد القزاز[1]. وكان هذا الوزير نذير شؤم على المعتد بالله، إذ كان مكروهاً من أهل قرطبة لاستبداده برأيه وتعسفه بأحكامه، ومخالفته لآراء الوزراء السابقين، كما أنه كان ميالاً إلى البربر، فقد أكرمهم وأجزل لهم العطاء. فقام أهل قرطبة بقتله.

فانتهز أمية بن عبدالرحمن بن هشام بن سليمان، أحد أمراء بني مروان، فرصة قتل الوزير، ليحرض العامة على المعتد بالله سعياً لإسقاطه، وتولي الخلافة، وثاروا وراءه بنو أمية وحاصروا قصر الخلافة في 12 ذي الحجة سنة 422 هـ، وأُخرج هشام من قصره هو ونساؤه وأبناؤه، وأنزل إلى ساباط المسجد الجامع المؤدي إلى المقصورة، وظل هناك أسيراً ذليلاً، يترقب الموت في كل لحظة[2]، ولكن أمية بن عبدالرحمن لم يبلغ غايته في الوصول إلى الخلافة فقرر أهل قرطبة إخراج أمية مع المعتد بالله عن قرطبة[3] مع أن أمية كان حريصاً للظفر في الخلافة ولم يخطر بباله أن تنتهي الأمور إلى هذا الحال. إذ أن أحد من أهل قرطبة قال له: إن السعادة قد ولّت عنكم، فقال أمية: بايعوني اليوم، واقتلوني غداً [4]. وهكذا انتهت الخلافة الأموية في قرطبة، بل أن الأصوات ارتفعت بضرورة قيام بني أمية بمغادرتها، محذراً من يبقى فيها منهم، وتوعدوا من يتواطأ معهم.

وفي ذلك يقول ابن الخطيب (ومشى البريد في الأسواق والأرباض بان لا يبقى أحد بقرطبة من بني أمية، ولا يكنفهم أحد)[5]، ولقد اجتمع شيوخ قرطبة والوزراء برئاسة ابن حزم بن جهور، واتفقوا على خلع المعتد بالله، وإبطال مرسوم الخلافة

---

(1) ويكنى بأبي العاص.

(2) ابن عذارى، ص 151.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 290.

(4) ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص 192ن وما بعدها.

(5) ابن الخطيب، اعمال الإعلام، ص 192، وما بعدها.

جملة. وابن حزم كان من وزراء الدولة العامرية، قديم الرياسة، موصوفاً بالدهاء والعقل، ولم يدخل في شيء من الفتن.. بل كان يتصاون عنها[1].

وهكذا تحول الحكم في قرطبة إلى نظام شبيه بالحكم الجمهوري عُرف في كتب التاريخ بحكم الجماعة[2].

آراء المصادر التاريخية في نهاية عهد الخلافة الأموية في الأندلس

بعد خلع هشام الثالث الأموي المعتد بالله سنة 422هـ / 1031م، وإعلان الوزير ابن حزم انتهاء عهد الخلافة، انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة متنازعة، واستقلّ كل أمير بناحيته، واتخذ من نفسه ملكاً عليها فدخلت الأندلس في عصر جديد هو عصر الملوك والطوائف، وكان سقوط الخلافة هو العامل الرئيسي الذي أدى إلى انفراط عقد الوحدة الأندلسية ووصولها إلى مثل هذا الحال، حتى بلغ عدد الأسر الحاكمة في الأندلس الذي كان موحداً إلى عشرين[3] أسرة مستقلة من عشرين مدينة أو مقاطعة، وقد أدت هذه الأوضاع والتشتت والفرقة إلى عجز هؤلاء الملوك من الصمود أمام الممالك المسيحية التي أخذت تتوحد في شمال الأندلس وتزحف نحو الجنوب وتستولي على البلاد ساعية للقضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس عامة.

وهكذا تدهورت أمور الأندلس كله وتداعت القواعد الراسخة والوطيدة التي وضعها خلفاء بني أمية وأمراؤهم. وخاصة عبدالرحمن الداخل والناصر والحكم.

فقال ابن خلدون يصف أحوال هذه الفترة (صار ملكها في طوائف من الموالي والوزراء وأعياض الخلافة وكبار العرب والبربر، واقتسموا خططها، وقام كل واحد بأمر ناحية منها، وتغلب بعض على بعض، واستقل بأمرها ملوك استفحل شأنهم)[4].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 290.

(2) د. العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 274.

(3) وقيل ستة عشر دويلة مستقلة، انظر د. عبدالفتاح الغنيمي، كيف ضاع الإسلام، ص 255.

(4) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص 438.

ويقول ابن عذارى (فمن هذا التاريخ (422 هـ) كثرت الفتنة، وتمادى وانتزى كل أحد في موضعه، واستبد رُؤساء الأندلس وثوارها فيما بين أيديهم من البلاد والمعاقل وبغى بعضهم بعض، وله الحول والقوة)[1].

ويذكر ابن الكردوس بعد أن (انقطع اسم الخلافة من الجزيرة.. دارت الدوائر المبيرة، وفسد حال الرائس والمرؤوس، وارتفع كل خامل وخسيس، وثار الثوار، واشتعلت بكل مكان النار). وسنلقي نظرة عامة على هذا العصر لأننا نعتقد وفق منهج دراستنا هذه أن الإسلام وحضارته في الأندلس قد انعدمت فاعليتهما على العطاء الإنساني والحضاري منذ أن فصلت سلطة الخلافة وأقصيت من التأثير في المشهد السياسي وصار الخليفة لعبة بيد الحاجب المنصور بن أبي عامر وأولاده، الذين انتزعوا من الخليفة كل سلطاته الواقعية. ولا شك أن الفصل بين السلطتين الواقعية والروحية، كان مقدمة لنهاية الخلافة الأموية الإسلامية في الأندلس. لذا فإن عصر ملوك الطوائف جاء نتيجة منطقية وتحصيل حاصل لما حدث للخلافة في قرطبة بعد أن حسم أهلها أمر الخلافة كما رأينا.

ولقد شهد عصر ملوك الطوائف انقسام الأندلس إلى عدة إمارات، هي إمارة الجهاورة في قرطبة التي أسسها أبو حزم الأجهوري دام حكمها نحو أربعين عاماً (422 هـ -461 هـ)، وكانت هذه الإمارة بمثابة عودة الروح لدولة بني أمية عند احتضارها، فكانت متميزة في نهجها ولقد شملت هذه الإمارة العديد من المدن في شمال قرطبة وامتدت حتى حدود إمارة غرناطة وكان حكمها يستند إلى مجلس استشاري مكون من خيرة الرجال لا سيما رجال الدين والفقهاء وقادة الجيش، ولكنها انتهت كحال إمارات الممالك الأخرى. إذ انتهت بعدها قرطبة وفقدت أهميتها تماماً، وانتهى حكم بني -جهور وأصبحت قرطبة مدينة في إمارة إشبيلية العبادية. وإمارة طليطلة التي حكمها أبناء ذي النون الذين يعودون في أصولهم إلى أصول بربرية قديمة في الأندلس. وإمارة إشبيلية والتي حكمها بنو عباد، وإمارة سرقسطة وهي من اعظم إمارات الطوائف التي

---

(1) البيان، ج 3، ص 152.

ظهرت على الساحة السياسية في الأندلس بعد سقوط الخلافة، من حيث سعة رقعتها الجغرافية وموقعها، وحكمها بنو هود وأولهم أبو أيوب سليمان بن محمد بن هو الجذامي[1]، وبعده آلت السلطة إلى أبي جعفر احمد.

وهناك إمارة بطليوس، وإمارة بلنسية وإمارة المرية، وإمارة ولبة وشلطيش، وإمارة مارسية، وإمارة باجة وإمارة شلب، وإمارة غرناطة. ومن هذا العرض السريع لعناوين الإمارات. يذهب أكثر من باحث معاصر[2] إلى أن هذه الإمارات أو الدويلات الطائفية قد انضوت تحت خيمة ثلاثة أحزاب كبيرة عمل كل منها على السيطرة الأندلس، الحزب الأول: يمثله أهل الأندلس، وهم أهل البلاد الذين استقروا فيها من قديم الزمان وانصهروا في نسيج المجتمع الإسباني وصاروا أندلسيين رغم اختلاف أصولهم، فمنهم العربي والمغربي والصقلبي والإسباني وقد عُرف هؤلاء بأهل الجماعة. وكان من زعمائهم بنو عباد اللخميون في إشبيلية، وبنو جهور في قرطبة وبنو هود في سرقسطة، وبنو صمادح في المرية، وبنو يرزال في قرمونة، وبنو خزرون في أركش، وبنو نوح في مورور .. الخ.

والحزب الثاني يمثله المغاربة أو البربر الحديثو العهد بالأندلس، وخصوصاً قبيلة الصناهجة الذين استقروا في الأندلس أيام المنصور بن أبي عامر، ومن زعماء هذا الحزب زيري الصنهاجي في غرناطة.

وأما الحزب الثالث فيمثله كبار الصقالبة الذين استقلوا بشرق الأندلس. وكان هؤلاء الصقالبة في الأصل عبيداً من سبي الشعوب السلافية والذين باعوهم إلى عرب الأندلس، ولذا أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة، ثم توسع استخدام هذا الاسم ليشمل كل الموالي الذين جلبوا من مختلف البلاد الأوروبية، بما في ذلك شمال إسبانيا

---

(1) نسبه إلى قبيلة بني جذام العربية الهلالية.

(2) انظر، د. العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 275، وما يليها.

المسيحي. وفي أثناء اضمحلال الخلافة الأموية، شارك هؤلاء الصقالبة في الثورات والمؤامرات التي قامت في قرطبة وغيرها من أقاليم الأندلس.

وعملت هذه الأحزاب والأهواء إلى إنتاج حكام مثّلوا المشهد الضعيف سياسياً واجتماعياً، فبالغوا في التلقّب بألقاب الخلفاء وتقليد خلفاء الشرق في حياتهم وبذخهم، مقابل نهضة شاملة للدول المسيحية في إسبانيا. وبمساندة فرنسا والبابوية، أدت إلى احتلال الإسبان لمملكة طليطلة قلب الأندلس. وملوك الطوائف يتقاتلون بعضهم البعض، حتى أن المعتمد بن عباد ملك إشبيلية جاءته رسالة من الملك الفونسو السادس وعليها لقب (إمبراطور جميع إسبانيا)، أو ذو الملّتين (الإسلام والمسيحية)، فقام المعتمد بشطب هذا اللقب للملك وقال للرسول غاضباً: (المسلمون أحق بهذا الاسم)، ولكن احتجاج المعتمد لم يكن له قيمة على أرض الواقع، لأن الأحوال في الأندلس بلغت في ذلك الوقت أقصى درجات الضعف والفساد حتى قيل لبعض الأندلسيين أن العالم على وشك الزوال وأن الزمان على آخره[1].

وسوف نتناول في الفصل القادم الأسباب والعوامل التي أدت إلى سقوط الخلافة، وانهيار الدولة الأموية الإسلامية في قرطبة.



(1) ابن عبدون، رسالة الحسبة، ص 251. د. مختار العبادي، ص 284.



- أسباب سقوط الخلافة في قرطبة
- المعالم الحضارية في الأندلس
- العمران الديني
- العمران المدني

الفصل الثامن

أسباب سقوط الخلافة في قرطبة

في عام 422هـ / 1031م، سقطت الدولة الأموية بعد عزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتد بالله، وطرد من تبقى من آل مروان من قرطبة. وقد كان إعلان مجلس أعيان وشيوخ قرطبة وكبيرهم الوزير أبو الحزم بن جهور بانتهاء الخلافة لعدم وجود من يستحقها تأكيداً على انقسام الأندلس لإمارات مستقلة وذهاب حكم الخلافة المركزي في قرطبة إلى غير رجعة.

والحقيقة أن سقوط الخلافة لم يكن وليداً لقرار قرطبة، بل كان نتيجة لجملة من الأسباب الكامنة في كيان الدولة الإسلامية في الأندلس. بدأت عندما تحوّل الخليفة من رمز للوحدة السياسية والدينية للبلاد إلى ألعوبة بيد الحاجب حتى تحول إلى مركز تقوم بصنعه ثلاث فئات رئيسية في قرطبة، هي: عامة قرطبة، والبربر، والصقالبة[1]. ولقد كان قرار إلغاء الخلافة هو الحدث الوحيد في تاريخ الدولة الإسلامية في الشرق والغرب، إذ لم يبق لأية جماعة أن تقدم على هذا القرار[2]، فقد ظلت الخلافة العباسية رغم ضعفها وزوال القوة الفعلية للخليفة، قائمة كرمز ديني لوحدة المسلمين في الشرق حتى بعد سقوطها في بغداد على يد المغول عام 656هـ إذ قام المصريون بإعلان الخلافة العباسية في القاهرة عام 659 هـ ومن بعدهم العثمانيون في الأستانة.

فما هي الأسباب الحقيقية التي أدت إلى انهيار وسقوط الخلافة الإسلامية في قرطبة؟

---

(1) مونغمري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة: د. محمد رضا المصري، 97.

(2) مأساة الفردوس المفقود، د. عبدالفتاح الغنيمي، ص 255.

هناك الكثير من الأسباب والعوامل التي أدت إلى السقوط منها ما يتعلق بطبيعة التركيب السكاني للمجتمع الأندلسي في أواخر عهد الخلافة، ومنها ما يتعلق بطبيعة النظام السياسي الإسلامي في الأندلس، ومنها ما يتعلق بجغرافية هذه البلاد وغيرها الكثير وسوف نذكر أهم الأسباب التي ساهمت وفعّلت عملية سقوط الخلافة في قرطبة كما نعتقد:

1- لقد كان المجتمع الأندلسي يتكون من خليط سكاني غير متجانس قوامه العرب والذين كانوا يشكلون الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في عهود الفتوحات الأولى وما تلاها قليلاً، والبربر والصقالبة والمولدون والمستعربون واليهود. وبالتأكيد فإن هذا النسيج غير المتجانس يولد الميل إلى الاستقرار والتكتل في مناطق عمرانية خاصة بكل عنصر، فيُلاحظ أن قرطبة استقطبت غالبية العنصر العربي، بينما استقر في إشبيلية وطليطلة غالبية المولدين، بينما كان غالبية البربر يستوطنون غرناطة وقرمونة ومالقة[1]، وهذا التوزيع السكاني للأندلس شجع على الاستقلال والخروج عن السلطة المركزية ولا سيما في فترة تدهورها وضعفها.

2- العامل الجغرافي، إذ يرى باحث معاصر[2] أن أهل الأندلس كانت تعوزهم روح الترابط والوحدة بسبب تفرقهم في شبه الجزيرة وإن هذا أدى إلى تمزيق البلاد بسهولة، وهو سبب واقعي إذا ما عرفنا أن امتداد سلاسل الجبال من الشرق أو الشمال الشرقي إلى الغرب أو الجنوب الغربي في طبيعة الأندلس الجغرافية قد عمل حواجز من الصعب اجتيازها في ذلك الزمان، وقسّم الأندلس بذلك إلى أقاليم تكاد تكون منفصلة وقد ساعدت هذه الطبيعة الوعرة والمتباعدة إلى ميل أهل البلاد إلى النزعة الانفصالية، لا سيما أن الإسبان وقوات المقاومة للحكم الإسلامي قد اتخذت من هذه المناطق أوكاراً لها لشنّ الهجمات على المسلمين كما رأينا في دراستنا هذه.

---

(1) انظر د. السيد سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 364.

(2) د. حسين مؤنس.

3- السياسات المتقلبة التي اتخذها الحكام المسلمون في التعامل مع المجتمع الأندلسي المتعدد الأطياف العرقية وذلك لتغليبهم عنصراً على آخر في الحكم. مما يجعل السيادة بيد عنصر واحد يقوم باستبداد واضطهاد بقية عناصر المجتمع الأندلسي، وهو ما حصل لعبدالرحمن الداخل عندما أساء معاملة زعيم القبائل اليمانية أبي الصباح بن يحيى اليحصبي مما أدى إلى ثورة اليمنية عليه، كذلك ما حدث لعبدالرحمن الناصر عندما خذله القادة العرب وذلك لتقريبه الصقالبة والفتيان وإبعاده العرب[1]، والذي تذكر المصادر التاريخية عن الناصر بالقول: (ولكنه عفا الله عنه مال إلى اللهو، واستولى عليه العجب.. وأغاظ الأحرار بإقامة الأنذال كنجدة الحيري وأصحابه الأوغاد فقلّده عسكره، وفوّض إليه جليل أموره، وألجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه، وحال نجدة حال مثله في غيّه واستخفافه وركاكة عقله، فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم من الغزوة التي غزاها عام 326هـ وسمّاها غزوة القدرة، لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها، فهزم فيها أقبح هزيمة، وأتبعهم العدو أياماً يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة..)[2]. وكذلك ما شهدنا من تاريخ الحكام المسلمين والحوادث التاريخية التي ألمت بهم من جراء تقريبهم البربر أحياناً على الآخرين أو العرب على الآخرين. وهذا ذكرناه في دراستنا التي امتدت من الفتح الإسلامي إلى سقوط الخلافة في قرطبة فرأينا كيف أن الحاجب المنصور بن أبي عامر قد اعتمد في جيشه على عنصرين فقط هما البربر والصقالبة، وذلك محاولة منه لإزالة العصبية العرقية في الجيش لضمان الولاء، لكنه اعتمد على البربر بالدرجة الأساس إذ قام بجلب الكثير منهم إلى قرطبة من المغرب وأفريقيا حتى ضاقت بهم قرطبة وأرباضها[3]،

---

(1) في موقعة شانت مكنش المشهورة بموقعة الخندق سنة 327هـ.

(2) أخبار المجموعة، ص 155-156.

(3) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 428.

ويذكر ابن الخطيب إلى أن عدّة الفرسان من البربر الغرباء في ديوان ابن أبي عامر بلغ ثلاثة آلاف فارس.. وهكذا اعتمد المنصور في جيشه على عنصرين فقط هما البربر والصقالبة مع ميل واضح للبربر وإهمال رجال العرب، إذ يذكر المقري (أنه – الحاجب المنصور – استدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جنداً واصطنع أولياء، وعرّف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يغزن ومكناسة.. وقدّم البرابرة وزناتة وآخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم)[1]. وبهذا الإقصاء للعنصر العربي الذي شكّل قيادة الجيوش الإسلامية في الغالب قد قضى على عنصر المغالبة والممانعة على حد تعبير ابن خلدون والتي لا تستند إلا على النعرة والعصبية فمتى ما فسدت العصبية انهارت السلطة المركزية، ولاحظنا أن انقراض العصبية العربية بعد زوال الدولة العامرية من أسباب انهيار الخلافة الأموية.

4- أساليب القسوة والبطش والتنكيل التي أتبعها الولاة والأمراء والخلفاء بحق معارضيهم من المجتمع الإسباني قد أدت إلى حصول فجوة واضحة بينهم وبين عامة الناس ساهمت على مرّ الزمن بإنشاء الحواجز بين الحكام والرعية وأفضت في الآخر إلى هذا السقوط المريع لآخر الخلفاء في قرطبة. فكما يقول ابن خلدون (فإن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منصباً عن عورات الناس، وتعديد ذنوبهم، شملهم الخوف والذل، ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة، فتخلقوا بها، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات، وربما أجمعوا على قتله لذلك، فتفسد الدولة ويخرب السياج، وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما قلناه أولاً وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية، وإذ كان رفيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم، استناموا إليه، ولاذوا به، وأشربوا محبته، واستماتوا دونه في محاسبة أعدائه، فاستقام الأمر من كل جانب)[2]. ولقد شاهدنا صحة هذا التحليل في مسيرة الإسلام في الأندلس ومقدار ما تثيره سياسة

---

(1) المقري، نفح، ج 1، ص 374.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 189.

اللين والاعتدال مع الرعية من استقرار كما حصل في عهد عبدالرحمن الثاني والحكم المستنصر مثلاً من سيادة الطمأنينة والرخاء. على عكس ما تثيره سياسة العنف والبطش من فوضى واضطراب وهو ما شهدناه في أغلب فترات الحكم الإسلامي وخصوصاً بعد عهد الإمارة الأموية في الأندلس.

5- استشراء الفساد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بين عناصر المجتمع الإسباني وحكامه، وانقسامهم وتشرذمهم إلى أحزاب، إذ استخدمت كل الوسائل للإيقاع ببعضها وتنصيب الحاكم الذي يرونه صالحاً لتنفيذ مآربهم وأدى هذا التناحر إلى الاستعانة بالقوى الأجنبية للانتصار على خصومهم الأندلسيين، ولقد رأينا أثناء دراستنا كيف أن الخلفاء والحكام المسلمين قد استعانوا بالمسيح الإسبان في الشمال لنجدتهم من خصومهم المسلمين في الأندلس مقابل التنازل لهم عن بعض المصالح أو الحصون، وهذا كان عاملاً من العوامل التي ساهمت في إضعاف الإسلام في الأندلس، لا سيما وأن النصارى قد استثمروا هذا الجانب وبدءوا بالتدخل في شؤون الأندلس الإسلامية بغية استرداد ما احتله المسلمون من أراضيهم وهو ما حصل فعلاً.

6- هناك عامل يتعلق بالجانب الاقتصادي والثراء الذي ازداد كثيراً في عهد عبدالرحمن الثالث وجعل المستوى الاقتصادي لمعظم السكان مرتفع، مما جعل المجتمع الأندلسي ينظر إلى الأمور نظرة مادية وهذا الأمر أدى إلى الحد من المواطنين المستعدين للتضحيات في سبيل وحدة البلاد، وما تتطلبه من مبدئية وإيمان وجهاد في سبيل الله.

7- يرى باحث غربي[1] إن هناك خلل أساسي ما في الحضارة الإسلامية أو في بُنى العصر الوسيط الاجتماعية، إذ يقول: أن هناك إخفاق في تكييف الأفكار الإسلامية مع مشاكل معاصرة، وعدم وجود طبقة متوسطة راسخة الأساس مهمتها المحافظة على حكومة مركزية فعالة. ويعلل الأمر بأن الإسلام على الرغم من اشتهاره بأنه دين سياسي، لم يكن ناجحاً بشكل جليّ في أفكاره السياسية، ويرى أن الأمور سارت على ما يرام في عهد النبي محمد، لأنه كان قادراً على تكييف الأفكار

(1) مونتغمري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة د. محمد المصري، ص 98 وما يليها.

والمؤسسات الموجودة مع حاجات جماعته النامية، إلا انه والخلفاء الراشدين من بعده ظلوا عملياً حبيسي المفاهيم السياسية المرتبطة بالقبيلة العربية. ويرى أن هذه المفاهيم قد أثبتت فاعليتها على أساس قبلي إذ أن جماعة المسلمين كانت قبيلة مسيطرة والجماعات غير الإسلامية هي بمثابة قبائل خاضعة لها. ولكن هذا الفهم لم يصمد كثيراً أمام التوسعات الهائلة للإمبراطورية الإسلامية، ولا سيما الفتوحات الإسلامية في بلاد فارس، مما اضطر الحكام المسلمين إلى (فرض اقتباس أفكار فارسية في فن الحكم، كانت على عهد أمويي الشام محاولات مترددة، ثم ما لبثت أن شهدت في عهد العباسيين، إقبالاً لا تحفظ عليه). وكانت بعض هذه الأفكار الفارسية في فن الحكم قد وصلت إلى إسبانيا أيضاً، ولكن الباحث يتساءل عن جدية الحكام المسلمين في تطبيق نهج محمد في التعامل مع أهل الذمة، عندما يكونوا أمراء مسيحيون يتمتعون باستقلال محلي من دون أن يعوا الفوارق الطبيعة الناتجة من الفهم المختلف لهؤلاء الأمراء في التعامل مع رعاياهم النصارى؟ ويخلص إلى أن الأفكار السياسية، التي عمل المسلمون بموجبها في الأندلس، لم تكن مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمبادئ الإسلام من حيث هو دين، فقد استقل العمل السياسي عند الدين. ووافق الحكام المسلمون على الخضوع للأعراف المحلية الإسبانية في إدارة الحكم. لذلك مالَ الناس بسبب ذلك إلى مراعاة مصالحهم الخاصة، أو مصلحة الدولة العليا، ونتيجة لهذا أصبح أي نظام يوجد في الحكم همّه الأول المحافظة على ذاته دون الاهتمام بالمصلحة العامة ومستقبل المجتمع. وهو ما كان أحد العوامل التي أدت إلى انهيار الخلافة.

8- يذهب الباحث (وات) إلى تأكيد مسألة مهمة ساهمت في فشل المسلمون في التوسع في شبه جزيرة إيبيريا أو حتى الاحتفاظ بما كانوا يحتلونه منها، وهي أن الحكام برغم استقدامهم البربر الجدد والصقالبة لتأمين إخضاع الأمراء النصارى، والتوسع في شمال أفريقيا، لكنهم لم يمتلكوا الغاية الدينية للحفاظ على الكيان الإسلامي السياسي في مجتمع يضمن لكل عناصره عبادة الله في حرية.

إذ أنهم تخبطوا في الخلط بين الدين والسياسة (فالسياسة لها استقلالها الخاص، والنشاطات السياسية ينبغي أن تخضع لاعتبارات سياسية). ولقد جاء هذا الخلط في

الممارسات السياسية من قبل الحكام المسلمين وذلك من خلال إخضاع الممارسات السياسية للمنظومة العقائدية الدينية، لإيجاد المبرر الديني للعمل السياسي، وبعد زوال ممثل العقيدة والدين وهو الخليفة في آخر عهد الخلافة أو من خلال وجوده الصوري في المرحلة السابقة عليها. كانت السياسة غير قادرة للمضي وحدها دون وجود مبرر ديني كالجهاد مثلاً. وبهذا تعطل الفعل سواء أكان سياسياً أم دينياً ليكون قوة فاعلة في حياة المجتمع الأندلسي. لوجود هذا الازدواج بين الدين والسياسة في ظرف غابت فيه الإرادة في كلا الحقلين وأصبحت منقادة لشروط لاعبين غير مَهَرة.

9- لقد أدى الاختلال الحاد في التوازن الطبقي للمجتمع الأندلسي إلى وجود طبقتين هما: طبقة عليا وطبقة دنيا، وتتكون هذه الطبقة من كادحي المدن والأرياف، بينما تشكل الأولى، الحكام والموظفين المدنيين وقادة الجيش وملاك الأراضي وكبار التجار. وهذا يدل على انعدام وجود طبقة وسطى ليس على المستوى الاقتصادي فقط – رغم أهميته – فلقد انعدمت فاعلية هذه الطبقة اجتماعياً وسياسياً ودينياً. ومن المعروف أن الطبقة الوسطى هي الضمانة الأكيدة للحفاظ على وجود الدولة المركزية لارتباط مصالحها وولائها أفقياً وعمودياً في الحكم المركزي والنسيج الاجتماعي العام. فعلى المستوى الديني كان فقهاء السنّة وممثليهم الرئيسيين قد وقفوا على الحياد بل أصبحوا تابعين لسلطة مركز الحكم. الأمر الذي ساهم في تفتيت الطبقة الوسطى، وتعزيز وجود الطبقة العليا والتي نادراً ما كان حافز هذه الطبقة في حياة المجتمع أساسه الدين أو مصالح الناس بقدر ما كانت الحوافز الدنيوية هي المحرك الأساس لها. ففي الوقت الذي تستخدم السلطات الحاكمة الأفكار الدينية، مثل الجهاد، لحثّ العامة على الخروج للفتوحات، تدرك الطبقة العليا أن القصد من وراء هذه الأعمال العسكرية هو لزيادة سلطان الحكام وليس إخضاع النصارى ونشر الإسلام، وهنا توسعت الفجوة بين الطبقة العليا والحاكم، وأخفق المفهوم الديني لدور الطبقة العليا في حياة الأمة الإسلامية، أي أن العلاقة بين الحاكم الإسلامي والطبقة العليا لم يعد يحكمها غير المصلحة الخاصة لكليهما وانتهى العامل الديني في تحديد نمط

هذه العلاقة. لذا فقدت الطبقة العليا ولائها لمركز الحكم المركزي، في الوقت الذي يمثل الولاء الديني ثابت بنيوي تقوم عليه الأمة. وعلى هذا الأساس أصبحت الطبقة العليا غير معنية في تحمل مسؤولياتها للمحافظة على بنية المجتمع الأندلسي. وانصرفت إلى تحقيق مآربها الخاصة. لذا فإن الطبقة الدنيا هي الأخرى قد فقدت ولائها للسلطة بحكم ما نالها من الجور والظلم والاضطهاد، إذ كانت هي حطب الحروب ووقودها الدائم من دون أي غاية تحققها على المستوى الديني أو الاقتصادي أو الاجتماعي. وهذا الفراغ الطبقي (إذا جاز التعبير) في عدم وجود طبقة وسطى ساهم في انهيار النظام السياسي للخلافة الإسلامية، بعد أن اجتمعت كل الظروف لإقصاء وتهميش لدور هذه الطبقة الحيوي في الحفاظ على تماسك النظام السياسي والنسيج الاجتماعي للمجتمع الأندلسي.

هكذا انهارت الخلافة الأموية في قرطبة وانتهت صفحة الدولة الإسلامية المركزية في الأندلس وتحولت إلى دويلات متناثرة ومستقلة. وهكذا انتهت وحدة الدولة الإسلامية في الأندلس التي لمّت شملها الدولة الأموية والتي امتدت من ضفاف نهر دورو شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن شواطئ البحر الأبيض المتوسط شرقاً، حتى شواطئ المحيط الأطلنطي غرباً دامت زمنياً زهاء ثلاثمئة سنة، دولة مركزية عاصمتها الأخيرة قرطبة.

المعالم الحضارية في الأندلس[1]

لم يكن الوجود الإسلامي في إسبانيا وجوداً عسكرياً محضاً، بل إنه حمل فيما حمله من نوايا نشر الدعوة الإسلامية لهذه البلاد القصية عن مركز الخلافة الإسلامية في الشرق. لذا، فإن الفتوحات الإسلامية اقترنت بإنشاء مراكز عمرانية إسلامية كان الغرض منها أولاً أن تكون قواعد حربية ومراكز للجيش من جهة، وصبغ البلاد المفتوحة بالصبغة العربية الإسلامية من جهة أخرى. ولقد كان لبيئة الأندلس الخصبة من طبيعة جغرافية متنوعة، وقربها من المغرب وأفريقيا، ومناخها المتوسطي الذي لم

---

(1) انظر، د. السيد سالم، تاريخ المسلمين وآثاره، ص 375 وما يليها.

يختلف كثيراً عن المناخ الشرقي العربي والإسلامي، أثراً كبيراً على التأقلم السريع للمسلمين مع البيئة الأندلسية، أضف على ذلك الامتداد الزمني للدولة الإسلامية. قد ساهم كله في نشأة حضارة تعددت أشكالها وتنوعت بين الفكر والمعارف والعلوم والأدب والصناعات والحرف... الخ.

وبما أن العمران يشكل أهم المعالم الحضارية التي لا زالت شاهدة على تلاقح الوجود الإسلامي مع المجتمع الأندلسي في إسبانيا وبحدود ما اقتضته دراستنا فندرس المنشآت العمرانية في الأندلس والتي انقسمت إلى عدة أقسام وأهمها: العمارة الدينية والعمارة المدنية.

العمران الديني

المساجد

لم تكن المساجد الإسلامية أماكن لأداء الفرائض الإسلامية فقط، وإنما صارت النواة الأولى لمعمار المدينة التي يبنى فيها أيّ جامع مسجد إسلامي، فالجامع الإسلامي يصبح بمرور الزمن مركز المدينة وقلبها النابض، منه تتفرع الطرق المؤدية إلى أبواب المدينة، وحول ساحته تقام الأسواق، والحمامات والفنادق، وفيه تعقد الاجتماعات السياسية، وتوزع ألوية الجيش، وتدرس العلوم الدينية وغير الدينية، فليس غريباً أن يسيطر الجامع على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية[1].

لذا فإن وجود جامع إسلامي يعني أساس العمران الديني، فإن لم يجدوا عذراً لإقامة المساجد يشاركون النصارى في كنائسهم، كما فعلوا سابقاً في الشام حين شاركوا نصارى دمشق في كنيسة يوحنا المعمدان. أو كما فعلوها في الأندلس، فشاركوا النصارى في كنائسهم بناءً على اجتهاد الخليفة عمر بن الخطاب. وفي قرطبة تحديداً بنوا لهم جامعاً غير منتظم التخطيط داخل كنيسة قرطبة العظمى. إذ يقول المقري (أسس حنش الصنواني وأبو عبدالرحمن الحبلي التابعان قبلته بأيديهما، وتركوا

---

(1) نفس المصدر، ص 376.

النصف الآخر للنصارى، يقيمون فيه شعائرهم الدينية)[1]، وكذلك أقيم جامع الجزيرة الخضراء على يدي عبدالله بن خالد على أنقاض كنيسة، كما أسس جامع طليطلة على أساس كنيسة قديمة. لذا، فإن المسجد الإسلامي كان مركزاً عمرانياً بالإضافة إلى دوره الاجتماعي والاقتصادي حتى صار المسجد نقطة تحول في الدراسة الطبوغرافية التاريخية للمدينة الإسلامية[2].

ومن أهم المساجد التي بُنيت في عهد أمراء آل أمية في قرطبة وغيرها هي:

1- جامع قرطبة

وهو من أعظم المساجد التي عرفتها الأندلس، ويعد من أروع التحف الفنية في العمارة الإسلامية والمسيحية في العصر الوسيط، وقد نال اهتماماً كبيراً من قبل مؤرخي المغرب والأندلس، لما اشتمل عليه من أساليب العمارة الأندلسية التي مُزجت في بوتقتها أذواقاً عديدة، حتى استطاعت أن تعبِّر عن العمارة الأندلسية الخاصة والمتميزة.

كما يعد جامع قرطبة من الجانب العلمي، أكبر مدرسة إسلامية تُدرس فيها العلوم الدينية واللغوية، إذ تستقبل الطلبة على مختلف دياناتهم وأصولهم العرقية للدراسة فيها. ويقول المقري عن جامع قرطبة: (الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه)[3]. ويصفه الحميري بالقول أنه (المشهور أمره، الشائع ذكره، من أجلّ مصانع الدنيا كبر مساحة، وإحكام صنعة، وجمال هيئة، وإتقان بنية، تهمّم به الخلفاء المروانيون، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة.. حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف، فليس في مساجد المسلمين مثله تنميقاً وطولاً وعرضاً)، ولقد شهد هذا الجامع عدة تطويرات منذ عهد الأمير عبدالرحمن الداخل

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج 2، ص 96.

(2) د. السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص 377.

(3) المقري، ج 2، ص 8.

الذي وسّع الجامع فاصبح يشمل تسعة أروقة عمودية على جدار القبلة والرواق الأوسط وهو أكثرها اتساعاً وارتفاعاً، وتتألف الأروقة من صفوف متوازية من احد عشر قوساً على شكل حدوة الفرس، وظيفتها ربط الأعمدة فيما بينها، ويتناوب في هذه الأقواس الآجر الأحمر، وقطع الحجارة الصفراء، مما يكسب المسجد مظهراً زخرفياً بسيطاً، وتقوم هذه الأقواس على أعمدة رخامية تعلوها تيجان قديمة من الكنائس الخربة في قرطبة، وتعلو الأقواس صفوف أخرى من اقواس نصف دائرية، قائمة على دعائم مربعة، وظيفتها حمل الأسقف، وتسند جدران المسجد من الخارج ركائز قوية تضفي على المسجد مظهر القلاع.

وكان فناء المسجد مغروساً بالأشجار، شأن بقية الجوامع في الأندلس. ولقد توسع المسجد الجامع أيضاً على عهد هشام بن عبدالرحمن الذي بنى مئذنة الجامع. وفي عهد عبدالرحمن الثاني وسعه بزيادة رواقين جانبيين إلى الأروقة التسعة السابقة. وقام عبدالرحمن الناصر ببناء مئذنة كبيرة، وجاء ابنه المستنصر ليوسع ويطور الجامع بزيادة عدد أقواسه وإقامة قبة كبيرة إلى جانب القبة الأصلية. وقد زين المسجد بالفسيفساء وخاصة بجانب المحراب وأجرى الماء إلى سقايات الجامع، وأقام منبراً مركباً.

أما في عهد المنصور بن أبي عامر فقد شرع المنصور عام 377هـ / 987م. في تطوير وتوسيع المسجد الذي ضاق بالمصلين. فكان أول عمل قام به هو هدم الدور القائمة شرقي الجامع والتي أدخلها في زيادته، وتعويض أصحابها بالمال والعقار، إذ يقول ابن عذارى (أول ما عمله بن أبي عامر قبل قيامه بأعمال الزيادة – تطييب نفوس أرباب الدور والمستغلات الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بإنصافهم من الثمن أو بمعاوضته..) [1]. وبدأت أعمال التوسع في الناحية الشرقية وامتدت على بلاطات تمتد بطول المسجد من أوله إلى آخره، فأصبحت لا تقل عن سائر الزخارف روعة وجمالاً [2].

---

(1) ابن عذارى، البيان، ج 2، ص 429.

(2) المقري، نفح، ج 2، ص 136-137.

ولقد استغرق العمل في هذه الزيادات عامين ونصف العام، واستخدم المنصور الأسرى المسيحيين في بناء الجامع كما ينقل المقري أنه (من أحسن ما عاينه الناس في بنيان هذه الزيادة العامرية أعلاج النصارى مصفدين في الحديد من أرض قشتالة وغيرها، وهم كانوا يتصرفون في البنيان عوضاً عن رجال المسلمين إذلالاً للشرك وعزة الإسلام)[1]. كما أن المنصور قد جعل نواقيس الكنائس التي غنمها ثريات في جامع قرطبة. (في حين أن عمر بن الخطاب لم يجرؤ لإقامة الصلاة في كنيسة في فلسطين حتى لا تكون سنّة يتبعها المسلمون من بعده).

وأصبح المسجد يتألف بعد تطويرات المنصور من تسعة عشر بلاطاً. ففقد المسجد الجامع تناسقه واتزانه وتعادل أجزائه، وأصبح المحراب متطرفاً عن وسط جدار القبلة بعد أن كان يقع في محور الجامع[2]. كما قام المنصور بهدم أبواب الجامع من الجهة الشرقية قبل أن يبدأ في التوسع. وفتح في الجدار الشرقي ببيت الصلاة القديم ثغرات واسعة تصل الزيادات الجديدة وبيت الصلاة القديم، أما الجدار الشرقي الجديد للجامع فقد فتح فيه المنصور ثمانية أبواب، فأصبح عدد الأبواب المؤدية إلى بيت الصلاة ستة عشر باباً. يضاف إليها خمسة أبواب تنفتح على مجنبات الصحن، فيكون مجموع أبواب الجامع النهائية إحدى وعشرين باباً. وجميعها مطعمة بالنحاس الأصفر ومخرّمة تخريماً رائعاً. وتتمثل الصالة المعمارية في قباب المسجد وقوامها هيكل من الأقواس البارزة، تتقاطع فيما بينها، بحيث تترك فراغاً تشغله قبة مفصصة، وقد انتشر نظام الأقواس في القباب في إسبانيا المسيحية انتشاراً واسعاً.

ولقد حافظ جامع قرطبة على شكله هذا طيلة العصر الإسلامي، ولم يشهد أي تغيير في نظام هندسة بنائه، سوى الترميمات وبعض الإصلاحات الضرورية في عصري المرابطين والموحدين. ولكن سقوط قرطبة على يد الملك فرنادو الثالث ملك

---

(1) المقري، نفح، ج 2، ص 84. نقلاً عن الحاشية رقم 1 ص 397. د. السيد سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس.

(2) يقع محور الجامع من القبلة جنوباً إلى باب الغفران شمالاً، ماراً بالبلاط السادس ابتداءً من غرب الجامع.

قشتالة عام 1236، تحوّل هذا المسجد الجامع إلى كنيسة حملت اسم (سانتا ماريا) العظمى. ولقد شهد بناء الجامع في أواخر القرن الخامس عشر، إضافات وتغيرات أساسية أجراها الإسبان أدت إلى القضاء على الوحدة المعمارية. ثم أقيمت كاتدرائية قوطية الطراز في قلب الجامع شوهت البناء القديم وقد أشرف على بناء هذه الكاتدرائية المهندس المعماري هرنان رويث ثم خلفه ابنه هرنان ولم يتم بناء الكاتدرائية كاملة إلا في عام 1559 على يدي الحفيد رويث. ثم اقيمت على جدران الجامع من الداخل مصليات عديدة اتخذت طابع عصر النهضة في بنائها، مثل مصلى لوس سيما نكاس ومصلى سان بابلو. وفي عام 1682 أقام الأسقف فراي ألونسودي، مدينة المصلى المعروف بلاكونشيون وزيّنه بتماثيل رائعة، قام بنحتها النحات الغرناطي بدرو دي مينا، وفي عام 1705 أقيم مصلى آخر يعرف بسانتا تيرزا، أو مصلى الكاردينال سالازار، وفي القرن الثامن عشر انتزعت أسقف الجامع الخشبية، بعد أن تآكلت بفعل الزمن، وأقيم بدلاً عنها قبوات جصية في جميع بلاطات الجامع.

وخلال القرن التاسع عشر أجريت في الجامع عدة إصلاحات أولها ما قام به دون بدروتريفيا عام 1826 من ترميم المحراب، ثم أعلن المسجد الجامع عام 1882 أثراً قومياً إسبانيا، ولقد أجريت عدة ترميمات آخرها عام 1909 وقد عهدت الحكومة الإسبانية إلى مهندسين مختصين بالعناية به وترميمه عند الحاجة.

ولقد كان لهذا الجامع المسجد في قرطبة تأثير على فن العمارة الإسلامية والمسيحية. فمنه أخذ نظام القباب ذات الضلوع، ومنه اشتقت هندسة البلاطات المتجهة عمودياً على جدار القبلة ومن تخطيطه اشتقت تخطيطاتها. وكان جامع ابن طولون في مصر قد تأثر في جامع قرطبة، فمئذنة جامع ابن طولون تحمل عقوداً من النوع الشائع في جامع قرطبة، وإن القنطرة التي تصل بين الجامع تستند على عقدين متجاورين على الطراز القرطبي، وبأسفل القنطرة كوابيل من نفس نظام كوابيل عقود جامع قرطبة، كما امتدت التأثيرات الأندلسية القوطية إلى مدينة طرابلس حيث تظهر واضحة في بعض الآثار مثل عقود المدرسة البرطاسية[1].

---

(1) هذه التأثيرات توصل إليها الباحث د. سيد عبدالعزيز سالم، وهو ما اعتمدنا عليه بشكل أساسي، في كتابه تاريخ المسلمين وآثارهم في هذا الموضوع.

أما تأثير عمارة الجامع على العمارة المسيحية فهي واضحة في إسبانيا إذ ترى في الكنائس المسيحية مثل كنيسة المزان بقشتالة وفي الكنائس المستعربة بجليقية مثل سانتيا جو دي بنيالبا وغيرها، كما امتد تأثيره إلى مقاطعات فرنسا الجنوبية مثل كنيسة جاسكونيا ولانجروك وغيرها.

2- جامع عمر بن عدبس

ويقع في إشبيلية، وهو من المعالم المعمارية المهمة في الأندلس. ولقد أمر الأمير عبدالرحمن الثاني في سنة 412هـ / 829م، القاضي عمر بن عدبس بتشييد هذا الجامع. وسجل تاريخ إنشاء الجامع في نقش كوفي على عمود من رخام[1] جاء في نصه (يرحم الله عبدالرحمن بن الحكم الأمير العدل المهتدي الأمر ببنيان هذا المسجد على يدي عمر بن عدبس قاضي إشبيلية....)[2]. ولم يتعرض هذا الجامع إلى أية تطورات أو إضافات واحتفظ بمساحته الأولى حتى ضاق بعد مضي ثلاثة قرون من إنشائه بالمصلين. فأقام الموحدون جامع القصبة الكبير بإشبيلية لاستيعاب الفائض من المصلين، ويتكون هذا الجامع من أحد عشر رواقاً عمودياً على جدار القبلة، وكان الرواق الأوسط أكثرها اتساعاً وارتفاعاً، وطول جدار القبلة يتراوح ما بين 48-50م. ومئذنة المسجد تستند على الجدار الشمالي للجامع، وتبرز خارج هذا الجدار قليلاً، وصنعت مئذنة الجامع من الأحجار التي خلفها السور الروماني القديم الذي تهدّم عند الفتح الإسلامي لمدينة إشبيلية[3].

وكان صحن الجامع مزروعاً بأشجار البرتقال والنارنج، تتوسطه نافورة على شكل محارة، ولكن هذا الجامع تعرض إلى حرق سقفه أثناء هجوم النورمانديين على إشبيلية سنة 230هـ / 844م بعدها تعرض الجامع سنة 472هـ / 1079م إلى زلزال عنيف هدّم الجزء الأعلى من المئذنة، فجدد المعتمد بن عباد بناءها، ثم تصدعت

---

(1) وهذا العمود محفوظ اليوم بمتحف الآثار الأهلي في إشبيلية.

(2) حاشية رقم 1 من كتاب السيد سالم السابق، ص 401.

(3) لقد عثر بين أحجار المئذنة على حجر عليه نقوش لاتينية.

الجدران الغربية، وتآكلت ركائز سقفه، حتى أصلحها الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور في سنة 592هـ / 1195م، وبنى له ركائز قوية تسند جدرانه من الميل. وقد كان معماره الهندسي يشبه جامع قرطبة، كما أن مصيره يشبه مصير جامع قرطبة الذي تحوّل أيضاً إلى كنيسة اسمها (سان سلفادور) بعد سقوط إشبيلية على يد فرناندو الثالث سنة 1246م.

3- مسجد الباب المردوم

ويقع في طليطلة، ويمتاز بصغر مساحته قياساً إلى مسجدي قرطبة وإشبيلية، لكنه مع ذلك يحتل أهمية خاصة لاشتماله على تسع قباب، قائمة على الضلوع المتقاطعة، تمثل أولى مراحل التطور التي مرّت بها قباب جامع قرطبة. وقام ببناء هذا الجامع أحمد بن حديدي[1] من ماله الخاص، وقام بالبناء موسى بن علي. وشيّد المسجد من الحجر الجرانيتي والآجر، وهو مربع الشكل على نظام الكنائس البيزنطية لا يتجاوز طول الجانب منه ثمانية أمتار. ويتألف من ثلاثة أروقة طويلة، تقطعها ثلاثة أروقة عرضية، بحيث يحدث من ذلك التقاطع تسعة أساطين، تفصل بينها أربعة أعمدة تيجانها قوطية قديمة، يتفرع منها اثنا عشر قوساً على كل شكل حدوة حصان. ويعلو كل أسطوان من الأساطين التسعة قبة تتقاطع فيها الأقواس على نحو ما رأينا في جامع قرطبة، والقبة الوسطى أكثر القباب ارتفاعاً. وهذه القباب تظهر تطوراً لقباب قرطبة من ناحية الزخرفة. وتطلّ واجهة المسجد الرئيسية على الطريق المؤدي إلى باب مردوم بثلاثة عقود، في أعلاها نقش كوفي يتألف من قطع من الآجر بارزة على سطح البناء داخل إفريز بين صفين من الأسنة البارزة، ويسجل هذا النقش تاريخ البناء سنة 390 هـ. والقوس الأيمن من هذه الأقواس متجاوز على شكل حدوة حصان على نمط أقواس جامع قرطبة. والقوس الأيسر مفصص، أما الأوسط فهو جديد. ويعلو الأقواس الثلاثة التي تعد أبواباً كيت الصلاة، أقواس صغيرة متقاطعة. والواجهة التي تطلّ

---

(1) وهو قاضي طليطلة، وهو من أسرة معروفة، تولى الوزارة أيام إسماعيل بن ذي النون ملك طليطلة.

على صحن المسجد تتألف من ثلاثة عقود متجاوزة بمثابة أبواب، تعلوها ستة أقواس، يتناوب اللونان الأبيض والأحمر فيها. نتيجة لتعاقب قوالب الحجر والآجر على نظام أقواس جامع قرطبة.

العمران المدني

1- القصور

اتخذ المسلمون عند دخولهم الأندلس المباني والقصور الإسبانية كمقر للحكم والسكن، وكانت هذه القصور توجد في المدن القديمة الإسبانية، ولم يبدأ المسلمون في بناء قصورهم الخاصة إلا في عصر بني أمية، وهو العصر الذي شهد ولادة الفن الإسلامي المعماري في الأندلس، الذي جاء مصاحباً لمظاهر الترف والهالة التي أحاط الأمراء الأمويون فيها أنفسهم. ولقد بدأت الحركة العمرانية في عهد عبدالرحمن الداخل، ونشطت وتوسعت في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر، الذي شهد ازدهاراً رفيعاً، كما شهدت الأندلس حركة معمارية نشيطة في عهد المستنصر والمنصور ابن أبي عامر.

وعلى الرغم من كثرة القصور والمنشآت العمرانية التي بناها أمراء بني أمية وخلفائهم، فلم يبق منها إلا آثار قصور مدينة الزهراء. ويرجع السبب في هدم القصور وإزالة آثارها إلى عوامل متعددة يرجح د. السيد سالم العامل الديني، لأن الإسلامي يستهجن إضفاء معنى الأزلية على البناء، كما يرى. ولأن (متاع الدنيا قلل والآخرة خير لمن أتقى وهي دار القرار ومكان الجزاء)[1].

كما أن فقهاء المسلمين كانوا لا يوافقون الخلفاء على ما يذهبون إليه من المبالغة في الإعمار والفخامة والبهرجة[2]. ويقال أن القاضي منذر بن سعيد قد نبّه الخليفة

(1) المقري، نفح الطيب ج 2، ص 106.

(2) ولكنهم في الواقع لا يمتلكون أية سلطة على ردع هؤلاء الخلفاء في العبث بالأموال العامة سوى إسداء النصيحة في غير محلها، إذ أن بناء الجوامع والشواهد العمرانية هي خير من نفقات خلفاء المسلمين على الجواري والليالي الحمراء ومظاهر الأبهة التي لا تتفق مع وجود طبقة دنيا في المجتمع تعيش على الصدقات !!

عبدالرحمن الناصر بعد أن فرغ من بناء مدينة الزهراء وما صرفه عليها من مال وجهد، حتى أنه عطّل صلاة الجمعة في المسجد ثلاث مرات متالية. وحذره من الانصراف إلى أمور الدنيا، وحثّه على اعتزالها، وخوّفه من الموت ودعاه إلى الزهد، حتى أبكى الخليفة. وتغنى الشعراء في ما أشاده الناصر من قصور فقال أبو عثمان بن إدريس:

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن مضيعاً وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فأجابه القاضي منذر بن سعيد مُذكراً الخليفة بعواقب التشدق بالدنيا وآثارها الزائلة قائلاً:

يا باني الزهراء مستغرقاً أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تذبل

واهتم المنصور بن أبي عامر ببناء القصور، فأسس مدينة الزاهرة ذات القصور الشامخة مثل منية السرور والعامرية، ولكنها لم تعمّر طويلاً بعد أن طالها السلب والنهب وعمّها الخراب وقيل أن مسروقات هذه القصور قد بُيعت في بغداد وغيرها من البلاد الشرقية. (ويذكر ابن بسام: أن قصور بني أمية الرفيعة تهدمت على يد رجل يدعى ابن باشة، فقد باع آلات هذه القصور من المرمر والعمد الرخامية والأخشاب والنحاس والحديد والرصاص)[1].

ومن المفيد أن نذكر أن مدينة الزهراء قد ظلت قروناً مطمورة في جوف الأرض، حتى جاء الآثاريون الإسبان واكتشفوها ثانية. فما هي قصة هذه المدينة؟

لقد كان الخليفة عبدالرحمن الناصر مولعاً ببناء القصور الفارهة على نحو ما رأينا، فأراد أن يؤسس مدينة تليق بخلافته، فبنى مدينة الزهراء على بُعد خمسة أميال إلى الشمال الغربي من قرطبة، ويبدو أن خيال المؤرخين كان حاضراً في قصة بناء

(1) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الثاني، ص 111-112.

المدينة فيذكر المقري (أن الناصر ماتت له سرية، وتركت مالاً كثيراً، فامر أن يفك بذلك أسرى المسلمين، وطلب من بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد، فشكر الله تعالى على ذلك، فقالت له جاريته الزهراء: اشتهيت لو بنيت لي به مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمال قرطبة، وبينها وبين قرطبة ثلاثة أميال أو نحو ذلك)[1]. ويرى د. سالم، أن اسم المدينة الزهراء سمّي نسبة للقصور الزاهرة التي أسسها الخليفة في هذه المدينة أو بسبب غرسه على جبل قرطبة الذي تقع المدينة على سفحه، تيناً ولوزاً، وتفتح الأشجار زمان الأزهار[2]. وهذا تعليل فيه بعض الغرابة.

ولقد بدأ العمل في المدينة الزاهرة في محرم 325هـ / 936م. إذ جلب الناصر إليها عبدالله بن يونس كبير البنائين، وحسن القرطبي، وعلي بن جعفر الإسكندراني، وجاء بالرخام الأبيض من المرية، والرخام المجزع من رية، والرخام الوردي والأخضر من أفريقيا. بهذه المواد أسس قصره الخلافي، وقيل أن من كان يعمل في بناء المدينة كل يوم عشرة آلاف رجل وألف وخمسمائة دابة. إذ تقول المصادر التاريخية أنه (ولما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنه لم يبن مثله في الإسلام البتة، وما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد والنحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد وتاجر وجهبذ، وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة، إلا وكلّهم قطع أنه لم يرَ له شبهاً، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله، حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس في تلك العصور النظر إليه، والتحدث عنه)[3].

كما بنى الناصر مسجداً لمدينته يتكون من خمسة أروقة، كان الأوسط أكثرها اتساعاً، وكان صحن المسجد مفروشاً بالرخام الخمري اللون، تتوسطه نافورة، وكان ارتفاع المئذنة أربعين ذراعاً وهي تشبه مئذنة الأمير هشام بجامع قرطبة، أما منبر الجامع

---

(1) نفح الطيب، ج 2، ص 65.

(2) السيد سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم.

(3) المقري، نفح، ج 2، ص 101.

فقد جاء في منتهى الجمال، وأقيمت حوله مقصورة من الخشب[1]. كما أقام الناصر حدائق للحيوانات ومسارح للطيور مظللة بالشباك. كما أقام في مدينة الزهراء دوراً لصناعة الآلات الحربية والحلي للزينة وغيرها من المهن.

وتوفي الناصر ولم يكمل بناء المدينة، واستمر العمل في البناء في عهد الخليفة الحكم المستنصر فأتمّ بناء المدينة سنة 365 هـ ولكن هذه المدينة لم تنعم طويلاً بالحياة، إذ أن سقوط الخلافة في قرطبة، قد جعلها أثراً منسياً وفيها يقول الشاعر السيسر:

وقفت بالزهراء مستعبراً　　معتبراً أندب اشتاتا

فقلت: يا زهراء الا فارجعي　　قالت: وهل يرجع من ماتا

فلم ازل ابكي وابكي بها　　هيهات يُغني الدمع هيهاتا

ولقد انتبهت الحكومة الإسبانية في أوائل القرن العشرين إلى أهمية هذه المدينة التاريخية بعد أن ظلت لفترة طويلة محجراً لاستخراج الأحجار والرخام ومواد البناء. وقامت بحملات استكشافية أثرية أدت إلى اكتشاف قصر الحكم المستنصر، كما تم العثور على آثار قصر الناصر سنة 1943.

2- الأسوار والحصون والقلاع

لقد كان اهتمام الأمويون بتسوير المدن واضحاً، فاجتهدوا في إقامة الأسوار والحصون في كافة المدن. وأول هذه المدن هي قرطبة التي تهدمت أجزاء متعددة من أسوارها إبان الفتوحات الإسلامية، وخاصة سورها القبلي والغربي. فأصبحت مدينة مفتوحة حتى تمكن الأمير عبدالرحمن الداخل سنة 150 هـ من ترميم سورها الغربي وبناء سور قرطبة[2]، وما زالت بقايا سور الأمير الداخل قائمة ابتداءً من المستشفى العسكري في قرطبة. وظل سور قرطبة الروماني موضع رعاية الأمراء والخلفاء، حتى

---

(1) نفس المصدر، ص 100.

(2) المقري، نفح، ج 1، ص 313.

بعد أن اتسعت قرطبة، ولقد سبق الحديث عن هذا الموضوع في دراستنا عن قرطبة وعمرانها. كما أن أسوار إشبيلية هي الأخرى تضررت بعد نمو العمران والتوسع فيها، وقد استغل هذا النورمانديون عندما هاجموا إشبيلية غير المسوّرة جيداً فدخولها دون أن تعترضهم الأسوار واستباحوها سبعة أيام. فقام الأمير عبدالرحمن الثاني بتحصين إشبيلية، فأسس سورها بالحجارة، ثم تهدم هذا السور ثانية بأمر الخليفة عبدالرحمن الناصر سنة 301هـ / 913م على يدي ابن السليم.

كذلك أسس عبدالرحمن الداخل حصن المدوّر بالقرب من قرطبة والباقية آثاره لحد الآن. كما اهتم عبدالرحمن الناصر بتحصين المدن الساحلية تحسباً للخطر الفاطمي. فأسس مدينة المرية، وأحاطها بأسوار منيعة، كما أنشأ برجاً بقلعة طريف سنة 349هـ / 960م، وما زالت هذه القلعة تحتفظ بشكلها لحد الآن. وشهد عصر المستنصر إقامة عدداً من الأبراج والحصون في مناطق الأندلس المختلفة جنوباً وشمالاً. على المرتفعات المطلة على الطرق الموصلة بين المدن، ولقد بقي من عصر الحكم حصن يدعى عقبة البقر، في الطريق الموصل بين قرطبة وفحص البلوط، كما أقام قواد الحكم المستنصر، غالب ويحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون حصن غرماج سنة 354هـ / 965م وكان هذا الحصن (مفتاحاً دفاعياً حقيقياً للخط الاستراتيجي الدفاعي بين أوسما وبرلانجا، وما زال يقف اليوم مرتفعاً إلى عنان السماء كما لو كان حارساً لا يغفل.. ممتداً على مسافة تبلغ نحو كيلومتر واحد، والحصن مزود بنقش كتابي يؤكد الحقائق التاريخية)[1].

3- القناطر والجسور

لقد كانت القناطر موضع اهتمام أمراء بني أمية وكذلك الجسور. وأهم القناطر الباقية، قنطرة قرطبة التي تصل بين مدينة قرطبة وضاحية شقندة، وهي من بناء الإمبراطور أغسطس، وقد وجدها المسلمون مهدمة عند الفتح، ولم يبق منها سوى

---

(1) حاشية رقم 3، د. السيد سالم، تاريخ المسلمين، ص 414.

دعائمها الراكبة في النهر[1]. فجددها السمح بن مالك الخولاني مستخدماً أحجار السور المتهدم 101هـ. ثم تعرضت القنطرة سنة 161 هـ لسيل جارف سدّ حناياها وهدم بعضها وزلزلها [2]، فأعاد ترميمها الأمير هشام وبعدها تعرضت القنطرة إلى أكثر من سيل حتى تثلمت سنة 331 هـ في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر الذي قام بإصلاحها. كما عمل المنصور العامري على تخفيف الضغط عن قنطرة قرطبة، عندما أمر ببناء قنطرة أخرى على نهر قرطبة سنة 378 هـ وأكمل بناؤها سنة 379 هـ.

وأما قنطرة طليطلة فقد كانت تربط بين المدينة وبين ضاحيتها الواقعة على الضفة المقابلة للمدينة من نهر تاجة، وكانت تتألف من قوس واحد تضمه فرجتان من كل جانب، وطولها ثلثمائة باع وعرضها ثمانون باعاً [3]. وقد أمر الأمير محمد بهدم هذه القنطرة سنة 244 هـ انتقاماً من أهلها الذين ثاروا عليه، وظلت على حالها حتى أعاد بناءها خلف بن محمد العامري حاكم طليطلة بأمر من المنصور العامري سنة 387هـ / 957م. ثم هُدمت بعد سقوط طليطلة بيد القشتاليين. وفي بناء الجسور عمل الأمويون على تقليد الرومان في تشيدها، والتي كانت تحمل المياه من الجبال في أنابيب دقيقة إلى المدن. وقام عبدالرحمن الناصر سنة 329هـ (ببنيان القناة الغريبة الصنعة التي أجراها وأجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة في المناصر المهندسة، وعلى الحنايا المعقودة، يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة، عليها أسد عظيم الصور بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صوّر الملوك في غابر الدهر، مطلي بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد، فيمجه في تلك البركة من فيه، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره.. فتسقى من حجاجه جنان هذا القصر على سعتها، ويستفيض على ساحاته وجنباته... فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها من أعظم آثار الملوك في

(1) المقري، ج 3، ص 26.

(2) ابن عذارى، ج 2، ص 83.

(3) المقري، ج 1، ص 153.

غابر الدهر، لُبعد مسافتها، واختلاف مسالكها، وفخامة بنيانها، وسمو أبراجها التي يترقى الماء منها ويتصوب من أعاليها)[1] ولم يبق من هذه الجسور أية آثار مادية تذكر.

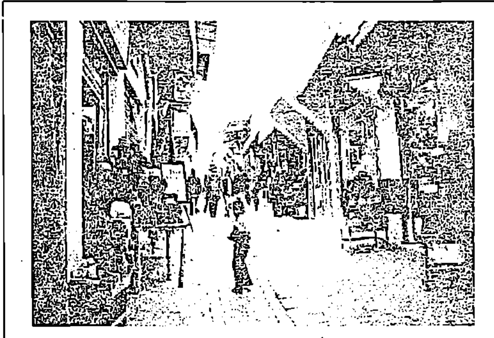
4- الحمامات

لم يبق من حمامات قرطبة سوى آثار حامين أحدهما يقع في شارع الحمام والآخر في شارع لاسي كوميدياس بجوار الجامع، وهذا الحمام الأخير ما زال يحتفظ بقاعته الوسطى، وبها عقود مفرطحة وأخرى متجاورة على شكل حدوة حصان تحملها عشرة أعمدة، تيجانها من نوع التيجان الخلافية. وكانت تعلو هذه العقود قبوة لم يبق منها أي أثر الآن. إذ تحولت هذه القاعة إلى صحن مكشوف للهواء، بينما احتفظت الغرف المجاورة بقبواتها، ولهذا الحمام غرفة تعلوها قبوة كانت تتخللها مضاوي لنفاذ الضوء، سدّت جميعها الآن. كذلك تبقّى من طليطلة حامان يرجعان إلى عصر الخلافة.



(1) المقري، ج 2، ص 100-101.

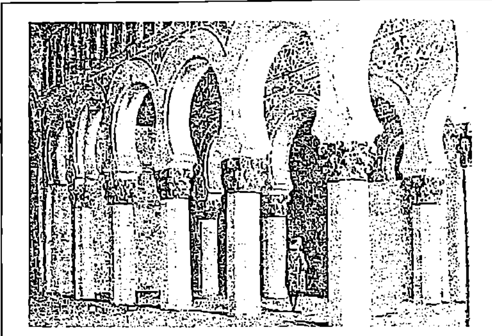

صور وخرائط



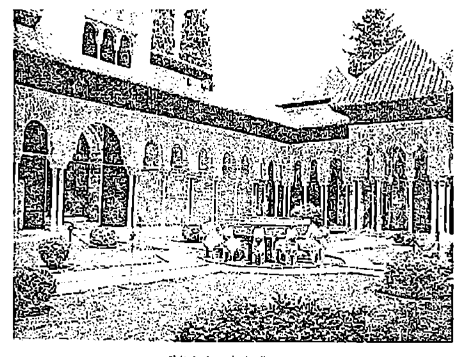
سوق الشواشين (الطرابيش) التي اشتهر الأندلسيون بصنعتها بعد وصولهم إلى تونس مفرّين من إسبانيا بعد عام 1609



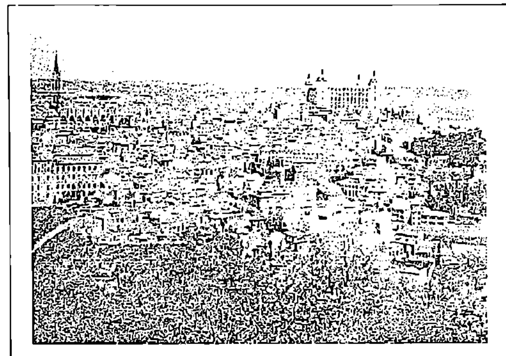
يظهر في الصورة التأثير الأندلسي في تونس وهي لمدينة سيدي بوسعيد السياحية من العاصمة تونس



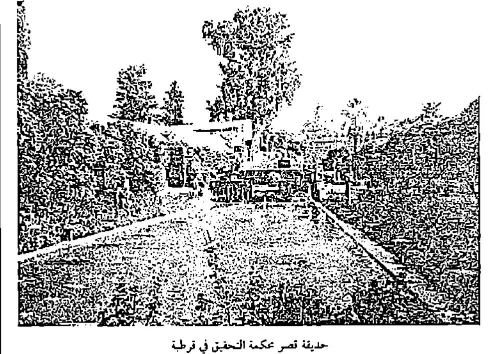
لوحة داخل كنيس في طليطلة رسمها الفنان هاينريش هنـن



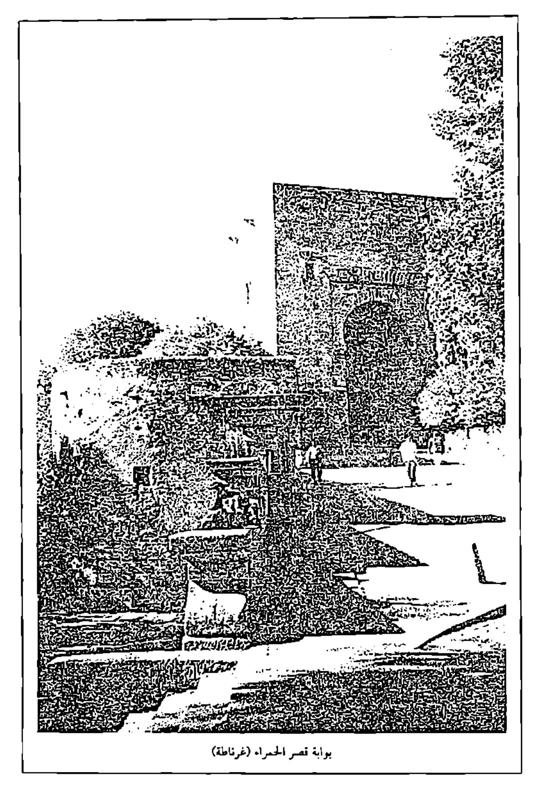
صحن السباع في حمراء غرناطة



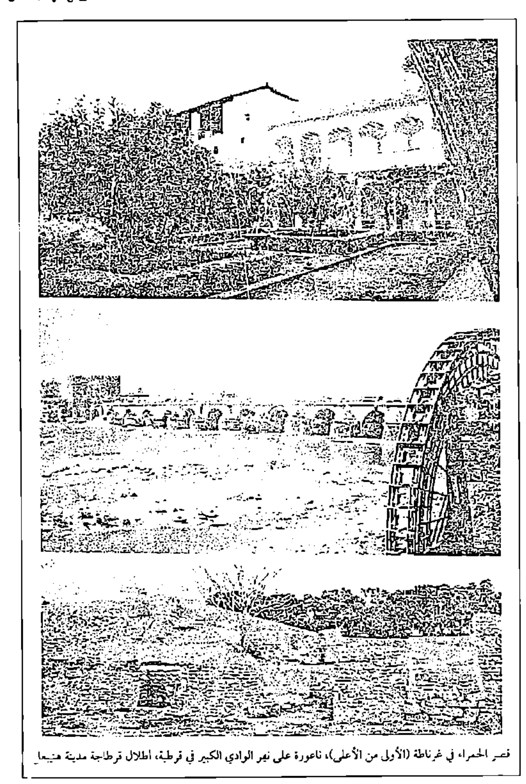
منظر عام لمدينة طليطلة



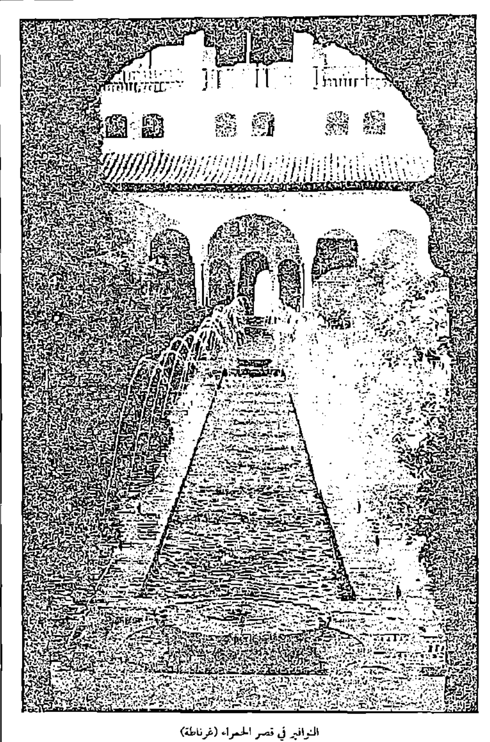
حديقة قصر محكمة التحقيق في قرطبة



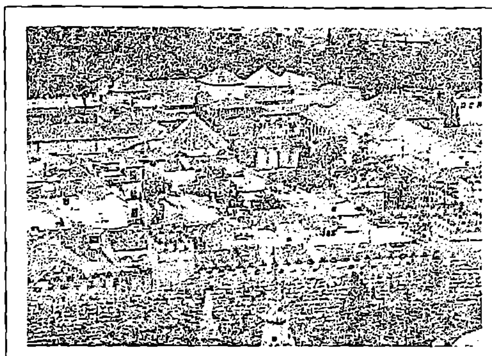
بوابة قصر الحمراء (غرناطة)



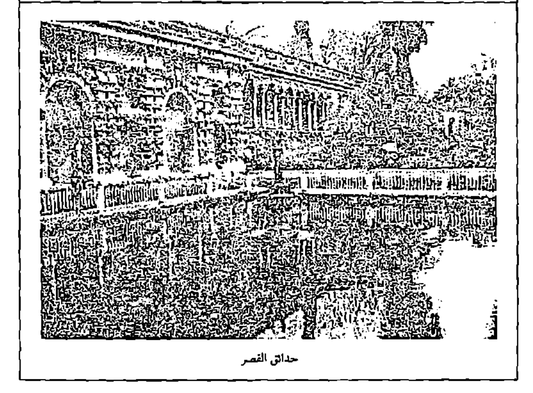
قصر الحمراء في غرناطة (الأولى من الأعلى)، ناعورة على نهر الوادي الكبير في قرطبة، أطلال قرطاجة مدينة هنيعا



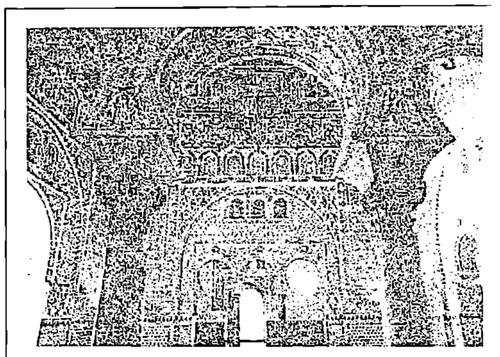
النوافير في قصر الحمراء (غرناطة)



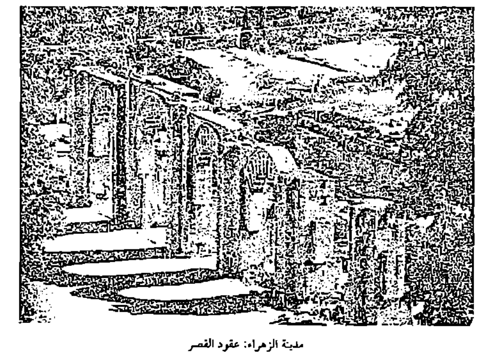
القصر: صورة من منارة الخيرالدا



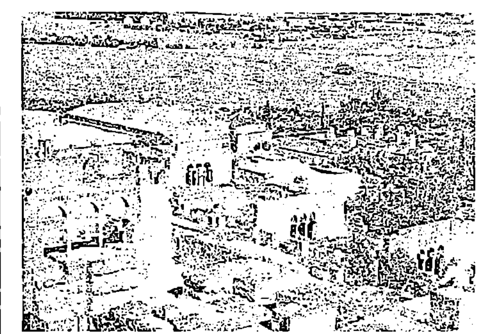
حدائق القصر



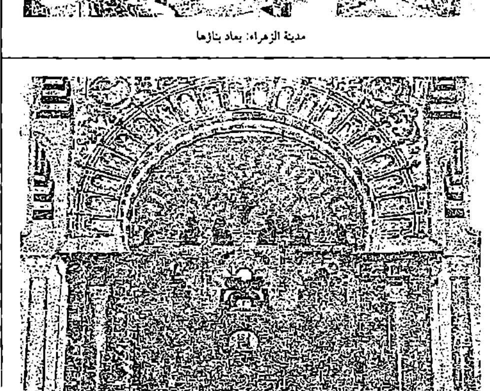
قاعة السفراء – القصر – إشبيلية

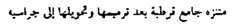


مدينة الزهراء: عقود القصر

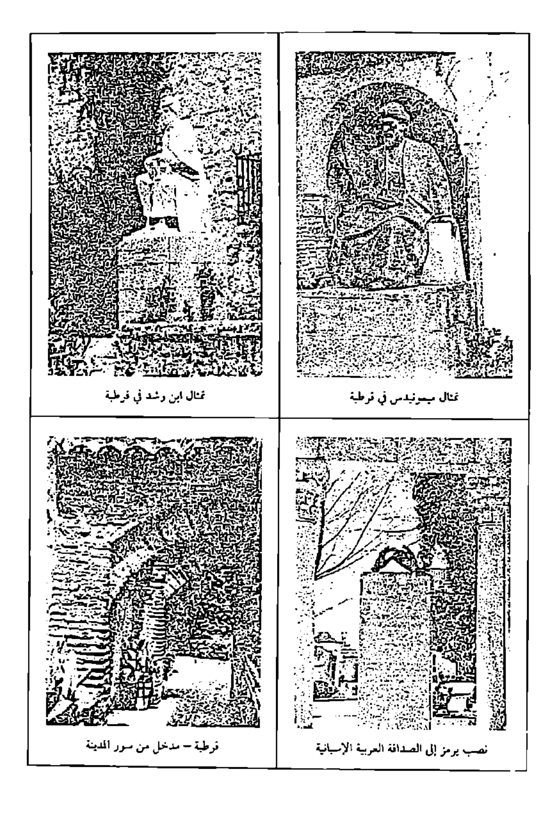


مدينة الزهراء: بعاد بناؤها





متنزه جامع قرطبة بعد ترميمها وتحويلها إلى جراب

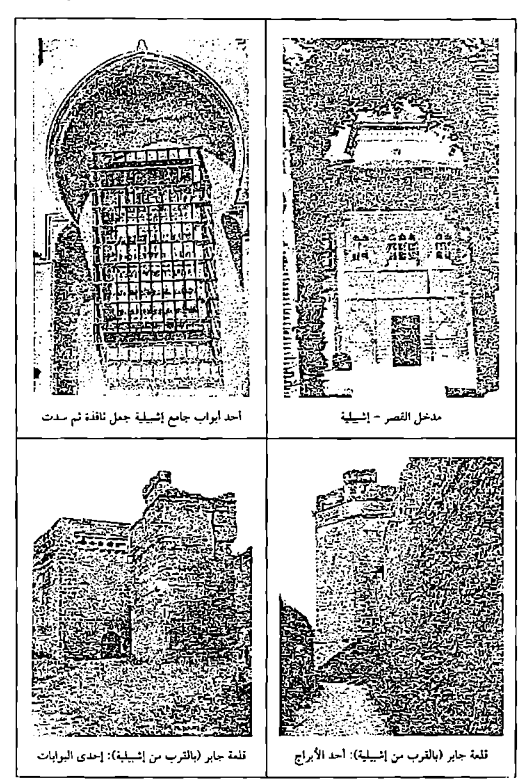


تمثال ميمونيدس في قرطبة

تمثال ابن رشد في قرطبة

نصب يرمز إلى الصداقة العربية الإسبانية

قرطبة – مدخل من سور المدينة

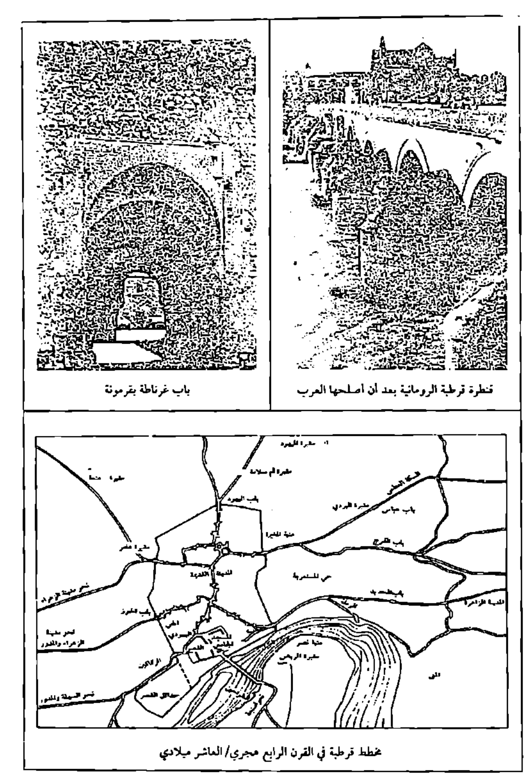


مدخل القصر - إشبيلية

أحد أبواب جامع إشبيلية جعل نافذة ثم سدت

قلعة جابر (بالقرب من إشبيلية): أحد الأبراج

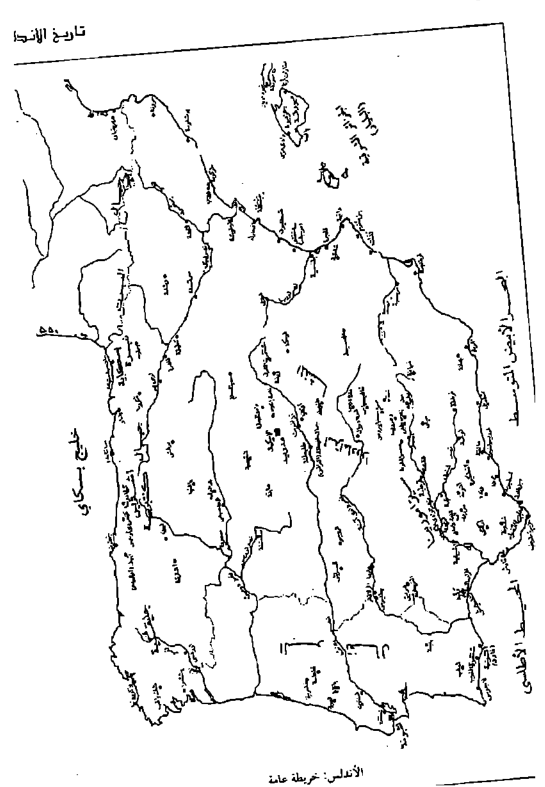
قلعة جابر (بالقرب من إشبيلية): إحدى البوابات



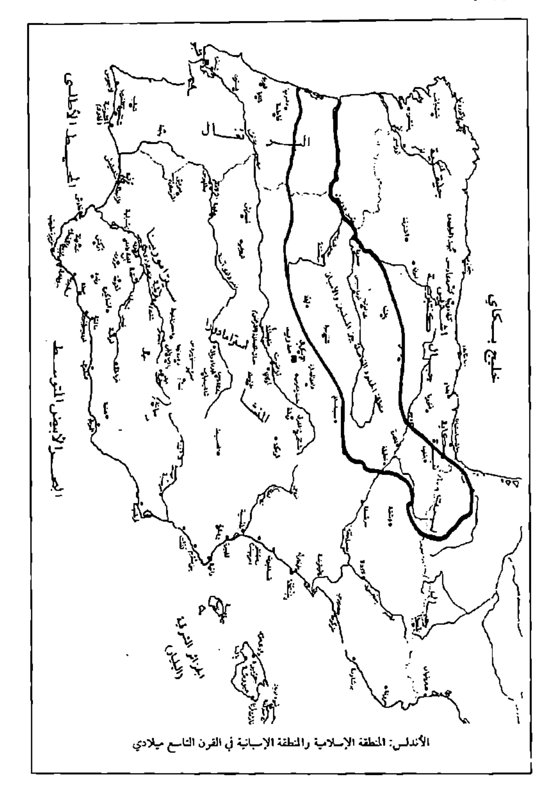
قنطرة قرطبة الرومانية بعد أن أصلحها العرب

باب غرناطة بقرمونة

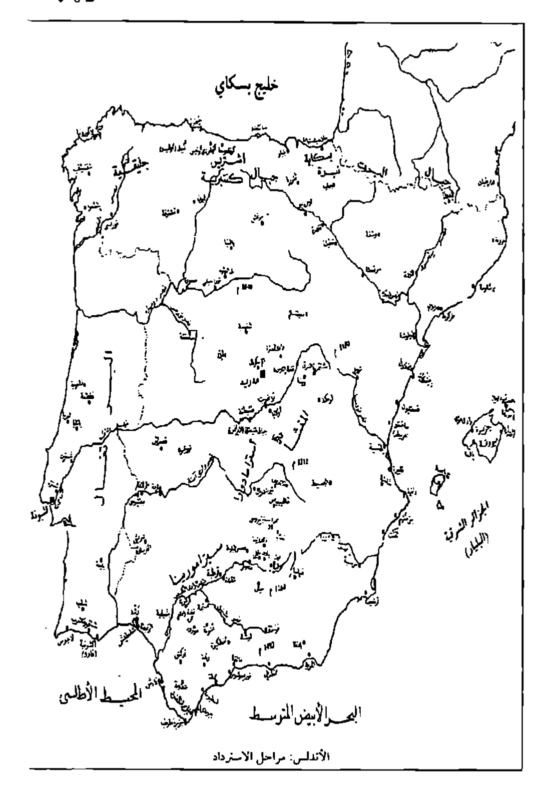
مخطط قرطبة في القرن الرابع هجري/ العاشر ميلادي



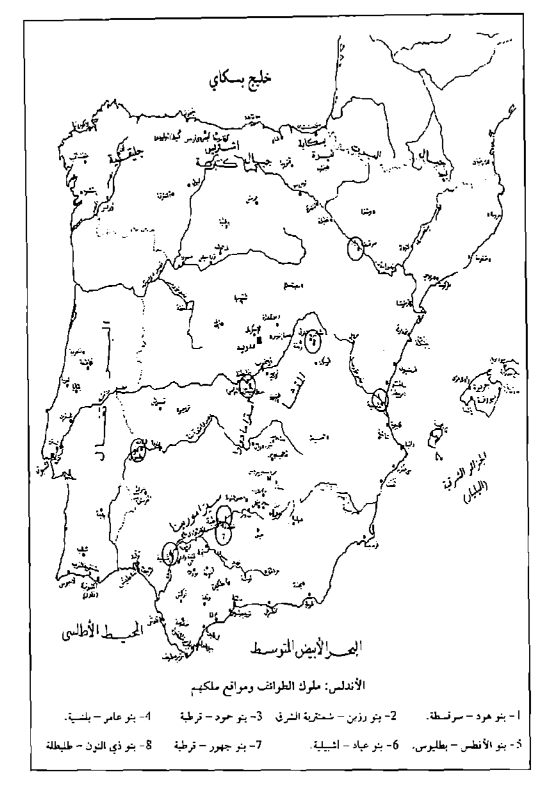
الأندلس: خريطة عامة



الأندلس: المنطقة الإسلامية والمنطقة الإسبانية في القرن التاسع ميلادي



الأندلس: مراحل الاسترداد



الأندلس: ملوك الطوائف ومواقع ملكهم

1- بنو هود – سرقسطة. 2- بنو رزين – شنتمرية الشرق 3- بنو حمود – قرطبة 4- بنو عامر – بلنسية.

5- بنو الأفطس – بطليوس. 6- بنو عباد – اشبيلية. 7- بنو جهور – قرطبة 8- بنو ذي النون – طليطلة

مصادر الكتاب

أولاً: المصادر العربية القديمة

1. ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم)، كتاب الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، 1978.
2. ابن الخطيب (لسان الدين): كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. نشره ليفي بروفنسال، 1956.
3. ابن القوطية القرطبي (أبو بكر بن محمد)، تاريخ افتتاح الأندلس متبوعاً بقصة فتح الأندلس لابن قتيبة وأخبار الفتح من الرسالة الشريفية، بيروت، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1994، تحقيق د. عبدالله أنيس الطباع.
4. ابن بسام (أبو الحسن علي الشنتريني)، كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القاهرة، 1945.
5. ابن حيان (أبو مروان بن خلف)، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، بيروت، دار الثقافة.
6. ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد)، المقدمة، المكتبة التجارية بمصر.
7. ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1960.
8. ابن عبدالحكم (عبدالرحمن)، فتوح إفريقية والأندلس، الجزائر، 1947.
9. ابن عذارى المراكشي (أبو عبدالله محمد)، كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشره ليفي بروفنسال وكولان، بيروت، 1950.
10. ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم)، الإمامة والسياسة.
11. الإدريسي (الشريف)، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشره دوزي، 1866.
12. البكري (أبو عبيدة بن عبدالعزيز)، كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبدالرحمن الحجي، بيروت، دار الإرشاد، 1968.

13. البكري، كتاب المغرب في بلاد إفريقية والمغرب، نشره دي سلان، الجزائر، 1911.
14. الحميري (ابو عبدالله محمد بن عبدالمنعم الحميري)، الروض المعطار في خبر الأقطار، ترجمة ليفي بروفنسال، القاهرة، 1937.
15. مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس.
16. المسعودي (أبو الحسن علي)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت، 1983.
17. المقري (أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، 10 أجزاء، القاهرة، 1949.
18. ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله)، معجم البلدان، بيروت، 1960.

ثانياً: المصادر العربية المعاصرة

1. أرسلان (شكيب)، خلاصة تاريخ الأندلس، بيروت، مكتبة الحياة، 1983.
2. أرسلان (الأمير شكيب)، تاريخ غزوات العرب، مصر، 1933.
3. أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، 3 أجزاء، المغرب،
4. د. أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة، الإسكندرية، 1997.
5. أحمد العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1999.
6. د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلس، عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، 1960.
7. د. إبراهيم بيضون، الدولة الأموية والمعارضة، بيروت، 1980.
8. إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، بيروت، 1980.
9. د. إبراهيم طرخان، دولة القوط الغربيين، القاهرة، 1958.
10. إبراهيم طرخان، المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى، القاهرة، 1966.

11. أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، 1997.
12. د. السيد عبدالعزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 1997.
13. السيد سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000.
14. السيد سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1998.
15. السيد سالم، تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1998.
16. عبدالحميد العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، القاهرة، 1958.
17. د. عصام الدين الفقي، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1990.
18. د. عبدالرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، دار القلم، دمشق، 1987، ط3.
19. عمر فروخ، العرب والإسلام في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، القاهرة، 1964.
20. عادل بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000.
21. عاشور سعيد عبدالفتاح، أوروبا في العصور الوسطى، جزآن، القاهرة، 1961.
22. د. عنان محمد عبدالله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، القاهرة، 1966.
23. د. عنّان، محمد عبدالله، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، 1969.
24. عنان، محمد عبدالله، دولة الطوائف، القاهرة، 1399هـ.
25. د. عبدالعزيز العتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1976.
26. مؤنس، د. حسين، فجر الأندلس، القاهرة، 1959.
27. مؤنس، فتح العرب للمغرب، القاهرة، 1947.

28. مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، دار المستقبل العربي، 1980.
29. مؤنس، رحلة الأندلس، القاهرة، 1963.
30. د. محمد حتاملة، ملامح حضارية في الأندلس، عمان، 1999.
31. محمد حتاملة، الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، مطابع الدستور التجارية، عمان، 2000.
32. د. محمد عبدالمنعم الشرقاوي، د. محمد محمود الصياد، ملامح المغرب العربي، الإسكندرية، 1959.
33. محمد رضوان الداية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، مؤسسة الرسالة، 1981.
34. محمد محي الدين المشرفي، إفريقيا الشمالية، الرابط، 1950.
35. د. محمد صالح أبو دياك، الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الكيالي، إربد، 1988.
36. محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الجيل، بيروت، 1997.
37. د. خالد الصوفي، تاريخ العرب في إسبانيا، عصر المنصور الأندلسي، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1975.
38. د. خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، عصر الإمارة، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، 1971.
39. خالد محمد القاسمي، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، دار الثقافة، الشارقة، 1998.
40. خليل إبراهيم السامرائي، طه عبدالواحد دنوت، ناطق صالح مطلوب، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2000.
41. كمال أبو مصطفى السيد، دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 1997.
42. كمال أبو مصطفى السيد، بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993.

43. فارس بوز، تاريخ العرب في الأندلس، جامعة دمشق، دمشق، 1994-1995.

ثالثاً: المصادر المُترجمة

1. ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة د. السيد عبدالعزيز سالم، محمد صلاح الدين حلمي، القاهرة، 1958.
2. ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة نوفان خرطوط، بيروت، 1965.
3. رينهرت، دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، ترجمة د. حسن جشي، القاهرة.
4. رينهرت دوزي، المسلمون في الأندلس، ج 2، ترجمة د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994.
5. رينو، جوزيف، تاريخ غزوات العرب، ترجمة شكيب أرسلان، القاهرة، 135 هـ.
6. جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعتر، القاهرة، 1364 هـ.
7. مونتغمري وات، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة د. محمد المصري.

تاريخ الأندلس

من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة





للنشر والتوزيع E-mail alahlia@nets.jo

